جامعة الأزهر

حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة

يحررها نخبة من أساتذة الكلية

يشرف على تحريرها

أ. د. علي البدري
عميد الكلية ورئيس قسم البلاغة والنقد

أ. د. عزيز نافع
وكيل الكلية

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وإهداء

بقلم الاستاذ الدكتـــور
عبد السلام عبد الحفيظ عبد العـــــال
عميد كلية اللغة العربية بأسيوط

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد خير من نطق بالضـاد ، وأبلغ من عبّر فأجـــاد ، وعلي آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته . آمين .

أما بعد .. فهذا هو العدد السادس من مجلة كليـة اللغـــة العربية بأسيوط ، يحمل في طياته الكلمة المعبرة ، والفكـــر الجيـد والقضية التي تستحق النظر والتأمل ، وذلك في مناحـــي التفكير المختلفة .

وهذا عمل يستوجب منا الشكر لله – تعالي – علي ماسبق مـــن أعداد ، وندعوه توفيقا لدوام هذا العمل واستمرار دوره ونفعه .

كما أنه لايفوتنا التنويه بجهد الأساتذه الأفاضل الذين أخـــذوا علي عاتقهم عناء البحث وجهد الكتابة وتوصيل المعاني إلي القـــارئ الكريم في صورة جيدة وتعبير رائق .

وهذا العمل من أوله لأخره مقصود به القارئ المترقب والمتأمـــل الواعي حتي تشيع الثقافه وتنتشر ، فيترتب علي ذلك وعي بالعلـــوم

وتجديد لشبابها في نفوس المتلقين والقارئين .

وفي النهاية : أدعو الله - تعالي - للعربية : سمواً ورفعـــة علي أيدي محبيها ودارسيها ، ولطلابها التوفيق وحسن التلقي .

ا.د / عبد السلام عبد الحفيـــظ

عميد الكليـــه

الحكمة في شعر المتنبي

أ . د عبد الإله محمود حسن

المتنبي :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ...

أوشكت أن استرسل فيما دأب الكتاب علي التعرض له، حينما يشرعون في التصدي لموضوع يرتبط بالمنشئ ، ولكن سريعا ما أحجمت ، فقد أدركت أنني لا أستطيع أن أضيف جديدا علي اسمه ولقبه وأسرته والبيئة التي نشأ فيها والعوامل التي كونت شخصيته وشاعريته ، فكل ذلك تصدى له الكاتبون : قديما وحديثا ولم يتركوا فيه زيادة لمستزيد ، بل إن الشهرة والذيوع اللذين نالهما المتنبي جعلته غير مجهول عند العامة ، والإبهار الذي خلفه نتاجه الفني حمل الخاصة على التنقيب والبحث وراء كل خفي متوار وقدموه في وضح النهار ، فأصبح المتنبي علما فذا يعيش في ضوء المعرفة وإن اختلفت العصور والبيئات فهو منذ ظهوره شغل الناس بأمره ، كثر حاسدوه ، وكثر أيضا المتعاطفون معه ، وعاش هو لاهيا عن هؤلاء وأولئك ، حيث قال :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم(١)

فهو في شغل عنهم جميعا بالهدف الذي رصده لنفسه ، والإربة التي يريد بلوغها ، فقد كان منذ نشأته الأولي بعيد الآمال ، كبير المطامع ، وقد وجد الدولة العباسية نهبا مقسما ، فاجتذب إليه

(١) الديوان المجلد الثاني / ١٢٠٠

كثيرا من سكان بادية السماوة - التي قضى فيها حينا غير قصير جذب هؤلاء بسحر بيانه وقوة عارضته ، ودعاهم الي مبايعته علي حداثته وغضاضه عوده ، وقد وصل الخبر إلي والي حمص فسجنه وقيده ، ويجب التنوية إلي أن أهل هذا العصر قويت الأثرة فيهم وامحي الإيثار عندهم وتسلطت عليهم الأنانية الفردية ، فجعلت كل واحد فيهم إذا آنس من نفسه القدرة علي بلوغ الأرب الذي صاغ له في خياله قصورا من الآمال باذخات الذرى ، فإنه حينئذ يخدع مَن معه أو ينخدع بهم حين يجدهم قد التفوا حوله وأحس منهم الانصياع ، واستكمل بهم القوة ، فينطح بهم صخرة السلطة لعله يوهنها وإن كان في الأغلب الأعم يتحطم هو ويتفرق من حوله بددا .

فهذه الجماعات التي ثارت مع (بابك الخرمي) أو مع صاحب الزنج أو مع دعاة القرامطة تكشف لنا ما نحن بإزائه من اضطراب العصر وضعف القائمين عليه من الحكام والإغراءات التي تدفع الطامعين إلي ارتياد طريق التمرد والثورة لعلهم يحققون من وراء ذلك مغنما ، ولعل ذلك كان الحافز الأكبر الذي دفع المتنبي دفعا ملحا نحو أمل خئون أراده أن يتحقق ، فلم يجن منه سوى السجن والعذاب ، وله العذر فيما فعل ، فعلى مقربة منه ، ملك عظيم ينقض ، وسلطان هائل ينهار ، وقوم يتهالكون علي فتات ذلك الملك وأنقاض هذا السلطان ، فإذا ولد في هذه البيئة صبي ذكي القلب مرهف الحس ، رقيق المزاج ، حاد الشعور ، ملتهب العاطفة ، قوي

الخيال ، كان من الطبيعي أن يسير السيرة التي تكون منه هـذا الشخص الذي يعرف بالمتنبي [١] وأن يكون له طموح لا يقل عن طموح أنداده أو الذين سمع عنهم وبهرته فعالهم فهو لايقل عنهم ذكاء ولا شجاعة ولا قوة أسر ـ فهو القائل يخاطب نفسه :

إلي أي حين أنت في زيّ محرم وحتي متي في شقوة وإلي كم ؟
وإلا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاسِ الذل غير مكرم [٢]
فثب واثقا بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

إنه يريد أن ينضو عنه زي الإحرام الذي يفرض عليه حياة السلامة والدعة ، ولعلك تلاحظ الضيق والتبرم الذي لحقه من جراء هذا الثوب الذي يتلفع به والذي أوشك أن يخنقه ، ويحاول أن يمزقه في عصبية بادية وثورة غير مقنعة ، فهو لا يريد أن يعيش خاملا مع الخاملين أو نكرة تافهة وسط النكرات التي تعج بها الحياة من حوله ، ولذلك استطال الزمان الذي أقعده عن مراده ، وحال دون بلوغه إربته ، حتي برم بواقعه وتمرد عليه ، فتتوالي عنده الاستفهامات القلقة التي تكشف عن كم هائل من التعاسة والرفض لهذا الواقع الشقي : إلي أي حين ؟ وحتي متي ؟ فهو يستحث الزمن ويتملص منه ، ويدفع نفسه دفعا إلي المخاطرة للتخلص مما هو فيه ، إنه يغريها بالمغامرة ، ويحبب إليها الموت حتي تقتحمه بلا وجل ، الموت تحت السيوف أكرم للإنسان وأفضل من أن يموت حتف أنفه مستسلما للذل والمهانة ، فالموت نهاية محتومة لكل كائن حي ، ولكن فرق بين من خنع للذل ومات موصوما بهذا العار ، ومن حارب مدافعا عن

(١) د/ طه حسين ـ مع المتنبي صـ ٣٢ ـ ٣٣
(٢) الديوان ، المجلد الأول / ١٠٠

كرامته وعزته فمات تحت السيوف ، وفي ساحة الوغي ، وهو كلام علي إطلاقه يستحث الهمم ويحيي موات الأنفة والكبرياء ، فكان سريع الإقناع له وهو ، ولن يهمه من عداه ، لذلك جاء بيته الأخير دليل الثقة والاطمئنان إلي ما أحدثه تحريضه من أثر ،فيطلب من شخصه الثورة ، والوثوب علي السلطة واثقا بالله ، أنه ناصره مادام يستعذب الموت ويجده أحلي من الشهد في فمه ..

فالمتنبي كما تحدثنا هذه الأبيات شجاع مقدام ، صاحب هدف يريد تحقيقه ولو مات في سبيل الوصول ، ويقول د/ طه حسين تعليقا علي البيت الأخير : (فهو لايريد بهذا الوثوب إلاالخروج علي السلطان ، وشق عصا الطاعة ، والمخالفة عما يأمر به النظام والعرف (١) وانتهي به الأمر إلي السجن الذي كان له أكبر الأثر في هدهدة غلواء هذا الشاعر وتهافته علي الجاه والسلطة حتي أوشك هذا الحماس أن يورده موارد العطب ، فقد كان شديد الإحساس بذاته ، دائم الإثبات لها ، رافضا لكل ما عداها ،رافضا للدين والسلطان ، لا يري سوي الطريق المفضي به إلي الهدف حتي لو حف بالمكاره والأخطار ،؛ لذلك كان السجن نعمة عليه ، فقد أتاح له فرصة المراجعة والعدول عن وهم سيطر عليه وأغراه بما لاحق له فيه ، ففكر وتدبر وأنكر واستقبل أمره في أناة واطمئنان ومن ثم اعتذر لحاكم حمص ، وألح لكي ينال العفو في قصائد نختار منها هذه الأبيات :-

بيدي أيها الأمير الأريـــب   لا لشيء إلا لأني غريـــــــب

أو لأم لهـا إذا ذكرتنـــي   دم قلب بدمـع عيـن يـــذوب

إن أكن قبل أن رأيتك أخطأ ت   فإني علي يديـك أتــــوب

عائب عابني لديك ومنــه   خُلقت في ذوي العيوب العيـــوبُ (١)

فهو نادم تائب. يستعطف الأمير بذلة لعله ينال منه العفـــو والغفران ، ويعرض عليه في استكانة وخنوع ما آل إليه حاله ، مـن غربة منقطعة أوشكت أن تعرضه للبوار والتلف بعيدا عن الأهـل والصحبة ، مما جعله ضعيفـا مقهورا لا يملك من أمر نفسه شيئا فمن أجل ذلك وبدافع الإشفاق علي جَدّته تلك العجوز التي إن ذكرتـه وأدركت ما هو فيه من قيد وتضييق لتصدع الصبر ، وتفجر الدم مـن قلب واهن متهالك ، ليختلط بدمع عين قرحها السهد وأوجعتها اللهفة المرتاعة علي الغالي الحبيس الذي تسبب لنفسه بهذا المصير المـر فهو استعطف واعترف بالخطأ الذي ارتكبه علي جهل بالأميـــر وعدم دراية بقدره وقدرته ، ثم يعلن توبته علي يد الأمير لعله يقبل ويصفح ، خاصـة وهو قد أخـذ بوشاية الواشين الذين كانوا قد نقلـوا إليه بعض أقواله ولم يؤخـذ بعمل يسلكه في عداد الثائرين المنقضين علي الحكم ..

وله أيضاً هذه الأبيات :

تُعجّل فيّ وجوب الحـدود   وحدي قبيل وجوب السجـــود

فما لك تقبـل زور الكـلام   وقدر الشهادة قـدر الشهـــود

---

(١) الصبح المبني / ٥٩

مازال يرفع نفسه فوق هؤلاء الحاكمين ، ومن عجب أن يدخل سيف الدولة تحت شرطه ، حتي حدثت الجفوة بينهما ، فترك المتنبي سيف الدولة ، ورحل الي دمشق ، ثم زين له أحد أتباع كافور أن يرحل إليه فاتجه إلي مصر يجذبه الطمع ، ويصده الكبر ، أن يتدلي إلي مدح الأسود .

وبذل المتنبي ماء وجهه رخيصا في التزلف إلي كافور والاحتيال علي أن يقلده منصبا وكانت كل قصيدة من قصائده فيه تنتهي بالشكوى والالحاح ، ولما رأي أنه لم يظفر من كافور بطائل عزم علي الفرار فأعد له عدته ، وهجاه قبل مغادرة مصر بيوم واحد بقصيدته المشهورة التي مطلعها :ـ

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضي أم لأمر فيك تجديد (١)

وهو وإن كان قد أسرف في النعوت المخزية التي ألحقها بكافور فذلك نابع من شعور بالاشمئزاز والخزي من نفسه قبل أن يكون من كافور ، فهو لو أحسن الظن بنفسه ، وتيقن حقيقة كافور لأحجم عن قصده ، وما أغراه طمع أحمق ، لازمه طوال حياته حتي قتل نفسه ، ولم يبق منها إلا رمق ضئيل (بهذا الرمق الذليل الخصب ، المهين القوي أقبل المتنبي علي كافور ، فمدحه وتملقه ، ورغب إليه وطمع فيه ، ومن هذا الرمق نفسه انصرف المتنبي عن كافور راغبا عنه ، زاهدا فيه ، هاجيا له ، كافرا بأنعمه ، مشيعا فيه الفحشاء ، مذيعا فيه السوء ، وذنب كافور أنه عرف المتنبي كما كان ينبغي أن

(١) راجع الديوان مجلد ثان / ٣٩٦

يعرف ، ووضعه في الموضع الذي كان ينبغي أن يوضع فيه ، رآه شاعرا يبيع المدح والثناء بالدراهم والدنانير ، فاشتري منه المدح والثناء بالدراهم والدنانير ، ورآه أحمق يجهل قدر نفسه ...... ووفق كافور لكل ما أراد ، فذنب كافور إذن أنه كان عاقلا فطنا لبيبا لم يخدعه المتنبي وما كان للمتنبي ولا لأبرع منه أن يخدع هذا الأسود الدميم الذي استطاع أن يتجاوز قدره وأن يفرض نفسه علي الدولة الإسلامية كلها ، وأن يقتطع أحسن أجزائها ، فيستأثر فيه بالملك والسلطان ، نعم ذنب كافور أنه كان عاقلا فطنا ، وأنه كان يحسن العلم بالناس ، ويضع الأمور في مواضعها [1] ...

وهكذا عرضته المطامع لمواقف فقد فيها ماء وجهه وأضاع كبرياءه الذي عاش عمره يحاول الحفاظ عليه بغرور وصلف ليس له نظير ، عرضه في النهاية للموت ، ولما فر أبو الطيب من مصر فقصد إلي الكوفة ، ثم رحل إلي بغداد ، وترفع عن مدح الوزير المهلبي ذهابا بنفسه عن مدح غير الملوك ، ثم راسله ابن العميد من (ارّجان) فسار إليه ومدحه بقصائد عدة ، ثم اتصل بعضد الدولة (بشيراز) وقد مر في أثناء سيره إليه ، بشعب بوان فوصفه بقصيدة من فرائد الشعر بهما أفقد ، ثم ودعه بقصيدة كافية ، أكثر فيها من التشاؤم علي نفسه كأنه كان يحس دنو أجله ، وكان الأمر كذلك فإنه قتل في الطريق بعد ارتحاله من شيراز ، بضيعة تقرب من (دير العاقول) لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ

(١) د/ طه حسين مع المتنبي صـ ٢٨٧

والذي تولي قتله وقتل ابنه وغلامه رجل من بني أسد يقال له (فاتك بن أبي جهل) لأنه هجا ابن اخته هجاء أفحش فيه)[١] ولقد أراد المتنبي أن يفر من الموت الذي أحدق به ، غير أن غلامه عيره ، وذكره ببيته المشهور :

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فكر راجعا لحتفه وحتف ابنه وغلامه ذاك سليط اللسان ، والحق إن المتنبي لم يكن جبانا ، بل هو شجاع مقدام ، حضر أكثر مواقع سيف الدولة ، وواجه الموت في أسفاره الكثيرة ، ثابت القلب رابط الجأش ، ولكنه كان كثير الإعجاب بنفسه بعيد المطامح ، يخشي أن يقال عنه أحجم ولو كان الموت هو الذي يناوشه ، ومن ثم فقد حياته ، حتي لا يعتذر لغلامه لو فر وولي الأدبار .

وهكذا انطوت حياته الحافلة بالمرارة والنصب ، لأنه شغل نفسه بما لم يستطع إدراكه فكان كما قال :ـ

أذاقني زمني بلوي شرقت بها   لو ذاقها لبكي ما عاش وانتحبا[٢]

فلقد أذاقه الزمان اللأواء وجرعه الصاب ، لو أن الزمان رشف من تلك الكأس التي سقي منها المتنبي لما تحمل مرارتها ولانخرط في البكاء من شدة الألم ما بقي من عمره ، ولظل ينتحب لتعاظم البلاء عليه يوما بعد يوم .

وهكذا أملت تلك الأخطار والمواجع لأن يكون عميق النظرة كثير الخبرة ، ملما بالحياة والناس وانعكس كل ذلك علي شعره

---

(١) الأستاذ / علي الجارم وعبد العزيز البشري وآخرون ـ تاريخ الأدب العربي صـ ٩٨

(٢) الديوان المجلد الأول / ٢٣٠ .....

حتي نال شهرة واسعة ، مازال يتردد صداها حتي الآن ، لأنه يدل علي قدرته الشعرية الباهرة ونبوغه النادر ، وقد مرت القرون وتعاقبت السنون ولا زال شعره مضرب المثل في القوة والبلاغة ٠

وقد قال المتنبي في فنون كثيرة من الشعر ، وفي المديح ، لأنه كان شاعرا مداحا يجتدي بشعره ، وقال في الهجاء ، وأكثر هجائه لكافور صاحب مصر ، وقال في الرثاء وفي الوصف ، فقد وصف كثيرا من وقائع سيف الدولة ، ووصف الأسد في قصيدة يمدح بها بدر بن عمار ، ووصف رحلة صيد ، ووصف الحمي حينما أصيب بها في مصر فأحسن وأجاد ، وله شعر كثير في الفخر والشكوي من الزمان ، ولكن أكثر ما أشتهر به الحكمة وإرسال المثل ، وذلك لأن الحياة التي تقلب فيها علمته الحكمة وجعلته يحذقها ٠

ونحن لن نعرض لشعر المدح عنده ، فهو مع روعته ، وكثرة تفننه وعظمة الإبداع فيه إلا أن شاعرنا متهم فيما قال ، نظرا إلي ما اتسم به من حبه لذاته وعدم إقراره بالتفوق لغيره ، سهما كانت منزلته الاجتماعية ، فنرجسيته حالت بينه وبين أن يري أحدا يستأهل منه كلمة ثناء عن اقتناع وصدق ، وعلي هذا نشعر أن المديح عنده بضاعة يقدمها لمن يدفع ، والدليل قصيدته الدينايرية ، ومدائحه في كافور الذي قهر نفسه قهرا علي قولها ، وليس أدل علي ذلك من قوله مطلع أول قصيدة مدح قالها في كافور ، الذي أكرم وفادته ، وأمر له بمنزل خاص وخلع عليه ، وحمل إليه آلافا من الدراهم كما يقول الرواة ، فلم تكن خبيئة نفس كافور قد تكشفت بعد ولا صرفه

الدولة من وداد حنون ، فانخدع فيهم فأقصاه عنه ، لذا فهو يَبْرَمُ بالواشين والصديق جميعا ،ولكننا نري أن الأمر علي خلاف ذلك فالصلات والعطايا والمنح التي أغدقها عليه سيف الدولة ـ كان من الممكن أن تعيشه حياة رغدة هانئة لو انزوى في ضيعته ، وتفرغ لقول الشعر فنا يلاعب به مشاعره ، ويتنفسه صدقا مع خواطره وأحاسيسه ، فهو لم يكن شاعرا خاملا أظهره سيف الدولة ، فقد كانت أصداء مجده الشعري تتردد في كل الدنيا قبل لقائه بأميره وبعده حتي اليوم .

إذن فهو ليس آسفا علي هذه القطيعة التي أحكم فتلها أعداوه وحاسدوه ، والإ ما توجه إلي أعداء سيف الدولة في مصر ، ولعاش علي أمل العودة ورأب الصدع ما وجد إلي ذلك سبيلا ، هذا إن كان صادقا في حزنه علي من فارقهم ، ولكن الدكتور طه حسين يحدثنا قائلا :

(فأما الذي أرجحه أنا فهو أن المتنبي قد أصلح أمره مع المصريين ، وترك حلب ليكون شاعرا رسميا لكافور ، ليغيظ سيف الدولة وأصحابه ، وليعرفهم أنه إن لم يجد عندهم الأمن والرضا ، فسيجد عند عدوهم اكثر من الأمن والرضا : سيجد عند عدوهم الحكم والسلطان) (١) وإنسان هذه حاله لن يكون برما ولا ضيقا بالقطيعة ولن تملأ نفسه هذه الوجيعة القاصمة التي تبدت من بيته الذي افتتح به قصيدة المديح وأن تخفي في أبيات بعده تومئ إلي نعيه الصداقة والأصدقاء ، فهو لا يرمضه في الدنيا بأسرها شيء سوي أن

(١) د/ طه حسين مع المتنبي / ٢٧٧

يخيب مسعاه ، وأن يحال بينه وبين ما يريد ، فتقهقره عن مكـــان الصدارة لدي سيف الدولة ، وفشله في أن يكون الأثير المقدم حتـــي علي ابن عم سيف الدولة ، أبي فراس الذي زاحمه وأقصاه بشعـــره وفروسيته وقرابته للأمير هو الذي أهمه . فالمتنبي الذي كان مهددا في حياته ، وراوغ حتي نجا من الموت هربا ، لا يمكن أن يأسي علـــي ما خلف وراءه في حلب إذ تطلع في رحلته إلي ما هو أروع وأعظـــم وأبقي ، فإذا كان هذا شأنه مع الأحداث التي ألمت فلابد أن يكون مملوءا بالبهجة والسعادة في ارتقاب أن يحصل علي ما أمله في مصـر فهو يرغب في الملك ويطمع إليه ، وقـــد ظن أن نبوغه في الشعـــــر وكثرة مدحــه لكافور ، يوصلانه إلي أمله ، فيغيظ حساده الذين كادوا له عند سيف الدولة ، ويريهم أنه أصبح في مكانة تشبه مكانة أميرهـم وأن في استطاعته أن ينشيء بلاطا كبلاطه ، ويصبح موئل الشعـــــراء والعلماء والقصاد) (١)

كـل هذه الآمال العراض ، والتي لو أنصف المتنبي نفسه لعدها مـــن شطحات الخيال والتي نأت عن الواقع ولا يمكن أ ن تدانيه، فعلي قدر إغرابها وتغريبها يكون التمتع بها والإسعاد لصاحبها وعلي ذلك قلنا : إنه لم يكن منجوعا في الصداقة ، فالطموح المغالي فيه والذي لازمه فـــي رحلته إلي مصر كان علي الأقل يسعده قبل أن يملأه اليأس مـــــن كافـور . هـــذه هـي طبائع الناس ، أما أن يفاجئنا المتنبي بكـــل هذه التعاسة المرة في موقف أدناه من أمله الموهوم ، وقربه من التشفـــي

---

(١) د / أحمد بدوى ــ من النقد والأدب / ٥٤

فيمن أساءوا إليه ، فتلك عجيبة لابد أن يكون مردها دنيا من المشاعر المهتاجة ، لا يريد لها أن تبين ، بل هو يخاف أن تبين ، فظهورها يقبره ، قبل أن يقبر أمانيه ، فهذا الموقف المهين الذي أقحمه فيه القدر عرضه لذل دونه الموت ، ثقيل علي نفسه أن يمدح العبد الأسود ويستجديه ، لذلك فارت نفسه بمواجعها ، ونضح بها بيته السابق (أقبل المتنبي إذن علي كافور وضيعا ذليلا قد هان علي نفسه . فهانت نفسه علي الناس .... فلنلاحظ الآن أنه لم يصف أحدا كما وصف نفسه حين قال أيضا :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام (١)

تلك قضيته : سَعيٌ وراء الملك والسلطان وفَشَلٌ في بلوغ مسعاه يورثه الهم والتعاسة ، ولعل فشله ذاك راجع إلي صفات غالي فيها ولم يكن متلبسا بها علي الحقيقة قد رفع نفسه فوق قدرها ، وزعم لها ما ليس من أخلاقها ، وطمع فيما لا ينبغي لمثله ، أن يطمع فيه ، ظن نفسه حرا ، ولم يكن الا عبدا للمال ، وظن نفسه أبيا ولم يكن إلا ذليلا للسلطان وظن نفسه صاحب رأي ومذهب ، ولم يكن إلا صاحب تهالك علي المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس أمرا وأهونهم شأنا) (٢)

فلم يكن المتنبي صادقا في مديحه ، ولا مخلصا فيما خلعه علي كافور من صفات ، وليس أدل علي ذلك من تكذيبه نفسه فيما ادعاه ، حين قال :-

وشعرٌ مدحت به الكركدن (٣) بين القريض وبين الرقي

---

(١) د/ طه حسين ـ مع المتنبي / ٢٨٦ (٢) المرجع السابق / ٢٨٥
(٣) د/ أحمد بدوي ـ من النقد والأدب / ٧٠

فما كان ذلك مدحا لـه ولكنه كان هجو الـورى

وليس أقوي من شعر المتنبي دلالة علي السخط علي الحظوظ ، والنقمة عليها ، حين يري مواهبه وملكاته تزيد علي مواهب كافور(في نظره هو) ولكنه لم يؤت حظه) (١)

ونحن وإن كنا قد وقفنا طويلا عند هذا الخلق في المتنبي وأطنبنا القول حتي قاربنا من الإملال ، فماذاك إلا لأن صفة الغرور فيه، قد طبعته بطابعها ، واخترمت عمره كله فلم يتركها لحظة ، ولم تزايله طرفة عين ، عذبته ثم هلك بسببها ، وإن كانت قد أفادته كثيرا في إبداعه الشعري ، وفيما قدم من فن جال به في اغراضه المتنوعة لا سيما الحكم التي جاءت عنده إثر تجربة ، بعيدة عن جفاف الفكرة وتحديد المنطق فقد أملتها عاطفة صادقة ، فكانت لها قوة مؤثرة في وجدان المتلقي ، وقدرة تدفعه إلي التفكير المتأني ، والتأمل العميق ، فهي منتزعة من دنيا الرجل ومن تجاربه يخرج بها من حدود الفردية الذاتية التي تعنيه وحده ، إلي العمومية المطلقة ليشترك معه الناس جميعا في الإحساس بها وتصديق ما يقول ، والإذعان له بالتفوق ، فهذه الحكم تضفي عليه صفة الفيلسوف ، ولعل ذلك يرضي غروره فقد غدا ممتازا في دنيا الفكر والفن بعد أن عجز عن تحقيق هذا الامتياز في سياسة الناس وقيادتهم . ذلك أرضي المتنبي واستكان عنده ، فأكثر من قول الحكم ، وأشاعت الحكمة في شعره إلي الحد الذي لا نتمكن معه في هذا البحث الموجز من إحصائها جميعا أو الإلمام بأكثرها وحسبنا أن نقف عند البعض لنكتشف فيه أثر التجربة ونبض

(١) د/ أحمد بدوي ـ من النقد والأدب / ٧٠

الوجدان .

فهو يقول من قصيدة يمدح بها (أبا الحسين علي بن أحمد المري الخراساني) :

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محاربٍ لا ينام
ليس عزما ما مرّض المرء فيه ليس هما ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذي ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوي به الأجسام
ذل يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتي بغير اقتدار حجة لاجيءٍ إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه مالجرح بميتِ إيلام (١)

بهذا افتتح الشاعر قصيدة المدح ، وبهذا أيضا خالف المألوف المعتاد عند شعراء العرب حين يفتتحون قصائدهم بالغزل لا سيما شعر المديح ، والشاعر ما خالفهم هنا إلا لأنه يلملم جراح النفس التي نزفت كثيرا عند بدربن عمار (في طبرية) حين تكاتف الحاسدون الذي هالهم أن يحقق المتنبي ، في بلاط الأمير كل هذا التقارب والامتياز ، فلم يهنألهم بال حتي نجحوا في إقصائه مغضوبا عليه ، مشيعا باللعنات ، ولم يكن يعرف كل هذا الكيد الخبيث الذي ووجه به في بلاط الأمير فزعزعوا كبرياءه ، وأصابوه في كرامته بندوب غائرة ، نالت منه لبعض الوقت ، ولكنه سريعا ما استرد كل ما ضاع منه ، وعاوده غروره القديم ، ولكن بعد أن اكتسب تجربة ردت إليه الاتزان ، وفرضت عليه أن يكون متأنيا في تفكيره متأنيا فيما يقول ، فهو قد عرف أنه لا يحق لأحد أن يفخر بشيء إلا إذا ،

(١) الديوان المجلد الأول ٣٢٩ ..

كان آمنا من الضيم والمذلة بحيث تكون قوته قد صانته وحفظته فلا يقدر أحد علي خدش كرامته فيدرك مبتغاه أو يظل محاربا دونه لا يعرف النوم حتي يحققه أو يموت ، فالإنسان الذي يعجز عن الوصول إلي هدفه أو يمنعه عائق عن نيله إنسان بلا عزيمة ، خلا من الهمة التي تعينه وتدنيه من وطره .

وهذان البيتان وإن كانت الفردية قد استكنت فيهما ، فهي لا تكاد تلمح إلا لمحا خاطفا إلا أنها بدت أكثر وضوحا وإعلانا فيما تلا ذلك ، فاحتماله للأذي عند بدر ، مع مشاهدته للجاني أو للجناه أهزلت جسده وأوشكت أن تودي بحياته ، وهو وإن كان محسودا علي ما فيه من قرب واستمتاع باغداق الأمير وعطاياه ، إلا أن الذين يحسدونه لا يتعمقون المأساة التي يعيش في داخلها أو تعيش في وجدانه ، خدعهم الظاهر فلم يلتفتوا إلي الخفي المستور ، وظنوه منعما في حين أنه يعيش ذليلا ، فقد ما هو أغلى من العطاء والنفوذ فقد العزة والسلامة النفسية ، فأولئك الذين يتمنون أن يسلبوه ما هو فيه ، ويأخذوا مكانه ، إنهم أكثر منه ذلة ، لأن أمنيتهم أن يستقروا في قاع الذل ولا يطلب الذل ويتنعم فيه إلا ذليل حقير .

نجح الذين أفسدوا ما بينه وبين بدر ولم يستطع إفساد ما خططوا له في بلاط الأمير لأنه أضعف من مجابهتهم . ومع ذلك زعم لنفسه أو زعم لغيره أنه حليم لا يواجه الشر بالشر ، وإنما سوف يصفح ويعفو مع أنه لا يقوى علي غير ذلك ولا يملكه ، فالحلم إذن حجة كاذبة يلجأ إليها اللئام ليداروا بها ضعفهم ويظهروا من

خلالها كرما مزيفا .

أما البيت الأخير فإنه يفصح علي ما يبدو عن صفة غالبة في المتنبي لا يستطيع دحضها مهما أبدى من إدعاء للعزة والكرامة ، فهو تعرض كثيرا للهوان والإساءة وفي كل مرة يشعر بالخزي والعار وبما هو أقسي من الخزي والعار ، حين يسرع إلي أمير من الأمراء يتوهم عنده بلوغ المراد ، ثم يرتد من عنده مرزءا فيما صبا إليه ، مطرودا مهانا، ولا يتوب وإنما يعاود المحاولة ليعود معه خزيه وعاره ، وهكذا مات جرحه ولم يستشعر الآلام .

وهكذا بدأ الشاعر مدحته بغير ما تردده الشعراء ، وإنما لفظ من صدره وقدة نار أوشكت أن تقضي عليه ، ملأته همّا وغيظا وحنقا وملأته سخطا علي الحياة وعلي الناس ، فهو متوجع برم ، ولكنه مع ذلك يريد أن يحافظ علي كبريائه المهين ، وأن يلملم ما تبعثر من كرامة كان يريد لها أن تصان ، فحطمهاابدر ومن معه ، ووجد أنه لا يقوي علي الفخر . وهذا الأنين الضجر يقطع أنفاسه ، فجذب الناس معه يتأملون ثم يئنون معه .

أرأيت كيف حوّل مأساته الي مجموعة من الحكم يتواري خلفها ضعفه وذلته حتي لا يشمت فيه كارهوه والشانئون وما أكثرهم ،وحاول أن يخدعنا عن نفسه بهذه القضايا العامة التي صاغها في أبياته ليظهر بها التفوق في الفكر العميق في فلسفة الحياة . فجاءت ملتصقة به تمام الالتصاق تكشف عن ملامحه لأنها تجربته الخاصة ووجيعته المفردة ، ومهما يكن من شيء فذلك ليس معيبا من المتنبي وإنما هي

عبقرية جعلته في الشعراء من الخالدينن .

ولو كان المتنبي استسلم للمحنة ، واعترف بالخيبة ، ويئس من تحقيق الأمل ، لعاش شاعرا كغيره من الشعراء المداحين الذين يلتمسون الرزق والرزق الموسع فيه عند الأمراء ، ويلتمسونه كذلك بما حباهم الله من جميل القول ورقيق النغم الذي يطرب فيدفع الأمراء للعطاء السخي دفعا فيعيشون في لذة وسعادة وهناء .

ولكن المتنبي لم يفعل ذلك ، لأنه لا يستطيع الحياة بغير هذه المخاطر ، ولا يملك العيش إلا بين رضا الأمراء وغضبهم ، وإلا بين أمل مرجو وخيبة مرة تهصرقلبه هصرا فيئن ليخرج لنا فنا رائعا ، وحكما تقدم لنا التجربة والمتاع .

حتي هذا البيت الذي انتزعه الناس من بين قصيدة طويلة قالها المتنبي في مدح (علي بن أحمد بن عامر الانطاكي) والذي شهر بينهم وتداولوه ، ومن كثرة ما لاكته ألسنتهم غدا غير مجهول علي أحد ذلك البيت جاء إثر تجربة وهو :-

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر (١)

كما تري في البيت زهد واقتصاد ، ورغبة عن التهالك علي جمع المال ودعوة عاقل يزجيها إلي الناس جميعا ، ينهاهم عن أن يفرغ المرء حياته لجمع المال ، ويصرف ساعاته كلها لكي تتضخم الثروة ،يفعل ذلك خوفا من شبح الفقر الذي يطارده ، فلكي ينجو من براثنه يكثر ماله ولا ينفق منه في ضروراته شيئا ، فهو كالفقير المحروم الذي لا

(١) الديوان المجلد الأول / ٣٧٠

يجد ما يستوفي به ضروراته فكلاهما محروم .

هذه النظرة العميقة المتأنية ، التي جعلت المتنبي أكثر وعيا بالحياة ، وأكثر إدراكا لدور المال فيها ، فهو ليس للجمع وإنما لدفع الحاجة ، لا ينبغي أن يخدعنا المتنبي عن نفسه بهذه الدعوة ولا أن يموه علينا حقيقته التي عرفناها عنه ، لمجرد أن يفصح عن هذه النظرة الجديدة ، فنظنه قد كف عن التهافت علي جمع المال وإراقة ماء وجهه في سبيل تحصيله . لا ينبغي أن تخدعنا هذه النظرة أو يخدعنا المتنبي عن نفسه ، فهو مازال يلهث خلف آماله تلك العراض ، التي ولدت معه ، وعاشت معه ، تعرضه للحرج ولأكثر من الحرج ، للهلاك أحيانا إلي أن ماتت بها ...

فلو نظرنا في أبياته الأولي التي افتتح بها قصيدة المدح هذه لوجدناه يقول : (١)

أُطَاعِن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تمرست بالآفات حتي تركتها تقول: أمات الموت ، أم ذعر الذعر؟
وأقدمت إقدام الأتي كأن لي سوي مهجتي أوكان لي عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق : جاران دارهما العمر

فهذه بداية أسرف الشاعر فيها الحديث عن نفسه ، وليس الأمر قاصرا علي هذه الأبيات فقد استمر الشاعر بمتاح من داخله أفكارا ومشاعر ، كانت قد أرقته طويلا ، بعد أن آبت نفسه الموزعة داخل

(١) المرجع السابق / ٢٦٩

القلق والخوف اللذين أسلماه إلي الهرب والتخفي ، فهو قد كان مشردا يتنقل من البادية خائفا من السلطان ، لا يستطيع أن يدنو من أرض الإخشيديين ، وقد كان بينه وبينهم ما انتهي به الي سجن حمص ، وقد كان منذ أسابيع يمدح عدوهم بدر بن عمار ،ولايستطيع أن يدنوا من أرض ابن رائق في الشام وأعالي الفرات وهو طريد (بدر) ، وبدر كما رأيت أثير عند ابن رائق مقرب إليه ، فليس له اذن أن يهيم في البادية مخفيا نفسه علي البدو، وأن يستتر في الحاضرة إن ألم بها منكرا نفسه علي الحضر ، قد لفظته الأرض ، وضاقت به الدنيا ، وهو يصور لنا هذا أجمل تصوير وأووعه ، كما يصور لنا سخطه علي الذين جنوا عليه هذه المحنة الثانية) [1] وذلك في رائيته التي يقول فيها :-

عذ يري من عذاري من أمورٍ	سكنّ جوانحي بدل الخدور
ومتبسمات هيجاواتِ عصرٍ	عن الأسياف ليس عن الثغور
ركبت مشمرا قدمي إليها	وكل عُذافِر قلق الضفور
أوانا في بيوت البدو رحلي	وآونة علي قتد البعير
أُعَرّض للرماح الصم نحري	وأنصب حُرَّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي	كأنيَ منه في قمر منير (٢)

فالعذارى من الأمور هي الخطوب العظيمة التي لم يسبق العهد بمثلها ، هذه الخطوب والمصائب قد سكنت صدره وأرهقته ، تبسمت الحروب عن بريق السيوف ، كان في كل تجواله كأنه يسعي إليها

(١) د/ طه حسين _ مع المتنبي / ١٤٣
(٢) الديوان _ المجلد الأول / ٣٣٣

فهي تواجهه وتهدده في كل فجاج يسلكه ، سواء كان يركب قدميه أو يستخدم الإبل الشديدة العظيمة التي انهكها السير وأضمرتها الرحلة حتي أن النسع التي تشد بها الرحال قد اتسع وكان في قلقه يضرب في الأرض ، فارا من المجهول الذي يتوعده فهو لا ينام هانئا أبدا ، مرة في بيت بدوي ومرة علي ظهر بعيره ، وهكذا تمضي به الحياة ، يتوقع أن تصيبه الرماح في نحره علي غير معرفة بمأتاها ، فإن نجا في نهاره فالهاجرة تشوي وجهه ، فإذا جنه الليل فإنه لا يقلع عن المسير بل يضرب في طرقات الصحراء مع تراكم الظلمة علي غير خوف من ضلالة ، فهو خبير بهذه الطرق .

أرأيت ضياعا أقسي من هذا الضياع ، إنه يستجدي الحياة من القدر ، ويخشي أن يفاجأه الموت ويغتاله الردى في كل دبة قدم يخطوها علي الأرض ، فعاش قلقا متوجسا ، هان عنده كل شيء من متاع الدنيا ، يريد أن يفتدي نفسه ويشريها فتنازل عن كل نفيس لذا قال :

وكف لا تنازع من أتاني ينازعني ،سوي شرفي وخيري (١)

مازال به رمق يتشبث بالكبرياء ، وينازع في الشرف ، ويدفع من يريد استلابه ، فهذه المحنة التي يواجهها كانت من القسوة بحيث أوهت جلده ، وضعضعت كل شيء فيه فلم يعد قادرا علي الصمود فتسربت من بين أصابعه آماله في الثراء وفي السلطان ، فقال بيته المشهور الذي ينعي فيه علي المتكالبين علي جمع المال ، وجعلهم

---

(١) الديوان ـ المجلد الأول / ٢٣٣

يعيشون في فقر مع ما هم فيه من ثراء وحذرنا أن نكون مثلهم بعد أن أتّب نفسه التي أوردته موارد العطب في سبيل طمعه وطموحه فلمّ يجمع المال ؟ ووجوده مهدد بالفناء ...

وهكذا خرجت الحكمة من عباءة التجربة ، التي أكسبته الكثير من الأناة والروية ، فيما كان وفيما ينبغي أن يكون ، فماذا صنع المتنبي أثناء هذا الهرب ؟ ولمّ يلبث مستخفيا ؟ لم يصنع شيئا ذا خطر فيما يظهر ، وانما كان يلتمس النجاة ، فإذا ظفر بها التمس الأمن ، وكان في أثناء ذلك كثير الرجوع الي نفسه ، ممعن التفكير فيما أمتلأت حياته به من البوءس والشدة والشقاء (١)

فلم يكد يمضي عام أو بعد عام ، حتي آمنه الدهر بعد فزع، وأقره بعد طراد وتغرب ، فقد قتل ابن رائق ، وأصبح يستطيع ان يتنفس في شيء من الحرية والطمأنينة ، حتي استقر به المطاف عند علي بن أحمد بن عامر الانطاكي ، ومدحه بقصيدته التي مطلعها :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا ومافولي كذا ومعي الصبر

سالفة الذكر ، والتي عرض فيها لحاله وما كان فيه ، وصور تعاسته وقلقه كأبلغ ما يكون التصوير وأدقه ، فقد عاني من التجربة الحية التي كان يعيشها في الضياع والترقب الفزع فانحرف بآماله إلي طلب السلامة فحسب ، فإذا مضيت في قراءتها رأيت الفخر الجزل يصور غرورا وفنونا أكثر مما يصور شجاعة وحزما) (٢)

---

(١) د/ طه حسين ـ مع المتنبي صـ ١٤٤

(٢) المرجع السابقة ٪ ١٤٦

وهكذا يرجع بنا المتنبي الي سالف عهده ، غرور وصلف ، ورغبة جموح في تحقيق ما يصبو إليه ، حتي يلتقي بمحمد الإخشيد في دمشق ويأخذ جوائزه ، وتأخذه الأماني لتحلق به عن أرض الواقع ، كدأبه دائما ، فقد ظن أنه أصبح قريبا من أمله الأكبر ، ولكن القدر لم يمهله ليستمتع بأحلامه طويلا فقد مات الإخشيد ، فرثاه بهذه الأبيات :ـ

هو الزمان مشت بالذي جمعا　　في كل يوم تري من صرفه بدعا
إن شئت قمت أسفاأوفابق مضطربا　　قدحل ماكنت تخشاه وقدوقعا
لوكان مُمتنعٌ تغنيه منعته　　لم يصنع الدهر بالإخشيدما صنعا (١)

ومن هذا ندرك أن المتنبي لم يكف عن مطالبه ، وأيضا لم تهادنه الأيام ، فعاش يصطرع معها ، آنا تلين له ، فيستكين إليها راضيا بعطاياها ، مغتبطا بحياة الدعة والقناعة ، فإذا عربدت في صدره الأحلام ، عادت تناوشه لتذيقه الصاب ، وتجرعة المر ، ليقول لنا شعرا عذبا رائقا ، فيه روعة الإبداع ، واقتدار العبقرية ، في كل الأغراض .. ونحن حين أفردنا بحثنا عن الحكمة في شعره فليس لأنها تفوقت علي الأغراض عنده ، وانما لأن النقاد قد نظروا إلي الحكمة في الشعر بعامة ، نظرة اتهام ، فقد أقصوها عن الفن ، لأنها كما يقولون : تحمل فكرا خالصا ، فيه جمود الفلسفة وجفافها ، والفن يحتاج الي الوجدان ليرققه ويهذبه ، ويجعله سائغا مقبولا عند المتلقي ، وهذا الحكم لا ينبغي أن يؤخذ علي إطلاقه فليست كل حكمة خلت من وجدان ، وها نحن قد أوضحنا أن حكمة

(١) الصبح المنبي / ١١٢

المتنبي المبثوثة كثيرا في شعره كانت نتيجة تجربة عاشها وعاني منها ، لذا جاءت صدي لوجدان مرهف تترك الأحداث فيه بصماتها الغائرة ، فأعانت الشعر علي أداء وظيفته الأخلاقية ، إن الشعر في ادائه للوظيفة الأخلاقية خير من الحياة ، لأنه يصورها بطريقة تغري القارئ بمحاولة تحقيقها في الوجود ، وبذلك يكون الشعر أقوى، أثرا من حيث التعليم الأخلاقي من الفلسفة والتاريخ) (١) ونحن إذا ذهبنا نستقصي حكمه كان علينا أن نعرض شعره كله .. وذلك فوق طاقة الإمكان .

وأخيرا إليك هذه الحكمة التي جاءت في قصيدة مدح بها أبا شجاع فاتك ، حين قدم من الفيوم ، فوصل ابا الطيب ، وحمل إليه هدية قيمتها ألف دينار ، فقال في افتتاح هذه القصيدة :ـ

لا خيل عندك تهديها ولا المال   فليسعِد النطق إن لم تسعد الحال (٢)

والتي جاء فيها هذا البيت :ـ

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتال (٣)

لو كان مقتنعا بهذا مؤمنا بما يقول لكف عن المحاولة ولأغمد سيفه الذي ظل يحارب به الزمان ، ولاستكان لما هو فيه من نعيم وترف ، وخيرا فعل حينما عاش عمره كله محاربا دون آماله ، فقد خلف لنا بذلك فنا خالدا خلود الدهر ، وحكمة هي دليل معاناته الذي ظل قلبه ينبض بها ، وستبقي لنا نحن لنتعطفنا علي الشاعر حين نصغي إلي دقات هذا القلب المعذب ...

دكتور
عبد الله محمود حسين محروس
استاذ مساعد الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) مناهج النقدالأدبي بين النظرية والتطبيق /١٢١ ـ ترجمة د/ محمد يوسف نجم . (٢) الديوان ـ المجلد الثاني / ٣٦٥
(٣) المرجع السابق / ٣٧٢

ضياء الدين بن الأثير

ا٠د علي محمد علي طلب

التعريف بابن الأثير : (١)

هو أبو الفتح ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني الموصلي ، المعروف بابن الأثير، والجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر ، وجزيرة ابن عمر يقول عنها ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢) (بلدة فوق الموصل وأحسب أن أول من عمّرها الحسن بن عمر بن الخطاب الثعلبي ، وكان له امرأة بالجزيرة وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة ، شبه الهلال ثم عمل هناك خندق أجري فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع نواحيها بهذا الخندق) ٠٠ وضياء الدين بن الأثير واحد من ثلاثة أبناء للأثير (٣) محمد بن محمد ابن عبد الكريم الجزري الشيباني

---

(١) انظر في ترجمة ابن الأثير : وفيات الاعيان ٩/٥ ٣ ومابعدها ط دار الثقافة ببيروت ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٦ / ٣١ ومابعدها ط دار الكتب المصرية ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٧/٥ ١ ومابعدها ، والعبر للحافظ الذهبي٥ / ١٥٦ ، البلاغة تطور تاريخ للدكتور شوقي ضيف ٣٢٣ ومابعدها ط دار المعارف بالقاهرة ٠٠

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ١٣ ط دار صادر ببيروت ٠٠

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية (ابن الأثير) ومقال عبد الستار فراج بمجلة العربي العدد/ ١٥ يناير ١٩٧٢ بعنوان (ابن الأثير ... بل ابناوه) ٠٠

الذي كان يتولي ديوان جزيرة ابن عمر لأمير الموصل قطب الدين مودود ، وكل واحد منهم لا تقل شهرته عن أخيه :

فأكبرهم المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري ، ولقبه مجد الدين وكنيته أبو السعادات ، وقد تولي الخزانة لسيف الدين غازي بن مودود بن زنكي ، ثم ولاه ديوان الجزيرة واعمالها ، ومن مؤلفاته (النهاية في غريب الحديث) وهو مرجع في اللغة نقله ابن منظور في كتابه (لسان العرب) وله ايضا كتاب (المرصع) وله من الكتب المخطوطة التي لم تطبع (جامع الأصول في احاديث الرسول) وتوفي سنة ٦٠٦ هـ ..

وأوسطهم هو علي بن محمد بن عبدالكريم الجزري الشيباني ولقبه عز الدين وكنيته أبو الحسن ، وكان عالما فاضلا وإماما في حفظ الحديث ، وحافظا لتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم ، وأهم كتبه (الكامل في التاريخ) وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) واختصر كتاب الأنساب للسمعاني ، وله كتاب (الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية) ، وتوفي سنة ٦٣٠ هـ

وأصغر أبناء الأثير هو ضياء الدين محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني (موضوع البحث) ولقبه ضياء الدين وكنيته أبو الفتح .. وقد ترجم له ابن خلكان في (وفيات الأعيان) والحافظ الذهبي في (العبر) وابن العماد في (شذرات الذهب) وابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) وغيرهم ...

ولد ضياء الدين بن الأثير في جزيرة ابن عمرونشأ بهـا وانتقل مع والده واخويه الي الموصل ، وحفظ القرآن الكريم وكثيرا من الأحاديث النبوية ، وكان اهتمامه بالأدب كبيرا ، وحفظ أشعار الفحول ، وكانت ولادته في يوم الخميس ٢٠٠ من شعبان سنة ٥٥ هـ ومات في شهرربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ ببغداد ...

وهو الوحيد بين اخوته الذي ذكر ابن خلكان أن له ولدا نبيها له نظم ونثر حسن ، وصنف عدة تصانيف نافعة ، وأن اسمه محمد بن نصر الدين بن الإثير ..

وضياء الدين بن الأثير كان فيه طموح واعتزاز بنفسه ، ولم يكن فيه تواضع العلماء بل فيه بعض الغرور الذي يلحق بعض الأدباء هذا إلي ما كان فيه من الجفوة والميل الي الاساءة ، ونلحظ ذلك فيما كتبه ابن خلكان في (وفيات الأعيان) ..

وانتقل ضياء الدين الي الشام عام ٧ ٥ هـ(١) والتحق بخدمة صلاح الدين الأيوبي عن طريق القاضي الفاضل ، وكان القاضي الفاضل يعطف علي الأدباء والكُتّاب ، ويجل العلماء ويقربهم، ولما قدمه القاضي الفاضل إلي السلطان صلاح الدين كان السلطان إذ ذاك مشغولا بحرب الصليبيين ، فألحقه صلاح الدين بخدمة أبنه الأفضل وتلازما منذ ذلك التاريخ ولم يفترقا ....

وعندما توفيصلاح الدين سنة ٩ ٥ هـ وتولي بعده أبنه الأفضل

---

(١) انظر في ذلك : وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/٢٩٠ ومابعدها تحقيق د/ احسان عباس ط دار الثقافة بيروت .....

وكان شابا يملؤه الغرور والطيش واللهو ، وكان متقلبا فتـــارة يعربد ويشرب الخمر وتارة يرجع إلي الدين والتصوف ، وترك ـ الأمور كلها لضياء الدين بن الأثير الذي اتخذه وزيرا له ، وأســاء ضياء الدين للرعية وضج الجميع بالشكوي منه ، وانكروا سياستــه حيث قال في أحد شعرائهم (١) :-

متي اري حرز يريكم وماله من وزر
يقلعه الله فـــدا أو أن قلع الجزر (ي)

وتجمع الساخطون مما طردهم الأفضل من دمشق بايعاز من ضيــاء الدين في مصر ، عند العزيز عثمان وعمه العادل ، واوغروا صدريهما للإطاحــة بهما ، ودبت عقارب الفتنة واستعت شقة الخلاف ، وثـارت نـار الحرب بين الأخويين عثمان والأفضل ، وزكاها العادل ليكســب من ورائهـا وليحقق أطماعه في وراثة ملك أخيه العريض ..

وحاصر العزيز عثمان دمشق ودخلها ، وأخيرا استسلم الأفضل وفتحت أبواب دمشق بعد أن تخلي عنه انصاره ، وأنتهي الأمر بينه وبين عمه وأخيه إلي الصلح ، وأن ينتقل من ملك دمشق والشام الــي ولاية صغيرة في (ضرخـــد) .. ودبر حاجبه جمال الدين أمر هروب ابن الأثير ووزيره الافضل مختفيا في جملة الصناديق التي تحمل متاع الافضل ليلا (٢) ..

ويغادر ضياء الدين الأفضل بعد زوال دولته ويلجـأ الي الملــك الظاهر صاحب حلب ، ولم يبق فيها طويلا ، وانتهي به المطاف إلــي

---

(١) انظر كتاب (الروضتين) في أخبار الدولتين لابن أبي شامه ١٣٠/٢ ..
(٢) مرآة الزمان ليوسف قزاوغلي /٤٤٣ ط حيدر أباد ١٩٥٢..

الموصل مرة اخري ، والتحق بخدمة اميرها عزي الدين مسعود الثاني (٦٠٧ - ٦١٥ ه) ، وتنقل بين الموصل واربل وبغداد ، ثم قام علي خدمة الأتابكة بعد ذلك .....

وظل ضياء الدين طوال تسعة عشر عاما ، وهي الفترة الأخيرة من عمره مستقرا بالموصل بعد طول أسفاره شرقا وغربا شمالا وجنوبا سعيا وراء المجد والغني ، وتفرغ للأدب قراءة وكتابة ، وظل يدرس كتبه وخاصة (المثل السائر) لطلبته ، وذاع أمره بين الناس وتوافد عليه طلاب العلم يتزودون من فضله وأدبه ، وكذلك تولي تدريس كتب أخيه مجد الدين المبارك [1].

وبعد أن ترك ضياء الدين للأدب والعلم ثروة رسائله ومؤلفاته وخلّد اسمه بين علماء عصره وطلاب علمه ، توفي سنة ٦٣٧ ه وقد بلغ من العمر ثمانين عاما ..

ثقافة ابن الاثير واساتذته :

لقد كانت ثقافة ابن الاثير ثقافة عربية اسلامية خالصة ، فقد تلقي العلم صغيرا في جزيرة ابن عمر ، وحفظ بعض القرآن الكريم وأتمّه في الموصل وتلقي فقه الإمام الشافعي كأبيه وأخوته ، واهتم ضياء الدين بدراسة القرآن والحديث ، بعد أن حفظ القرآن صغيرا واستوعب كثيرا من الحديث حفظا وتفسيرا ، وتتلمذ فيهما علي أخيه الأكبر مجد الدين المبارك بن الأثير صاحب الكتب المشهورة

---

(١) انظر : ضياء الدين بن الاثير د/ محمد زغلول سلام صـ ٤٤ وما بعدها ط٠٠ دار المعارف بالقاهرة ....

في الحديث ورجاله ، وعكف علي كتب التفسير المختلفة يدرسها ويفيد منها ، واستعان بهذه الدراسات في دراساته البيانية، وفي كتابته اذ اقتبس من القرآن والحديث ما يدل علي فهمه للنصوص القرآنية والنبوية ، وقد حدثنا في كتابه (الوشي المرقوم)(١) عن اهتمامه بكتب الحديث ، وذكر في (المثل السائر) انه جمع كتابا في الأخبار النبوية يشمل ثلاثة آلاف خبر حيث يقول (وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشمل ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال ، ومازلت أواظب مطالعته مدة تزيد علي عشر سنين فكنت انهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتي دار علي ناظري وخاطري ما يزيد علي خمسمائة مرة ، وصار محفوظا لا يشذ عني منه شيء)(٢)

وفي علوم اللغة قرأ فيعلم النحو والبيان والأدب مجموعة كبيرة ففي اللغة قرأ لأبي علي الفارسي ، وقرأ للمبرد كتاب الكامل وكتاب الروضة ، وقرأ الخصائص لابن جني ، والأمثال للميداني وفي البلاغة والأدب قرأ كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) للآمدي وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي وأشاد بهما في مقدمة كتاب (المثل السائر)(٣) ، كما قرأ كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ومقامات الحريري ، وفي الشعر ديوان الحماسة لأبي تمام ، واستوعب أكثره ونقل عنه واستشهد بما فيه ، كما قرأ اللزوميات لأبي العلاء المعري ، وله عليه مآخذ ، وكذلك نقائض جرير والفرزدق ودواوين كثير من الشعراء القدامي والمعاصرين له ، ووسائل مشاهير الكتاب

---

(١) الوشي المرقوم في حل المنظوم لضياء الدين بن الأثير صـ ٥ ط ثمرات الفنون ١٢٩٥ .. (٢) المثل السائر لابن الاثير ١/١٦١ ط نهضة مصر .. (٣) انظر مقدمة المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر لابن الأثير صـ ٣٥ ومابعدها ط نهضة مصر بالقاهرة ..

أمثال أبي هلال الصابي (١)

ولقد اهتم - علي الرغم من كثرة حفظه له - بشعر البحتري وأبي تمام والمتنبي وحفظ دواوينهم كلها ، وقد كان هو كغيره من أهل زمانه يهتمون بأشعار هؤلاء بين حفظ وشرح وتقليد أو معارضة ، ويعلل ضياء الدين بن الأثير اهتمامه بشعر هؤلاء الشعراء دون غيرهم بقوله : (وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام وأبي عباده الوليد وأبي الطيب المتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لاَتُ الشعر وعُزّاه ومنَاَتُه الذين ظهرت علي ايديهم حسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلي فصاحة القدماء) (٢)

اما ثقافته في مجال البيان والبلاغة والنقد بصفة خاصة ، فقد كان محصوله في هذا المجال وافرا ، فلم يترك كتابا في هذه الفنون إلا قرأه ، واستظهر ما فيه ، فقرأ ماكتبه الرّماني والآمدي والجاحظ وقدامة بن جعفر وأبو هلال العسكري والغانمي وابن سنان الخفاجي وغيرهم ممن كان له رأي يشار إليه وقول تعقد الحناجر عليه

كما قرأ لابن المعتز ونقل عن كتابه (البديع) والقاضي الجرجاني ونقل عن كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ..

ومن شيوخ ابن الأثير غير ما قدمنا بعض شيوخ الموصل أمثال الفقيه محمد بن يونس الموصلي وابن الدهان سعيد بن المبارك وغيرهما .. (٣)

---

(١) انظر : ضياء الدين لابن الأثير صـ ٤٧ ..
(٢) انظر المثل السائر ٢/ ٣٦ ..
(٣) انظر : ضياء الدين الأثير صـ ٤ نقلا عن مقدمة الجامع الكبير لابن الأثير مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ......

ونستطيع بعد ذلك أن نحدد المؤثرات العامة والخاصة في ابن الاثير وفي تكوين ذوقه الفني وشخصيته الأدبية :-

١ - البيئة العامة التي كانت مزدهرة بالعلم والعلماء والدرس - والتحصيل في مدينة (الموصل) الحافلة بكثير من رجال العلم في هذا العصر ..

٢ - ثقافته العربية الخالصة التي تتمثل في القرآن الكريم والحديث وكتب اللغة والأدب ، والشعر التي نهل منها ، واستوعب الكثير من معينها ، وجب إليه الإطلاع والتحصيل وقطف ثمراتها الدانية الشهية ....

٣ - بيئته الخاصة التي تتمثل في والده وأخوته ، فهم علماء لهم شهرة واسعة في مجال العلم والمعرفة ، وكل واحد منهم يفوق الآخر علما وفضلا وخلودا علي مر الدهور والأعوام ..

٤ - روح التنافس التي أوجدتها الحركة العلمية والأدبية في هذا العصر ، حيث ألفت الكتب الكثيرة ، ونهض كل من الشعر والنثر وواكب الأحداث الحربية والسياسية واشتهرهذا العصر بالمهارة الفنية والصنعة والبراعة التي غلبت إلي حد كبير علي العبقرية والابتكار ..

٥ - عمله بكتابة الرسائل منذ شبابه البكر فقد كتب لصلاح الدين وابنه الأفضل وأصحاب الموصل ، وكل هذا صقل موهبته الفنية وزوقه الأدبي ....

وقد خلف ابن الأثير ثروة هائلة من كتب الأدب والبلاغة ، منها

كتب المختارات كمختارات الحديث ، ومختصر أمثال الميداني ومختار شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي ، (وموء نس الوحدة) وهو مخطوط بدار الكتب ، وله مجموع في معاني الشعر بعنوان (عمود المعاني) ، وله كتابه المشهور (المثل السائر) ، و(الاستدراك علي المآخذ الكندية) ، (الوشي المرقوم في حل المنظوم) ورسائل ضياء الدين ابن الأثير ، وهي مطبوعة والجامع الكبير وهو مخطوط وغير ذلك من الكتب المفيدة النافعة ....

كتاب المثل السائر

موضوع الكتاب ومادته :

هذا الكتاب من أشهر كتبه في البلاغة والنقد ، وهو أجلها أثرا ونفعا ، وقد ألفه في العشرين سنة الأخيرة من عمره وظل يدرسه في الموصل .. ومعلوم لنا أنه استقر في آخر حياته بالموصل قرابة تسعة عشر عاما أخذ يوءلف فيها ، ويدوس العلوم لطلابه كما وضحنا ذلك من قبل ..

ويقوم موضوع الكتاب علي أساس علم البلاغة بكل أبوابه ، وما يتصل منها بالنثر أو الشعر جميعا بالاضافة إلي موضوع من النصائح والإرشادات الموجهة الي الشعراء والكُتّاب في أصول الصناعة ..

ولقد بني كتابه علي مقدمه وقسمين كبيرين : أحدهما خاص بالألفاظ أو الصنعة اللفظية والثاني بالصنعة المعنوية ..

وقد تناول ضياء الدين بن الأثير في المقدمة أصول صناعتي الشعر والنثر واهتم بالكتابة الأدبية أكثر من اهتمامه بالشعر ونصح الكُتّاب نصائح لإجادة الصنعة فيها ، وأول ما ينصح به الكاتب أن يكون له طبع وميل للكتابة ، وأن يتعلم العربية والنحو وأصول اللغة ، ويحفظ أمثال العرب وأشعارهم ، القديمة والمحدثة ، ويحفظ القرآن الكريم ويتدرب علي استعماله والحديث الشريف والأخبار النبوية ومعرفة الأحكام السلطانية والتاريخ وأيام العرب وأخبارهم والاطلاع علي تأليفات من تقدم من المنظوم والمنثور ، ومعرفة العروض والقوافي (١)

ثم يتحدث في المقالة اللفظية علي خصائص الألفاظ مفردة ، ويجمعها في سهولة النطق والبعد عن الغرابة ، والحوشية والابتذال مع حسن وقعها في السمع ، وأن يقبلها الذوق ولا ينفر منها الطبع ، وتكون جارية علي قواعد اللغة وأصولها في البناء والاعراب (٢)..

وأما خصائص اللفظ المركب فأكثرها شبيه باللفظ المفرد وفصاحة المركب متصلة كذلك بحسن التأليف ، وهو أن لا ينقل علي اللسان النطق به ، فيصير متعسرا ، في النطق أو ثقيلا علي السمع لتعاقب الأفعال مثلا ، وأن يكون في تأليفه قريبا من المألوف غير شاذ كالتراكيب في الضمائر ، وتعاقب حروف الجر وما إليها ..

---

(١) انظر المثل السائر جـ صـ ٤٣ ومابعدها تحقيق د/ احمد الحوفي ، د/ بدوي طبانه طـ نهضة مصر بالقاهرة ..

(٢) انظر المثل السائر جـ ١ صـ ٢١٠ ومابعدها ..

ويجعل الكاتب من أبواب الألفاظ المؤلفة (مما اعتاده الناس من أبواب البديع والبلاغة) السجع المنثور والتصريح في المنظوم والتجنيس والترصيع ، ولزوم مالا يلزم والموازنة في المنثور [(١)]..

والقسم الثاني الخاص بالمعاني يتحدث فيه عن أبواب المعاني المعروفة في علم البلاغة ، أو معاني القول أي المعاني الإجمالية والجزئية كمعاني الغزل ، ومعاني المدح وما إليها ، والمصطلح البلاغي الذي يندرج تحته أبواب التقديم والتأخير والالتفات والإيجاز والإطناب والاستعارة والتشبيه والكناية وما إليها ...

ثم يختتم الكتاب بالكلام في السرقات الشعرية باعتبار أن السرقات ضرب من المآخذ المعنوية وتصرف الشعراء في المعاني المختلفة والمشتركة [(٢)]

ومما لاشك فيه أن كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) عظيم في فنه دال على سعة اطلاع صاحبه وحسن فهمه، الرغم مما أخذه عليه ابن أبي الحديد في كتابه (الفلك الدائر على المثل السائر) وهي نقدات تتعلق بضياء الدين نفسه أكثر مما يتعلق بكتابه ، فقد أخذ عليه غضه من شأن بعض العلماء وطعنه عليهم ، وإفراطه في الإعجاب بنفسه والتمسك برأيه والتفريط لمعرفته وصناعته ، وعتابه المستمر على دهره إذ لم يعطه على قدر استحقاقه [(٣)]..

---

(١) انظر المثل السائر ١/٢٧٠ ومابعدها ط نهضة مصر
(٢) انظر المثل السائر ٣/ ٢١ ومابعدها ..
(٣) انظر : الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد ط.. نهضة مصر ومقال الأستاذ عبدالستار فراج بمجلة العربي العدد

أسلوب الكاتب وطريقته :

لقد اتصل ضياء الدين بالقاضي الفاضل حين قدمه إلي السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وألحقه بخدمة ابنه الأفضل ، وعمل زمنا طويلا بكتابة الرسائل منذ فجر شبابه ، ومن هنا فنحن نلاحظ أنه قد تأثر بطريقة القاضي الفاضل في كثير من خصائص فن الكتابة ، وتعلم أن القاضي الفاضل استغل التشبيه والاستعارة أتم استغلال ، كما استغل التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والشعر القديم أجمل استخدام ، كذلك كان يتبع التورية في كتابته حتي عدت من دعائمها ، وكان الفاضل نفورا من السجع المتكلف في معظم كتابته ......

ونحن نري أن ضياء الدين يميل الي طريقة القاضي الفاضل ، فكان يميل احيانا الي السجع غير المتكلف ، ولم يكن يميل في سجعه إلي الفقرات القصار ، ولم يكن يستخدم السجع الطويل الفقرات بل كان يراوح بين فقراته طولا وقصرا ، وكان يميل إلي الاقتباس والتضمين والاستعانة بالألفاظ والمعاني أو المجاراة في النسق وطريقة التأليف وما إلي ذلك ..

وكان يعدّ هذا أحسن وأدعي إلي نفس الكاتب ، وأتم لاظهار معانيه واستيعاب ألفاظه ، وخير مثال لاسلوبه المرسل هو كتابه (المثل السائر) (١)

وتختلف عند ضياء الدين العبارة الادبية أو الفنية عن العبارة العلمية أو المنطقية في أن الثانية تقصد إلي المعني مباشرة دون

(١) انظر : ضياء الدين بن الأثير صـ ٥٧ ..

زيادة ونقص ، بخلاف الأولي التي تحتمل أشياء كثيرة ، وقديما حاول اللغويون والمناطقة وبعض النقاد قياس الشعر بالمنطق ومقاييسه وحدوده ، فثار عليهم البحتري حيث يقول :ـ

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

بمعني أن المنطق يبحث عن الصدق ، أي مطابقة الكلام لمقتضي الحال وأما الشعر فيحتمل كثيرا من المجاز والتأويل ..

وقد عمد الكاتب في كتابته إلي عدم الاكتفاء بمخاطبة العقل بل إلي ضرورة التأثير علي المشاعر والأحاسيس وإثارة الانفعالات ، المختلفة عن طريق التخييل أو مخاطبة الحواس والإيهام ....

ولقد ضرب ضياء الدين في كتابه (المثل السائر) بسهم وافر في فن الموازنات التي تعتمد علي ذوق فني أصيل مصقول ، وتعتمد علي فهم سليم لأساليب الشعر ومعانيه وتراكيبه ولغته ، وهو فن دقيق لا يخوض في غماره إلا مَن أعطوا سلامة الذوق ودقة الحس وجودة الفهم وموهبة النقد الأدبي الصحيح ..

وتعرض ضياء الدين في كتابه (المثل السائر) لنقد بعض الكُتّاب والشعراء واكثر من تعرض لهم من سابقيه أبو هلال الصابي فلم تعجبه طريقته في الكتابه وخاصة في تكرار معاني عباراته وتناسب فقراته ، ولم يسلم أحد من نقد ضياء الدين ابن الأثير حتي القاضي الفاضل نفسه ، فقد حاول غمزه والإقلال من شأن كتابته وقد أخذ عليه مرة التقصير في موضوع رسائله ، ومرة أخري عدم مناسبتها

للمقام ومرة ثالثة المبالغة وعدم التناسب في الصور البيانية ، بين تشبيه واستعارة ، ولكن موقفه من القاضي الفاضل مشوب بالهوي لما بينهما من التنافس ولتقدم القاضي عليه في هذا العصر .....

وكان ضياء الدين بن الأثير يعجب كثيرا بالشاعرين أبي تمام والمتنبي لأنهما جمعا بين الفن والعقل ، أو بين الصنعة والطبع ، و ـ وثالث من يعجب بهم من الشعراء البحتري .. أما المحدثون فيعجب بهم أحيانا ويؤاخذهم علي بعض ما سقطوا فيه أحيانا .....

وكان من صفات ضياء الدين ألا يتعصب (كغيره من العلماء واكثر النقاد) للقدماء لتقدمهم ، بل يحكم علي الشعر سواء القديم أو المحدث بماله وما عليه ، وإن كان أكثر ميلا إلي معاني المحدثين وجمال صنعتهم (١)...

ومن هذا كله ندرك ان ابن الأثير كانت شخصيته أدبية ذواقة ، إذ تعمق في فهم أساليب الشعر والنثر وقرأ كثيرا واستظهر من الألوان الأدبية ، ما جعله مسلحا لخوض غمار النقد الأدبي من أوسع أبوابه ، فكتب لنفسه صفحات ناصعة من المجد والخلود ..

الجانب النقدي في كتاب المثل السائر :-

[illegible] ابن الأثير ناقد ذواقة لا يقف أمام القواعد الجافة [illegible] بين الجمال [illegible] أو [illegible] ذوق

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٠

فني مرهف يستطيع به أن يفرق بين هندسة الشكل وانسجام - التراكيب ، وبين نبض الشكل وحيويته ..

والذوق عند ابن الأثير ذوق فني يعتمد أولا علي الدراسة المتأنية ، والعكوف علي ما كتبه السابقون ، ثم التمرن الدائم والدءوب علي استخدام ذوقه في كل ما يعن له من مشكلات أو يعرض له من نصوص وأخبار (١)..

ويذكر الدكتور بدوي طبانه أن المثل السائر من كتب النقد التي لم تعمد إلي سرد الأفكار والنظريات ، وانما كان نقده عمليا وتطبيقيا ، والكتاب يفيض بكثير من الآراء الحرة في الأدب - والأدباء علي هذا النحو من الدرس والتحليل ، ولم يسلم من نقد ابن الاثير كثير من فحول الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب العربي بالاجلال والإكبار كامريء القيس وتأبط شرا والفرزدق وأبي نواس وأبي الطيب المتنبي وغيرهم من كبار شعراء العربية ...... وفي هذا النقد يجد الدارس كثيرا من مظاهر التمسك بالموضوعية ، وفي كثير من الأحيان لا يكتفي ابن الأثير بحكم المعرفة ، ويشجع علي تربية هذا الذوق بالاكثار من القراءة ومداومة الاطلاع (٢)..

ومن المواقف النقدية لضياء الدين بن الإثير ما ذكره في قضية اللفظ والمعني) ، فهو يناصر جانب اللفظ علي جانب المعني ويعلن

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور عبد المنعم يونس في مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية (بعنوان : ابن الاثير وجهوده في الدراسات النقدية) العدد الثالث ٣ ١٩ ..

(٢) انظر ماكتبه الدكترو/بدوي طبانه في مجلة تراث الانسانية المجلد الثاني العدد الثاني بعنوان (المثل السائر في ادب

في صراحة أن العثور علي المعاني الشريفة أيسر من العثور علي الألفاظ الجليلة ، وينص ضياء الدين بن الأثير علي أن المعاني لها جلالها وخطرها ، ولكنها لا تقف مساوية للألفاظ ، ولا يمكن ان تكون قرينة لها ، لأن المعاني في نظره قد حصل عليها أناس لا يستطيعون إلباسها اللباس الملائم لها من اختيار الألفاظ واستقامة التعبير(١)

ومن الملامح الفنية في نقد ابن الأثير رأيه في (السجع) فهو لا يقتصر في ذلك علي النظريات المتعارفة في هذا الباب ويخالف كثيرا من العلماء الذين تورعوا في استخدام كلمة (السجع) في القرآن الكريم ورأوا ان يستعملوا اصطلاح (الفواصل) حتي لا يشبه كلام الله بكلام البشر ، ولا يفوت ابن الاثير استعمال ذكائه في الرد علي العلماء الذين أنكروا علي من يصف بعض فواصل القرآن بالسجع فيقول : (فإن قيل ان النبي صلي الله عليه وسلم قال لبعضهم منكرا عليه ، وقد كلمه بكلام مسجوع : أسجعنا كسجع الكهان ؟ ، ولولا أن السجع مكروه لما انكره النبي صلي الله عليه وسلم ..... فالجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبي صلي الله عليه وسلم السجع مطلقا لقال : أسجعاً ؟ ثم سكت ، وكان المعني يدل علي إنكار هذا الفعل لم كان ؟ فلما قال (أسجعاً كسجع الكهان ؟ (صار المعني مطلقا علي أمر ، وهو إنكار الفعل لم كان علي هذا الوجه ؟ ..

فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غيره

(١) المثل السائر ١/ ١٢٣

وأنه لم يذم السجع علي الاطلاق [(١)]..

ومن القضايا النقدية التي تناولها ابن الأثير في (المثل السائر بدقة متناهية قضية (السرقات الشعرية) ، وهي من البحوث الفنية المفيدة التي ختم بها ابن الأثير كتابه ، وتجعل ابن الأثير ناقـــدا له دوره الفعّال في مجال النقد الأدبي ..

ولقد كان ابن الأثير دقيقا في طرحه لهذه القضية التـــي عالجها غيره من النقاد السابقين كالقاضي الجرجاني في (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ، ابن رشيق في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) وغيرهما ..

وقد رد ابن الأثير في هذه القضية علي مَنْ يدعي أن المعانـــي المبتكرة قد انتهت وأن الناس جميعا ما هم الا مكررون لما قيـــل آخذون ما سبقهم إليه أسلافهم وهم بذلك يقولون كما قال الشاعر [(١)]

(ما أرانا نقولا إلا معادا من قولنا مكرورا)

ثم يقول ابن الاثير : والصحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح الي يوم القيامة ، ومَن الذين يحجر علي الخواطر وهي قاذفة بما لا نهايـة له ؟ أن من المعاني ما يتساوي الشعراء فيه ، ولا يطلق عليه اســم الابتداع لاول قبل آخره ، لان الخواطر تأتي به من غير حاجة إلـي اتباع الآخر للأول [(٢)]

---

(١) المثل السائر ١/ ٢٧٣

(٢) المثل السائر لابن الاثير ٢١٧/٣

وقد تأثر ابن الإثير في طرحه لهذه القضية الهامة بالقاضي الجرجاني وابن رشيق اللذين قررا أن المعاني الشائعة والتعبيرات المألوفة لا سرقة فيهما ، وكأنها أصبحت قوالب عامة يمكن للجميع السير علي نسقها (١)..

وإذا كان ابن الأثير قد سلك مسلك سابقيه في قضية السرقات الشعرية ، فإنه أتي ببرائع القول ، وجميل الحديث ، وكان له فضل الجمع والترتيب وحسن التقسيم ومن ثَمّ يري الدكتور بدوي طبانة أن بحث ابن الاثير في السرقات الشعرية من امتع مباحث المثل السائر وأوفاها ، فقد درسها دراسة منتظمة ، وقسم السرقات الشعرية تقسيما يدل علي عقلية واعية ، واستدل لكل قسم منها بالامثلة الكافية الموضحة التي تدل علي سعة معرفته وكثرة محفوظة ، وقدرته علي لمح الإفادة ، وإن دقت علي النظر (٢)..

ولابن الأثير آراء موضوعية في تفضيل الشعراء ، فله آراؤه السديدة في ابن تمام وأبن الطيب المتنبي والبحتري تبني علي الفهم الدقيق لأشعارهم ، وعلي ذوقه الأدبي الخالص ، داعما آراءه بالتعليل والتماس الحجة التي يستطيع بها إقناع القاريء بما يري..

---

(١) انظر في ذلك : الوساطة للقاضي الجرجاني صـ ٣ ١ ط الحلبي ، العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق ٢/ ٩٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط حجازي سنة ١٩٣٤ م..

(٢) انظر مقال الدكتور بدوي طبانه في مجلة تراث الانسانية...

واذا كان ابن الأثير قد وافق بعض النقاد في شعر المحدثين الثلاثة فإنه أتي برأي جديد خالف فيه كثيرا من النقاد في شعر امريء القيس وزهير والنابغة والأعشي ، حيث فضّل عليهم شعر الفرزدق وجرير والأخطل ، لأنهم أجادوا في كل ما أتوا به من المعاني المختلفة ، وأشعر منهم في رأي ابن الأثير الثلاثة المتأخرون وهم : أبو تمام وأبو عبادة البحتري وأبو الطيب المتنبي ، فإن هؤلاء الثلاثة في رأيه لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء .. (١)

وله آراء كثيرة في مجال النقد الأدبي ، معروفة في كتابه (المثل السائر) وغيره ، ويكفي ما أوردنا من نماذج لهذا النقد الهادف الذي عرف به ابن الأثير فجزاه الله عن ما قدم للغته وأمته خير الجزاء ....

---

(١) انظر المثل السائر ٣/ ٢٧٤ ومابعدها .....

نماذج مختارة من كتاب المثل السائر

(١) من جوامع الكلم (١)

(قال النبي صلي الله عليه وسلم (أوتيت جوامع الكلم) فالكلم جمع كلمة ، والجوامع جمع جامعة اسم فاعله من جَمَعت فهي جامعة كما يقال في المذكر : جَمَع فهو جامع ، والمراد بذلك أنه صلي الله عليه وسلم أوتي الكلم الجوامع للمعاني .. وهو عندي ينقسم قسمين : القسم الأول منهما هو ما استخرجته ونبهت عليه ، ولم يكن لأحد فيه قول سابق ، وهو أن لنا ألفاظا تتضمن من المعني مالاتتضمن اخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها ، فمن ذلك ما يأتي علي حكم المجاز ، ، ومنه ما يأتي علي الحقيقة ..

أما ما يأتي علي حكم المجاز فقوله صلي الله عليه وسلم يوم حنين (الآن حمي الوطيس) وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا (استعرت الحرب) لما كان مؤديا من المعني ما يؤديه (حمي الوطيس) وافرق بينهما أن الوطيس هو التنور ، وهو موطن الوقود ومجتمع النار ، وذلك يخيل إلي السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها وهذا لا يوجد في قولنا (استعرت الحرب) أو ما جري مجراه ..

وكذلك قال صلي الله عليه وسلم (بعثت في نَفَس الساعة) - وذلك أن النَفَس يدل علي أن الساعة منه بحيث يحسّ بها كما يحسّ

---

(١) المثل السائر ١/ ٩٦ ومابعدها ......

الإنسان بنَفَس مَن هو إلي جانبه ·· وقد قال صلي الله عليه وسلم في موضع آخر (بعثت أنا والساعة كهاتين) وجمع بين أصبعيه السبابة والوسطي ·· ولو قال : بعثت علي قرب من الساعة أو والساعة قريبة مني ، لما دل ذلك علي ما دل عليه نَفَس الساعة ·· وهذا لا يحتاج الي الإطالة في بيانه ، لأنه بيّن واضح ··

ولقد ورد شيء من ذلك في أقوال الشعراء والمفلقين ، ولقد تصفحت الأشعار قديمها وحديثها ، وحفظت ما حفظت منها ،وكنت إذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ، ويلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نشوة كنشوة الشعر وطربا كطرب الألحان ، فما جاء من ذلك قول أبي تمام :-

كم صارِم عضِب أناف علي فتىٍ منهم لأعباء الوغي حَمّال
سبق المشيبُ اليه حتي ابتزّه وطَنَ النهي من مفرق وقذالِ[(١)]

فقوله (وطن النُّهي) من الكلمات الجامعة ، وهي عبارة عن الراس ولا يجاء بمثلها في معناها مما يسد مسدها ··· وكذلك ورد قول البحتري :-

قلبٌ يُطل علي أفكاره ويد تُمضي الأمور ونفسٌ لهوها التعب

فقوله (قلب يطل علي أفكاره) من الكلمات الجوامع ، ومراده - بذلك أن قلبه لا تملؤه الأفكار ، ولا تحيط به ، وإنما هو عالٍ عليها ويصف بذلك عدم احتفاله بالفوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكارا تستغرق القلوب ····

(١) العضب : السيف القاطع ·· الوغي : الحرب ·· ابتزّه الشيء : سلبه إياه المفرق : وسط الرأس ·· القذال : مؤخرة الرأس ··

وهذه عبارة عجيبة لا يوءتي بمثلها مما يسد مسدها ...

واما ما يأتي علي حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي :ـ

سقي الله أوطاراً لنا ومآربا تقطّع من أقرانها ما تقطعا (١)

لبالٍ تنسّيني الليالي حسابَها بهلنية أقضي بها الحول أجمعا (٢)

سوي غرةٍ لا أعرف اليوم باسمه وأعمل فيه اللهوَ مرأي ومسمعا

فقوله (لا اعرف اليوم باسمه) من الكلمات الجامعة .. أي أني قد شُغلت باللذات عن معرفة الليالي والأيام .. ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله (لا أعرف اليوم باسمه) ..

واما القسم الثاني من جوامع الكلم ، فالمراد به الإيجاز الذي يدل به بالإلفاظ القليلة علي المعاني الكثيرة .. أي أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعه للمعاني المقصورة علي ايجازها واختصارها وجلّ كلامه جارٍ هذا المجري ، فلا يحتاج الي ضرب الأمثله به ..

(٢) تحليل بعض آيات القرآن

(التخلص) (١)

يقول ابن الأثير وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلي أمرونهي ووعد ووعيد ، ومن حكم الي متشابه ، ومن صفة لنبي مرسل وملك منزل

(١) الوطرة : الحاجة .. القرن : الحبل يقرن به ..

(٢) البهلنية : سعة العيش ..

(٣) المثل السائر ٢/ ٢٤ ومابعدها ط نهضة مصر

إلي ذم شيطان مريد وجبار عنيد ، بلطائف دقيقة ومعان آخذ بعضها برقاب بعض ، فلما جاء من التخلص في القرآن الكريم قوله تعالي : [(١)]

(واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ‥ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ‥ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ‥ أو ينفعونكم أو يضرون ‥ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ‥ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ‥ أنتم وآباؤكم الأقدمون ‥ فإنهم عدوُ لي الا ربَّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين ‥ والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين ‥ والذي يُميتني ثم يحيين ‥ والذي أطمعُ أن يغفر لي خطيئتي يوّ الدين ‥ رب هب لي حُكماً وألحقني بالصالحين ‥ وإجعل لي لسانَ صدق في الآخرين ‥ وإجعلني من ورثة جَنّة النعيم ‥ وأغفر لأبي إنه كان من الضالين ‥ ولا تُخزني يوم يُبعثون ‥ يوم لا ينفع مالُ ولا بنون ‥ الا مَن أتي الله بقلب سليم وازلفت الجنةُ للمتقين ‥ وبرزت الجحيمُ للغاوين ‥ وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ‥ من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ‥ فكُبكبوا فيها هم والغاوون ‥ وجنودُ أبليسَ أجمعون ‥ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين ‥ إذ نُسويكم برب العالمين ‥ وما أضلنا إلا المجرمون ‥ فما لنا من شافعين ‥ ولاصديقٍ حميم ‥ فلو أن لنا كَرّةً فنكون من المؤمنين) ....

---

(١) شورة الشعراء من الآية ٦٩ إلي الآية ١٠٢ ‥

هذا كلام يسكر العقول ويسحر الألباب ، وفيه كفاية لطالب البلاغة ، فإنه متي أنعم فيه نظره ، وتدبر أثناءه ومطاوي حكمته علم أن في ذلك غني عن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن ، ألا تري ما أحسن مارتب إبراهيم عليه السلام مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ، ثم أنحي علي آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، وعلي تقليد آبائهم الأقدمين فكسره وإخرجه من أن يكون شبهه فضلا عن أن يكون حجة ، ثم أراد الخروج عن ذلك إلي ذكر الإله الذي لا تجب العبادة الا له ، ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلا اليه فصور المسألة في نفسه دونهم بقوله (فإنهم عدو لي) علي معني أني فكرت في أمري ، فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله في يده ، وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا ما نصحنا ابراهيم بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك أدعي لهم إلي القبول لقوله ، وأبعث علي الاستماع منه ، ولو قال : فإنهم عدو لكم ، لم يكن بتلك المنابة فتخلص عند تصوره المسألة في نفسه إلي ذكر الله تعالي ، فأجري عليه تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه ، وتعديد نعمه من لدن خلقه ، وإنشائه إلي حين وفاته ما يرجي في الآخرة من رحمته ليعلم من ذلك أن مَن هذه صفاته حقيق بالعبادة وأوجب علي الخلق الخضوع والاستكانة لعظمته ، ثم خرج من ذلك إلي ما يلائمه ويناسبه ، فدعا الله بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوابين ، لأن الطالب

من مولاه ، إذا قدم قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للإجابة وأنجح لحصول الطِّلبة ، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ، ومجاراة الله تعالي مَن آمن واتقاه بالجنة ومَن ضلّ عن عبادته بالنار ، فجمع بين الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته ، ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانيا عند معانية الجزاء ، وهو سؤال موبخ لهم مستهزيء بهم ، وذكر ما يدفعون إليه من ذلك من الندم والحسرة علي ماكانوا فيه من الضلال ، وتمني العودة ليؤمنوا .....

فانظر أيها المتأمل إلي هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض ، مع احتوائه ه علي ضروب من المعاني ، فيخلص من كل واحد منها إلي الآخر بلطيفة ملائمة حتي كأنه أفرغ في قالب واحد ، فخرج من ذكر الأصنام ، وتنفير أبيه وقومه عن عبادتهم إياها مع ما هي فيه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع إلي ذكر الله تعالي ، فوصفه بصفات الألوهية ، فعظم شأنه وعدد نعمه ليعلم ذلك أن العبادة لا تصح إلا له ، ثم خرج من هذا إلي دعائه إياه وخضوعه له ، ثم خرج منه إلي ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه ، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة المودعة في اثناء هذا الكلام .. وفي القرآن مواضع كثيرة من هذه التخلصات ...

(٣) علاقة اللفظ بالمعني (١)

يقول ابن الإثير (إعلم أن العرب كما كانت تتغني بالألفاظ

(١) المثل السائر ٢/ ٦٥ ومابعدها ....

فتصلحها وتهذبها ، فإن المعاني أقوي عندها وأكرم عليها ، وأشرف قدرا في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بألفاظها لانها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلي إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة علي القصد .. ألا تري أن الكلام إذا كان مسجوعا لذ اسامعه محفظه ، وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به إنسه في حالة السجع ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورقعوا حواشيها وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك انما هي بألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ، ونظير ذلك ابراز سورة الحسناء في الحلل الموشية والأثواب المحبّرة ، فإنا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذة لفظه (١) ، وسوء العبارة عنه) ......

رحم الله ابن الاثير ـ الأديب الناقد ـ وجزاه عن اللغة العربية وأبنائها والمهتمين بها خير الجزاء ،،،

دكتور / علي محمد علي طلب

الأستاذ المساعد بقسم الإدب والنقد

بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) بذاذة الشيء : رثاثته وسوء حاله

الشعر يدعو للحكم بما أنزل الله

أ. د عبد الحميد هلال عبد العزيز

في العصر الحديث تكالبت عناصر الشر تصارع عناصر الخير في صورة الإسلام وشريعته الغراء ومبادئه السمحة ، ولكن هيهات أن يصرع شر خيراً ؛ فللخير أنصار ومدافعون يسخرهم الله سبحانه وتعالي ؛ يهديهم للحق ، وبالحق ينصرهم علي كل باطل ·

اشتدت هجمات أعداء الإسلام ، يرمون شريعته بالتخلف ، ورجاله المخلصين بالرجعية وجهدوا أن يقدموا أباطيلهم بدائل عن الإسلام وشريعته ، يغرون ضعاف النفوس والإيمان ، ذوي الثقافة الضحلة المبهورين بما لدي الغرب من بهرج غرار ، وبريق خداع ؛ وهؤلاء من الذين تربوا في حجر الاستعمار في أيامه السود ، التي رزح فيها عالمنا الإسلامي تحت نيره ، وعاني كثيرا من محاولاته الدائبة أن يصرف المسلمين عن دينهم ، وإن لم يستطع صرفهم عن الدين كله فلا إقل من أن يصرفهم عن جوهره ، ويبعدهم عن سامي مبادئه وتعاليمه لأنه أدرك أن لا أمل في بلاد المسلمين ؛ والمسلمون بدينهم متمسكون ولإسلامهم مخلصون ·

أمسي الحال في العالم في ظل حضارة الغرب الزائفة وفي غيبة تحكيم شريعة الله سبحانه وتعالي ـ كما قال الشاعر (١):

والناس إخلاقهم أمست مزعزعة .. والعالم اليوم في خطب سيفنيه
أما الفساد الذي قد بات منتشرا .. في هذه الأرض والشيطان ينميه

(١) محمد صيام ـ من قصيدة له بعنوان : (إلي الأمهات المسلمات نشرت بمجلة المجتمع الكويتية ـ العدد الثاني · السنة الأولي ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م ·

فسوف يلتهم الدنيابأجمعهـــا .. وسوف يغرقها في قعر واديـــه

ونجاة العالم من الفساد المدمر الذي يكاد يأتي علي كل شيء فيـه مرهونة بالعودة إلي الله ، والإلتجاء إلي حكمه ، وتنفيذ شريعتـــه يقول الشاعر نفسه :بعد الأبيات المذكورة آنفا :

يا أيها الناس فلنتجوا بأنفسكم .. ولا تكونوا كمن ضلت مساعيـــه
عودوا إلي الله ينقذكم برحمتـــه .. من الشقاء الذي بتنا نعانيـــه
ولتشتقوا من كتاب الله منهجكـم .. فليس في الأرض منهاج يدانيـه
ولتدركوا هذه الدنيا بدعوتكـم .. حتي تطبوا لها جرحا يقاسيـــه
فقد تردت وهدي الله ينقذهـــا .. وجرحها غائر والدين يشفيـــه

والشاعر نفسه تهوله الموازنة بين ماضي المسلمين وحاضرهم ، إذ يجد البون شاسعا بين ماض حق لمنصف أن يقول فيه (١):

نرث البطولة عن جدود حطموا كل الطغـــاه
ومضوا لإصلاح الحياة يرودهم هدي الإلـــه
سقيا لعهد أولئك الغر الميامين الأبـــاه
كم أدبوا دولا وكم - في الله - قد داسوا جبـــاه

وحاضر لا يجد المنصف مناصا من أن يقول فيه (٢):

واليوم تخلفهم زغائف مالها في الأمر حيلـــه
رتب وتيجان وسلطان وأخبار طويلـــه
وتخيفهم باللفضائح والأسي عصب دخيلـــه

(١) من قصيدة للشاعر محمد صيام (وعد مأمور) المرجع السابـــق العدد ٢٧٣ . (٢) من القصيدة نفسها ..

فيصرخ الشاعر في أمته العربية : أن ترجع إلي الله ، وأن تتبع سبيله ، وأن ترفض انتماءها لغير الإسلام مستمسكة بدعوة الله الأصيلة ؛ حتي يتحقق لها الإنقاذ فما هي فيه بوسيلة وبلا وسيلة :

يا إمة العرب ارجعي لله واتبعي سبيله
وترفعي يا أمتي عن الانتماءات الهزيله
واستمسكي ـ نفس فداك ـ بدعوة الله الأصيله
ينقذك من هذا البلي بوسيلة وبلا وسيلة

ويتوالي شعر الشعراء مدافعا عن الشريعة الإسلامية ، داعيا إلي تحكيمها في شئون الناس .

وشاعر آخر [١] يري ان إصلاح ما حل بالمسلمين لن يتأتي إلا بشريعة الله ، وأن كل المحن التي حلت بالمسلمين إنما حلت بهم بسلل تركهم إياها :

شريعة الله للإصلاح عنوان .. وكل شيء سوي الإسلام خسران [٢]
لما تركنا الهدي حلت بنا محن .. وهاج للظلم والإفساد طوفان

ومن حرص هذا الشاعر وأمثاله علي التمسك بشريعة الإسلام دعوا العرب إلي النسيان ماضيهم قبل ظهوره ؛ فمجد العرب ارتبط به، وتاريخهم الحق بدأ من رسول الله صلي الله عليه وسلم ، الذي جعل للعرب عزا وشأنا ، وأنقذ الدنيا بأسرها بدعوته :

---

(١) هو الشاعر العراقي (وليد الأعظمي) .

(٢) من قصيدة للشاعر بعنوان (ذكر ونسيان) في ديوانه : (أغاني المعركة) ص ٢٢ .

لا تبعثوها لنا رجيعية فتـــــري .. باسم الحضارة والتاريخ أوثـــان
لا (حمورابي) ولا(خوفو)يعيدلنا .. مجداً بناه لنا بالعز قـــرآن
تاريخنا من رسول الله مبدوءه .. وما عداه فلا عـز ولا شـــان
محمد أنقذ الدنيا بدعوتـــــه .. ومن هداه لنا روح وريحـــان
لولاه ظل أبو جهل يضللنــــا .. وتستبيح الدماء(عبس) و(ذبيـان)

وفي ختام القصيدة يقـول :

قرآننا مشعل يهدي إلي سبـــل .. من حاد عن نهجها لاشك خســران
هو السعادة فلنأخذ بشرعتـــه .. وما عداه فتضليل وبهتـــــان
هو السلام الذي تهفوالقلوب لـه .. فلم يعد يقتل (الإنسان) إنسان
هو النشيد الذي ظلت تـردده .. علي مسامع هـذا الكون أزمـــان
قد ارتضيناه حكما لا نبدلـــه .. مادام ينبض فينا منـه الشريان

والشاعر الفلسطيني (أحمد فـرج) يري في شرعه القرآن الكريم المثل الأعلي الذي يحقق بحكمه العدل والإخاء والمساواة، وإن ينصر المكلمون الله بتنفيذ شريعته ينصرهم بعنايته ، وعندما اعتصم بهـــا آباءنا نهضوا نهضة زلزلت عروش الظلم والطغيان :

هل بعد قرآننا نور ومرحمـــة .. أم بعد منزل هذا النور من حكم (١)
دين السماء يؤاخي تحت رايته .. في الله بين ملوكالأرض والخـدم
والناس في حكمه العالي ذووعمل .. كأنهم عسكر في خدمة العلـــم
إن تنصروا الله ينصركم فمن نظرت .. [illegible] م نصرهم ولم يضـــم
آباؤنا نهضوا بالدين واعتصموا .. من الإله بحبل [illegible] منفصـــم

---

(١) ولد الشاعر أحمد فرج عقيلان في قرية الفالوجة بفلسطين عـــام ١٩٢٤م وقد كتب أبياته هذه تحت عنوان (دستور من السماء)

هنالك اهتز عرش الظلم ثم هوي ·· علي الذين أشاعوا الظلم في الأمم
ومن يقم عرش ملك فوق قاعـدة ·· من المظالم والطغيان ينهـــــدم

والشاعر نفسه في قصيدة أخـــري نظمها بعيد حرق المسجد الأقصي ووجهها إلي مؤتمر القمة الإسلامي في الرباط الذي عقد علي إثــــــر هذه الكارثة الأليمة ـ يؤكـد الشاعر في هذه القصيدة أنه لا أمــــل للمسلمين في النصـر ، وحماية أنفسهم من مكائد أعدائهم إلا بالإسلام·

يا قادة الأمة الغراء أمتكـــم ·· إذا رمت بسوي الإسلام لم تُصب

ولقد عرف أعداء المسلمين أن قوتهم في إسلامهم ؛ لذلــــــك استهدفوه معلنين عليه حربا شعواء من التضليل ، وابهام النســـــن في العالم الإسلامي أن الدين ليس سوي رجعية تركس المتمسكيـــــن بأهدابها في النصب والتعاسة :

لما رأي خصمنا في الدين قوتنا ·· مضي يضللنا بالهدم والكــــذب
ويوهم النشء أن الدين ليس سوي·· رجعية تركس الإنسان في النصب

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ؛ فما مــــــن خير أصابنا إلا بتمسكنا بديننا وعقيدتنا ، وما من شر حاق بنـا إلا بتفكبنا سبيل الدين وهديه ورشده ، ولو كنا مجتمعين علي الإســــلام لما نال منا بنو صهيون ما نالوا :

=== ضمن قصيدة له اطلق عليها اسم (البردة الجديدة) عارض بها البوصيري في بردته الشهيرة ، وشوقي في نهج البردة، وقـــــد نظمها عام ١٩٥١م (شعراء الدعوة الإسلامية ·· ج٥ص (٧٢،٧)·

لو اجتمعنا علي الإسلام من زمـــن .. لبات جدُّ بني صهيون في صبب (١)
لكن حملنا شعارات موزعـــــةً .. فكان ما كان من خزي ومن عطب
كل المباديء بعد الدين مهزلـــة .. جرّت عروبتّنا للويل والحـــرب
إذا ابتغينا سوي إسلامنا نسبـــا .. فإن جدتنا حمالة الحطـــــب

وليس أمامنا من سبيل ، وليس لنا من اختيار سوي أن نتمســـك بالعروة الوثقي ؛ دين الله القويم ؛ فلنعلنها إسلامية صريحة، بهـــا نجاحنا ، وفيها نصرنا علي أعدائنا ؛ إن من سعي في سبيل اللـــه هيأ الله له النجاح ، ومن كانت هجرته في سبيل الله ، نصره اللـــه بإلقاء الرعب في قلوب أعدائه :

اليوم بالعروة الوثقي تمسكنـــا .. لا رأي فينـــا لمشّاء ومغتـــرب
فأعلنوها علي الأعداء مسلمـــة .. تُلقي بمن حرفوا الاقداس في اللهب
سيروا علي اسم الذي يحمي مسيرتكم .. فمن سعيفي سبيل الله لم يخب
ومن تكن في سبيل الله هجرتـــه .. فتحت إمرته جيش من الرعُـــب
ولتجعلوا من حطام القدس أشوظة .. تنصب فوق عدو الله كالشهـــب

وكلما ابتعد المسلمون عن دينهم ساء حالهم ، والشباب الصالـــح من أبناء الإسلام يقلقه إمعان القوم في هذا المنزلق الخطير، ويزعجـه سوء المتقلب وما ينتظر المسلمين من مصير ، وها هو ذا شاب مـــن أولئك الغيورين ، وهبه الله نعمة حسن التعبير ، فهب ينشد قصيـــدة يجأر فيها بالشكوي من انحراف قومه عن الحق والصراط المستقيم:

---

(١) الصبب : ما انحدر من الأرض ..

يارب أنّت زفرة بجنانـــي .. جزعت لها الأهوال والحدثان (١)
ضجّت إلي الرحمن تشكو أمة .. تلهو ، وجدا غار في الأزمـــان
وتثير في قلبي المنّي حسـرة .. وتهيج في نفسي لظا الأشجـــان

روّع شاعرنا الفتي (عبد الرحمن العبادي) ما رأت عيناه مـــن واقع الحياة المسلمين ، وقد حجبت سماءهم ، ولفت أرضهم سحابـــة كئيبة جمعت عليهم الأحزان والآلام مع ما انتشر فيهم من رذائـــل وآثام ، وادلهمّ ظلام تلك السحابة حتي لم يعد المسلم يبصر الموقـــع السليم لخطاه ، واشتد به ظمأ قاتل للإصلاح والصلاح والمورد بعيـــد لا يستطيع الاهتداء اليه :

ورمقت وجه الأرض وهي كئيبة .. تجثوعليُها ظلمة الأحـــزان
قد سربلت آفاقها بسحابـــة .. من غيهب متراكم فتـــان
والساحة الغراء لُطّخ وجههـــا .. برزذيلة وخنا بكل مكـــان
تاهت خطا الإنسان في أرجائها .. وتعثرت كتعثـر الســـكران
فبكل فـج ردة ، وعقيـــدة .. ساقت جموع الناس للنيـــران
والناس ظمأي في متاهات الردي .. لم يهتدوا لموارد الظمـــآن

ثم يروح الشاعر يعدد الخطايا والآثام وأوجه العصيان التي تـردي فيها المسلمون حتي خلا الميدان للزنادقة والملاحدة يصولون ويجولون ويقودون الفتيان والفتيات إلي هاوية المرتكس ، وبئس المصير :.

---

(١) من قصيدة بعنوان : (شكوى) الشاعر عبد الرحمن العبادي) المولود في (دبي) عام ١٩٥٢م . (شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث جـ ٨ صـ ١٠١ ـ ١٠٥) .

ومن البلايا ، والبلايا جمـــة .. من هم غدوا شوءما علي الأوطان
كم فاسق فيهم ، وكم من ظالـم .. عات جحود فاقد الإيمــــان
دور المراقص والملاهي والخنا .. هـي عندهم ركن من الأركـــان
والمارقون لهم حظوظ عندهـم .. من كاتب لبق ، ومـن فنّـــان
والخمر أم الخبث ملء ديارهـم .. يسقي القصي بكأسها والدانـــي
والكفر والإلحاد راجت سوقـه .. برحابهـم ، ودعارة المجّـــان
والحاقد الزنديق قد بسطت له الدنيا فقام يصـــول في الميــدان
فغدا الملاحدة الأبالس قـادة .. لجحـافل الفتيات والفتيـــان

ولم يصل بالمسلمين إلي تلك الحال السيئة إلا ابتغادهم عن شريعة الرحمن ، وتعطيلهم حكم القرآن .

كفي ما كان أيها المسلمون ، توبوا إلي رشدكم ، وعودوا إلـــي أهداب شريعتكم السمحة الغـراء فتشبثوا بها تسعدوا في حاضركـــم كما سعد آباؤكم في ماضيهم ؛ لقد بني الإسلام بمبادئه القويمة السمحة للمسلمين علي مر التاريـخ صروحـا عزّ علي الزمان أن يبليها ، وفـي استطاعتكم أيها المسلمون أن تعيدوا هـذا المجد ، وأن تشيــدوا مثل هـذه الصروح فهيّـا :

يا إخوة الإمان هبوا وارفعـــوا .. فوق الروابي رايـة الرحمـــن
فالكون يشكو للإله مصابـــــه .. والأرض تندب غفلة الوسنـــان
وابنوا صروحا من مباديء ديننـا .. واهدوا الحياري من بني الإنسان
ولقد بني الإسلام مالم يبنـــه .. أهل الذُّرا في غابر الأزمـــان

فسلوا المشارق والمغارب هل روت .. من عدلنا قصَصاً عظيم الشـــأن
وسلوا الجزيرة عن أناس عطـــروا سمع الحياة وأفقهـــا المـــزدان
قد خلّدوا ذكرا أغرّ ، سنـــاؤه وسناه من إشراقة القــــرآن

وشاعر آخر معاصر هو الاستاذ (محمد كامل الأنيّ) [1] يحار في أسرار الكون :؛ فيرخي لفكره الزمام علّه يجد ما يريحه ، بحث عن الفلاسفة ، فلم يجد في فلسفتهم شافيا ؛ وجدها سرابا يتلاشي بدون أن يفيد الفكر شيئا ، ووجدها ترهات باطلة لا يسبقها العقل السليم الذي كرم به الله سبحانه وتعالي الإنسان ، يقول في مطلع قصيدة له بعنوان (الإسلام دين ودولـة) [2]

أفكر طول الليل ، والليل كالـح .. وأرخي زمـام الفكر ، والفكر جامح
وأسبح في يم الفضاء فـــلا أري .. لـه ساحـلا حتي يعانيه سابـــح
وحولي رموز الكائنات تحيط بـي .. وأسئله حيري ، وقد عزّ شـ
أسائل أفكار الفلاسف علّهـــا .. تجود بما جادت عليها القرائـــح
فألفيتها وهم الســراب وكلّمـــا .. تلاشي سراب جاء في الإثر لائـــح
وإن هي إلا ترهات جبلّـــــة .. خلت ، صاغها كلب علي الوهم نابح

ولم تظل حيرة الشاعر مع الفلاسفة ، فلقد تركهم وفلسفتهم ، والتجـأ إلي الإسلام فوجد فيه ضالته ؛ وجد فيه صلاح الدنيا والآخرة ، وجد فيه

---

(١) ولد بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في ناحية (انة) من بلاد الحبشة ، تخرج في جامعة صنعاء عام ١٩٧٧ متخصصا في الشريعة والقانون . (شعر الدعوة الإسلامية ... جـ ٨ ص ١٢٧ وما بعدها .
(٢) [illegible]

دينا قويما يهذب المشاعر ، ويطهر القلوب ، ويريح العقول ، يأخذ بيده المسلم إلي أحسن نظام ، وأرقي سلوك ، وأنفع دستور يأخذ بيده إلي النصر المبين ، إذا كانت الفلسفة قد أورثت حيرة وظلاما ، فإن الإسلام نور للعقل وهدي ورشاد :

فلم أر كالإسلام دينا ولم أجد .. سواه طريقاً تقتضيه المصالح
نعم ملة الإسلام دين ودولة .. وشرع لأنواع التطور صالح
نظام وآداب سلوك وحكمة .. سلاح ودستور لنا ، ولوائح
ضياء هدي الإسلام في الكون مشرق وعرف شذاه في البرية فائح
فتسمو به الأرواح حتي كأنها .. تخاطب أملاك السما وتصافح
يطوف الحجا في نوره وكأنه .. هلاك الدُّجي عبر المجرة سابح
فمن مثلنا هذا الضياء ضياؤنا .. له شرر مثل النيازك لافح؟

أنظروا أيها المسلمون ، كيف كان أثر الإسلام فينا ، وكيف كان أثره في أعدائنا :

لقد أشرقت أيامنا من ضيائه .. إذا لكل غادٍ في سناه ورائح
وعادت به أيام أعدائه دجي .. وتلك لياليهم حسوم بوارح

ولا تغرنكم أيها المسلمون حضارة أعداء الإسلام ، تلك الحضارة القائمة علي الانحلال ؛ فمصيرها التفسّخ ، وأن تحتاجها جائحة مهلكة ، وإن فاخركم أعداء الإسلام بحسن الطالع في هذا العصر فللأيام دورة ، وليس أدل علي صحة الإسلام وسلامة سبيله من أنهم يضمرون لكم البغضاء مع الحسد ، وسوف يأكل الحسد أحشاءهم ، ولن

يضركم بغضهم شيئا :

إذا ما بنوا بالإنحلال حضـارة ··سيجتاحها بعد التفسخ جائـح
وإن فاخروا بالسعد في كل منزل فللبرج سعد في المنازل ذابـح
وإن يحسدونا أشعلوا نار حقدهم ·· فتشوي بهـا أحشاؤهم والجوانـح
وإن بدت البغضاء من لهجاتهـم ·· فكل إنـاي بالذي فيه ناضـح
وما ضر ضوء الشمس نقمة أعمشـه ·· فذي موقـة فوق الحواجب طافـح
فبغتم كالجعلان حقا ويرتمـي ·· إذا عبقت حول الدروب روائـح
حقود حسود يلهب الحقد صـدره ·· كنود لدود في الخصومـة كاشـح

وشريعة الإسلام تستند إلي ركن شديد من كتاب الله الكريم، يقول فيه الشاعـر بعد أن حث أمة الإسلام علي الثورة والكفاح :

وهذا كتاب الله بينك قائـد ·· يقارع خطب الدهر،والخطب فادح
كتاب مبين واضحات فنونـه ·· عباب محيط زاخر العلم راجـح
بشير لأصحاب اليمين ومنـذر·· مهذِّب أخلاق البرية ناصـح
شفاء لما في الصدور نور ورحمـة ·· دليل لأبواب السعادة فاتـح
فمورده عذب فرات وغيـره ·· أجاج عقيم علقم الطعـم مالـح
فمَن مثلُنـا هذاالكتاب كتابنـا··تخرّج فيه المرزون الحجاجـح

وإن تعجب فاعجب للمسلمين ؛ يكون هـذا شأن كتابهم ولا يستجيبون لدعوته ، ويتركون بحرا زاخـراً بتشريعاته القويمة ، ويلجئون إلي بئر نزوح يلتمسون فيها الثمالة ، ويرمون وراء ظهورهم سنة نبيهم والهدي منها يلوح كالبدر ، ويجرون وراء سراب خـدّاع

من تشريعات بشرية :

فما بالنا لا نستجيب لدعوته .. ينادي بهافوق المقابر صائح

تركنا كتاب الله بحرا،ونستقي .. غديرا كما يسقي من البئر رائح (١)

رمينا وراء الظهر سنة أحمد... تركنا هداها وهو كالبدر لائح

وعدنا نحابي كالخفافيش للدجي .. يُداهن فينا عالم متسامح

نهيم إلي لمح السراب كأننا .. ضوامر في الصحراء هيم روازح

وكانت لنا شريعة غراء تقبس منها الشمس وضوحا وهداية

ويعم نورها البسيطة ، وأمسينا الآن نستجدي من الغرب شمعة بدلا من شمسنا ، وهيهات عطاء نافع من غرب أو شرق :

وكناب نعير الشمس من قبساتنا . فيكسوالربي فيض من النور كاسح

وهانحن نستجدي من الغرب شمعة .. فلاالغرب رمط،لا،ولاالشرق مانح

فإن مَنَحا عاد العطاء دُجُنّة .. يتيه بها عقل الفتي وهو راجح

ويعدد الشاعر ما حاق بالمسلمين من أضرار ، وهي كثيرة ، بسبب الانصراف عن شريعة الله قائلا :

مساجدنا تبكي الشباب من الجفا .. وغصت بهم دورالخنا والمسارح

مدارسنا ماجت بكل ملوث .. يصاب بعداوة الحجا والجوارح

أيُرجي صلاح والمدرس فاسد .. أيصلح جيل والمعلم طالح ؟

وكان هذا نصيب المؤسسات الدينية والتربوية والثقافية من الضرر بسبب البعد عن شريعة الله ، ومبادئه وقيم الإسلام . أما الأضرار التي

---

(١) المائح : الذي ينزل البئر فيملأ الدلو، وذلك إذا قل ماؤها.
(الصحاح للجوهري) .

لحقت من جراء ذلك بحياتنا السياسية فهي لا تقل في أثرها عما أصابنا في المجالات السالفة :

وفينا رعاة شامخات أنوفهم .. من الجهل بالتخطيط،والجهل فاضح
عليها خطام الذل يجترها الهوي . ويحدو بها عقل من التيه نازح
إذا اجتمعوا دبّ الخلافُ فاخفقوا .. وعادوا وما أوري من الزّند قادح
وإن حميت حرب السّباب حسبتهم .. وعولا جلاميد الصخور تُناطح
تكال إليهم بالهجاء مثالب .. وتتلي عليهم بالرجاء مدائح
فلم يبتعث من نخوة القوم شاتم .. ولم يستتر للأريحية مادح

حقا إذا اجتمع قادة المسلمين دب الخلاف بينهم ، ونعيش الآن مأساة خلاف دب بين زعماء العرب المسلمين ، فقد اعتدت دولة كبري (الولايات المتحدة الأمريكية) علي دولة عربية (ليبيا) وتنادي العربُ من أجل الاجتماع للنظر في أمر هذا العدوان الخطير ولكن الخلاف بينهم كان أسرع من اجتماعهم ، وفشل اجتماع القمة العربية قبل أن ينعقد وذلك في غيبة حكم الشريعة الإسلامية ، ولو كان المسلمون حريصين علي تنفيذ حكم شريعة الإسلام لما أفسد الخلاف علي العرب اجتماعهم ؛ فقد حدث الخلاف بسبب حرب الخليج بين العراق المسلمة وإيران المسلمة ، وتعصب بعض الدولة العربية للعراق ، وبعض منها تعصب لإيران . الفريق الأول أراد بحث أمر هذا الحرب بين البلدين المسلمين مع بحث العدوان الأمريكي علي ليبيا . والفريق الثاني إبي الإقتصار علي بحث المشكلة الجديدة ، ولذلك لم يتم الاجتماع

ولو كانت الشريعة الإسلامية حاضرة بين المسلمين الآن لما وجدت مشكلة حرب الخليج ، أو لما استمرت مع تنفيذ قوله تعالي :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما علي الأخري فقاتلوا التي تبغي حتي تفيء إلي أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين . ﴾ (١)

ترك المسلمون تنفيذ شريعة الله سبحانه وتعالي فتفرقوا وفشلوا وذهب ريحهم :

ويختم شاعرنا قصيدته بدعوة أمة الإسلام إلي العودة لدعوة الحق دعوة الله العظيم فيما شرعه لهم دينهم القويم :

ألا عودة يا أمة المجد إنها .. لعودة حق وهو أبلج لائح
ألا يقظة يا أمة النور إنها .. ليقظة عملاق زوته الكوابح
نعم ملةُ الإسلام في الكون دوحة .. وفي ظلها يغدو الهُدي ويراوح
علي كُلِّ فرع عندليب مغرِّد .. وفي كل غصن بلبل الحق صادح

والدعوة إلي تحكيم شريعة الله هي دعوة إلي التدين بمعني أن ينتظم الدين كل أمور المسلمين ، وقد سلك بعض شعراء الدعوة الإسلامية في الدعوة إلي الدين لتنظيم شئون الحياة - سلكوا مسلكا خاصا، إذ انصرفوا نحو إفهام المسلمين وشبابهم علي وجه الخصوص حقيقة

---

(١) سورة الحجرات . الآية ٩

الدين ، وأنه ليس مقصورا علي مزاولة شعائر العبادات كما قد يتبادر إلي بعض الأذهان القاصرة عن مرامي الدين الحقيقية ورسالته في الحياة ، وها هو ذا الشاعر (محمود غنيم) يستقبل صدور مجلة الشهاب سنة ١٩٤٧م بقصيدة بعنوان (تحية الشهاب) ونشرت في المجلة نفسها في عددها الأول - يقول فيها موضحا حقيقة الدين ، ورسالة شريعته :

وأحمل لواء الدين واهـ .. ـد الحائرين إلي الصواب
وانقع نوسنا طالما .. رجت الغمام من السراب
حيَّيت فيك عصابة .. لبسوا علي الطهر الثياب
هم في المصلّي خاشعو .. ن وفي الكريهة أسد غاب
ليس التدين عندهم .. محض السجود والاقتراب
الدين زهد واحتسا .. ب ، وهو سعي واكتساب
الدين أس حضارة .. شماء عالية القباب
الدين إعداد الصوا .. رم والمسوَّمة العراب
الدين أجنحة محلقة .. علي متن السحاب
الدين جيش يحمل الـ .. أوطان أمنع من عقاب
الدين كل الدين تحـ .. رير الحمي من الاعتصاب

ويؤكد هذه النظرة إلي الدين وشريعته الشاعر (أحمد محرم) في أبيات من قصيدة له بعنوان :

(توبوا إلي الهدي) (١)

(١) ديوان محرم ٠ جـ ١ صـ ١٠٩

هل الدين إلا معقل نحتمي بـــــه ·· إذا دلف العادي إلينا فأسرعا؟

هل الدين إلا روح يحيي نفوسنا ·· حيـاة ترينا ما حـل العيش ممرعا؟

هو الدين إن يذهب فلا عزة بعده ·· وإن جد ساعينا علي إثرمن سعي

د/ عبدالحميد هلال عبدالعزيز

استاذ الأدب والنقد المساعد في كليـــــة

اللغـة العربيـة بأســـيوط

الرسول والشعر

ا٠د عبد الصبور ضيق محمد

يلقي الباحث في ثنايا سنة الرسول صلي الله عليه وسلم عددا من الأحاديث والآثار. بعضها يشير الي ثناء الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم خيرا علي الشعراء ، وحثه لهم علي قول الشعر فيما ينصر الدعوة ، ويعلي كلمة الله ، ويدعو إلي الأخوة والمحبة والهدي وبعضها يشير إلي استهجان الشعر ، والدعوة إلي تركه ، والحث علي هجر قوله أو الاستماع له ٠٠

وقد حملت دعوة الرسول صلي الله عليه وسليم في حديث له إلي ترك الشعر بعض اصحاب الرأي علي القول بهجر الشعر ونبذ الشعراء وإصدار الاحكام بلا تحقيق علمي ، أو سند شرعي مدروس

إن التناقض الموهوم بين الرأيين أو الدعوتين : التشجيع علي قول الشعر ، والحث علي تركه ، لايقوم بحال أبداً ، وذلك أن التشجيع علي قول الشعر وروايته ، أو الحث علي هجره وتركه يرجعان إلي نوعية الشعر ، وغرضه وغايته ، وهو ما أشرنا إليه في ثنايا هذا البحث ، وما حاولنا توضيحه وتبيانه ٠٠

فالشعر الصالح المعبر عن وجدان الشاعر وعواطفه وأحاسيسه في الخير والهدي ، هو الذي أحب الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم أن يستمع إليه ، وحث الشعراء المؤمنين علي قوله ، والشعر السيي ء المعبر عن منكر ، أو الداعي إلي فحش وباطل هو الذي

نهي الرسول صلي الله عليه وسلم عن قوله أو الاستماع له والاصغاء لمنشده أو راويه ....

لقد سرّ الرسول صلي الله عليه وسلم بالشعر الحسن واستمع لكثير من الشعر ، سواء ما ألقي بين يديه ، أو مارغب في أن يسمعه واستزاد منه ، ومن أشهر من كان يستمع لشعرهم ، حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير رضي الله عن شعراء الدعوة أجمعين ....

(عن الشريد رضي الله عنه قال : رَدِفتُ رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟ قلت : نعم ، هيه ، فانشدته بيتا فقال هيه ، ثم انشدته بيتا فقال هيه حتي انشدته مائة بيت) (١)

ولعمري كيف يمكن لرسول الله صلي الله عليه وسلم أن يحرم الشعر ، أو يُرغِبّ عنه وهو علي مثل هذا الإعجاب ، أو الرغبة في سماعه ، ومن شعر رجل مشرك كان بينه وبين الإسلام خصومة وعداوة .... وقد روي جابر بن سمرة رضي الله عنه قال (٢) جالست النبي صلي الله عليه وسلم اكثر من مائة مرة ، فكان اصحابه يتناشدون الشعر ، يتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية ، وهو ساكت وربما تبسم معهم ......

---

(١) رواه مسلم ١٧٦٧/٤

(٢) رواه الترمذي [illegible]

ومثل هذا الحديث يشير إلي كثرة ما كان يستمع النبي له من الشعر يتناشده اصحابه فيما بينهم ، بعد أن عرفنا أنه صلي الله عليه وسلم كان يرغب في أن يستمع للشعر الجيد من أصحابه .

(قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلي الله غليه وسلم يخصف نَعلَهُ وكنت جالسةً أغزل ، فنظرتُ إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً قالت فبهت فنظر إلي فقال : مالك بهت ؟ فقلت يا رسول الله ، نظرت اليك فجعل جبينك يعرق ، وجعل عرقك يتولد نوراً ، ولو رآك أبو بكر الهزلي لعلم أنك احق بشعره. قال ما يقول يا عائشة أبو بكر الهزلي ؟ قالت هذين البيتين :ـ

ومبرأ من كل غُبَّر حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلي أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

قالت : فوضع صلي الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقام إليَ ، وقبل ما بين عيني وقال : جزاك الله خيرا يا عائشة ما سُرِرتِ مني كسروري منك) (١)

أي قمة سامقة من الخلق النبوي الرفيع يبلغ بها ربُّ العزة نبيه ، وأي مستوي كريم من الروح الإنساني يتحلي به صلوات الله وسلامه عليه

قمة التواضع أن يخصف سيد الخلق نعله بيده ، وأن تغزل زوجه البرة الطاهرة ثوبها بيدها ، بل ان ذلك هو المنهج العملي السليم

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة ....

الذي يصنعه صلوات الله وسلامه عليه لمن أراد أن يحكم أمة ، أو يقود شعوباً ، أو يوجه الضائعين من الخلق ..

وقمة الحنان أن تتطلع عائشة الإنسانة إلي جبين محمد صلي الله عليه وسلم الانسان ، فتحب تلالوء العرق علي جبينه الشريفة وتبهت لذلك الجمال النبوي الطاهر ..

وقمة الحب أن يكافيء الرسول (صلي الله عليه وسلم) زوجه بتقبيل ما بين عينيها علي صفاتها وذكرها له بما حسن من المعاني وماجلمن الوصف ، مما حمله علي الدعاء لها : جزاك الله خيرا يا عائشة ، ما سررت مني كسروري منك

إن الوسيلة الأدائية لذلك كله والأسلوب التعبيري الذي أثار الحنان والحب ، وحرك الوجدان والمشاعر في قلب النبي صلي الله عليه وسلم ونفس الصديقة بيتان من الشعر ، تمثلت بهما أم المومنين رضوان الله عليها بين يدي سيد الخلق وخاتم النبيين ..

وأخرج ابن جرير عن عروة أن حكيم بن حزام رضي الله عنه خرج إلي اليمن فأشتري حلة ذي يزن ، فقدم بها المدينة علي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فأهداها له ، فردها رسول الله صلي الله عليه وسلم وقال : (إنا لا نقبل هدية مشرك) فباعها حكيم ، فأمر رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فأشتريت له فلبسها ثم دخل فيها المسجد ، قال الحكيم : فما رأيت أحدا قط أحسن منه فيها ، لكأنه القمر ليلة البدر ....

فما ملكت نفسي حين رأيته أن قلت :ـ

وما تنظر الحكام بالحكم بعد ما ... بدا واضح ذو غرة وحجـــول

إذا قايسوه المجد أربي عليهـــم ... كمستفرغ ماء الذناب سجيل

فضحك الرسول صلي الله عليه وسلم (١)

لقد كرم الرسول (صلي الله عليه وسلم) الشعر بأن استمع له حتي في مسجده ، مادام ذلك الشعر وسيلة من وسائل الخير ، وأسلوبا من أساليب البناء ..

(عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلي الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي ويقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم علي تنزيلـــــه

ضربا يزيل الهام عن مقيلــه ... ويذهل الخليل عن خليلـــــــه

فقال عمر يا بن رواحة : بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال له النبي صلي الله عليه وسلم(خل عنك يا عمر فلهي أسرعُ فيهم من نضح النبل) (٢)

وقد ورد أنه صلي الله عليه وسلم ، لما جاءه بنو تميم وشاعرهم الأقرع بن حابس نادوه ، يا محمد اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك فإن مدحنا زين ذمنـــا ، فلم يزد صلي الله عليه وسلم علـــي أن قال : ذلك الله اذا مدح زان وإذا ذم شان ؛ إني لـــم أبعث بالشعر ، ولم أومر بالفخر ولكن [illegible] ، فأمر الرسول صلي الله

(١) حياة الصحابة : ٤٥٧/٣ وقد ارخجه الطبراني عن حكيم بن حزام
(٢) رواه الترمـــزي ....

عليه وسلم ثابت بن قيس أن يجيب خطيبهم ، فخطب فغلبهم فقام الأقرع بن حابس فقال :

أتيناك كما يعرف الناس فضلنا   إذا خالفونا عند ذكر المكارم
وأنّا رؤوس الناس من كل معشر   وأن ليس في أرض الحجازكوارم

فأمر رسول الله صلي الله عليه وسلم حساناً يجيبهم فقال :ـ

بني دارم لا تفخروا إن فخركم   يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم   لنا خَول مابين قن وخادم

ان رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بذلك يقرر حقيقة أنه نبي لا شاعر ، لكنه لا يرفضَ أن يستمع لخطيب القوم وشاعرهم بل نراه يصدر أمره لصحبه من حوله أن ينبروا للرد علي القوم ـ بأسلوبهم الذي يعرفون ، ولغتهم التي يفهمون ، ويغلب خطيب رسول الله (صلي الله عليه وسلم) خطيبهم ، وينتصر شاعر النبي الكريم (صلي الله عليه وسلم) علي شاعرهم ويدخل القوم في الإسلام استجابة لقوله الحق ونداء الدعوة ..

قال ابن حجر : وفي الحديث حل إنشاد الشعر بالمسجد بل ندبه إذا اشتمل علي مدح الإسلام وأهله ، أو هجاء الكفار وتحقيرهم والتحريض علي قتالهم ..

عن يزيد بن عمر بن مسلم الخزاعي عن أبيه عن جده قال :
دخلت علي النبي (صلي الله عليه وسلم) ومنشد ينشده قول سويد بن عامر المصطلقي :

لا تأمنن وان امسيت في حـــرم ... إن المنايا تحمي كل إنسان
فاسلك طريقك تمشي غيرمخشـع متي تلاقي الذي منيك الماني
فكل ذي صاحب يوما مفارقـــه وكل ذاد وان أبقيته فـــان
والخير والشر مقرونان في قـــرن بكل ذلك يأتيك الجديـدان

فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) : لو أدرك هذا الإســـلام لأسلم (١) ..

وأنشد بيت طرفة للنبي صلي الله عليه وسلم (٢)

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهـلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وسمع النبي صلي الله عليه وسلم عائشة وهي تنشد شعر زهير برجناب تقول :

إرفع ضعيفك لا يحل بك ضعفـــه يوما فتدركه عواقب ما جني
يجريك أو يثني عليه فإن مـــن أثني عليك بما فعلتكمن جزي

فقال النبي صلي الله عليه وسلم : صدق يا عائشة لا يشكر الله من لا يشكر الناس (٣)

وأخرج البيهقي عن عائشة - رضي الله عنها - يقول :

لما قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم المدينة جعل النساء والصبيان يقلن (٤)

طلع البدرعلينـــــا من ثنيات الـــوداع
وجب الشكر علينـــا ما دعا للـــــه داع
أيها المبعوث فيـنـــا جئت بالأمر المطاع

(١) العقد الفريد جـ٥ صـ ٢٧٥ ، موقف الاسلام من الشعر د/ صلاحالدين عبد التواب (٢) العقد الفريد جـ ٥ صـ ٢٧١
(٣) العقد الفريد جـ ٥ صـ ٢٧٥ ..
(٤) حياة الصحابة ٩

ويحث القادرين من أصحابه علي قول الشعر طالما اغتنم فرصة ليحث اصحابه علي قول الشعر فيها ، سواء أكان أولئك الأصحاب ممن عرف عنهم قول الشعر موهبة وغزارة عطاء ، أم ممن تسمح لهم فصاحتهم وفطرتهم العربية السليمة بأن يقولوه أو يتمثلوا به :

وسواء أكان ذلك الشعر قصائد أم مقطوعات أم أبياتا تردد ، في وصف المؤمنين أو حثهم علي العمل الصالح والجهاد الحق ، فإنه صلي الله عليه وسلم كان يرتاح لما يسمع وتطمئن نفسه لما يقال ..

أخرج ابن عساكر عن طلحة - رضي الله عنه - قال : لما كان أحد ارتجزت بهذا الشعر :

نحن حماة غالب ومالك   نذب عن رسولنا المبارك
نضرب عنه القوم في المعارك   ضرب صفاح الكوم في المبارك

وما انصرف رسول الله صلي الله عليه وسلم يوم أحد حتي قال لحسان رضي الله عنه :

..... (قل في طلحة) - رضي الله عنه - (فقال) (١)

وطلحة يوم الشعب آسي محمدا   علي ساعة ضاقت عليه وشقت
يقيه بكفيه الرماح وأسلمت   اشاجعة تحت السيوف فشلت
وكان إمام الناس إلا محمدا   اقام رحي الإسلام حتي استقلت

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

حمي نبي الهدي والخيل تتبعه   حتي إذا ما لقوا حامي عن الدين
صبرا علي الطعن اذا ولت حما تهم   والناس من بين مهدي ومفتون

(١) حياة الصحابة ١٢/٢

يا طلحة بن عبيد والله قد وجبت لك الجنان وزوجت المها العين (١)

وقال عمر رضي الله عنه :ـ

حمي نبي الهدي بالسيف منصلتا لما تولي جميع الناس وانكشفوا

فقال النبي صلي الله عليه وسلم (صدقت يا عمر) (٢)

وقال صلي الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة : ما الشعر يا عبد الله ؟ قال شيء يختلج في صدري فينطق به لساني .. قال فأنشدني ، فأنشده شعره الذي يقول فيه :ـ

قبلت لله ما أتاك من حسن قفوت عيسي بإذن الله والقدر

فقال النبي صلي الله عليه وسلم (واياك قبلت لله .. وإياك قبلت لله) (٣)

حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال : (أخبرنا شعيب عن الزهري قال اخبرني ابو سلمه بن عبد الرحمن بن عوف انه سمع حسان ابن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة :

أنشدك الله هل سمعت النبي صلي الله عليه وسلم يقول :

يا حسان أجب عن رسول الله صلي الله عليه وسلم اللهم أيده بروح القدس : قال أبو هريرة : نعم) (٤)

وروي عن البراء رضي الله عنه عن رسول الله صلي الله عليه وسلم : أهج المشركين فإن جبريل معك ـ قال لحسان بن ثابت (٥)

(١) المصدر السابق ..
(٢) منتخب الكنز جـ ٥ صـ ٦
(٣) العقد الفريد ٣/ ٥ ٣
(٤) رواه البخاري
(٥) رواه البخاري ومسلم .....

ولذا عرفنا أن حسانا رضي الله عنه لم يكن رجل حرب ولا طعان أدركنا فيما يكون جبريل معه ، يلهمة كلمة الحق ، ويعينه علي نصرة دين الله .. وعلي الرغم مما كان عليه حسان رضي الله عنه من نفور من الحرب أو القتال فقد دعاه الرسول صلي الله عليه وسلم أن يزجي من بضاعته التي هي أسرع من نضج النبل ، وحثه علي أن يهجو المشركين ، وأن ينال منهم حين تنكروا لدين الله ، وحاربوا دعوته وكذبوا رسوله ..

وبذلك يتقبل الرسول صلي الله عليه وسلم من كل مسلم طاقته التي ، وقدرته التي يمنحها الدعوة ، سواء أكانت جهادا ، بالسيف أم جهاداً باللسان علي أن يكون ذلك الجهاد الجسدي أو الفكري خالصا لوجه الله تعالي ولا يبتغي سواه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرازق حدثنا معمر عن الزهري عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي صلي الله عليه وسلم : إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل) (١) ..

وقد أذن النبي الكريم لحسان بن ثابت أن يهجو المشركين ، ودعاه إلي أن يلقي أبا بكر رضي الله عنه العالم بالأنساب حتي يهجو قريشا وغيرها عن علم ودراية ..

عن حسان قال : (استأذنت النبي صلي الله عليه وسلم في هجاء المشركين فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم (فكيف بنسبي

---

(١) تفسير ابن كثير ....

فقلت : لأسلنّك منهم كما تسل الشعرة من العجين)[1]..

ويروي أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال : من ينجي أعراض المسلمين ؟ فتقدم حسان مع من تقدموا ، وقال للرسول صلي الله عليه وسلم وقد اخرج لسانه : والله يارسول الله إنه ليخيل لي أني لو وضعته علي حجر لفلقه ، أو شعر لحلقه) فقال الرسول صلي الله عليه وسلم : أنت له ، أذهب إلي أبي بكر يخبرك بمثالب القوم ، ثم اهجهم وجبريل معك[2]

وفي رواية أنه قال : لا تعجل وأت أبا بكر فإنه أعلم قريش بأنسابها حتي يمحص لك نسبي[3] وراح حسان يعرف أخبار القوم في الجاهلية ويبحث عن مثالبهم ، من جبن وبخل وتقاعس عن النجدة مما كان يعير به العرب وكان رضي الله عنه يتتبع ذلك مستعينا بعلماء الأنساب العارفين بأحوال العرب وأيامهم وما كانوا عليه في الجاهلية ..

ولما كان حسان رضي الله عنه يهجو قريشا أحيانا بالضلالة والتخلف عن الهدي واتباع الهوي وبيع الآجلة بالعاجلة ، وهو بذلك يغرف من بحر الدعوة التي آمن بها ويطعن فيمن تخلف عنها وأدبر وفي الحالتين كان حسان رضي الله عنه يبغي وجه الله بإذلال ، نفوس الكافرين والحد من غطرستهم وعنجهيتهم التي كانوا يقابلون بها أتباع الدعوة الجديدة الذين تفتحت أذهانهم ،واستنارت بصائرهم فهجروا عبادة الأوثان إلي عبادة الله وحده ، ولقد فعل

(١) رواه البخاري (٢) العقد الفريد
(٣) رواه في الرياض النضرة وقال حديث حسن صحيح ....

هجاء حسان فعله فكان أسرع من نضح النبل ، وأشد علي نفوس المشركين من وقع الأسنة ..

الشعر سلاح في المعركة :

سار في موكب الدعوة الظاهر وفي عهد الرسول صلي الله عليه وسلم جمع من شعراء الدعوة مهاجرين وأنصار ، وكانوا حول رسول الله يلتفون ، يدفعون كلمة السوء ويعلون أصواتهم بالحق وليس لهم من طمع في دنيا نزول أو عرض يفني ، ولكنهم يبحثون عن رضوان الله وطمأنينة رسوله ودعواته لهم ..

وإذا نالهم أو نال بعضهم جزء من الغنيمة فإن ذلك ليس من أهدافهم التي نحوها يسعون ، ولكنه عرض في الطريق لا يرد ولو أرادوا أضعافه في معكسر الشرك لوجدوه وأكثر منه لدي أعداء الدعوة ، ولفتحت لهم خزائن تجار قريش تغمرهم بالعطاء ، وهو غاية الشعراء من أمثال الأعشي الذي جعل بينه وبين لقاء رسول الله صلي الله عليه وسلم بمائة من الإبل ..

كان جاهليا قديما وأدرك الإسلام في آخر عمره ورحل إلي النبي صلي الله عليه وسلم في صلح الحديبية فسأله إبو سفيان بن حرب عن وجهته الذي يريد فقال : أردت محمدا .. قال انه يحرم عليكم الخمر والزنا والقمار .. قال : أما الزنا فقد تركني ولم أتركه ، وأما الخمر فقد قضيت منها وطراً ، وأما القمار فلعلي

أصيب منه عوضا ، قال له : فهل لك إلي خير ؟ قال : وماهـــو؟ قال : بيننـا وبينه هدنه فترجع عامك هذا وتأخذ مائة ناقة حمراء فإن ظفـر بعد ذلك أتيته وإن خفرنا كنت قد أصبت من رحلتك عوضا .. فقال : لا أبالي فأخذه أبو سفيان إلي منزله وجمع عليـه أصحابه وقال : يا معشر قريش : هـذا أعشي قيس .. ولئن وصـل الي محمد لينصر من عليكم العرب قاطبة فجمعوا مائة ناقة حمـراء فانصرف فلما صار بناحية اليمامة ألقاه بعيره فقتله (١)

لقد وقف المهاجرون بصبرهم وتضحياتهم إلي جانب النبـي الكريم في معركته ضد الباطل ، ولم يتخلف عن ذلك شعراؤهـم من أمثال عبدالله بن جحش وأخوه أبو أحمد وعبد الله بن الحارث السهمي وعثمان بن مظعون ولم تتخلف شواعر المهاجرون مـن النساء عن الوقوف بصدق وثبات مع النبي الكريم من أمثال بنـت أثاثة بن عبد المطلب وصفية بنت عبد المطلب ونعم بنت سعيـد زوجـة شماس ..

وقف الأنصار بسيوفهم المشرعة وقلوبهم المؤمنة يفتحونهـا لرسول الله صلي الله عليه وسلم وصحبه من المهاجرين الأبـرار ولم يتخلف من الأنصار شعراؤهم ، بل كانوا طليعة موكب الدعـوة وعماد معركتها الكلامية التبليغية الإعلامية من أمثال حسان بـن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحـة ....

---

(١) انظر الشعر والشعر[illegible]

ويستجيب الرسول صلي الله عليه وسلم لاستغاثة الشعر في مواقف كريمة ذكر بها الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم، منها ما يحرك عاطفته الصافية ووجدانه الشفيف ويذكره بطفولته وهو يعلو علي صدر ظئره ويدرج بين يديمربينهومنها ما يذكره بواجبه نحو حسنائه ويدعوه للوفاء وهو أكرم من وفي بعهد أو صدق بوعد

ومن حديث زياد بن طارق الجشمي قال حدثني أبو جرولالجشمي وكان رئيس قومه قال أمرنا النبي صلي الله عليه وسلم يوم حنين فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :-

أمنُن علينا رسول الله في كَرَم فإنك المرء نرجوه وننتظر
أمنن علي نسوة قدكنت ترضعها يا أرجح الناس حلماحين يختبر
إنالنشكر للنعمي إذا كفُرت وعندنا بعدهذا اليوم مدّخر

فذكّرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه ، فقال عليه الصلاة والسلام (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لله ولكم) فقالت الأنصار وما كان لنا فهو لله ولرسوله ، فردّت الأنصار ما كان بين ايديها من الذراري والأموال (١)

ويروي الزبير بن بكار قال : مر رسول الله صلي الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه فسمع رجلا ينشد في بعض أزقة مكه :

(١) العقد الفريد جـ ٥ صـ ٢٧٩ ، موقف الاسلام من الشعر د/ صلاح عبد التواب صـ ١٠٦

يا أيها الرجل المحول رحله ∴ هلا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبي : يا أبا بكر ،أهكذا قال الشاعر ؟ قال لا يا رسول الله ولكنه قال :-

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف

فقال صلي الله عليه وسلم : هكذا كنا نسمعها (١)

وكان الذي هاج فتح مكة أن عمرو بن سالم الخزاعي ، ثم أحد بني كعب خرج من مكة حتي قدم علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وكانت خزاعة في حلف النبي صلي الله عليه وسلم وفي عهده وعقده ..

فلما انقضت عليهم قريش بمكة وأصابوا منهم ما أصابوا أقبل عمرو بن مالك الخزاعي بأبيات قالها :- فوقف علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين أظهر الناس فقال :

يارب إني ناشد محمدا ∴ حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنت والدا وكنا ولدا ∴ وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا ∴ هم تبنونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا ∴ فانصر هداك الله نصرا ابدا
وادعو عباد الله يأتوا مددا ∴ فيهم رسول الله قد تجردا
إن سيم خطة وجهه تربدا ∴ في فيلق كالبحر يجري مزبدا

قال ابن هشام : فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم (نصرت

---

(١) موقف الاسلام من الشعر صـ ١٠٤

يا عمر بن سالم [1]..

وروي ابن إسحاق صاحب المغازي وابن هشام : قال ابن اسحاق لما نزل رسول الله صلي الله عليه وسلم الصفراء[2] ، وقال ابن هشام . الأثيل - موضع قرب المدينة - أمر عليا فضرب عنق النفر بن الحارث ابن كلدة بن علقمة بن عبد مناف صبرا - وهو أحد المشركين الذين حاربوا الرسول والمسلمين يوم بدر - فقالت أخته قتيله بنت الحارث ترثيه[3] (وقيل : انها بنت النفر وليست أخته) ..

يا راكبا إن الأثيل مظنة	من صبح فامسة وأنت موفق
ابلغ بها مبتا بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق
هل يسمعني النفر إن ناديته	أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد ياخير ضبن[4] كريمة	في قومها والفحل معرق[5]
ما كان ضرك لومننت وربما	منّ الفتي وهو المغيظ المُحنق
أوكنت قابل فدية فلينفقن	بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنفر أقربهم من أسرت قرابة	وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تشقق
صبرا يقاد إلي المنية متعبا	رسف المقيد وهو عان موثق

قال ابن هشام . فيقال - والله اعلم - إن رسول الله صلي الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغني هذا قبل قتله

(١) العقد الفريد جـ ٥ صـ ٢٠ (٢) دار من ناحية المدينة في طريق الحج (٣) السيرة لابن هشام جـ٢ صـ ٥ ٢ ، العقد الفريد جـ٥ صـ ٢٧٩

(٤) الضبن : الأصل (٥) المعرق : الكريم

لمتت عليه ..

ولما انتهت معركة بدر ، نظر رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي قتل المشركين مصرعين ، فقال لأبي بكر رضي الله عنه : لو أن أبا طالب حي لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالأماثل مشيرا الي قول أبي طالب (١) :

وأنا لعمر الله إن ما أري :. لتلتبسن أسيافنا بالأماثل
وينهض قوم في الحديد إليكم :. نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

وحين شحت السماء ذات ربيع ويصلي الرسول صلي الله عليه وسلم صلاة الاستقاء داعيا ربه ، لم يكد يفرغ من دعائه حتي تدفق المطر كأفواه القرب وكانت السماء قبل ذلك صحوا ما نري بها قزعة ، فنظر رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي أبي بكر وسأله مبتسما : ماذا قال الشيخ ؟ يريد أبا طالب فأنشده أبو بكر قوله : (١)

وأبيض يستقي الغمام بوجهه :. ثمال اليتامي عصمة للأرامل
يطيف به الهلال من آل هاشم :. فهم عنده في نعمة وفواضل

الرسول صلي الله عليه وسلم يثني علي الشعر ويكرم الشعراء :

لقد ذكر الرسول صلي الله عليه وسلم الشعر بخير ، وأثني علي الشعراء أطيب الثناء ، وهو إذ يفعل ذلك انما يحث الناس علي كلمة الحق التي تنفع الامة وتعود علي المؤمنين بفائدة ..

---

(١) موقف الاسلام من الشعر والشعراء د/ صلاح الدين محمد عبدالتواب صـ ١٠٣ ط أولي ....

إنه يوءكد للناس أن الشعر ينطوي علي العبرة والموعظة والحكمة الخالصة ، ويبين لهم ان من الشعراء الاطهار من لا يقول رفثا ولا يتكلم بمعصية أو ينطق بباطل ..

ولم يكن صلي الله عليه وسلم ليكتفي بالقول ثناء بل تعداه الي المكافأة والتكريم اللذين يرجوهما الشعراء عادة من روءساء القبائل وأمراء العرب ملوكهم فكيف من نبي مرسل ورسول كريم

لقد بلغ من تكريم الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم للشعر والشعراء أن وضع لحسان ابن ثابت رضي الله عنه منبرا في المسجد وطلب اليه أن يفاخر المشركين وأن ينافح عن رسوله الأمين وهو إلي ذلك يمنح المستحق بردا وحلة من أرديته الكريمة وثيابه الطاهرة وهي عند الشعراء الإيمان وألسنة االدعوة أغلي وأثمن من كل أموال الأرض ..

عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال : إن من الشعر حكمة (١) وروي (عن ابن عباس رضي الله عنه قال : جاء أعرابي الي النبي صلي الله عليه وسلم فجعل يتكلم بكلام فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم (إن من البيان لسحرا وأن من الشعر حكما) (٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : وهويقص في قصصه وهو يذكر رسول الله صلي الله عليه وسلم . ان أخاكم لا يقول

(١) رواه إلبخاري أبو داود والترمزي ..
(٢) رواه أبو داود جـ ٥ /٢٧٧ ، ٢٧ ..

الرفث يعني بذلك ابن رواحة رضي الله عنه ..

وفينا رسول الله يتلو كتابه .:. إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدي بعدالعمي فقلوبنا .:. به موقنات أن ما قال واقـــــع
يبيت يجافي جنبه من فراشه .:. إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وجاء في حاشية التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزبيدي ، قول الهيثم والزهري (١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلي اللـــه عليه وسلم يضع لحسان منبرافي المسجد يقوم عليه قائما يفاخر أوينافح عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ويقول رسول الله صلي الله عليه وسلم :

إن الله يوءيد حسان بروح القدس ما يفاخر أو ينافح عن رســـول الله) (٢)

ومدح عباس بن مرداس رسول الله صلي الله عليه وسلم فكساه حلة ، ومدحه كعب بن زهير فكساه بردا اشتراه منه معاويـــــه بعشرين الف درهم وان ذلك البرد لعند الخلفاء الي اليوم (٣)

وكان مما أثني عليه رسول الله صلي الله عليه وسلم : الشعـــر الصادق الذي صدر عن لبيد حيث قال : أصدق كلمة قالها الشاعـــر قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطـــل ..

---

(١) التجريد الصحيح لاحاديث الجامع الصحيح ..
(٢) رواه أبو داود ٥/ ... ٢
(٣) العقد الفريد جـ ٥ صـ ٢٩١

وقال له النبي صلي الله عليه وسلم : صدقت ، ثم قال لبيد :

وكل نعيم لا محالة زائل ..

فقال النبي : كذبت .... نعيم الجنة لا يزول (١)

وقد أنشد لبيد أبياته اللامية مخاطبا الرسول صلي الله عليه وسلم حين وفد عليه جماعة من قومه والتي قال فيها :

أتيناك يا خير البرية كلها .. لترحمنا مما لقينا من الأزل (٢)

وعن أبي حاتم عن الأصمعي قال : جاء رجل إلي النبي صلي الله عليه وسلم فقال : أنشدك يارسول الله ؟ قال : نعم ، فأنشده :-

تركت القيان وعزف القيان .. وأدمنت تصلية وابتهالا

وكري المشقر في حومة .. وشني علي المشركين القتالا

فيارب لا أغبنن صفقتي .. فقد بعت مالي وأهلي بدالا

فقال النبي صلي الله عليه وسلم : ربح البيع ، ربح البيع (٣)

وقدم أبو ليلي النابغة الجعدي علي رسول الله صلي الله عليه وسلم فأنشده شعره الذي يقول فيه :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا .. وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي صلي الله عليه وسلم إلي أين يا أبا ليلي ؟ فقال الي الجنة يارسول الله بك ، فقال النبي صلي الله عليه وسلم (إلي الجنة إن شاء الله) فلما انتهي الي قوله : (٤)

(١) كتاب اللطائف للمقدسي صـ ٢٥ (٢) ديوان لبيد صـ ٢٧٧
(٣) العقد الفريد جـ ٥ س ٢٧٦
(٤) راجع جمهرة اشعار العرب صـ٣٣ ،العقد الفريد جـ٥ صـ ٢٧٦

ولاخير في حلم إذا لم تكن لـه:: بوادر تحمي صفـوه أن يكـــــدرا
ولاخيرفي جهل إذالم يكـن لــه:: حليم إذا ما أورد الأمر أصـــدارا

قال النبي صلي الله عليه وسلم (لايفضفـض الله فاك) فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له ثنية) ..

وجـد هذا البيت منسوبا إلي كعب في طبقات فحول القوارير ووجـد منسوبا إلي حسان في القصد الفريـد جـ ٥ صـ ٢٧ ....

وقال النبي صلي الله عليه وسلم لكعب بن مالك أترَيَ الله نسي لك قولك :

زَعَمَتْ سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغـــــلاب (١)

وذكر عيس بن عمر عز بعض اهل الطائف ، عن أخت (٢) أُميـة بن أبي الصَّلت ، فقالت : إني لفي بيت فيه أُمية نائم ، اذ اقبـل طائران أبيضان فسقطا علي السقف ، فَفُرِج السقف فسقـــط احدهما عليه ، فشق بطنه وثبت الآخر مكانه ، فقال الأعلي للأسفـل أَوَعَي ؟ قال : وَعَي .. قال : أَقَبِلَ ؟ قال : أبي ـ ويقال (قـال) زَكّـا .. قال : خَسَـا ـ فرد عليه قلبه وطار ،والتأم السقف قالـت : فلما استيقظ قلت له : يا أُخي .. أحسست شيئاً .. قال : لاَ وإنـي لأجـد توصيبا ، فما ذاك ؟ فأخبرته .. قال : يا أُخَيَّة أنا رجـل أراد الله بي خيرا فلمأقبله قالت فلما مرض مرضته التي مات فيها قالت : فإني عنده إذ نظر الي السماء وشق بصره ثم قال :

(١) العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٧ (٢) هذه القصة روتها لرسول الله صلي الله عليه وسلم اخته القارعة بنت أبي الصلت ، وكانت امراة ذات لب وعفاف وجمال ، وكانت قدمت عليه مسلمة ..

لَبَّيكُمـا لَبَّيكُمـا هَـا أنا ذا لَدَيكمـا

لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو قوة فأنتصر ، ثم أغمي عليه ، ثم شـق بَصَرُه ونظـر وقال :

لبيكمـا لبيكمـا هَـا أنا ذا لديكمـا

وقال : لا ذو عشيرة تحميني ، ولا ذو مال يدفيني ، ثم اغمي عليـه فقلنا : قد أودَي .. ثم شق بَصَرُه ونظـر الي السماء وقال :

لبيكمـا لبيكمـا هَـا أنـا ذا لديكمـا

بالنعم محفود ، من الذنب مخضور ، ثم أغمي عليه ، ثم شق بَصَرُه وقال :

ان تَغفِر الّلهمّ تغفرْ جَمّا وأَيُّ عَبدٍ لك لا ألَمّـا

ثم أغمي عليه ثم افاق فقال :-

ليتني كُنت ، قبل ما قد بدالي: في قلال الجبال ارعي الـوعولا (١)

كل عيش وان تطاول دهــراً: قصره مرة الي أن يَـــزُولا

وهو الذي نزل فيه قول الله تعالي (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنـا لرفعناه بها ولكنه اخلد الي الأرض فمثله كمثل الكلب إن تحمـل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنـا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) (٢)

وكان يهجو الرسول ويرثي قتلي بدر ومع هذا فقد كان الرسول

(١) طبقات فحول الشعراء جـ ١ صـ ١٦٥ - ١٦٧

(٢) سورة الاعراف الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦

صلي الله عليه وسلم يستنشد شعره ويقول آمن لسانه وكفر قلبه بل ان الرسول صلي الله عليه وسلم قد استشهد بقوله :-

ان تَغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

ولو كان الرسول يكره الشعرلاعرض عن شعر أمية هذا علي الأقل وهو حاقده اللدود .. (١)

وقد روي عمر بن أبي زائدة قال : سمعت مدرك بن عمارة ابن عقبة بن أبي معيط يقول : قال عبد الله بن رواحة : مررت بمسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو في نفر من أصحابه فأضب القوم (٢) : يا عبد الله بن رواحة يا عبد الله بن رواحة فعرفت أن رسول الله صلي الله عليه وسلم دَعاني ، فإنطلقت إليهم مسرعا ، فسلمت فقال : هَهنُا : فجلست بين يديه فقال : كأنه يتعجب من شعري : كيف تقول الشعر إذا قلته ؟ قلت : انظُر في ذلك ثُمَّ أقول .. قال : فعليك بالمشركين .. قال : فلم اكن اعددت شيئا ، فأنشدته ، فلما قلتُ :

فخبروني أَثمان العباءِ ، متي — كنتم بَطَاريق أودانتلكم مضر (٣)

قال : فكأني عرفت في وجه رسول الله صلي الله عليه وسلم الكراهة إذ جعلت قومه (أثمان العباد) (٤)

---

(١) انظر البيان النبوي ، د/ محمد رجب البيومي صـ ٧٩ ، موقف الإسلام من الشعر - د/ صلاح الدين محمد عبد التواب صـ ١٠٣
(٢) أضب القوم : صاحوا وجلبوا وتكلموا كلاما متتابعا ..
(٣) رواه الآمدي في المؤتلف والمختلف صـ ١٢٦
(٤) العباد : كساء جاف غليظ ، فجعلهم اثمان العباء في الخسة ..

فقلت :ـ

نجالد الناس عن عرض فنأسرهـــم
فينا النبي وفينا تُنَزّلُ الســـــور
وقد علمتم بأنا ليس غالبنــــــا
حَيٌّ من الناس ان عزوا وان كثروا
يا هاشم الخيرِ إنَّ الله فضلكــــم
علي البرية فضــلا مـاله غيـــر
اني تفرست فيك الخير أعرفـــه
فِراسة خالفتهم في الذي نظـــروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهـــم
في جُل أَمرك ما آوَو ومـا نَصَـــروا
فثلبت الله ما آتاك من حســـن
تثبيت موسي ، ونصرا كالذي نصِروا

فأقبل عليّ بوجهه مبتسما .. ثم قال : وإياك فثبت الله (١)

الرسول صلي الله عليه وسلم يدعو للشعراء :

إن خير ما يرجو الشعراء المؤمنون وأطيب ما يتمنون أعظم من كلمة الثناء أو موقف التكريم أو عطاء الواهب أن ينالهـــم من دعـاء الرسول الكريم لهم بالجنة أو حسن الثواب ، وقد دعـــا الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم لعدد من الشعراء في مواقـــف متعددة تمثل رضاه عن الشعر والشعراء ما التزموا الخير وكان بينهم وبين الدعوة أصرة ورثاق لا تنفصم عراه .

---

(١) طبقات فحول الشعراء صـ ٢٢٥ ، ٢٢٦

أنشده حسان بن ثابت حين جاوب عنه أبا سفيان بن الحارث بقوله :

هجوت محمدا فأجبت عنـــه ... وعند الله في ذاك الجـــــزاء

فقال له : جزاؤك عند الله الجنة يا حسان ..

فلما قال :

فإن أبي ووالده وعرضـــــي ... لعرض محمد منكم وقـــــــاء

قال له : وقاك الله حر النار ..

فقضي له بالجنة ـ مرتين في ساعة واحدة وسبب ذلك شعره (١)

الر سول صلي الله عليه وسلم يتمثل بالشعر :

كان النبي صلي الله عليه وسلم يتمثل بين الحين والآخربالشعر مما كان يحفظه أو يستمع له ..

وسواء أكان تمثله بالشعر مستقيم الوزن أو أنه يعمد الـــــ الإخلال بوزنه عن قصد ليعمق في أذهان اصحابه والناس جميعـــا أنه صاحب دعوة لا صاحب شعر وأنه رسول كريم لا شاعر فإن ذلك يشير إلي أن ترديد الشعر أمر لا غبار عليه بل السوء كل الســـوء فيما يقال من قول فاحش أو كلام منكر سواء تردد علي لســـان خطيب أو لسان شاعر .....

عن جندب رضي الله عنه قال : بينما النبي صلي الله عليـــه وسلم يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت أصبعه فتمثل يقول (٢)

(١) العمدة جـ ٢ (٢) العقد الفريد جـ ٥ ص ٣ ، ٢ رواه البخاري

هل أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

فهذا من المنثور الذي يوافق المنظوم ، وإن لم يتعمد به قائله المنظوم ، ومثل هذا من كلام الناس كثير ، يأخذه الوزن ،مثل قول عبدٍ مملوك لمواليه اذهبوا بي إلي الطبيب وقولوا قد اكتوي ومثله كثير مما يأخذه الوزن ولا يراد به الشعر ولا يسمي قول النبي صلي الله عليه وسلم وإن كان موزونا شعرا ، لأنه لا يراد به الشعر ومثله في آي الكتاب : (ومن الليل فسبحه وادبار النجوم) ومنه (وجفان كالجواب وقدور راسيات) ومثله : (ويخزهم وينصركم عليهم) ويشفي صدور قوم مؤمنين) ومنه (فذلك الذي يَدُعّ اليتيم)

وسئلت عائشة رضي الله عنها ، هل كان النبي صلي الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويتمثل ويقول : (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) ..

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :
ألا كل شيء ما خلا الله باطل .. وكان امية بن أبي الصلت ان يسلم (٢)

وعن البراء رضي الله عنه قال : رأيت النبي صلي الله عليه وسلم يوم الأحزاب ينقل التراب وقد واري بياض بطنه وهو يقول

(١) رواه الترمزي ..
(٢) رواه الشيخان والترمزي ...

لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولي قدبغواعلينا إذا أرادوا فتنة أبينا

وعن أنس رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك ، فلما رأي ما بهم من الغضب والجوع قال :

إللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للإنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :-

نحن الذين بايعوا محمدا علي الجهاد ما بقينا أبداً

وعنه رواية انهم كانوا يقولون :

نحن الذين بايعوا محمدا علي الإسلام ما بقينا أبداً

وهو يجيبهم :

اللهم خير إلاخير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة(٢)

وقد كان الرسول صلي الله عليه وسلم ينقل البن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر(٣)

الرسول صلي الله عليه وسلم يدل الشاعر علي ما هو أفضل :

لكعب بن مالك قصيدة طويلة يرد فيها علي ضبيرة بن أبي

(١) موقف الإسلام من الشعر صـ ٩٧
(٢) البخاري في الجامع (٣) في تخريج العلامة العراقي لأحاديث احياء علوم الدين قال . انفردالبخاري بهذا البيت في قصة الهجرة

وهب .. وقد قال فيها :-

مجالدنا عن جزمنا كل فخمة مذربة فيها القوانس تلمع

ويروي أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال حين سمع هذا البيت ألا يصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ فقال كعب ، نعم : فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم فهو أحسن فكان كعب يقولها كذلك [١]

الرسول صلي الله عليه وسلم يذكر المسلمين بشعر حسان ويستجيب لأمنية شعرية لشاعر الدعوة :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : لما دخل رسول الله صلي الله عليه وسلم عام الفتح رأي النساء يلطمن وجوه الخيل فيتسم إلي أبي بكر وقال (يا أبا بكر ، كيف قال حسان)
فانشده أبو بكر رضي الله عنه :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
تظل جيادنا متمطرات يلطمهن بالخمر النساء

فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم (أدخلوها من حيث قال حسان)

الرسول صلي الله عليه وسلم يذم الشعر وسبب ذلك :

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال (لأن يمتليء جوف أحدكم قيحا حتي يريه [٢] خير من أن يمتلي شعرا) [٣]

(١) الأغاني جـ١ صـ ٣ ، السيرة ق ٢ صـ ١٣٦
(٢) البداية والنهاية جـ٤ صـ ٢٩٤
(٣) يريه من الوري وهو داء يفسد الجوف .. (٤) رواه مسلم ٤/١٧٦٩

وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث عن ابن الهاد عن محتس مولي مصعب بن الزبير عن ابي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلي الله عليه وسلم بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلي الله عليه وسلم (خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتليء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلي شعرا)(١)

ومن الغريب أن ينبري فريق من الناس يستهجن الشعر ويستقبحه لموقف واحد أو حديث معين للرسول الكريم ويتناسي كل مواقف الثناء وأحاديث الحث علي الشعر كما بينا من قبل ..

إن المتدبر للأمر الممعن النظر فيما يقرأ يستطيع أن يدرك أن الذم قد قصد به شاعر معين في موقف خاصن أو شعر معين من طراز خاصن كذلك ، ولا يقبل عقلا أو نقلا أن يكون في موقف النبي الكريم تناقض أو في أوامره تعارض واختلاف حيث نراه يثني علي عدد من الشعراء خيرا وعلي طراز معين من الشعر ثم إذا به في موقف آخر يذم الشعر والشعراء فيقبل بالقيح دون الشعر في جوف المرء أو يسمي شاعرا من الشعراء شيطانا ..

لقد بات واضحا أن الإسلام قرآنا وسنة ميز شعراء الدعوة عن شعراء الوثنية وخصن شعراء الإيمان والخير بالثناء العطر بينما خصن شعراء الكفر والشر بالخزي واللعنة والصفار ..

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : (لأن يمتليء جوف أحدكم

(١) تفسير ابن كثير : تفسير سورة الشعراء ٣٥٣/٣

قيحا حتي يريه خير له من أن يمتلئ شعرا) فإنه فيمنغلب الشعر علي قلبه وملك نفسه حتي شغله عن دينه وإقامة فروضه ومنعه من ذكر الله تعالي وتلاوة القرآن والشعر وغيره - كما جري هذا المجري من شطرنج وغيره سواء (١)

نستطيع أن نتبين مما ورد من نصوص صريحة وأحداث ثابته وقعت في حياة النبي صلي الله عليه وسلم أن الشعر حظي بالتكريم وأن له في تاريخ الدعوة الإسلامية مكانة ، وأن الشعراء قد نالوا من ثناء الرسول عليهم ودعائه لهم مكافأته اياهم ما يؤكد رضاه صلي الله عليه وسلم عن الشعر العف الهادف والشعراء والاطهار ...

وإننا لنراه صلي الله عليه وسلم يحث من يحسن أن يقول الشعر من أصحابه أن يقوله في المناسبات التي تدعو لذلك ..

وهكذا عرفت الدعوة الإسلامية ألسنة الحق الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذابين عن حياض الإسلام من شعراء الهدي والدعوة إلي الله ..

ولقد كان الناس انماطا ونماذج شتي وهم يقبلون علي دعوة الله ، فمنهم من آمن مصدقا رسول الله الصادق الأمين الذي ما عرف عنه الكذب قط ، ومنهم من أعمل عقله وتدبر أمره وراح ، يتفكر فيما دعي إليه فآمن ، وفريق أقبل علي الدعوة لجميل ما لمس

(١) البخاري في الجامع .....

وكريم ما رأي من سلوك المؤمنين الدعاة منهم ، ومن آمن لإعجاز القرآن أو فصاحته ....

ومع ذلك فإننا نجد الشعر أناساً يقدرونه ويجعلونه اعجابا بشاعر أو خوفا من هجاء كما حدث لوفد بني تميم ورئيسهم الأقرع بن حابس الذي قال : لخطيبهم - ويعني خطيب المسلمين - أخطب من خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا .... ثم آمنوا ودخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم ..

ولم تقف مهمة الشعر في عهد الرسول الكريم عند حد الدعوة المباشرة إلي الله أو هجاء المشركين واعداء الدعوة بل إننا لنراه في ميادين العمل وساحات الجهاد يردده أصحاب النبي ويتمثل به صلي الله عليه وسلم ..

ولم يمنع نزول الوحي يومئذ وحفظ انلمسلمين آيات من القرآن الكريم وحفظ بعضهم لكل ما كان ينزل من أن يلجأ المسلمون الي الشعر يرددونه علي ألسنتهم بين يدي الرسول أكان في مجالس الراحة والسمر ، أم في مواقف الجد العصيبة باعتباره نشيد عمل وكفاح وحداء معركة وجهاد في سبيل الله ..

محمد صلي الله عليه وسلم رسول لا ناقد :

وعلي الرغم مما سقناه من نصوص وأوضحناه من قول حول رأي الرسول الكريم في الشعر والشعراء فإنه صلوات الله عليه وسلامه

لم يكن فيما قال من آراء وفيما عقب من كلام علي الشعر والشعراء ناقدا أديبا تناول جوانب القوة والضعف ، أو القبح والجمال الفني في شعر شاعر ذلك أنه قد بعث نبيا لأمة ورسولا للخلق ولم يبعث ناقدا أو حكماً بين الشعراء ...

وفي ذلك يقول الأستاذ العقاد :-

وقد نقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأي النبي في الشعر والشعراء لا تدخل في النقد الفني وتدخل في كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بمقياس الخيروالصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة) (١)

وقد استحسن ما قيل من الشعر في النضح عن الإسلام والذود عنه وعن آله فكانت آراوءه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام ، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح ، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم في قواعد النقد والانشاء (٢)

ما كان النبي شاعراً قط :

لقد ركز القرآن الكريم علي نفي صفة الشعر أو قوله عن النبي صلي الله عليه وسلم ولم يكن ذلك تحريما للشعر أو ازدراء للشعراء وتحقيرا لمكانتهم ، وإنما كان لأسباب واضحة بينة أهمها :-

---

(١) عبقرية محمد العقاد ..
(٢) عبقرية محمد العقاد ..

أولا :

إن النبي لم يكن في الحق شاعراً ولم يقل الشعر قط ، وبذلــك يكون نفي قول الشعر عنه تقريراً لواقــع وذكرا لحقيقــــة لا إستهجاناً للشعر أو ازدراء لقائليه ، ولو اتهم المشركــــون رسول الله صلي الله عليه وسلم بأنه طبيب بارع مثلا وكان بين التهمة والرسالة ارتباطا لما استبعد أن ينزل في ذلـك قرآن ينفي التهمة الباطلة والزعم المردود مثلما نفي القــرآن صفة الألوهية عن السيد المسيح لأنه ليس كما زعم المبطلون بــل رسول رب العالمين ....

ثانيا :

أن قريشا اتهمت الرسول عليه الصلاة والسلام تهما باطلة منهـا أنه كان ساحرا كاهنا مجنونا كاذبا يروي اساطير الأوليــن وأنه كان شاعراً فوددت الآيات الكريمة تفند كذب المشركين وباطل الكافرين وترد التهمة وتنفي الزعم ، وأن بين الشعــر والسحر والجنون والكهانة في اذهان العرب قديما رباطـــا وعلاقـــة تقوم علي الغوص والقوة والرهبة كما يؤكدون العلاقــة بين السحر والشعر ذلك أن لكل من الساحر والشاعر مــارد من الجن يحركة ويوحي له أفكاره وأخباره، كما أن لكل منهما تأثيرا علي المستمعين لسحر الساحر أو شعر الشاعر علي حــد ســواء ..

(ووجه الشبه بين السحر والهجاء واضح .. فالسحر كلمات تقال فيصيب شرها المسحور ، وينصب ما تضمنت من لعنة علي المقصود بالإيذاء ، والهجاء كذلك كلمات تقال فيها معني الشر واستمطار اللعنة ، والساحر يتوسل إلي شياطينه وأرواحه الشريرة أن تعينه علي إلحاق الأذي بالمسحور ،والهجاء يشغلهم شيطان الهجاء ويستعينه علي المهجو .. ولذلك غلب بذكر شياطين الشعر في الهجاء بنوع خاص كما هو واضح في الأمثلة التي قدمناها ..) ..

ولأمر ما نسب الناس هذه القوة الخفية التي تمد االشاعر بالشعر للشر ولم ينسبوها للخير ، فقالوا (شيطان الشعر) ولم يقولوا (ربة الشعر) كما تعود اليونان أن يقولوا .. وكان الشاعر إذا هجا ربما فرج علي الناس في زي غير مألوف ، وبالغ في مسخ شكله وتشويه خلقته .. قال الرافعي (١) : (وكان القيسيون قد صدروا النعمان عنهم فأرادوا تقديم لبيد ليرجز بالربيع بن زياد رجزاموءلما ممضاً ـ وكان هو الذي صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم فحلوا رأسه ، وتركوا له ذوءابتين وألبسوه حلة .. وغدوا به معهم فدخلوا علي النعمان فقام وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخي ازاره وانتعل نعلا واحدة قال : وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا أرادت الهجاء

ونقل الرافعي كذلك عن الأغاني (٢) (وكان ذي حسان بن

(١) تاريخ الأدب نقلا عن أمالي المرتضي ١/١٣٥
(٢) تاريخ الأدب نقلا عن الأغاني جـ ٤ صـ ٢

ثابت في خضابه ، فكان يلوث شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبد ولأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم.وروي الألوسي في بلوغ الأرب : (والشاعر منهم كان إذا اراد الهجاء دهن احدي شقي رأسه وأرخي ازاره وانتعل نعلا واحدة) (١)

ثالثا :

أن كثيرا مما كان يقال من الشعر في الجاهلية من مدح رخيص وهجاء مقذع وغزل فاجر وفخر كاذب كان يتنافي مع أبسط قواعد الخلق والاستقامة لدي الانسان السوي فما بالك بنبي كريم ورسول عظيم ، ونفي صفة الشعر عنه شيء أساسي لتتميز شخصية الرسول الصادق الأمين من شخصية الشاعر الذي عرف يومئذ فرورا ماجنا كاذباً متكسباً ....

رابعا :

أن في القرآن الكريم وآياته العظيمة جرسا موسيقيا أخاذاً له علي المستمع تأثير كبير حاول الجاهليون ان يخلطوا بينه وبين الشعر الموزون المقفي فجاءت الآيات الكريمة تحدد لهم مفهوم الرسالة وشخصية الرسول وتفرق لهم بين أسلوب الشعر وتبين لهم أن كلام الله غير كلام البشر ، وأن شخصية الرسول غير شخصية الشاعر ، وأن تأثير القرآن واعجازه ومحكم تنزيله

(١) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ـ للدكتور محمد محمد حسين صـ ٦٧ ، ٦

غير تأثير الشعر وأوزانه وقوافيه ...

قال تعالي :

(وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الآ ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول علي الكافرين) (١)

وبذلك يؤكد القرآن أن الله لم يعلم رسوله الشعر ولم يوجهه إليه ليميز بين القرآن والشعر وبين الرسول والشاعر ، ويوضح أن القرآن ذكر من الله نزل علي قلب نبيه لينذر الناس ويبين لهم طريق الخير وطريق الشر ويدعوهم إلي نعيم الجنة ويحذرهم من عذاب النار فمن أعرض عن دعوته وكذب برسالته كان من الكافرين الذين يحق القول عليهم بالعذاب الأليم ..

قال تعالي :

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوي الذين ظلموا هل هذا الآ بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون * قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم * بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون * وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالا نوحي إليهم فسئلوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون (٢))

وكلما أصر الكافرون علي أن رسول الله شاعر أو كاهن أومجنون

(١) الآيتان ٦٩ - ٧٠ من سورة يس
(٢) الآيات ١ - ٧ من سورة الأنبياء .....

يفتري القول ويدعي النبوة تناول القرآن التهمة وردها بل وصفة أحلام مروجها مبيناً لهم أن الرسالة غير الكهانة وأن النبوة غير السحر والشعر منبهاً عقولهم الي التفكر والتدبر في أمر رسول رب العالمين الذي لا ينطق عن الهوي ولا يفتري القول علي الناس ، يدعي النبوة ادعاء ، وإننا لنري القرآن يتحداهم حينا أن يأتوا بسورة من مثله إن كانوا صادقين في ما ينسبونه للنبي من صفة الشعر وفيهم الشعراء الذين لا يجارون ، وحينا يسفة أحلامهم ويهزأ بتفكيرهم ؛ويبصر علي حقيقة النبوة وصدق الرسالة ..

فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المقون * قل تربصوا فإني معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوّلة بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) (١)

وقال تعالي :-

(ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدّق المرسلين) (٢)

وقال جل وعلا :

(فلا أقسم بما يقصرون * وما لا ينصرون * انه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا يقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين) (٣)

ولقد وفق ابن رشيق القيرواني في العمدة إذ تناول هذا المعني

---

(١) الآيات ٢٩-٣٤ من سورة الطور (٢) الآيتان ٣٦،٣٧ من سورة الصافات (٣) الآيات ٣ - ٤٣ من سورة الحاقة ...

وبين أنه لا ينال من كرامة الشعراء أو يعني امتهانهم إذ لم يكن الرسول شاعرا كما لاينال من قدر الكتاب ولا يمتهن الكتابة اذ يبعث عليه السلام أميّاً ..

(ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر الطاغين علي الشعر يحتج بأن القرآن كلام الله تعالي منثوراً وأن النبي صلي الله عليه وسلم غير شاعر .. لقول الله تعالي : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) ويري أنه أبلغ في الحجة ، وبلغ في الحاجة والذي عليه في ذلك اكثر مماله ، لأن الله تعالي انما بعث رسوله أميّاً غير شاعر الي قوم يعلمون منه حقيقة ذلك + حتي استوت الفصاحة واستهرت البلاغة ، آية للنبوة ، وحجه علي الحق واعجازا للمتعاطين، وجعله منثورا ليكون أظهر برهاناً لفضله علي الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً علي ما يحبه من الكلام وتحدي جميع الناس من شاعر وغيره يعمل مثله فأعجزهم ذلك كما قال الله تعالي :-

(قل لئن اجتمعت الأنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ..

فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر ، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبةً والمترسلين وليس بمترسل ، واعجازه الشعراء أشد برهاناً ، ألا تري كيف نسبوا النبي صلي الله عليه وسلم الي الشعرلما غلبوا وتبين عجزهم ، فقالوا هو شاعر لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته وأنه يقع منه مالا يلحق والمنثور ليس كذلك .. فمن هنا قال الله

تبارك وتعالي : -

(وما علمناه الشعر ، وما ينبغي له ، أي لتقوم عليكم الحجة .. ويصح قبلكم الدليل ويشهد لذلك رواية يونس عن الزهري أنه قال : معناه : ما الذي علمناه شعراً، وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعراً ....

وقال غيره ، أراد وما ينبغي له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه أي: ليس هو ممن يفعل ذلك لأمانته ومشهور صدقه ، ولو أن كون النبي صلي الله عليه وسلم غير شاعرغض من الشعر لكانت أميته غضا من الكتابة وهذا أظهر من أن يخفي علي أحد) (١)

بقلم الدكتور/ عبد الصبور ضيق
الأستاذ المساعد في كلية
اللغة العربية

(١) العمدة ١/ ٢٠٠ - ٢١

المدح في شعر شوقي

ا٠د علي أحمد العريني

نعم إنه أحمد شوقي ٠٠٠٠

الذي غرد فأطرب الوادي ، وأنشد فأطرب العروبة جمعاء ٠٠٠

ذلك الرجل الذي شهد له أدباء العروبة ، وما اجتمعوا علي شاعر أو أديب في جيل من الأجيال بمثل ما اجتمعوا له ٠٠

وما احتفلوا بنبوغ شاعر في أي عصر من العصور ، وشهد له إخوانه في حفل عام إلا لشوقي ٠٠٠

فهذا حافظ ابراهيم يضع يده في يده مبايعا ، ويستهل افتتاح ، الحفل الذي أقيم لمبايعته بإمارة الشعر في هذا الحين من الزمن بقوله :ـ

أمير القوافي قد اتيت مبايعا

وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وتوالت الوفود لمبايعته ٠٠٠٠ ووجد من التكريم ، والإجلال ما لا يتحقق لغيره ٠٠٠٠

فلقد قدم أمير البحرين لأمير الشعراء في سنة ١٩٢٧ هدية تتفق مع ما جاء في شعره في النخيل ٠٠

فيا نخلة الرمل لم تقصري

ولا قصَّرت نخلات الترب

فقدم له هديته التي تتمثل في نخلة من الذهب الخالص طولها ثلاثون سنتيمترا ٠

وجزعها وسعفها من الذهب الخالص .. أما ثمرها فتمر من اللـؤلؤ الحر .. (١)

كما دفع ايضا الاتحاد النسائي المصري الي إهدائه كأسا من الذهب الخالص يوم مبايعته بإمارة الشعر في سنة ١٩٢٧ م (٢) .

والسر في ذلك (ملك عناية القوافي ؛ وذللها في سهوله ويسر وزاحم فحول الشعراء النوابغ في العصور المتقدمة ـ كالنابغة ،وزهير وجرير وغيرهم ......

وحقق للشعر العربي مالم يتحقق له من قبل ، وذلك بتفوقه في الشعر المسرحي والقصصي ، والتاريخي والرمزي علي لسان الطير والحيوان ...، ومشاركته في الأحداث الجسام ...

فكان قيثارة الوادي ، التي ينبع منها النغم الحقيقي لآهاته ، وتأوهاته ...

والتي صرحت بآلام الشرق العربي وآماله ....

نري ذلك في صفحات الأدباء المعاصرين له ....

فنقرأ لإبراهيم المازني قوله :ـ

(كان شوقي أنضج شعراء طبقته ، وكان أدقهم تعبيرا ، وأبلغهم ومازال رأي فيه كما كان وهو أنه كان في صدر حياته أشعر منه في أخرياتها ، ولكنه في العهد الأخير كان أبلغهم عبارة ، وأعلم بيانا) (٣)

---

(١) كتاب الهلال اكتوبر ١٩٤٧
(٢) نفس المرجع السابق
(٣) المرجع السابق ....

ولمحمد توفيق دياب :

(مات سوقي الذي يحده الجسد ، فليحي شوقي شعرا طليقا في الأرض ، وروحاً طليقا في السماء) (١)

ولحافظ ابراهيم :

(والله إن شوقي لشاعر ، وإنه لأشعر مني ، وما كفرت بهذه الحقيقة في شبابي وكهولتي ، ولا أريد أن أكفر بها في شيخوختي ، وأود أن يعرفها الناس بعد مماتي .....) (٢)

وهو القائل :

ولم أخش من أحد في الشعر يسبقني
إلا فتى ماله في السبق إلاّه
ذاك الذي حكمت فينا براعته
وأكرم الله والعباس مثواه

كما أنشأت كلية الآداب جامعة القاهرة كرسيا بأسمه تقديرا لجهوده في النهوض بالشعر (٢)

وابرز ما جاء في شعر شوقي المديح ... وله في هذا رأيه فنراه يقول :-

يظهر المدح رونق الرجل الما / جد كتنسيف يزدهي بالصقال
رب مدح أذاع في الناس فضلا / وأتاهم بقدوة ومثال
وثناء علي فتي عم قوما / قيمة العقد حسن بعض الآلي

(١) المرجع السابق (٢) من فعال لطاهر الهلالي اكتوبر ١٩٢٧
(٣) شوقي شعره الاسلامي د/ ماهر حسن ص ٥

فكان في كل مدائحه يدعو إلي الإصلاح ، ويخـــدم الوطن ، لأن الإصلاح لا يتأتي إلا بأمرين من الأعلي ولا يكون ذلك إلا بالمدح حيث الأعمال التي قام بها الممدوح ، والتي تخدم الأمة ، فيجـــب عنده فعل الخير ... وهـذا ما يطلق عند بعض المفكرين بالثـــورة البيضاء ... ...

او يكون العكس بالمدفع والسيف وهذا ما يعرف عندهم بالثـــورة الحمراء ....

وشوقي بحسب طبيعته وحياته وثقافته ، يميل إلي الاصلاح مـــن جانب السلم ، والأناة .... فنري ذلك في قوله :-

ولا جال إلا الخير بين سرائري

لـدي شدة خيريّة الرغبـــا ت

فيمدح الخديوي عباساً ولكنه يقول :-

لا يظهر الكبراء آية عزهـم % حتي يقروا آية الأفكـــا ر

ويذكره في قصيدة أخري بأهمية العلم :

ترك النفوس بلا علم ولا أدب

ترك المريض بلا طب ولا آسي

وإذا قال للخديوي توفيـــق

لك مصر يجري تحت عرشك نيلها

فإذا به يقول له في نفس القصيد ....

كانت خزائن ملكها بيد البلي

نهباً مباحاً للرقيب دخولهـــا

ألفت مفاتحها إليك فأصبحت

يزن الزمان كنوزها ويكيلهـــا

واذا مدح الملك فؤاد عقب بقوله :

إن سرك الملك تبنيه علي أسس
فاستنهض البانيين العلم والأدبـــا

وارفع له من حبال الحق قاعــدة
ومد من سبب الشوري له طنبـــا

إن شوقي يوجه المدائح ، ولكنه لا ينسي المطالبة بالإصلاح لأن شعب مصر واع ، متحفز ..

نري ذلك حيث يقول :-

إذا ملكت النفوس فابغ رضاهـــا
فلها ثورة وفيهـــا مضـــــاء

يسكن الوحش للوثوب من الأســـر
فكيف الخلائق العقــــــلاء

انه أحمد شوقي .... وقد رأي شعوب العالم الحر ، تأخذ نصيبها من خير الوطن .... وقد آن للمصري أن يشارك في الحكم ، فمن روائعه عند اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ....

زمان الفرد يا فرعون ولّـــي ... ودالت دولة المتجبرينـــا
وأصبحت الرعاة بكـل أرض ... علي حكم الرعيـة نازلينـا
فؤاد أجل بالدستور دنيـــا ... وأشرف منك بالإسلام دينـا
بني الدار التي لا عــــز إلا ... علي جنباتهـــا للمالكينـا
ولا استقلال إلا في ذارهـــا ... لمتبوع ولا للتابعينــــا

أليس من عمل اليراع أن يمدح المرء بمحمدة ، لنحببها إليه وأن نذم له منقصة لنكرهـه فيها ـ وهذا ما فعله أحمد شوقي في قوله

للسلطان محمد رشاد ....

جددت عهد الراشدين بسيـــرة
نسج الرشاد لها علي منوالــــه

بنيت علي الشوري كصالح حكمهم
وعلي حياة الرأي واستقلالــــه

وفي قوله في كبت للحريات ......

وإذا سبا الفرد المسلط مجلســا
ألغيت أحرار الرجال عبيـــدا

وقد سار الركبان ، وخلدت الأيام قوله :

جلال الملك أيام وتمضـــي
ولا يمضي جلال الخالدينـــا

ومن هنا عرف الشجاعة في الرأي ، وحسن الصياغة في القول ،ليحقق للأمة ما يريـــد ، دون سفك دماء ...

فهو الذي ندد بحكم الفرد ، وأنحي علي الحكم المطلق ، وعلي الاستبداد ، فهو يعتز بأحرار التفكير الذين خرجوا علي مظالم الحاكم المستبد ، وآثروا الهلاك علي أن يكون أحدهم أمعة فـــي ركب الحكم ، يهنأ بالعيش الرغيد وهو ذليل ......

ذهب الذين حموا حقيقة علمهم
واستعذبوا فيها العذاب وبيــلا

في عالم صحب الحياة مقيّـــدا % بالفرد مخزوما به مغلولا

صرعته دنيا المستبد كما هـوت ٪ من ضربة الشمس الرءوس ذهولا
سقراط أعطي الكأس وهي منيـة ٪ شفتي محب يشتهي التقبيـــــلا
عرضوا الحياة عليه وهي غبـــاوة ٪ فأبي وآثر أن يموت نبيـــــلا
إن الشجاعة في القلوب كثيـرة ٪ ووجدت شجعان العقول قليـــلا

وأي توجيه للشباب المصري أقوي من توجيه شوقي ، وأي حـــب للفتي المصري أقوي من حب شوقي ...... فنراه يوجه الشباب للعمـل والكفاح ، وتحقيق أماني مصر الغالية ......

لا يقيمن علي الضيم الأســـد
نزع الشبل من الغاب الوتـــد
كبر الشبل وشبت نابـــه
وتغطي منكبـــاه باللبـــد
اتركوه يمشي في آجامـــه
ودعوه عن حمي الغابـة يـــذد
واعرضـوا الدنيا علي أظفاره
وابعثـوه في صحارهـا يصـــد

إن شوقي لا يوقف مدائحه علي ذوي التيجان ، وانما يجيد ، القول فيمن يعطي لمصر ، والعالم العربي والاسلامي من دمه وروحـــه وعقله ......

فهذا هو يمدح المعلم ...... ولا يتخلي [illegible]

قم للمعلم وفـه التبجيـــــــلا   كاد المعلم أن يكون رســـولا
أعلمت أشرف أوأجل من الـــذي   يبني وينشيء أنفسا وعقـــولا
سبحانك اللهـــم خير معلـــــم   علمت بالقلم القرون الأولـــي
أرسلت بالتوراة موسي مرشـــدا   وابن البتول فعلم الإنجيـــــلا
وفجرن ينبوع البيان محمـــــدا   فسقي الحديث وناول التنزيـلا

ثم نري التوجيه .... فيقول ......

وإذا المعلم ساء لحظ بصيـــرة
جاءت علي يده البصائر حـــــولا
وإذا المعلم لم يكن عدلا مشـــي
روح العدالة في الشباب ضئيـــلا

ثم يوجـه لتعليم النساء :-

وإذا النساء نشأن في أميــــة
رضع الرجال جهالة وخمــــــولا

ويمد بصره إلي الجامعة الأم .... جامعة الألف عـــام إلي الأزهـــر الشريف ...... تلك البناية التي كان لها ... ولا يزال أفضـــل الأثـر في توجيه المسلمين عامة ، والعرب خاصة فمنها انبثقــت الجامعات علي الصعيد العربي ، والإسلامي ....

قم في فم الدنيا وحي الأزهـــرا
وانثر علي سمع الزمان الجوهـــرا
واذكره بعد المسجدين معظمـــا
لمساجد الله الثلاث مكبـــــــرا

واخشع منيا وأنض حق أئمة

طلعوا به زُهراً وماجـوا أبحـرا

يامعهداً أفني القرون جداره

وطوي الليالي ركنه والأعصـرا

ومشي علي يبس المشارق نوره

وأضاء أبيض لجَّها والأحمـــرا

وأتي الزمان عليه يحمي سنـــة

ويذود عن نسك ويمنع مشعـــرا

كما أنه يشيد بالجامعة المصرية ، وبالذين جاهدوا في سبيل بنائها
ننعمت بها مصر ، والعالم العربي ، والإسلامي ،

لله جامعه نهضت بأمرهـــا

هي في المشارق مصدر الأنـــوار

أمنية العقلاء قد ظفروابهـــا

بعد اختلاف حوادث وطـــواري

والعقل غاية جريه لأعنة

والجهل غاية جريه لعثـــــــار

بالعلم يبني الملك حق بنائه

وبه تنال جلائل الأخطـــــار

إنه أحمد شوقي ... حق لهذا العالم أن يكرمه ، فقد جند براعة لخدمة مصر .... والعالم العربي ، والإسلامي ....

ولم يرد بمدحه إلا الخير لمصر والعالم العربي ، والإسلامي فكان له رأيه في المدح ....

رب مدح أذاع في الناس فضلا
وأتاهم بقدوة ومثال
وثناء عل فتي عمّ قوما
قيمة العقد حسن بعض اللآلي

وهكذا جند المدح في خدمة الوطن العربي ، والقيم الإسلامية الراشدة ..... وبناء الشباب ، وغرس الفضائل في النفوس ، فكان جديرا بالحفاوة والتكريم ، وفي مثل ذلك فليتنافس المتنافسون..

دكتور
علي أحمد العريني
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر
بأسيوط

الأسطورة في المثل العربي القديم

د. تماح علي أحمد

احتفي الانسان العربي منذ فجر التاريخ بالأمثال وأولاها اهتمامه ورعايته ، فهو بطبعه يميل إلي ضرب المثل خاصة في العصر الجاهلي حيث عاش الانسان العربي يعمل فكره وذاكرته في البحث عن الوجود الذي يحيط به وما صاحبه من ظواهر كونيه أوحت إليه بالتعبير عن أحاسيسه ومشاعره .

والمثل لفظة سامية نجدها في جميع اللغات السامية وتعني التشبيه والموازنة أو المقارنة ، وأكثر ما تنشأ الأمثال في طور البداءة من الشعوب ، وأكثر الشعوب ميلا الي هذا النوع الشعوب السامية وأكثر ما يقوم التشبيه في الأمثال بين الانسان والحيوان ، ويستخلص من ذلك التشبيه سنة للحياة ، أو طريقة للابتعاد عن منقصة ، أو تحقير لحالة من الأحوال ولذلك نري العرب أولوا المثل الاهتمام الكبير لما فيه فن طواعيه في التعبير عن المورد والمضرب بما يثري اللغة العربية ويجعلها في الذروة بحيث لا تقف أمام مشهد من المشاهد أو منظر من المناظر ، ولذلك نري القرآن الكريم بماجمع من مواطن الاعجاز يلفت أنظارنا إلي أهمية المثل في رحاب التعبير فيقول المولي تبارك وتعالي :

(وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (٢)

(١) الحكم والامثال ص ٩ حنا الفاخوري . دار المعارف .

(٢) سورة (يس) الآية : ٧٨

ويقول تعالي :

(يا أيها الناس ضرب مثلا فاستعموا له) و (ضربنا لكم الأمثال كل ذلك يشير إلي أهمية الأمثال في اللغة العربية ومالها من فائدة عظمي في تراثنا الأدبي الخالد مما جعل علماء العرب يحتفون بها من أدباء ولغويين ومؤرخين ومفكرين بجمع تلك الأمثال ودراستها وتفسيرها والبحث عن أصولها ، فوضع المفضل الضبي (٧٨٦م) كتاب الأمثال ووضع إبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي (٨٣٧م) . كتاب الأمثال وجمع حمزة الأصفهاني (٩٦٠م) عددا كبيرا من الأمثال في كتاب لا يزال مخطوطا في مكتبة مُوينخ وقد نقل عنه الميداني قسما كاملا جعله في كتابه مجمع الأمثال ووضع أبو هلال العسكري (١٠٠٥م) كتاب (جمهرة الأمثال) ووضع أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم الميداني النيسابوري (١١٢٤م) كتاب (مجمع الأمثال) وقد اهتم من غير هؤلاء الكثيرون من الأدباء والمفكرون بالحديث عن الأمثال كالماوردي صاحب (أدب الدنيا والدين) والشيخ ابراهيم الأحدب صاحب فرائد اللآلي في نظم مجمع الأمثال (١)

الخيال العربي ودوره في خلق الأساطير :

لعب الخيال دورا كبيرا في وجود الأسطورة في المثل العربي القديم ؛ لأن العربي في طور البداوة كان يسبح بفكره وخياله فيما كان يحيط به من مشاهد الوجود وظواهر الكون .

(فالخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم

---

(١) . احع المرجع السابق صـ ١١، ١٢

وهم لا يؤلفونها من الهواء وإنما يؤلفونها من احساسات سابقة لا حصر لها تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم حتي يحين الوقت فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها صورة تصبح لهم ، لأنها من عملهم وخلقهم ، والخيال عند الأدباء يقوم علي شيئين :

أولا : دعوة المحسوسات والمدركات ثم بناؤها من جديد ومن هنا كان الخيال يفترق عن التفكير ، وإن كان كل منهما يستعير مواده من الواقع وذلك لأن التفكير يقوده غرض محدود هو محاولة معرفة الحقيقة ، فهو استكشافي محض ، لا يفترض شيئا ولا يخلق علاقات جديدة بين الأشياء ولا يغير في اشكالها وعناصرها ، أما الخيال فلا يقف عند ذلك بل يعمد إلي التغيير في هذه العناصر غير مقتنع بعلاقاتها بل يضيف إليها علاقات جديدة تنزعها من واقعها نزعا في كثير من الأحيان .

ثانيا : وهي أن التفكير الموضوعي ، لا يبدل في الحقائق الواقعة، إنما يحاول فهمها وبيانها بشكلها اشكالا جديدة ، أشكالا يبعث فيها من روحه ما يعيدها خلقا نابضا بالحياة (١).

فمن منطلق هذا الخيال حاول العربي أن يرسم الأساطير في المثل العربي القديم حيث كان الجو مهيأ لايجاد مثل ذلك النوع بما يتمشي مع العقلية العربية آنذاك لأن الأسطورة ضرب من الخيال الذي يجول بخواطر الأديب بما يحال وجوده في الواقع المشاهد لكن

---

(١) في النقد الأدبي . د/ شوقي ضيف . دار المعارف ص ١١٧

الأديب ينسخ له صورا واشكالا تقربه من الحقيقة الواقعة ٠

وفي العصر الجاهلي نري الخيال له أهمية كبيرة لدي الأدباء في خلق مثل هذه الألوان الخرافية بما يتمشي مع طبيعة الخياة ومتطلبات المجتمع حيث البداوة والصحراء المترامية والسماء الصافية والنجوم اللامعة كل ذلك هيأ للخيال العربي جوا من الحرية في التعبير علي نحو ساذج من التعقيدات العقلية والفنية (١)

والحقيقة أن الأمثال العربية بما تضمنته من تجارب عديدة لألوان الحياة العربية يشهد بما للعرب من تراث أدبي رائع منذ فجر التاريخ ، فمن الدراسة لهذه الأمثال (تبدو لنا الفلسفة الجاهلية فلسفة أخلاقية عملية ، بعيدة عن الماورائيات فلسفة مادية روحانية تحاول أن تعالج حسن التصرف في حياة البادية علي أحسن طريقة ممكنة للحفاظ علي الحياة الذاتية والقبلية وللحفاظ علي الشرف الذاتي والقبلي وللحفاظ وللحفاظ علي الصيت الحسن والحياة الطيبة علي ألسنة الناس) (٢)

وسوف نتعرض لبعض الأمثال العربية لنوضح من خلالها دور الخيال العربي في رسم هذه الأساطير ٠

١ - جاء في كتاب مجمع الأمثال للميداني هذا المثل (في بيته يُؤتَي الحَكَمُ) هـذا مما زعمت العرب عن السن البهائم ٠
قالوا : إن الأرنب التقطت ثمرة ، فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان الي الضب ، فقالت الأرنب : يا

(١) راجع الأدب المقارن للدكتور خفاجة ص ٧٦
(٢) الحكم والأمثال : ص ١٧
(٣) مجمع الأمثال للميداني ص ٧٢ ج ٢ مطبعة السنة المحمدية ٠

أبا الحسل ، فقال سميعا دعوت ، فقالت : اتيناك لنختصم اليك قال : عادلا حكمتما ، قالت : فاخرج إلينا ، قال في بيته يوءتي الحكم ، قالت : إني وجدت ثمرة ، قال : حلوة فكليها، قالت : فاختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغي الخير ، قالت : فلطمته، قال: بحقك أخذت ، قالت : فلطمني ، قال حر انتصر ، قالت : فاقض بيننا قال: قد قضيت ، فذهبت أقواله كلها أمثالا .

فهذا المثل الذي بين أيدينا (في بيته يوءتي الحكم) خلاصة لهذه الحادثة التي حدثت بين الأرنب والثعلب وإنك لتحس معي مدي السذاجة التي خيمت علي احداث هذا المثل وقد استطاع الأديب أن يجعل من هذه الحيرانات اشخاصا يتحدثون ويتخاصمون ويحتكمون إلي حكم من جنسهم ، فهذا الخيال الفطري الذي رسمه المولف علي جو هذا المثل تحس فيه الارتياح رغم غرابته وجنوحه إلي الاسطورة حيث يتحدثون ويفكرون وذلك مالم تشاهده في الحياة فهي قصة خرافية لم تجر العادة بها وحيث أن الأديب العربي استطاع أن يرسم مثل هذا اللون بخياله فإننا نهيب بتلك العقلية العربية التي استدطاعت أن تلمح هذا النوع الأدبي منذ فجر التاريخ العربي وان دل هذا المثل علي شيء فإنما يدل علي بساطة الفكر واتساع الخيال وذلك مما يناسب البداوة العربية في مهدها الأول .

٢ ـ وجاء أيضا في كتاب مجمع الأمثال هذا المثل (كيف أعاودك وهذا أثر فأسك) (١) أصل هذا المثل علي ما حكته العرب علي لسان الحية أن أخوين كانا في إبل لهما فأجدبت بلادهما

(١) مجمع الأمثال للميداني صـ ١٤٥ جـ٢ مطبعة السنة المحمدية .

وكان بالقرب منهما واد خصيب ، وفيه حية تحميه من كل أحد فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني اتيت هذا الوادي المكلىء فرعيت فيه إبلي وأصلحتها فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته،قال : فوالله لأفعلن ، فهبط الوادي ورعي به إبله زمانا ، ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أخوه : والله ما في الحياة بعد أخي خير ، فلأطلبن الحية ، لأقتلنها أو لأتبعن أخي ، فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها ، فقالت الحية له : ألست ترى إني قتلت أخاك ؟ فهل لك في الصلح ـ فأدعك في هذا الوادي تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارا ما بقيت ؟ قال أوفاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال إني أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا، فكثر ماله حتي صار من أحسن الناس حالا، ثم إنه تذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلي قاتل أخي ، فعمد الي فأس فأخذها ثم قعد لها ، فمرت به فتتبعها فضربها ، فأخطأها ودخلت الحجر، ووقعت الفأس بالجبل فوق حجرها فأثرت فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ز فخاف الرجل شرها وندم ، فقال لها: هل لك في أن نتواثق ونعود إلي ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك . يضرب لمن لا يفي بالعهد ، وهذا من مشاهير أمثال العرب .

قال نابغة بني ذبيان :

وإني لألقي من ذوي الغيّ منهم .. وأصبحت تشكو من الشجو ساهره

كما لقيت ذات الصّفا من حليفهـا
وكانت تربية المال غبا وظاهـره

فلما رأي أن ثمر الله ماله
وأثل موجودا وسد مفاقـره

أكب علي فأسي يحد غرابهـا
مذكرة من المعاول باتـره

فقام لها من فوق حجر مشيـد
ليقتلها أو يخطيء الكف بـادرة

فلما وقاها الله ضربه رأسـه
وللبر عين لا تغمض ناظـره

فقال : تعالي نجعل الله بيننـا
علي ما كنا أو تنجزي لي آخـره

فقالت : يمين الله أفعل إننـي
رأيتك مشؤما يمينك فاجـره

أبي لي قبر لا يزال مقابلـي
وضربة فأس فوق رأسي فاقـره

فالاسطورة واضحة في هذا المثل صراع مرير بين الحية وبين هذا الرجل الذي فقد أخاه فهو موقور عنها فلا ينسي هذا الثأر ولا يمكن أن يسالمها علي الرغم مما أعطته من مال ، وجانب الأسطورة في الحديث الذي دار بينه وبينها وذلك ما لم نره في ظواهر الحياة فهو مخالف للمألوف وبعيد عن الحقيقة قريب من الخرافية وذلك ما يناسب الخيال العربي في مهده الأول فلا يعقل أن يكون قد حدث ذلك علي حقيقته .

فالخيال هو الذي نسج هـذه الأسطورة لتصبح مثلا يضرب لمـن لا يفي بالعهد ويحاول الغدر ولكن المولف أخذ مادته من نسج الخيال وجعل الحية تتحدث مع هـذا الرجل وتبادله الحديث ·

٣ ـ وجاء في مجمع الامثال هذا المثل : (كذلك النجار يختلف) فهو يضرب مثلا للمختلفين وأصله أن ثعلبا اطلع في بئر ، فاذا أتي في أسفلها دلو ، فركب الدلو الأخري فانحدرت به وعلـت الأخري ، فشرب وبقي في البئر ، فجاءت الضبع ، فأشرفت فقال لها الثعلب : انزلي فاشربي ، فقعدت في الدلو ، فانحدرت بهـا وارتفعت الأخري بالثعلب ، فلما رأته مصعدا قالت له : أين تذهب ؟ قال : كذلك النجار يختلف ، فهبت مثلا ·

فالنجار هو الأصل ومنه قولهم : كل نجارالايل نجارها) والمتأمل في هذا المثل يلمس فيه الاسطورة التي صنعها خيال المولف لهـذا المثل فالثعلب يخاطب الضبع ، وبما عنده من دهاء استطاع ان [illegible] عليها ، وما ترتسم به الاسطورة هنا هو جانب الحديث الذي دار بين الثعلب والضبع كما هـو في أصل هـذا المثل ·

٤ ـ وجاء في مجمع الأمثال هذا المثل (لا أحب تخديش وجـه الصاحب) (٢) قال يونس : تزعم العرب أن الثعلب رأي حجـرا أبيض بين لصبين (٣) ، فاراد أن يغتال به الأسد ، فأتاه ذات يوم فقال : يا أبا الحارث الغنيمة الباردة شحمة رأيتها بيـن

---

(١) مجمع الأمثال للميداني جـ ٢ ص ١٤٥
(٢) مجمع الامثال للميداني جـ ٢ ص [illegible]
(٣) اللصبان · مثني لصب بكسر اللام وسكون الصاد وهو الشعب الصغير في الجبل ·

لصبين ، فكرهت أن أدنو منها ، وأحببت أن تولي أنت ذلك ، فهلم لأريكها ، قال : فانطلق حتي قام به عليه فقال : دونك يا إبا الحارث ، فذهب الأسد ليدخل فضاق به المكان ، فقال له الثعلب : أردس برأسك أي أدفع برأسك ، قال : فأقبل الأسد يردس برأسه حتي نشب ، فلم يقدر أن يتقدم ، ولا أن يتأخر ثم أقبل الثعلب يخوره أي يخدش خورانه (١) من قبل دبره،فقال الأسد ما تصنع يا ثعاله ؟ قال : أريد لاستنقذك قال: فمن قبل الرأس إذن ، فقال الثعلب لا أحب تخديش وجه الصاحب ....
فضرب هذا المثل للرجل يريك من نفسه النصيحة ثم يغدر .

فبالنظر في هذا المثال وما جري في أحداثه نري الأسطورة واضحة فهي من نسيخ الخيال الذي افترضه المؤلف ، فما حدث بين الأسد والثعلب وقد حال صانع هذا المثل أن يأتي لنا بالأسد فهو مثال للقوة والثعلب الذي هو مثال للضعف والدهاء والمكر وذلك مما يدل علي أن العقلية العربية كانت علي قدر في التفكير لصنع مثل هذه الأساطير الخيالية التي نلمسها في هذا المثل .

٥ ـ وجاء أيضا هذا المثل في مجمع الأمثال : (انما اكلت يوم أكل الثور الأبيض) (٢) .

يروي أن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه قال : إنما مثلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كن في أجمه أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن

---

(١) الخوران : مجري الروث ، ويقال : طعنه فخاره إذا أصاب خورانه
(٢) مجمع الأمثال للميداني جـ ١ صـ ٢٥

فيها أسد فكان لا يقدر منهن علي شيء لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثورالأحمر لا يدل علينا في اجتمعنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ولوني علي لونكما فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة ، فقالا : دونك كعنة ، فأكله ، ثم قال للأحمر لوني علي لونك فتعدني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة فقال دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إني آكلك لا محالة فقال دعني أنادي ثلاثا ، فقال افعل فنادي آلا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض .

وإننا نلاحظ في هذا المثل الذي ذكره الامام علي كرم الله وجهه إن صحت هذه التسمية إليه التخذير من التفكك والتفريط بين عامة المسلمين وقد ذكر لنا أحداث هذاالمثل للتوضيح والعظة وذلك ليقترب الهدف من المسلمين حتي لا يصيبهم ضعف أو هوان فيصبحون فريسة للاعداء يتخطفهم الطير والأسطورة واضحة جاءت من نسج الخيال . فحينما فرض الثوران الأسود والأحمر في الثور الذي كان معهم يشد من أزرهم وتقوي به شوكتهم رأينا كيف كانت العاقبة نتيجة لهذا التفريض الذي أودي بهم الواحد بعد الآخر ولذلك أدرك الثور الأحمر انه أكل من البداية حينما فرط في أخيه .

والواقع أن الامثال العربية كان لها هدف ترمي إليه لدي المؤلفين لها وعامتهم من الحكماء والدعاء لدي العرب ، فهم ينشدون من وراء هذه الامثال تضمحل بعد الدعوة الاسلامية التي جاء بها رسولنا محمد صلي الله عليه وسلم ومما جملته من ارشادات نيرة، فلم يترك مجالا لمثل هذه الأمور (ما فرطنا في الكتاب من شيء) .

فهذه الأمثال كانت رائجة في العصر الجاهلي وسارت بعد ذلك أمثلة تضرب لأن المثل ومعناه الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات المغزي والأساطير فهو علي هذا قول سائر شبه مضربه بمورده أوقل شبه فيه حال المقول فيه ثانيا بحال المقول فيه أولا .. ويمتاز المثل بشهرته وايجازه ، ودقة معناه واصابة الغرض المنشود فيه، وصدق تمثيلة للحياة العامة ولافكار الشعب علي وجه الخصوص ، وهو يكسب الكلام سحرا وروعة وجمالا وبلاغة وتقال الأمثال الفرضية للحذر من استبداد المستبدين وطغيانهم وهي وسيلة للنقد والسخرية حقا ، والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير، وهي مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية . (١)

وهناك أمثال حقيقة لها قائل معروف في الغالب ولها أصل بخلاف الأمثال الفرضية التي نسجها الأديب بخياله ووضعها علي لسان حيوان أو جماد أو طائر لمعالجة مشكلة من مشاكل المجتمع الذي يعيش فيه .

وبالنظر فيما قدمنا من نماذج لهذه الأمثال الفرضية نري أن - المؤلف أو الأديب حاول أن يرسم صورا مضيئة لاتساع الرؤيا أمام الناس ليتداركوا الأمور التي تنقص من حقوقهم وتلقي بهم في بحار الضياع ، فارشاد وتوجيه وتحذير وتنفير من صور ماثلة أمام الإنسان الذي يتخيلها .

(١) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ١٤٨ .

والخلاصة أن هذه الأمثال التي ضمت هذه الأساطير الخيالية تجعلنا نقف في ذروة الفخر بهؤلاءة الأدباء العرب الذين استطاعوا بخيالهم وفي عزلتهم أن يأتوا لنا بمثل هذه النماذج الأدبية الرائعة التي لعب فيها خيالهم دورا فعالا قبل أن نتعرف علي الاساطير التي ألفها العجم ولا يليق بنا أن نقول بأن هذه النماذج اخترعها الرواة بعد أن أطلعوا علي الآداب الأخري اليونانية والاغريقية فهذه طبيعة بشرية قد يتحدد فيها الاتجاه في التفكير وهو ما نسميه بتوارد الخواطر فلا يليق بنا أن نزعم بأن العرب تطفلوا علي مائدة الأدب العالمية واخترع الرواة مثل هذه النماذج الأدبية وفي الحقيقة أن هذه النماذج التي حفلت بها المصادر الأدبية قليل من كثير قد انطمست معالمه وتواري بأيدي المستشرقين والمستعمرين فلا نستكثر علي أمة فصيحة بليغة مثل هذه النماذج الأدبية التي جاءت بها قريحة الأديب العربي منذ زمن بعيد ٠

اعداد

الدكتور / تمساح علي أحمد نحيلة
مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة
بأسيوط

بَلْهَ واستعمالاتها

ا . د حسين البدري النادي

اختلف علماء العربية في استعمالاتها وفي كونها جامدة أم مشتقة وسنتناول كل ذلك بالتفصيل والتوضيح إن شاء الله .

استعمالاتهـــا :

تستعمل اسم فعل أمر بمعني (دع) فيكون فاعلها ضميراً مستتراً وجوباً علي أنه فاعل بها مثل قوله تعالي : (عليكم أنفسكم) (١) أي الزموا أنفسكم أي شأن أنفسكم .

والدليل علي انها اسم فعل بمعني (دع) اترك نصبها للمفعـــول به في قول الشاعر : ـ

تمشي القطوف إذا غني الحداة بها مشي الجواد فبله الجلة النجبا (٢)

---

(١) من الآية رقم ١٠٥ من سورة المائدة .

(٢) قائله ابن هرمة وهـو : ابراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة مـــن بني الحرث بن فهر بن مالك بن

لغويات : القطوف من الدواب وغيره البطيء . النجب : مفردهـــا نجيب ، وهو الأصيل الكريم . الخيل [illegible] : جمع حـــاد وهو الذي يغني للابل لكي تنشط .

والمعني : أن البطيء من الدواب يمشي مشي الخيل مع الغناء لها فـــدع الابل الكرام فإنها مع الحداد اكثر من غيرها .

الإعراب : تمشي : فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة ، القطوف : فاعل اذا : ظرف ، تمشي : فعل ماض ، الحداة : فاعل ـــ

وفي قول الآخر :-

حمال أثقال أهل الود آونـة .. أعطبهم الجهد مني بله ما أوسـع

فإن بله هنا يحتمل أن تكون اسم فعل ، فاعلها ضمير مستتـر فيها ، ما : في موضع نصب مثل فبله الجلة النجبا .

وقيل إن (بله) اسم ماض بمعني يقي رواه قطرب فيكون مـا بعدها مرفوعاً لأن فاعل بها هيهات أسوان ولكن بأعلي الفارس أنكره

الاستعمال الثاني :

تستعمل مصدراً بمعني (تَرك) النائب عن اترك وتعرب مفعولاً مطلقـاً لفعل محذوف من معناه ، مثل قعدت جلوساً وتضاف الـى المفعول مثل قوله تعالي : (فضرب الرقاب) (٣)

وعلي هذا تقول بله خالد أي ترك خـالد .

وقال أبو علي : المصدر مضاف إلي الفاعل (٤)

--- بها : جار ومجرور ، مشي : مفعول مطلق وهو مضاف ، الجواد : مضاف إليه ، فبله : اسم فعل بمعني دع أو اترك ، الجلـة : مفعول به ، النجبا : صفـة .

الشاهد : هو قوله : فبله الجلة ، فنصب الجلة ببله علي أنها اسم فعل بمعني (دع) أو اتـرك .

مواضعه : شرح المفصل ٤/ ٤٩ - شواهد التوضيح ٢٠٥

(٣) الجني الداني ص ٤٢٥

(٤) شرح المفصل جـ ٤ ص ٤٨، ٤٩ - والجني الداني ٤٢٤

الاستعمال الثالث :

تستعمل بمعني : كيف عند قطـرب وأبو الحسن فهي أداة استفهام ـ بله خالد ؟ فبله أداة استفهام بمعني علي الفتح في محل رفع خبـر مقدم ، وخالد مبتدأ موءخـر [١] .

وعلي هذه الاستعمالات الثلاثة وجه قول الشاعر الاسلامي :ـ

تذر الجماجم ضاحياً هاماتهـا .. بله الأكف كأنها لم تخلـق [٢]

فبله الأكف رويت الأكف بالجـر علي أنها مضاف إليه وبله مصـدر ورويت بالنصب علي أنها مفعـول به ، وبله إسم فعل أمر بمعني اتـرك أو دع ، ورويت بالرفع علي أنها مبتدأ موءخـر وبله اسم استفهـام خبر مقدم . وقد وضحت ذلك بالهامش .

---

(١) الجني الداني ٤٢٤ وحاشية الصبان ٢/ ١٢١ .

(٢) قائله كعب بن مالك الأنصاري رواه ابن إسحاق في السيـرة وانظر سيرة ابن هشام جـ ٣ ٢٩٠ في غوة الخندق يشيـد فيها بانتصار رسول الله وجند الله علي الكافرين من غيـر اقتحام في معركـة ولا تزاحم في قتال . وقبل هذا البيـت

تصل السيوف إذا قصرن بخطونا .. قدما وتلحقا إذا لم تلحـق

تذر الجماجم ضاحياً هاماتهـا .. بله الأكف ... البيت وبعـده

تلقي العدو بفحمة مكومـة .. تنفي الجموع كقصد رأس المشرق

لغويات : (تذر) تترك قال الله تعالي : (رب لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا ...) أي لا تترك السيوف و (الجماجم) : جمع جمجمة - بضم الجيمين - عظم الرأس المشتمل علي الدماغ ، وتطلق علي الانسان ، بنفجامة مجازاً وهو أليق بقوله (هاماتها) جمع مفرده (هامة) وهي الرأس ، ضياحياً : اسم فاعل وفعله ضحي يضحو اذا برز عن محله ، القحمة : الكتيبة أو الفصيلة من الجيش (والـ مة) المجتمعة .

والمعني : نحن أهل شجاعة وبأس لا نخاف من الأعداء واذا التقينا فصلت سيوفنا رؤوسهم عن أبدانهم ..

الإعراب : تذر : فعل مضارع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي يعود إلي السيوف . الجماجم : مفعول به منصوب . ضاحيا : حال من المفعول به ، هاماتها : فاعل لاسم الفاعل ضاحياً وهو مضاف وهاماتها مضاف إليه والهاء مضاف إليه مبني في محل جر ، بله : مفعول مطلق لفعل محذوف من معناه والتقدير اترك بله الأكف مثل قعدت جلوساً ، كأنها : كأن حرف تشبيه ونصب ، والهاء إسمها ، ولم : حرف نفي وقلب وجزم (تخلق) فعل مضارع مجزوم بلم وهو مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هي ، والجملة في محل رفع خبر كأن .

هل تأتي للاستثناء ؟

اختلف فيها العلماء : فيري الكوفيون [(١)] والبغداديون أنها تأتي للاستثناء وتكون بمعني لا سيما ويكون ما بعدها منصوبا مثل : أكرمت العبيد بله الأحرار - لأن ما بعدها خارج عما قبلها في الوصف ، إذ المعني أن اكرامك الاحرار يزيد علي اكرامك العبيد.

واستدلوا بقول الشاعر [(٢)]

وهل كنت يا ابن القين في الدهر مالكا

بضر بعير بله مهرية نجبا

---

* الشاهد :بله الأكف ، فقد رويت الأكف بالجر علي أن بله مصدر مضاف الي مفعوله ، ورويت بالنصب علي أن الأكف مفعول به لبله التي هي اسم فعل أمر بمعني اترك أو دع ، ورويت بالرفع عكما ذكر الصبان علي أنها مبتدأ لبله ، وبله اسم استفهام بمعني كيف خبر مقدم ويكون معني البيت علي رواية الرفع : كيف الأكف لا تترك بارزة عن الأيدي مع أنها من أسهل من الرؤوس .

فعلي هذا بله في البيت للاستفهام التعجبي ..

مواضعه : المغني ١/ ١٩٥ - الجني الداني ٤٢٥ - شواهد التصريح ٢٠٥ حاشية الصبان ١/ ١٤١ - والهمع ١/ ٢٣٦ - والدرر ١/٢٠٠ .

(١) الجني الداني ٤٢٥ ، جمع الهوامع ١/ ٢٣٥ .

(٢) قائله : جرير يهجو الفرزدق . والمعني : أنك فقيرا معدماً لا تملك شيئاً .

ومال إلي رأيهم المرادي والسيوطي (١) وذكره أنه هو الصحيح لورود المسموع من العرب ·

ويري البصريون أنها لا تستعمل أداة استثناء لأن إلا لا تقع مكانها ، ولأن ما بعدها لا يكون إلا من جنس ما قبلها ، ولأن حرف العطف يجوز دخوله عليها (٢)

ووافقهم ابن الضائع وقال : لو صح دخول لا سيما وبله أدوات الاستثناء لدخلت فيها حتي لأن ما بعدها يختص بصفته لم تثبت ما قبلها ·

ونري أن الرأي الكوفي هو الأقوي لورود السماع به ، ولأن الكوفيين يرون أنها إذا جرت تكون بمغني غير ، وغير من أدوات الاستثناء التي تجر ما بعدها ·

الاستاذ الدكتور
حسين البدري النادي
استاذ اللغويات في كلية اللغة العربية

=== الشاهد : (بله مهرية) علي أن بله أداة استثناء ونصب ما بعدها ·

مواضعه : همع الهوامع ١/ ٢٣٥ ـ الورد اللوامع ١/ ٢٠٠

(١) الجني الداني ٤٢٦، الهمع ٢٣٥ ·

(٢) الهمع ١/ ٢٣٥ ، الجني الداني ٤٢٦ ·

الشيخ محمد قطة العدوي

أ . د محمد حسن محمد يوسف

حياته ونشأته

محمد بن العلامة الشيخ / عبد الرحمن قطة العدوي (نسبة إلي بني عدي) ولد المترجم بالقاهرة ، حيث كان أبوه العلامة الشيخ عبد الرحمن قطة يقيم فيها . ودرس العلوم الدينية والعربية في الجامع الأزهر .

وقد حفظ القرآن وجوده علي أبيه . وحضر دروسه ودروس غيره من العلماء الذين كانوا يقومون بالتعليم في الأزهر الشريف . ولم يزل يجد في الإقبال علي العلم والتحصيل والطلب حتي استوعب كثيرا من مسائله . ونال شهادة (العالمية) وأذن له في التدريس .

مكانته العلمية

كان للمترجم شهرة كبيرة بين الأزهريين ، بالاقتدار في علوم اللغة العربية والولوع بالأدب العربي ، وحفظ الأشعار .

وعرف بأسلوبه الإنشائي الرصين ، المشتمل علي السجع غير المتكلف . ونظم الشعر الجيد .

---

(١) اعتمدنا في هذه الترجمة علي ما كتبه الاستاذ الفاضل / محمد علي مخلوف من كتابه : تاريخ بني عدي المجلد الثالث ترجمة رقم ٢٢٣ صـ ٣٠٨ . ولعل الله ييسر بطبع ذلك الكتاب القيم..

شهرته

والشيخ قطة : اسم لامع ، فهو أديب لبيب · لا يعرف قلمه التحيز لغير الحق ،ووصف بأنه : وحيد دهره وانسان عصره ·

قال الاستاذ عبد السلام هارون (ويحفظ لنا التاريخ أسماء شيوخ عظام كانوا يقومون - في أمانة - بإخراج تلك الكتب علي قدر طاقتهم العلمية ، ومنهجهم الساذج في الإخراج · منهم الشيخ نصر الهوريني المصري المتوفي ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) والشيخ قطة العدوي ·[١]

قال الأستاذ / محمد علي مخلوف تعقب الشيخ الجمل - في حاشيته علي الجلالين - ونقده في مسائل كثيرة ويبين وجه الخطأ في أقواله ، ويذكر الصواب للطلاب ·

وبلغ صنيعه هذا الشيخ الجمل ، فوفد إلي دروسه ، واستمع لما يوجهه من النقد والاعتراض لحاشيته ، فدارت بينهما مناظرة علمية نادرة حمي وطيسها · وكانت الغلبة فيها - بحق - للشيخ محمد قطة حتي قالت العوام : قطة الصعيد غلبت ····)[٢]

عمله بمدرسة الألسن :

كان الشيخ محمد قطة مدرسا بمدرسة الألسن ·

وكان نهج المدرسة في الترجمة عمليا مفيدا فلم يكن دروسا تكتب

(١) التراث ٣٠ (سلسلة (كتابك) التي تصدرها دار المعارف
(٢) تاريخ بني عدي ٣/ ٣٠٨

في دفاتر وتهمل ، بل يمرن الطلبة علي الترجمة في كتب نافعة ٠ فاذا استغلقت عليهم جملة لجئوا إلي شيخهم - الشيخ رفاعة الطهطاوي يذللها لهم ، ثم عرضوا ما ترجموا علي أستاذ اللغة العربية يصحح لهم لغتهم وخاصة الشيخ محمد قطة العدوي ٠

فقد كان ساعده (الأيمن) - اليمني - في هذه المدرسة لما رزقه من موهبة جليلة في التدريس بلغة سهلة ، وعبارة فصيحة ، وقدرة فائقة علي تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون ٠

فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلي المطبعة لتطبع فتكون أثرا خالدا ٠ (١)

وظيفة التصحيح بالمطبعة الأميرية :

هناك طائفة من العلماء غبنوا حقهم ، ولم يؤرخوا التاريخ الواجب لهم وهم المصححون ٠ قال الأستاذ أحمد أمين :

(كانوا يمتازون - في عصرهم - بثقافة أوسع من أمثالهم واقتضاهم عملهم أن يطلعوا علي كثير من الكتب في التاريخ والأدب واللغة والفلسفة وغير ذلك ، فاتسعت مداركهم وآفاقهم ، واضطرهم عملهم أن يكتبوا خاتمة الكتب ، أو شرحا لغامض أو أن ينشئوا تقريظا لكتاب ، أو تعليقا عليه ، أو قصيدة في مثل هذه الأغراض ، فجرت أقلامهم وملانوا علي الإنشاء والكتابة في زمن عز فيه الأديب ، وندر فيه الكاتب وإن كان انشاؤهم وكتابتهم مقيدة بنمط العصر من التزام السجع المكلف والاستعارة

(١) في الأدب الحديث لعمر الدسوقي ١/ ٢٤، ٢٥ ط ثانية ١٩٥١م

المشددة ، وما إلي ذلك) .

ثم قال :

(اشتهر من هذه الطبقة الشيخ نصر الهوريني [١] ، ثم الشيخ محمد قطة العدوي ثم الشيخ ابراهيم الدسوقي ، ويظهر أنهم كانوا في درجة علمهم وأدبهم كما كانوا حسب ترتيب زمانهم ، نشروا كثيرا من الكتب القيمة ، ولقوا في تصحيحها العناء ، وأذهبوا في مسو داتها سواد عيونهم ، وهم وإن لم تبلغ كتبهم منتهي الجودة من حيث الإخراج والضبط فقد بذلوا غاية جهدهم ، وجعلوها صالحة للاستفادة منها واستخرجوها من أصول سقيمة وخطوط عليلة) [٢]

وطبعت المطبعة الأميرية نحو ثلاثمائة كتاب في الرياضيات والطب . وطبعت أمهات الكتب الأدبية بفضل القسم الأدبي الذي فصل عنها ووصل بدار الكتب المصرية .

ومنذ يومئذ اقتصرت مطبعة بولاق علي طبع الوقائع المصرية والكتب المدرسية والأعمال الحكومية [٣] .

---

(١) لم يكن الترتيب الزمني المذكور صحيحا ، لأن وفاة الشيخ نصر الهوديني ١٢٩٠ هـ عقب وفاة الشيخ قطة العدوي ١٢٨١ هـ بعشر سنين . لذا لزم التنبيه . وسبحان من تنزه عن السهو .

(٢) فيض الخاطر ٣/ ٤٢ مكتبة النهضة ١٩٤٦ م .

(٣) تاريخ الأدب العربي للزيات ٤٢٥ .

وعين الشيخ / محمد قطة مصححا لجريدة الوقائع المصرية مدة من الزمان ٠

وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بتصحيح الكتب العربية بمطبعة بولاق الأميرية التي أقامها محمد علي سنة ١٨٢١ م ٠ فقام بمراجعة كثير من كتب التراث ٠ وبذل الجهد الكثير في سبيل تصحيحها وأخرجها مطبوعة ، خالية من الأخطاء ، في وقت غمرت فيه هذه الكتب وظلت حبيسة لا تري النور ولا تقع في يد أحد وخرجت هذه النفائس الي النور وعملت علي تغذية العقول بنتاج السلف وتهذيب اللغة وتقويمها ٠

كما كان يكتب (خواتيم) الكتب ، ويترجم لمؤلفيها ،ويقرظها بأسلوب مسجوع علي طريقة أهل عصره ٠ يدل علي قدمه الراسخة في مجال الأدب والتعبير ٠

قال عن كتاب : حاشية الصبان علي الأشموني :

(وبالجملة فهو كتاب لا تحصي فوائده ، ولا تحصر عوائده، وذلك غني عن البيان ، قاضٍ به العيان ٠ كما أشرت إلي ذلك بقولي مؤرخا عام الطبع ، ملوحا لبعض ما فيه من المزايا والنفع وان لم أكن من فرسان هذه الحلبة ، ولا أذن معهم مثقال حَبة ٠

كتاب نفعه جم جزيلُ ... وليس كمثله إلا القليل

فكم خيرا ن صان به هداه ... فأرشده وبأن له السبيل[1]

---

(١) تاريخ بني عدي المجلد الثالث ٣٠٨ ، ٣٠٩

وكم من علة لما حباهـــا   فرات زلالة شفُي العليـــــل

وكم أروت موارده عطاشــا   وكانوا بالأوار لهـــم غليـــل

وكم من بحره خرجت لآلٍ   وذاك البحر عذب سلسبيـــل

وكم عرس لخاطبها جلاهـــا   وكان عليه يمتنـــع الوصـــول

ومن الكتب التي قام بتصحيحها وتنقيحها :

أ ـ كتاب : معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص للعباسيّ

وقد انتهي منه في أواخر صفر ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧م) .

قال :

بشري فقد بلغ الفؤاد مناه   والدهر وافي بالندي أهـــواه

وغدت أفانين الفنون بمصرنا   تزهو وروض العلم طاب جنــاه

وكواكب العرفان بعد أفولها   في أفقها طلعت وغاب دجـــ

إلي أن قال :

منها كتاب معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص ما أوفـــاه

لما تكامل طبعه في عهد مـن   نشر المعارف طبعه وهـــواه

ب ـ صحح : كتاب : كليلة ودمنة ، الذي وضعه الفيلسوف (بيديـا) الهندي ، ونقله إلي العربية عبد الله بن المقفع .

فرآه الناس بفضل ذلك المترجم له ـ مطبوعا ، خاليا من الأخطاء للمرة الأولي .

ج ـ صحح كتاب : تنقيح الفتاوي الحامدية لابن عابدين .

[illegible] ١٢٧٣ [illegible] (١٨٥٦م) .

د - صحح كتاب : **ألف ليلة وليلة** .

وانتهي الشيخ من تصحيحه خاليا من عبارات الجنس المثيرة والكلمات الفاضحة في منتصف ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) . قال الأستاذ مخلوف : (ولو أعيد طبع ذلك الكتاب موافقا لتلك النسخة التي صححها وطبعها الشيخ / محمد قطة العدوي لما قامت تلك الضجة حول الكتاب ومصادرته ومحاكمة طابعيه (١٤٠٥ هـ) .

هـ - صحح حاشية الطحاوي علي موافي الفلاح في فقة أبي حنيفة ١٢٧٩ هـ .

و - صحح كتاب : الكشاف في التفسير للزمخشري

وقد توفي في أثناء تصحيحه . فأتمه الشيخ محمد الصباغ في جمادي الآخرة ١٢٨١ هـ .

ز - قال الأستاذ جمال الدين الشيال في مجلة الثقافة الصادرة في (٢٤ رجب ١٣٠٧ هـ / ٣٠ أبريل ١٩٥١م) رجعت لأقدم نسخة من القاموس المحيط طبعت في بولاق فوجدت أنها نشرت في جزئين بإشراف وتصحيح الشيخين / محمد قطة العدوي ونصر الهوريني وذلك في ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م) بأمر محمد سعيد باشا والي مصر [١] .

مؤلفاته :

ترك الشيخ محمد قطة العدوي من المؤلفات ما يدل علي سعة

---

(١) يراجع في ذلك المرجع السابق ٣/ ٢٦٧ .

ثقافته ٠

١ ـ فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل ـ وهو مطبوع مرارا (وهـو موضوع البحث) وقد أتمه في ليلة الأربعاء تاسع جمادي الثانية من سنة سبعين بعد المائة والألف من هجرة من خلفه الله تعالـي علي أجمل نعت وأكل وصف (١)

٢ ـ تتميم الفوائـد بشرح أبيات الشواهد ٠ وهو أصغر حجما مـن كتاب شوح الشواهد وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحـت رقم ١٠٧٥ نحـو ٠

من كبار تلامذته :

١ ـ الشيخ حسن بن محمد داود العدوي المالكي ، شيخ رواق الصعايدة وإمام قبلة المالكيـة بالأزهر ٠

ولد في بني عدي ٠ وحضـر إلي الأزهر ٠

وأخذ دروسه عن الشيخ : أحمد كابوه العدوي ، والشيخ محمـد عليش المغربي المالكي ٠(١٢٩٩ هـ) والشيخ منصور كسـاب العدوي ، والشيخ محمد الأشموني ، والشيخ ابراهيم السقا، والشيخ محمد قطة العدوي ٠

وتخرج عليه كثير من علماء الأزهر ٠ منهم الشيخ حسن الجزيري المالكي ١٣٢٢ هـ والشيخ عبد المجيد الشرنوبي المالكـي والشيخ احمد بن محمد بن عبد الله بن شلبي نصر العـدوي

(١ آخر كتاب الشواهد ٢٦٠ ٠٠٠

شيخ السادة المالكية والشيخ / عبد الهادي عبد الرحمن بن محمد بن سالم مخلوف العدوي ·

توفي الشيخ / حسن بن محمد داود العدوي في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ١٣٢٠ هـ

٢ ـ الشيخ / حسن بن أحمد رفاعي الهواري العدوي

ولد في بني عدي ليلة الاثنين ٢٧ من رجب ١٢٥٧ ه (١٨٤١م) وحفظ القرآن الكريم بها · وقرأ القرآن بالروايات العشر علي العلامة الشيخ (حسن خلف الحسيني) واجتهد في حضور الدروس بالجامع الأزهر · وأخذ عن الشيخ محمد قطة العدوي والشيخ محمد عليش المغربي العلامة الشيخ احمد الأجهوري (٢)

٣ ـ الشاعر صالح مجدي بك (توفي ١٢٩٨ هـ ـ ١٨٨٠ م)

ولد في أبي رجوان بمديرية الجيزة ·

وتلقي مبادئ التعليم بمدرسة الحلوان · ثم انتقل إلي مدرسة الألسن · وألحق بقلم الترجمة وصار مدرسا في المهندسخانة · · وأخذ في نقل الكتب الرياضية إلي العربية · ومن آثارة الرياضية والحربية : ـ

١ ـ الدر المنثور في الظل والمنظور مع الأشكال طبع ١٢٦٩ هـ

٢ ـ بغية الطلاب في قطع الحجارة والأخشاب ·

٣ ـ تذكير المرسل بتحرير المفصل والمجمل طبع ١٢٧٦ هـ

وغيره ذلك من الكتب (٣)

---

(١) راجع تاريخ بني عدي ٣/ ١٤٤،١٤٥ (٢) المرجع السابق ٣/١٤١

(٣) الخطط التوفيقية لعلي مبارك ٨/ ٢٢ وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ٤/ ١٩٤ ·

وكان من تأثر به ابراهيم بك مرزوق الذي تلقي العلم بمدرسة الألسن .

أولاده :

أنجب الشيخ محمد قطة ولدين من صلبه وهما :

عبد الهادي وأحمد . ولم أستطع أن أتعرف شيئا عن حياتهما ونشأتهما .

وفاته :

توفي الشيخ محمد قطة في ١٢٨١ هـ

وقيل في رثائه قصائد كثيرة : قال الشاعر ابراهيم مرزوق بك المتوفي بالخرطوم ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م :

سبيدي الأفضل ابن قطة رب المجد والفخار (محمد) (١)

وقال غيره :

إذا كان صيدالبر في باطن الفرات
فجر الهدي في جوف (قطة) مزيد

---

(١) جمع شعره في ديوان طبع بمصر ١٢٨٧ هـ : الدر البهي المنسوق بديوان ابراهيم بك مرزوق وهو مرتب علي حسب الموضوعات . تراجم أعيان القرن ١٣ وأوائل القرن ١٤ لتيمور ١٣٥ . وتاريخ أدب اللغة العربية ٤/ ٢١٤ .

(٢) تاريخ بني عدي ٣/ ٢٦٨ .

منهجه في شرح الشواهد :

يعطينا الشيخ (قطة) في شرح شواهده أكثر من فائدة، في العروض والأدب ، والنحو والصرف والإملاء [١] والبلاغة [٢] والتاريخ وتقويم البلدان [٣] والمعرفة بأيام العرب [٤].

وقد كانت نظرة العلماء المحدثين إلي علم العربية نظرة شاملة يقول الشيخ حسن العطار [٥] (١٢٥٠ هـ) .

نحو وصرف ، عروض ، بعده لغة، ثم اشتقاق ، وقرض الشعر إنشاء

كذا المعاني ، بيان ، الخط ، قافية، تاريخ هذا لعلم العرب احصاء

ونستطيع أن نبين منهجه في النقاط الآتية :

١ - فيه تواضع العلماء :

يقول (ولولا أمر من تجب عليّ طاعته ، ولا تسعني مخالفته، أن أتشبث بذلك (شرح الشواهد) وأسلك تلك المسالك ، لكان بروزي إلي هذا الميدان من الفضول ، وجولان القطة في مجال الفحول ، وكيف ومثلي في غاية القصور ، عن الارتقاء الي هاتيك القصور) .

ولكن رجاء الثواب ، ونفع أمثالي من الطلاب سهل عليّ التطفل في هذا المقام . والطفيليّ يكرم في محل الكرام [٦]) وكقوله

(١) شرح الشواهد ١ (٢)(٣) المرجع السابق ٦ (٣) المرجع السابق ٨
(٤) المرجع السابق ٢٠ (٥) حاشيته علي الأزهرية ٧
(٦) شرح الشواهد ٢ .

(وإن لم أكن من فرسان هذه الحلبة ، ولا أزن معهم مثقال حبه) كما سيجيء

٢ ـ فخر العالم المتحدث بنعم الله عليه . كما في قوله :
(هذا شرح جميل (١) ....)

٣ ـ فيه رجاء المؤمن المستبشر (ولكن رجاء الثواب ..) (٢)

٤ ـ كثيرا ما يجنح إلي السجع المقبول ، مثل قوله (هذا شرح جميل ، علي شواهد ابن عقيل ، يحل مبانيها ، ويبين معانيها علي وجه حسن ، وأسلوب مستحسن) (٢)

٥ ـ قد يذكر أشياء في حاجة إلي تحقيق وتدقيق ، وذلك كما في ٢٠٤ حيث نقل عن المستطرف نصا عن : البغل وقطع نسله، واشتقاقه .... وكذلك عن علة التسمية (بموسي) وحياته عليه وعلي نبينا الصلاة والسلام ٢٠٩ . وما نقله عن السيوطي في شرح شواهد المغني في قصته (مجنون ليلي) ٢٤٩ .

٦ ـ خبير بمواضع البلدان فيلقي ضوءا علي أماكنها ومسماها وضبطها كما في :

أ ـ نجد : بفتح النون وسكون الجيم ، اسم للبلاد التي هي أعلاها تهامة واليمن ، وأسفلها العراق والشام ٨

ب أذرعات : بفتح الهمزة ، وسكون الذال المعجمة وكسر الراء ، وتفتح بلدة بالشام ١٠

(١) ، (٢) ، (٣) المرجع السابق ـ الصحيفة نفسها .

ويثرب : كيضرب هو في الأصل اسم رجل من العمالقة بني مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فسميت بأسمه وقد ورد النهي عن تسميتها بذلك . وأما قوله تعالي (يا أهل يثرب) [١] فحكاية عند المنافقين ١٠

جـ ـ اللوي : بكسر اللام ـ اسم موضع . ١٨

٧ ـ يري أن الصواب قلة استعمال الفعل الماضي من (يدع) ٨

٨ ـ قد يذكر في هذه العجالة أقوالا كثيرة . ثم يرجح ما يختاره بمرجحات [٢] وذلك كما في الشاهد (أزف الترحل غير أن كا بنا) لما نزل برحالنا وكأن قد

٩ ـ الشيخ قطة : أديب لبيب لذلك نراه :

يستطرد فيذكر أبياتا في معني الشاهد : وذلك عند شرح :

فإما كرام موسورون لقيتهم
فحسبي من ذو عندهم ما كفانيا ٥

وما كل من يبدي البشاشة كائنا
أخاك إذا لم تلفه لك منجدا ٤٥

إن المرء ميتا بانقضاء حياته
ولكن بأن يبغي عليك فيخذلا ٦١

رأين الفواني الشيب لاح بعارضي
فأعرض عني بالخدود والنواخذ ١٠٤

لا تجزعي أن منفس أهلكته
فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي ١١٢

---

(١) ١٣ الأحزاب .
(٢) شرح الشواهد ٤

و فقلت ادع أخري وارفع الصوت جهرة

لعل أبي المغوار منك قريب ١٣٩

و ولقد أراني للرماح دريئة

من عن يميني تارة وأمامي ١٤٤

و سبقوا هوي وأعتقوا لهواهم

فتخرموا ولكل جنب مصرع ١٧١

و خليلي ما أجري بذي اللب أن يري

صبورا ولكن لا سبيل إلي الصبر ١٩٠

وربما دفعه حرصه علي الأدب أن يطيل في معني الشاهد حتي يخرج عن المقام كما في شرح ذلك الشاهد :

ولقد أمر علي اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني ...

ثم يقول (وللأدباء في هذا المعني شيء كثير يخرجنا إيراده عن المقام) .

١٠ ـ التزم أن يذكر بحر كل بيت وعروضه وضربه ، وكثيرا ما ينبه علي ما دخله من زحافات وعلل .

١١ ـ كثيرا ما يذكر الأخبار ويتبعها بقوله (والله أعلم أي ذلك كان وذلك حينما تعرض لشرح :

بكيت علي سرب القطا إذ مررن بي

فقلت ومثلي بالبكاء جدير

أسرب القطا هل من يعير جناحه ؛

لعلي إلي من قد هويت أطير ٢١ ، ٢٢

١٢ ـ قد يستدرك علي من سبقه :

وذلك كما في :

أ ـ فإن الحمر من شر المطايـــــا

كما الحبطات شر بني تميم ١٥٢

قال : (الحبطات) أولاد الحرث بن عمرو بن تميم ـ كمـــا في الصحاح ـ ثم قال : وفي حاشية الخضري الحرث بن مالـــك بن عمرو .

ب ـ بل بلد ملء الفجاج قتمه .. لا يشتري كنانه وجهرمه ١٥٥

قتام : مثل كلام . ولعله خفف ـ هنا ـ بحذف الألف . وفـــــي حاشية الخضري . ما يقتضي إنه لغة .. ونصه :

(والقتم : بفتح القاف والمثناه الفوقية ـ الغبار ، كالقتـــام والقتم ، بفتح فسكون) .

ج ـ وفي قوله : تبصر خليلي هل ترى من ظعائن

سوالك نقبا بين حزمي شعبعب ٢٢٦

قال : سوالك نعت لظعائن مجرور بالفتحة لأنه ممنوع مـــن الصرف لصيغه منتهي الجموع . وهو جمع سالكة . أي ذاهبة .

ثم قال : (ولعل هذا الإعراب أظهر مما في حاشية العلامـــة الخضري) .

١٣ ـ يهتم كثيرا بذكر اللهجات العربية وذلك مثل :

١ ـ مسكين : بكسر الميم وبنو أسد يفتحونها ٥٠

٢ ـ ضَعفُ ـ الفعل بضم العين مصدره عند قريش (ضعُف) بضم العين أيضا وبلغتهم نزل قوله تعالى : (والله الـــذي خلقكم من ضعف) ٥٤الروم

وتميم : ضعف · بفتح العين ٦١

٣ ـ عُنق (الرقبة) بضم النون اتباعا للعين في لغة أهل الحجاز : وهو موءنث عندهم فيقولون : هي العنق ، (كما يقولون ثلاث أعناق ويصغرونها عنيقة) والنون ساكنة عند تميم · ٦٩ وهم يقولون : هذا عنق ويحقرونه فيقولون : هذاعنيق طويل · (أ)

٤ ـ إخال : مضارع خال يخال خيلا ـ من باب نال إذا ظنّ وفي لغة من باب : باع · وكسر همزته ـ وان كان على غير قياس أكثر استعمالا · وبنو أسد يفتحونها على القياس كبقية أحرف المضارعة ٩٤ ·

٥ ـ لدي : ظرف مكان بمعني عند ـ وقد يستعمل في الزمان وإذا أضيفت إلي مضمر ـ كما في لدينا ـ قلبت ألفه ياءً عند جميع العرب إلا بني الحارث بن كعب فلا يقلبونها تسوية بين الظاهر والمضمر · وهو اسم جامد لاحظ له في التصرف والاستقاق فأشبه الحرف · ٩٤

٦ ـ رُفقة : بمعني الجماعة ـ راوءه مضمومة في لغة بني تميم والجمع رُفاق ، مثل برمة وبرام · وتكسر راوءه في لغة قيس والجمع رفق كسدرة وسدر ٩٦

٧ ـ ضلع : بكسر الضاد المعجمة ـ والحجازيون يفتحون اللام واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع كما هو حديث البخاري · والتميميون يسكنونها · وهي أنثي · فيقال هي الضلع · ١٠٥

(أ) الذكر والموءنث لابن الأنباري ص ٣٨٣

٨ - يري الحجازيون تعدية الفعل رضي بعلي فيقولن : رضي الله عليه وعليه خرج بعضهم قول : قحيف العامري .

إذا رضيت عليّ بنو قشير
لعمر الله أعجبني رضاها ١٤٨

قال : (ولأهل الحجاز لغة تعدي رضي بعلي)

٩ - شر : اسم تفضيل . أصله أشر بالهمزة ، خفف بحذفها لكثرة الاستعمال . ولم يستعمل بهذا الأصل إلا في لغة لبني عامر . ١٥٦ ، ١٦٣

وكذلك خير : اسم تفضيل تحذف همزته لكثرة الاستعمال ولا تثبت إلا في لغة لبني عامر . ١٦٣ .

١٠- حيث مبني علي الضم في محل نصب علي الظرفية المكانية . وبنو تميم يعربونها نصبا إذا كانت في موضع نصب .وبنو فقعس يعربونها مطلقا . ١٦٠ .

١١ - مع - ظرف مكان .

وربيعة تسكن عينها . ١٦٥

١٢ - حسب - بكسر السين في الماضي - وتفتح في المضارع كما هي لغة جميع العرب - بمعني ظن . وبنو كنانة يكسرون المضارع كالماضي . .

١٣ - نكل : بمعني نكص أي رجع . ونكل عن الأمر : أي جبن. فعله من باب قعد ، علي لغة أهل الحجاز . ومن باب تعب لغة ، منعها الأصمعي وقيل : لغة تميم (١) ١٧٤

(١) تاج العروس ٨/ ١٤٥ (نكل) .

١٤ - الجهد - بمعني الوسع والطاقة - بضم الجيم عند أهـــل الحجـاز · وبالفتح عند غيرهم · ٧٤

١٥- بات : مضا رعها - يبيت ·

وفي لغة : يبات : (وهي لغة العاميين) ١٨٦ ·

١٦ - امرأة - بهمزة الوصل · وفيها لغة أخري وهي ، مرأة وزان تمرة ويجوز نقل حركة الهمزة إلي الراء فتحذف فيصيـر مرة وزان سنة (وهي لغة العامة أيضا) ١٩١ ، ١٩٢

١٤ - عنايته بالمصطلحات البلاغية :

١ - قد ينزل الفعل المتعدي منزلة اللازم · وذلك في : ومن يشابـه أبه فما ظلم ····· ٦ والأصل ظلمه · وكذا في (إذا قالـــت خدام قصد قوها ····) قال هنا منزلـ منزلة اللازم أي اذا صدر عنها قول ··· ١٣ والأصل قالته ·

٢ - إسناد مجازي : (مجاز عقلي) وهو إسناد الفعل أو ما فـــي معناه إلي شيء غير ما بني ، الفعل أو في معناه له لملابسة قرينـة مانعة من إرادة ظاهر الإسناد · كما في : قد ضمنت إياهـــم الأرض ·· علاقته المكانية لأن الأرض في الحقيقـــــة غير ضامنة - ١٢ ·

وسوغ إسناد الفعل إليها ملابسته للأرض من حيث وقوعه فيها ·

٣ - مجاز مرسل في ·

لهم دانت رقـاب بني مصر ··

ففي رقاب مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل . ١٣

وفي قوله :

فلم يدر إلا الله ما هيجت لنا عشية آناء الديار وشامها .

فهو علي حذف مضاف أي أهل الديار (مجاز بالحذف) .

أو مجاز مرسل من إطلاق المحل علي الحال . ١٠٦

٤ - الأبناء جمع ابن وهو ولد الصلب الذكر .

وإطلاقه علي ابن الابن مجاز (لغوي) . كما في قوله :

(أبناؤها متكنفون أباهمو حنقوا الصدور وما همو أولادها ٥٦

في الشاهد : قنافذ هد اجون حول بيوتهم .

قال : هم قنافذ . تشبيه بليغ (ما حذفت فيه الأداة ووجه الشبه) أو استعارة مصرحة علي رأي السعد[(١)] ٤٨ .

وفي قوله : صعدة نابتة في حائر .

وفي : أينما الريح تميلها تمل .

الأصل : هو صعدة . وجعله من باب التشبيه البليغ متعين عند الجمهور .

ومذهب السعد جواز أن يكون من باب الاستعارة المصرحة بجعل المشبه أمرا كليا يشمل محبوبة الشاعر وغيرها ... ٢٤٠

في الشاهد: ألا عمرولي مستطاع رجوعه فيرأب ما أثأت يد العضلات

(اسناد الاصلاح إلي العمر مجاز عقلي من الاسناد - للظرف لمروسوغ إسناد الفعل إليه ملابسة للعمر من حيث وقوعه فيه واسناد الإفساد إلي اليد مجاز عقلي أيضا . من الاسناد الي

(١) مختصر السعد علي تلخيص المفتاح ٤/ ٥٢ ط الثانية ١٣٤٣ هـ وحاشية الدسوقي بهامشه .

آلة الفعل .

فيالك من تمر ومن شيشاء .

قال : كلمة يالك : هي كلمة تعجب . فيا واللام نقلا من الاستغاثة واستعملا في التعجب مجازا (لغويا) .

٤ ـ التفات وهو عند الجمهور (التعبير عن معني بطريقة من الطرق الثلاثة : التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر من هذه الطرق) وهو يكسو الكلام طلاوة ومتعة .

أ ـ كما في قوله : وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة .

بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

من التكلم الي الغيبة لأن مقتضي قوله : فكن لي أن يقول: عني فأقام المظهر مقام المضمر (والاسم الظاهر من قبيل الغيبة) ٥٨ .

ب ـ وكذا في الشاهد : أرجووامل أن تدنو مودتها

وما اخال لدينا منك تنويل

ففي : منك النفات من الغيبة إلي الخطاب ٩٤

جـ ـ وفي الشاهد : وكنت إذا غمرت قناة قوم

كسرت كعوبها أو تستقيما

استعارة تمثيلية ، حيث شبه حاله إذا أخذ في إصلاح قوم انضموا بالشر والفساد ... ٢٢٨ .

ملاحظات :

١ ـ يلاحظ أن الشيخ (قطة) لم يذكر في شرح شواهده عناوين أبواب الألفية بل إنه لم يشر إلي ذلك · بينما التزم الشيخ ... جاوي بذكر عناوين كل الأبواب ·

قد يغفل فلا ينبه أن الشاعر محدث أو مولد وليس من أهل الاحتجاج · وإنما هو يتمثل به ولا يستشهد بشعره · وذلك كما في قول أبي نواس :

... مأسوف علي زمن ينقضي بالهم والحزن ٢٨، ٢٩

وكان الواجب عليه أن يقول : التمثيل به ·

وكما في ١٢٣ :

٢ ـ قد يذكر الشاهد كما يرويه ابن عقيل وهو خِلوٌ من موضع يستشهد به النحاه ـ وذلك كما في :

إذا أصبح عون الله للمرء لم يجد ... عسيرا من الآمال إلا ميسرا

حيث روي ذلك · أما رواية : إذا أصبح عون الخالق المرء ولم يجد فهي موضع الشاهد حيث أضيف المصدر (عون) إلي فاعله (الخالق) ثم نصب المفعول به ـ المرء ـ

٣ ـ قد يكون في البيت أكثر من شاهد فلا ينبه عليه اللهم إلانادرا كما في :

أتوا ناري فقلت منون أنتم ؟ فقالوا : الجنّ ... قلت :عموا ظلاما

فذكر فيه أربعة شواهد :

أ - منون : حيث لحقته الواو والنون في حالة الوصل وهو شـــاذ
والقياس من أنتم ·

ب - كون - منون أنتم : حكاية للفظ محذوف صادر من الجـــن
كما ذكر ابن الناظم ·

ج - كون المحكي غير نكرة ·

د - تحريك نون منون ·

وليت الشيخ (قطة) فعل مع كل الشواهد المتعددةفوضـــح
الشاهد فيها مثل هذا الصنيع ·

٤ - قد يكرر ابن عقيل ذكر الشاهد ، ولكن الشيخ قطة يغفل تكراره
حيث لم يكرر بيتا سوي :

وإن مدت الأيدي إلي الزاد لم أكن
بأعجلهم إذا جشع القوم أعجـــل

حيث ذكره في ٥٨ ، ١٩٦ ·

أقد الترحل خير أن ركابنا ٣ ، ٨٠ برواية أزف وأخــرى
أخذ وهما بمعني : دنا وقرب ·

بينما التزم الجرجاوي ذكر الأبيات المكررة في موضعها حيـــث
كرر :

شربن بماء البحر ···· ١٤٠ ، ١٤٧

ومن قبل نادي ١٦٥ ، ١٦٧ المطبوع بداخـــل
الشواهد ·

٥ - قد يترك بعض الشواهد التي استشهد بها ابن عقيل وذلـــك
مثل :

إذا كان الشتاء فأدفئوني فإن الشيخ يهرمه الشتـــــاء

فإنه لم يذكره بل لم يشر إليه البته .

٦ - كما ترك شاهدا آخر من شواهد ابن عقيل :

ورؤية الفكر ما يؤول له الأمر معين علي إجتناب التواني نقل تذكره ولم يتعرض له (١) وشرحه الشيخ الجرجاوي .

٧ - قد يستعمل كلمات لغوية لا سند لها في كتب اللغة : مثل وانقطاعي عن ذلك السنين العديدة) حيث يريد : العديـــد بمعني المعدودة . ولاسند له في ذلك : المعجم الوسيط ٨٧) ، ولعل الذي دفعه إلي ذلك حرصه علي السجعة فيها .

٨ - قد يذكر أنه أخذ كلامه من حاشية المغني ، دون أن يبيـــن هذه الحاشية وذلك في ١٦٧ ، ١٧٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ .

فذلك يغمض علي الباحث أو القاريء حيث أن هناك حواشـي كثيرة علي المغني : الشمني - الدماميني - السيوطي - الدسوقي الأمير ....

٩ - نقل كثيرا عن القاموس المحيط

وذلك كما في ١٣ ، ٣٥ ، ٩٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٧ ، ٢١٥ ، ٢٥٥ .

وعن المصباح المنير ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٢٩ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٣ .

---

(١) بينما ذكره الشيخ الجرجاوي ٤٨ ، ١٥٨ .

ونقل عن الصحاح للجوهي ١٦ ، ٣١ ، ٣٥ ، ١٠٠ ، ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٧٣ ، ١٨٧ ، ٢١٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ .

نقل عن السيوطي : ١١٩ ، ١٥٠ ، ١٥١

وعن شرح شواهد المغني للسيوط : ٢٠١ ، ٢٤٩

وعن حاشية السيوطي في المغني ٢٤٣

نقل عن العيني ٨٢ ، ١١٧ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ١٧٤

نقل عن المستطرف الذي قام بتخفيفه ٦٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٤

نقل عن ابن الانباري ٧٦ ، ١٦٢

نقل عن الفارسي ٤ ، ٥ ، ١٥٣

نقل عن حاشية الدسوقي علي المغني .

نقل عن مغني اللبيب لابن هشام ٥ ، ١٤٦ ، ٢٠٢ ، ٢٢٩ ، ٢٥٣

وعن غير المغني ٨٠ ، ١٧١

وعن حاشية الأمير علي المغني ٦٣ ، ٩٧ ، ١١٨ ، ١٤٧ ، ١٥٤

نقل عن الخضري كثيرا : ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ .

وقد ينقل بالنص عن الخضري : ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ .

وربما صحح من هذا النقل شيئا سها فيه من قبل كما قال ٢٥٥

(يراجع) عن ابن عصفور في شرح الجزولية ٤ ، ٢٠٩ .

نقل عن أدب الكاتب لابن قتيبة ٢٠٢ ، ٢١٦ .

ونقل عن الخليل ٨٢ ، ١٦١ ، ١٦٦

ونقل عن الأصمعي ١٩٨ ، ١٢٣

ونقل عن ابن مالك ٤ ، ١٤٦

ونقل عن سيبويه ٤٢ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ، ٢٤٣

ونقل عن المبرد ١٤٢ ، ١٤٣

وعن الفراء ١٢٨

ونقل عن ابن جني ٢٣٨ وأبي عبيدة ١٥١ وابن السراج ١٩٢ ، يونس ٥ ، ابن كيسان ٥ ، البطليوسيّ ٢٥٣، وابن القطاع ٧٥ ، ابن الشجري ٢٩ ، عن شيخ الإسلام زكريا الإنصاري ٤٨ الزجاجي ٦٦ الرازي ٢٣٣ ، الأشموني ٢٥٨ ، ابن الحاجب ٥ ، الروداني ٨٥ ، أبو حيان ١٥٢ ، الدماميني ١٥٠ ، عن خزانة الأدب للبغدادي ١٩٨ وعن الأغاني ٢٣٢ ، وحاشية السجاعي ٩٣ ، وشرح المطرزي للمقامات الحريرية ١٢٣ ، وحاشية الدسوقي علي السعد ١٧٥ ، الروضة الأنف ١٢٩ وروي عن أبي نعيم والخطيب وابن عساكر ١٩٦ .

والذي حملني علي أن أبين الكتب التي أخذ منها والعلماء الذين نقل عنهم أنه ذكر أنه لم يكن معه - حين تأليف هذا الكتاب - إلا حاشية السجاعي .

كما أنه قد ينقل من عدة كتب كالصحاح والمصباح القاموس في معني واحد وذلك في (الهام) من الشاهد .

بضرب بالسيوف رءوس قـــوم ٠٠ أذللناها مهن عن المقيل ١٧٢، ١٧٣

وهذا يجعلنا نحكم عليه بأنه اكتفي بذكر هذه النصوص الواردة في حاشية احمد السجاعي ولم يوثقها من مراجعها الأصلية ٠

وخلاصة البحث أن شـــرح شواهد ابن عقيل للشيخ قطة العـــدوي كتاب حافـل بفنون شتي من المعارف والعلوم ٠ وهو جدير بـــأن تتجـه إليه أنظـار العلماء ٠

فـرحم اللـه مؤلفـه وجزاه عن العلم خير الجزاء ٠٠٠

دكتور

محمد حسن محمد يوسف

الأستاذ المساعد في قسم اللغويات

بكلية البنات الاسلامية بأسيوط

ابن برّي المصري

د . محمد محمد فهمي عمر

نسبه :

هو عبد الله بن إبي الوحش بري بن عبد الجبار بن بري [1]
وبَرِّي : بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء المكسورة ، وبعدها
ياء ، وهو اسم علم يشبه النسبه [2]

لقبه :

يلقب بالشيخ ، وبالأديب [3]

كنيته :

يكنب بأبي محمد ، كما يكني بابن برّي ، وهو بهذه الكنية
أشهر [4] ، ويقال في نسبته (المصري) ، كما يقال بقلة (المقدسيّ)
لإن اسرته من القدس ، ويقال ايضا (الشافعي) نسبة الي مذهب
الفقهي ، كما يقال : (النحويّ اللغويّ) نسبة إلي ما اشتهر به
من علوم العربية .

(١) ينظر ترجمته في : انباه الرواه للقفطي ٢/ ١١٠ ، وبغية الوعاة للسيوطي ٢/ ٣٤ ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ص ٢١٣، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة ٦/ ٣٧ ، وهدية العارفين ١/ ٤٥٧ ، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٩٢ .

(٢) ينظر وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٢ .

(٣) لقبه بالأديب صاحب القاموس المحيط في مادة (ب ر ر) .

(٤) هناك جماعة يقال لهم (ابن بري) وأكثرهم محدثون . ينظر هامش كتاب التنبيه والإيضاح ١/ ٣٩ تحقيق مصطفي حجازي - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م .

(٥) ينظر نشأة النحو للمرحوم الشيخ طنطاوي ص ١٨٤ - الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

حياته :

ولد ابن بري بمصر في الخامس من رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وكانت وفاته ليلة السابع والعشرين من شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة بمصر أيضا .

ويقول القفطي : انها كانت في ذي القعدة من السنة نفسها من غير أن يعين يوما أوليلة (١)

ونشأة ابن بريّ الأولي تشبه نشأة نظرائه من إبناء عصره من الجلوس إلي العلماء ، وتلقي العلم عنهم بالسماع ، أو الاستملاء ،وكانت حلقات الدرس في مختلف العلوم والمعارف تعقد حين ذاك في جامع عمرو بن العاص ، وفي غيره من مدارس العلم .

وذكر ابن منظور في لسان العرب بعض الأخبار التي يمكن أن يفهم منها أن ابن بريّ بدأ حياته العلمية مبكراً في الخامسة عشر من عمره (٢) .

ومضي بعد ذلك يجد في تحصيل اللغة والنحو وغيرهما من علوم العربية ، ويديم الاطلاع في كلام العرب (حتي حصل له من ذلك ما لم يحصل لغيره ، وانفرد بهذا الشأن) كما يقول القفطي .

ونبوغ ابن بريّ المبكر لفت إليه الأنظار حتي أختير ليتولي

(١) إنباه الرواة ٢/ ١١٠

(٢) ينظر لسان العرب مادة (د م ث) فقد ذكر ابن منظور سبب تعلم ابن بريّ علوم العربية وروي في ذلك خبراً طريفا.

التصفح في ديوان الإنشاء ، وهو في الحادية والعشرين من عمره، فكان لا يصدر كتاب عن الدولة الي ملك من ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفح ، ويصلح ما لعله فيه من خلل خفيّ .

وقد ولي هذا العمل خلفاً لمحمد بن بركات بن هلال السعيدي (ت ٥٢٠) (١) الذي كان قد تولاه بدوره خلفاً لابن بابشاذ(٢)

شيوخه :

أخذ ابن بريّ النحو واللغة والأدب عن شيوخ عصره من المصريين والقادمين على مصر منهم :-

(١) أبو بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني النحويّ (ت ٥٥٠) الذي أقرأه كتاب سيبويه .

(٢) أبو طالب عبد الجبار بن محمد علي المعافري القرطبي(ت ٥٦٦)

(٣) علي بن جعفر بن علي بن القطاع (ت ٥١٥) سمعه يروي صحاح الجوهري للمصريين .

(٤) أبو عبد الله بن بركات بن هلال السعيدي (ت ٥٢٠) الذي أخذ عنه (تعليق الغُرفة) (٣) وخلفه في ديوان الإنشاء .

---

(١) كان عالما مبرزا في النحو واللغة والأدب ، تتلمذ على يد ابن بابشاذ ، وولي بعده التصفح في ديوان الإنشاء . البغية ٥٩/١ .

(٢) هو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصري ، وأصله من الديلم ولد ونشأ بمصر تولى ديوان الإنشاء للفاطميين ، توفي سنة ٤٦٩ ه . نشأة النحو ص ١٨٣ .

(٣) تعليقه في النحو صنفها ابن بابشاذ ، يقول عنها ابن خلكان : إنها لو بيضت لقاربت خمس عشر مجلدة ، وسماها النحاة الذين

تلاميذه :

صحب ابن بريّ خلق كثير ، انتفعوا بعلمه وفضله منهم :ـ

(١) أبو موسي الجُزُولي (ت ٦٠٧ هـ) صاحب المقدمة في النحـــو وقد ورد ذكـر ابن بريّ فيها ، ونقل عنه في آخرها ·

(٢) سليمان بن بنين بن خلف تقي الدين الدقيقي النحوي (ت ٦٦٤هـ) قرأ عليه في النحو ، وسمع منه ·

(٣) يحيي بن عبد الله بن يحيي ، إبو الحسن النحويّ المصـــريّ (ت ٦٣٣ هـ) وهو الذي ولي التصفح في ديوان الإنشاء خلفاً لابن بريّ ·

وغيرهم كثيـــر ·(١)

موءلفاته :

ذكرت المصادر التي ترجمت لابن بريّ أن له عدة موءلفات عشرة :ـ

(١) كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع في الصِحّاح · حقق الجزء الأول منه مصطفي حجازي والجزء الثاني عبد العليم الطحاوي ·

(٢) جواب المسائل العشر ، وهي المسائل التي سأل عنها إبو نـــزار الملقب بملك النحاة وهذه المسائل أوردها السيوطي في الأشباه والنظائر تحت عنوان (المسائل العشر المتعبات إلي الحشر)(٢)

ـــــــ وصلت اليهم بعده تعليق الفرقة، وقد انتقل هذا التعليق الـــي ابن هلال السعيدي ، ثم إلي ابن بريّ ـ وفيات الاعيان ٢/ ١٩٩·

(١) ينظر التنبيه والايضاح ١/ ٤٣، ٤٤ ·

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ٣/ ٢٢٨-٢٦٤ ط دار الكتب العلمية ـ بيـــروت ···

(٣) حاشية علي درة الغواص علي أوهام الخواص للحريري (ت ٥١٦هـ)

(٤) حاشية علي المعرب للجواليقي (ت ٥٤٠ هـ) .

(٥) اللباب في الرد علي ابن الخشاب (ت ٥٦٧ هـ) .

(٦) شرح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسيّ (ت ٣٦٨ هـ)

(٧) الاختيار في اختلاف أئمة الأمصار . وهو كتاب مفقود (١)

(٨) غلط الضعفاء من الفقهاء ، وهو مجموعة من أخطاء الفقهاء في استعمال الألفاظ وقد نشره المستشرق توري سنة ١٩٠٦م

(٩) القصيدة الخالية : قصيدة من بحر الطويل بني قافيتها علي كلمة (الخال) وقد ذكرها صاحب اللسان .

(١٠) القصيدة الحالية : قصيدة من بحر البسيط بني قافيتها علي كلمة (الحال) وقد ذكرها صاحب اللسان في مادة (ح و ل) (٢)

وهاتان القصيدتان تدلان علي أن ابن بريّ كان يجيد قرض الشعر.

مكانته وآراء العلماء فيه

كان ابن بريّ علماً من أعلام العربية ، أثني عليه كل من ترجم له ، قال عنه السيوطي : (لم يكن في الديار المصرية مثله) (٣) وقال القفطي : (كان جمّ الفوائد كثير الإطلاع عالماً بكتاب سيبويه وعلله وبغيره من الكتب النحوية ، قيما باللغة وشواهدها ...الخ)(٤) ووصفه ابن خلكان بالامام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره)(٥)

(١) ينظر كتاب التنبيه والايضاح ١/ ٤٥
(٢) ينظر كتاب التنبيه والايضاح ١/ ٤٤- ٤٦
(٣) ينظر بغية الوعاة ٣٤/٢ (٤) إنباه الرواة ٢/ ١١٠
(٥) وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٢

ويصفه ابن حجر بأنه (شيخ العربية بمصر) (١)

جوانب من آرائه النحوية والصرفية

بعد أن عرفنا مكانته ابن بريّ العلمية يجدر بنا أن نسير مع الرجل في رحاب آرائه النحوية والصرفية نقتطف منها بعض الأزاهير التي ترشدنا وتقف بنا علي أسلوبه ومنهجه في هذا المجال ·

(١) يقول ابن بريّ في كتابه (التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح مادة (ب ر أ) :

(وذكر (٢) في فصل (برأ) : بَرِئتُ أَبرَأُ ، وَبَرأتُ أيضا أبرَأُ)

ويعلق ابن بريّ علي الجوهري بقوله : (لم يذكر بَرَأتُ أَبرُؤُ بالضم في المستقبل · وقد ذكره سيبويه ، وأبو عثمان المازني وغيرهما من البصريين ، وإنما ذكرتُ هذا لأن بعضهم لحن ... بن برد في قوله :

نَفَرَ الحيُّ من بكائي فقالوا ·· فُز بصَبرٍ لعلّ عَينَكَ تَبرُؤُ

مَسّهُ من صدودِ عَبدَةَ ضُرّ ·· فنباتُ الفؤاد ما تستقِرُّ

ثم ذكر قول الجوهري : (رجل بريء وبُراي مثل عجيب وعُجاب) وعلق عليه بقوله (المعروف في بُراء أنه جمع لا واحد له ، وعليه قول الشاعر :

---

(١) تبصير المنتبه ص ١٢٩ ·
(٢) أي الجوهري في الصحاح ·

رأيت الحرب يَجنيها رجالٌ ·· ويَصلي حَرَّها قومٌ بُـــراءُ

ونص ابن جني علي كونه جمعاً فقال : جُمعَ بري‌ء علي أربعة مـــن الجموع :

بَري‌ء ، وبراء مثل ظريف وظراف ، وبَري‌ء وبُرآء مثل شريف وشُرفاء وبَري‌ء وأَبرياء مثل صديق وأصدقاء ، وبري‌ء وبُراء مثل ما جـــاء من الجموع علي فُعال نحو : تُؤام ورُبابٍ في جمع تَوءم ورُبَّي) (١)

(٢) وفي كتابه التنبيه والايضاح أيضا مادة (درأ) يقول :

(وذكر في فصل (درأ) أن أبا عبيدة قال : دريّ يكون منسوباً إلي الدُّر علي فُعليّ ، ولم يهمزه ، لأنه ليس في الكلام فُعِّيلٌ) (٢)

ثم علق علي ذلك بقوله : (قد حكي سيبويه أنه قد جـــاء في الكلام فُعِّيل وهو قولهم : مُرِّيق للعُصفُر ، وكوكـــب دُرِّيءٌ) (٣) .

---

(١) كتاب التنبيه والإيضاح ١/٧ مادة (برأ) ·

(٢) كتاب التنبيه والايضاح ١/ ١٥

(٣) المرجع السابق ـ وقُري‌ء قوله تعالي : (الزجاجا كأنها كوكب دِرِّي‌ء) النور آية ٣٥ بفتح الدال وكسرها ، قال الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٤ (كوكبٌ دُرِّي‌ءٌ إذ جعله من الدُّر ، ودِرِّي‌ء من درأ همزها وجعلها فِعّيل ، وذلك من تلألئه ، وقال بعضهم (دَرِّي) مثل فَعِّيل) ولم يقرأ أحد من القراء (دُرِّي‌ء)

(٣) وفي مادة (ش ي أ) من الكتاب السابق يذكر ما نقله الجوهري عن الخليل بن أحمد ويعلق عليه ـ قال ابن بريّ (وذكر في فصل (شيأ) أن الخليل يري أن أشياء فَعلا ، جُمعَ علي غير واحده ، كما أن الشعراء جمع علي غير واحده)

ويعلق علي ذلك فيقول :

(حكايته عن الخليل أنها جمع علي غير واحده كشاعر وشعراء وهمّ منه ، بل واحدها شيء ، وليست أشياء عنده بجمع مكسر وإنما هي اسم واحد بمنزلة الّرفاء والقصباء والحلفاء ، وبكنه يجعلها بدلاً من جمع مكسر ، بدلالة إضافة العدد القليل إليها كقولهم : ثلاثة أشياء ، وأما جمعها علي غير واحدها فذلك مذهب الأخفش ، لأنه يري أن أشياء وزنها أفعلاء ، وأصلا أشيئاء ، فحذفت الهمزة تخفيفا ، وكان أبو علي يجيز قول أبي الحسن علي أن يكون واحدها شيئا ، ويكون أفعلاء جمعا لفَعل في هذا كما جمع فَعل علي فُعلاء في نحو سَمحَ وسُمحاء ، وهو وهم من أبيّ علي ، لأن شيئاً اسم ، وسمحاً صفة بمعني سميح ، لأن اسم الفاعل من سَمُحَ قياسه سميح ، وسميح يجمع علي سُمحاء كظريف وظُرفاء ، ومثله خصم وخُصماء ، لأنه في معني خصيم .

بضم الدال مع الهمز ، ولم أجد في كتاب سيبويه ما يعضد حكاية ابن بري عن سيبويه . ـ ينظر كتاب سيبويه ٢/ ١١٧ ، ٢/ ٨٩ هارون ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٣٢ والبحر المحيط ٤٥٦/٦ ـ ومختصر في شواذ القرآن لابن حالوين ص ١٠٢ .

والخليل وسيبويه يقولان : أصلا شيئاء ، فقدمت الهمزة التي هي لام الي أول الكلمة ، فصارت أشياء . فوزنها علي هذا الفعاء ، ويدل علي صحة قولهما أن العرب قالت في تصغيرها أشياء ، ولو كانت جمعاً مكسراً كما ذهب اليه الأخفشي لقيل في تصغيرها شُيَيئات كما يفعل ذلك في الجموع المكسرة كجمال وكعاب وكلاب . يقول في تصغيرها : جُميلات ، وكُعيبات ، وكُليبات ، فتردها إلي الواحد ثم تجمعها بالألف والتاء) (١)

وينكر ابن بري قول الجوهري : (أن أشياء يجمع علي أشاوي ، وأصله أشائِيُّ قلبت الهمزة ياء ، فاجتمعت ثلاث ياءات ، فحذفت الوسطي ، وقلبت الأخيرة ألفا ، وأبدلت من الأولي واو كما قالوا : أتيته أتوَه) (٢)

ويعلق ابن بري علي ذلك فيقول : (قوله : وأصله أَسَائِيُّ سهو وإنما أصله أشِائِيُّ بثلاث ياءات ، ولا يصح همز الياء الأولي لكونها أصلا غير زائدة كما تقول في جمع أبيات : أبابيت ، فلا تهمز الياء التي بعد الألف لأصالتها ، ثم خفت الياء المشددة كما قالوا في صحارِيُّ صحارٍ ، ثم إبدل من الكسرة فتحه ، ومن الياء ألف ، فصار أشايا ، كما قالوا في صحارٍ : صحارَي ثم أبدلوا من الياء واواً كما أبدلوهما في جبيت الخراج جباية وجباوة .

---

(١) كتاب التنبيه والايضاح ١/ ٢١ ، ٢٢

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٢

وعند سيبويه أن أشادّي جمع لإشاوة وإن لم ينطق به) (١)

ثم يذكر الجوهـــري رواية عن المازني فيقول : (أن أبا عثمان المازني ســأل أبا الحسن الأخفشي : كيف تصغر العرب أشياء؟ فقال : أشياء ، فقال تركت قولك : لأن كل جمع كُسّر علـــي غير واحده ، وهو من ابنية الجمع ، فإنه يرد بالتصغير إلـــي واحـده)

ويعلق ابن بري علي هذه الرواية بقوله : (هذه الحكاية مغيّرة لأن المازني إنما أنكر علي الأخفشي تصغير أشياء ، وهي جمـــع مكسر للكثير من غير أن يـرد الي الواحد ، ولم يقل له (إن جمع كُسّرَ علي غير الواحده) لأنه ليس السبب الموجب لرد الجمـــع الي واحده عند التصغير هو كونه كُسِّرَ علي غير واحده وإنما ذلك لكونه جمع كثرة لاُقله)

ثم ذكر الجوهري حكاية عن الفراء أن أصل شئ شيِّ ، فجمـع علي أفعـلاء مثل هيّن وأهيناء .

ويعلق ابن بري علي هذه الحكاية فيقول : هذا سهو ، وصوابه : أهونـاء ، لأنـه من الهَونِ ، وهو اللين) (٢)

(٤) ذكر الجوهري في مادة (نسأ) بيتاً شاهداً علي قول العـــرب نسأتـه تَنسِئَة : إذا زجرته وسقته ، وهو :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٢ ، ٢٣ .

وما أمُّ خِشف بالعَلايَة شادنٍ ‥ تُنسِّيُ في بردالظِّلالِ غزالها [١]

ويعلق ابن بري فيقول : (البيت للأعشي ، وخبر (ما) في ا البيت الذي يليه ، وهو :

بأحسن منها يوم قام نواعِم ‥ فأنكرن ـ لمّا رآجهتهن ـ حالها) [٢]

(٥) ذكر الجوهري في مادة (ود أ) بيتاً شاهداً علي قول العرب : ودّأتُ عليه الأرض أي : سَوّيتُ ، وهو :

أأُبَيُّ ان تصبح رهين مُوَدَّإٍ ‥ زَلجِ الجوانب قعره مَلحـــودُ

ويعلق ابن بري علي هذا القول فيقول : (البيت لزهير بن مسعود الضبي ، وجواب الشرط في بيت بعده ؛ وهو :

فلربّ مكروب كررتُ ورايره ‥ فطعنته وبنو أبيه شهودُ) [٣]

(٦) ذكر الجوهري في مادة (صحب) عجز بيت شاهداً علي صِحاب جمع صاحب وهو :

‥ وقال صِحابي قد شأُونك فاطلب ‥

وعلق ابن بري علي هذا فقال : (البيت لامرئ القيس ، وصدره:

‥ فكان تناوبنا وعَقدُ عِذارهِ ‥

واغني من خبر كان الواو التي في معني مع كأنه قال : فكان تنادينا مع عقد عذاره ، كما قالوا : كل رجل ضعته ، نكل : مبتدأ ، وضيعته معطوف علي كل ، ولم يأت له بخبر ، وإنما أغني عن الخبر كون الواو في معني مع ، والصيغة هنا : الحرفة فكأنه قال : إكل رجل مع حرفته ، وكذلك قولهم : كل رجل

(١) كتاب التنبيه والايضاح ١/ ٣٠، ٣١
(٢) المرجع السابق ١/ ٣١ (٣) المرجع السابق ١/ ٣٣

وشأنه) (١)

(٧) ذكر الجوهري في فصل (قرب) أن (قريب) من قوله تعالي : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) (٢) ذُكرِّ علي معني الإحسان ٠

وعلق ابن بري علي قول الجوهري فقال : (ذكر الفراي أن العرب تفرق بين القريب من النسب ؛ والقريب من المكان فيقولون : اهذه قربتي من النسب ، وهذه قَريبِي من المكان ويشهد بصحة قوله قول اكريُ القيس :

له الوَيْلُ ان أمسَي ولا أمُّ هاشمٍ ٠٠ قريب ولا البَسبَاسَة ابنةُ يشكر

فذكر قريبا ، وهو خبر عن أم هاشم ، فعلي هذا يجوز هند قريب مني ، زيد قرب المكان ، وقريبة مني تريد قرب النسب ٠

ويقال : إن فعيلاً يحمل علي فَعُول ، لأنه بمعناه مثل : رحيم ورَحُوم وفعول لا تتدخله الهاء نحو : امرأة صبور ، فلذلك قالوا : رِيح خريق وكتيبة خصيف (٣) وفلانة مني قريب ٠

وقد قيل : إن قريبا أصله في هذا أن يكون صفة لمكان كقولك : هي مني قريب أي مكانا قريبا ، ثم اتِّسع في الظرف

---

(١) ينظر كتاب التنبيه والايضاح ١/ ١٠٢
(٢) سورة الأعراف الآية ٥٦
(٣) كتيبة خصيف : (لون الحديد، ويقال : خُصِفَتَ من ورائها ===

فرفع وجعل خبرا) (١)

وبعـــد :

فهـذه جوانب يسيرة من آراء ابن بريّ المصري النحويـــة والصرفيـة من خـلال كتابـه (التنبيه والايضاح عما وقع في الصحاح) تدلنا علي عمق صاحبها في نظرتـه النحوية والصرفية وسعة اطلاعـه وراعته في التحليل ، ودقته في الاستشهاد ٠

واللـه أعـلم ،

دكتـور

محمد محمد فهمي عمـــر

مدرس اللغويات في كلية اللغة العربيـة

بأســـيوط

= بخيل أي : أردفت فلهذا لم تدخلها الهاء ، لأنها بمعني مفعولة فلو كانت للون الحديد لقالوا : خصيفة لأنها بمعني فاعلة، وكل لونين اجتمعا فهو خصيف) اللسان (خصيف)

(١) كتاب التنبيه والايضاح ١/ ١٢٩

الأفعال الملازمة للبناء للمجهول

د.محمد عبد النبي

ورد عن العرب أفعال ماضية ملازمة للبناء المجهول اعتبرهـا العلماء كذلك في الصورة اللفظية لافي الحقيقة ، ولهذا يعربـون المرفوع بها فاعلاً لانائب فاعل ، وقد جمعها أبو الحسين علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده المتوفـي سنة (٤٥٨ هـ) في كتابه المخصص ، فقال : (باب ماجاء من الأفعال علي صيغه مالم يسم فاعله (١) . وهذا الباب علي ضربين : فمنه ملا يستعمل إلا علي تلـك الصيغة : كعُنيت بحاجتك ونُفِسَـتْ المرأة ، .

ومنه ما تكون علي هذه الصيغة أغلب ، وقد يستعمل بصيغة ما يُسمي فاعله كـ : ذُهِبت علينا ، فإن ابن السكيت ، حكي زَهَوْت وإنما افردت لما لم يسم فاعله أفعال (ما) علي صيغة (ما) ، لأن مالم يسم فاعله نائب مناب الفاعل ، فافردوه بمثـال لايكون لغيره ، كما أن للفاعل أفعالا علي صيغة خصّ بها نحـو : فَعُل وانفعل فمن هذا الباب :

---

(١) ينظر أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٣١٠ تحقيق محمد محـي الدين عبد الحميد والمخصص لإبن سيدة ١٧٦/١٤

عُنيت بحاجتك ، ووُعِك الرجل ، وحُمّ ، وقُحِطت الأرض وقد أُولِعْت بالشئ ، وقد بُهت الرجل ، وقد وُثِئَت يده وقد شُغِلت عنك ، وقد شُهِر في الناس ، وطُلّ دمه ، وهُدِر دُمه ، ووُقِص الرجل اذا سقط عن دابته فاندقّت عنقه ووُضِع الرجل في التجارة ، ووُكِس ، وغُبِن في البيع غَبنا وغُبن رأيه غَبْنا - اذا كان ضعيف الرأي - وهُزِل الرجل والدابة ، ونُكِب الرجل ، ورُهِصَت الدابة ، ونُتِجَت الدابة وعُقِمت المرأة - اذا لم تَحبَل - وقد زُهيت علينا ونُخِيت ، وفُلِج الرجل من الفالج ، ولُقِي الرجل من اللقوة وقد نُبِر لي ، وأُدير : لفلان ، وقد غُمّ الهلال علي الناس وأُغمِي علي المريض ، وغُشِي عليه ، وقد أُهِلّ علي الناس واستُهِلَّ علي الناس ، وأُغمِي علي المريض ، وغُشِي عليه ، وقد أُهِل الهلال علي الناس واستُهِل ، وقد شُدِهت ، وقد بُرّ حِجّكَ (١) وثُلِج فؤادك الرجل ، اذا كان بليداً وثُلِج بخير أتاه - : اذا سر به - وقد امتقع لونه - تغير - وكذلك أُنتُقِع والُتُمِع ، وأُهتُقِع وانُتُسِف ، وأُنتُشِف كله بمعني . وانقُطِع بالرجل ، وهو كله حكاية .

كقولك : لِتُعْنَ بحاجتي ، ولِتُوضَع في تجارتك ، ولَيُزه علينا وقُعِصَت الدابة : أصابها القعاص ، وقد يقال بالسين وهُقِع بسَوْءة - رمي بها - وعُجِر الرجل ، وثُمِد - : ألح عليه في ماله - وعُضِد الرجل : - شكا عَضده - يطرد علي هذا باب

(١) المخصص لابن سيده جـ ١٤٠ / ١٧٧ طبعة بيروت .

في جميع الأعضاء - وعُدِس الرجل : أصابته بثرة وهي بثرة قاتلة كالطاعون وسُدِع الرجل : نكب يمانيه وسُرِع الرجل ضربته السموم ، وسُعِف الرجل اصابته سعفة وهي قرحة ، ودُمِع الرجل ورُمِّع : أصابه الرماع وهو داء في البطن يصيبه ، يصفر منه الوجه ·

وأُوزِعَتَ به وأُولِقت ، وحُنِش الرجل ، وغُمِز حَسَبُه ورُخِص الرجل : عرق وأُرق الزرع : أصابه الأرقان وكذلك جميع آفات النبات ، وفُقِلَت الأرض : مُطِرت ومنها نبت ، فحمل عليه المطر فافسدت · وضُنك الرجل : أصابه الضُّناك ، وهو الزكام ونُكِس في المرض ، وكُظِم الرجل سكت ، وكُلِب : أصابه الكلاب ، وهو ذهاب العقل من الكلب · وأُكِمَلَتْ الأرض : أكل جميع مافيها وأُشِبّ لي الرجل اذا رفعت طرفك فرأيته -

وأُشرب حُبّ فلانه : أي خالط قلبه · وضُبثَ به : ضرب وضُنِيد الرجل : زُكِم وكذلك : أُرِض ، وفُصِم جانب البيت : انهدم · وسُلّ الرجل من السل · وسُلِبَ : ذهب عقله · وسُرِفت الشجرة : أصابتها السرفة · وأُسِر بوله : احتبس ونُسِئَت المرأة : تأخر حيضها ، ووُطِم البعير : احتبس نجوه وأُطلِفَ الرجل : ذهب ماله هدرًا ولُبِط الرجل : أصابه زكام وسُعال · وبُدِي : جدر أو حصبة وأُفتِلت : مات فلتة

وأُهتِر : عدم لُبة من الكبر ، وهُبت : عُدِم عقلـه ، وشُخِص به أتي اليه أمر يقلقه ، ونُسِعَّتْ به أَوْاعِتْ. وأُغـــرِب الرجل لجّ في الضحـك) .(١)

الأفعال الملازمة للبناء للمجهول بين اللغويين والنحويين

اولا : جُـنَّ ، استُجِنّ .

جَنَّ الشي يَجُنُّه جَنـاً : ستره وكل شئ ستر عنك فقد جُـنَّ عنك .

يقال جُنَّ الرجلُ جنونا وأَجَنَّه الله فهو مجنون ولاتقل مُجـنٌّ

وأنشد ابن بري :

رأت نِضوَ أسْفارٍ أُمَيةَّ شاحِبـاً علي نِضْو أشفار فَجُنَّ جُنُونُها

فقالت : من أيَّ الناس أنْتَ ومن تكن؟ فإنك مولي أُسْرةٍ لايَدِينُهـا

وقال مدرك بن حصين :

كأن سُهيلا رامها وكأنهـا حكيلة وَخمٍ جُنَّ منه جُنُونُهـا

يقال: قد جُنَّ جَنَّا وجُنُونا وأستُجِنّ ، قال مليح الهذلي : فَلَـم أري مِثلي يُستَجَسنُّ صَبَابةً من البين أويبكي الي غير واصـل

وأَجَنَهُ الله فهو مجنون علي غير قياس .

ذلك لأنهم يقولون : جُنَّ فَبُنِيَ المفعول من أجنه الله علي هـذا وقالوا : ماأَجنهُ ، قال سيبويه : (وقع التعجب منه بما أفعلـه

(١) المخصص لابن سيده طبعة بيروت جـ ١٥ /٧٢/٧٣

وإن كان كالخُلُقِ ، لأنه ليس بلون في الجسد ولا بِخِلقةٍ فيه وإنما هو من نقصان العقل) (١)

وقال ثعلب : (جُنَّ الرجلُ وماأَجَنَّهُ فجاء بالتعجب من صيغة فِعل المفعول ، وإنما التعجب من صيغة فعل الفاعل .

قال ابن سيده: وهذا ونحوه شاذ .

قال الجوهري: وقولهم في المجنون : ماأجنّه شاذ لايقاس عليه ، لأنه لايقال في المعزوب : ماأضربه ولافي المسلول : ماأسّله . وفي حديث الحسن (٢): (لو أصاب ابن آدم في كل شيءٍ جُنّ) أي أعجب بنفسه حتي يصير كالمجنون من شدة اعجابه (٣)

وقال القُتَيبي : (وأحسب قول الشنفري (٤) من هذا :

فلو جُنَّ إنسان من الحسنِ جُنَّتِ (٥))

---

(١) ينظر الكتاب ١/٤٧٠

(٢) ، (٣) اللسان (جنن) .

(٤) وهو : عمرو بن براق الأزدي . كان كثير الاغارة علي الأزد قتله أسير بن جابر المقاصد الكبري للعيني ١١٧/٢ ، والخزانه ١٦/٢

(٥) هذا عجز بيت من الطويل وصدره : فَدَقَّتْ رجَلَّتْ واسبكرت وأكملتْ .. شرح المفضليات، لأبي بكر بن الأنباري ص ٢٢ وهو من شواهد مجالس ثعلب ٣٥٨/٢ ، وشرح المفضليات للتبريزي ٣٨٥/١ وشرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص ٦٩ . وشرح عمدة الحافظ لابن مالك ص ٣٨٨ ط دار الفكر . وشرح التسهيل لابن مالك ورقة ١٨١/١ .

اللغة : دق الشيء : من باب ضرب : خلاف غلظ فهو دقيق

اسبكر الشعر: استرسل والشباب تنعم . والمراد به هنا : =

ويقال ضل ضَلَّ ضَلاله ، وجُنَّ جنُونُه قال الشاعر :

هَبّت له ريحُ فَجُنَّ جنُونُه   لما أتاه نسيمها يتوجّسُ

قال الفراء : جُنَّت الأرض إذا فاءت بشيٍ مُعجِب وقال الهذلي :(١)

ألمّا يَسلَم الجيرانُ منهم   وقد جُنَّ العِضَاهُ من العميم

ويقال جُنّت الأرضُ جُنُوناً اذا اعتَم نَبتُها ، قال ابن أحمر :(٢)

تَفَقأ فَوقَهُ القَلعُ السّواري   وجُنَّ الخازِ بازِ به جُنُوناً (٣)

- اعتدال قوامها جلت عجيزتها : عظمت . أكملت : تمت محاسنها .
الشاهد فيه قول (جُن) حيث جاء علي صيغة الفعل والمبني المجهول وهو لفعل الفاعل .

(١) ينظر ديوان الهذلين .

(٢) عمرو بن أحمر الباهلي ينظر ديوانه ص ١٥٩ هذا البيت من الوافر ، وهو من شواهد سيبويه ٥٢/٢ ط بولاق ومبسوط الأحكام للتبريزي ص ١٥٤٠ ومعاني القرآن الكريم للفراء ٤٦٨/١ وشرح الكافيه لابن القواس ٤٩٥/٢ اللغة : تفقأ أي تنشق السواري : جمع سارية وهي السحابة تأتي ليلا . قال الأصمعي الخازباز: حكاية صوت الذباب فسمي به وقال ابن الأعرابي : الخازباز: نبت . الصحاح للجوهري ٨٧٧/٢ (فقأ) قال ابن سيده : (ومن ذلك خازباز وفيه سبع لغات وله خمس معان فاما اللغات التي فيها فيقال : (خازبازِ) ، وخازَبازَ ، وخَازُبَازُ وخازَبارٍ وخازِبَاءُ مثل : قاصعاء ونافقاءُ ، وخزبازُ مثل كِرباسُ
وأما معانيها : فَخَازِباز : عشب ، وهو أيضا : داء يكون في الاعناق واللهازم. والخازباز: أيضا الذباب ، وقالوا الخازباء : السِّنَّور وهو أعرق فيه فالحجة علي أنه العشب قول الشاعر :

والخازَبازِ السَّنم المجُودا . (المخصص ١٩٦/١٤)
والشاهد فيه قوله : (جُنَّ) فهو فعل ماضي مبني للمجهول .

ويقال : جُنَّ النبت : إذا خرج زهرة ، وجُنَّ الذباب : اذا طار وهاج قال المتلمس (١) :

فَهذا أوانُ العِرضِ جُنَّ (٢) ذُبابُه زنابيرهُ والأزرق المتلمسُ

ثانيا : عُني بكذا : أي اهتم به

يقال : عُني بالشيْ ، فهو مَعنِيّ به وأَعنيتُه وَعَنيتُه بمعنى واحد ، وأنشد :

ولم أَخل في فَقرٍ ولم أُوفِ مَربَاً يَفَاعًا ولم أُعنِ المطيّ النّواجِيَا

واعتني هو بأمره : إهتم به ، وعني بالأمر عنايةً

ولايقال : ماأعناني بالأمر ، لأن الصيغة موضوعة لما لم يسم فاعله وصيغة التعجب إنما هو لما سمي فاعله ·

وجلس أبو عثمان الي ابي عبيده فجاءه رجل فسأله : فقال له : كيف تأمر من قولنا : عُنيت بحاجتك ؟ فقال له أبو عبيده أُعنَ بحاجتي ، فأومات الي الرجل أن ليس كذلك ، فلما خَلَونا قلت له : إنما يقال : لِتُعنَ بحاجتي قال : فقال لي : أبو عبيدة لاتدخل إلي : قلت : لم ؟ قال : لأنك كنت مع رجل دَورِيّ سرق مني عام أول قطيفة لي ، فقلت لا والله ما الأمر كذلك ولكنك سمعتني أقول : ما سمعتُ أو كلاما هذا معناه

(١) ينظر ديوانه ص

(٢) اللغة : جنونه : كثرةُ تَرنّمهُ في طيرانه · وقال بعضهم ، الخازِبازِ نَبت وقيل : هو ذباب · وجنون الذباب : كثرة ترنمة · وجن الذباب أي كثرة صوته وجنون النبت : التفاته ، اللسان (جنن) · هو من شواهد المخصص لابن سيده ١٤ / ١٩٦ ·

وحكي ابن الأعرابي وحده: عَنِيتُ بأمرِه بصيغة الفاعل عنابة، وعُنِياً فأنابه، عَنٍ وعُنيتَ بأمرك فانا مَعني وعنيت بأمرك، فأناعان.

وقال الفراء: يقال: هو مَعنِيٌّ بأمره وعانٍ بأمره وعَنٍ بأمره بمعني واحد.(١)

قال ابن بري(٢): (إذا قلت: عُنِيت بحاجتك فعديته بالباء كان الفعل مضموم الأول، فاذا عنيته بفي فالوجه فتح العين، فتقول: عنيتُ قال الشاعر:

إذا لم تكُن في حَاجةٍ المرء عانِيًا نسيت ولم يَنفَعكَ عَقدُا الرَّتمائم

وقال بعض أهل اللغة: لايقال: عُنيت بحاجتك إلا علي معني قصدتها من قولك: عنيت الشئ أعنيه، اذا كنت قاصدا له، وعُنِيت بحاجتك: أُعنَي بها وأنا بها مَعنِيٌّ علي مفعول، ويقال: عَنِيتُ في الأمر أي: تَعنَّيْتُ فيه، فأنا أَعنَي وأنا اعَنٍ فإذا سألت: قلت كيف مَن تعنَي بأمره؟ مضموم، لأن الأمر عناه، ولايقال كيف من تَعنَي بأمِره.

وقال البعليوس: إجاز ابن الاعرابي: عَنِيتُ بالشئ أعني

---

(١) اللسان (عني)

(٢) هو عبد الله بن بري بن عبد الجبار أبو محمد المقدسي المصري النحوي واللغوي ولد ونشأ بمصر، كتاب سيبويه علي محمد بن عبد الملك الشنتريني، وتصدر للاقراء بجامع عمرو، وكان مع علمه وغزارة فهمه ذا غفلة، وكان قيما بالنحو واللغة والشواهد وكان ثقة في جميع ذلك، وقد ولي برئاسة ديوان الانشاء وتوفي بمصر سنة (٤٩٩هـ) الأعلام ٤/ ٢ وخزانة الادب للبغدادي ٢/٥٢٩

به فأنا عانٍ وأنشد :

عَانٍ بأُخراها طويل الشُّغلُ　　له جفيران وأي نَبل (١)

وقال ابن قتيبة : (عُنيت بالشيْ) فأنا أعُنيَ به ، ولا يقال عَنِيت قال الحارث بن حلزة :

وأتانا عن الارقام أنبـاَ　　وخَطبٌ نُعنيَ به ونِسَـاءُ

فاذا أمرت : قلت لِيعنَّ بفلان ، ولِيُعنَ بامري) (٢)

ثالثـا : زُكـم

الزُّكمه والزُّكَام : الأرض أي الداء المعروف ، فهو يقال له : الزكام ، والأرض - وقد زُكِم ، وزَكَمُه الله زكماً وزَكَم بنطفته رَقّي بها .

الجوهري: الزكام معروف ، ورُكم الرَّجُلُ ، وأَزكَمه الله فهو مزكوم بني علي زُكم . أبو زيد : رجل مزكوم وقد أزكمه الله وكدلك قال الأصمعى : قال ولايقال : أنت أزكم منه وكذلك كل ماجاء علي فُعِل فهو مفعول لايقال :

ماأزهاك وماأزكمك

والزكام : مأخوذ من الزّكم والزّكب : وهو الِيلءُ يقال : زُكم فلان ومُلِيْ بمعني واحد.(٣)

---

(١) اللسان (عنتا) ٣٤١٦/٤ - ٣٤١٧ ، ط دار المعارف

(٢) أدب الكاتب لابن قيبه ص ٣١٠

(٣) اللسان (زكم) ١٨٤٨/٣ والمخصص لابن سيده ١٧٦/١٤

رابعـــا : مُلِئَ بمعني (زُكم) .

يقال مُلِي الرجل وأملاه الله أي أزكمه فهو مملوء علي غيــر قياس يحمل علي مُلِي .(١)

وقال الشاعر (٢)

لبئس المرءُ قد مُلِئَ ارتياعاً ويأتي أن يراعي مايراعي

خامســا : شُغف بكذا : اي أُولِع : أُغرِي به

يقال : شُغِف بالشي علي صيغة مالم يسم فاعله : أُولِع بـــه وشَغِف بالشي شغفا علي صيغة الفاعل : قَلِق (٣)

سادســا : أُولِـــع بـه :

يقال : أُولِع به ولوعاً وإيلاعاً إذا لَج وأَولَعَه به اغراه وفي الحديث أولَعَت قُريسا بعمار أي صيرتهم يُوْلعوُن وهو مولَع به بفتح الـــلام أي مُغري بـه ، ورجل وُلعة : يولَع بما لايعنيه . (٤)

وقال ابن قتيبة :أُولِعتُ بالأمر وأُزِعت به سواء وُلُوعـــا .(٥)

سابعـــا : شـــعِف

يقال شعفة الحب أحرق قلبه وقيل أمرضه. وقد شُعِف بكـــذا

---

(١) الصحاح للجوهري ٧٣/١ واللسان زكم ١٨٤٨/٣

(٢) لم يعرف قائله وهو من شواهد الجامع الصغير لابن هشام ص ١٨٧ وتمهيد القواعد لناظر الجيـــس جـ ٣ ورقة (١٩٧)

(٣) اللسان (شعف) ١٢٢٨٦/٤

(٤) اللسان وَلع ٤٩١٦/٦.

(٥) أدب الكاتب لابن قتيبه ص ٣١١

فهو مشعوف ، وحكي ابن بري عن أبي العلاء

الشَّعَفُ بالعين غير معجمة : أن يقع في القلب شئ فلا يذهب [١]. قال الصغاني : (يقال شعفني حُبُ فلان ، وشُعِفت به وبحبه أي غشي الحبُّ القلب من فوقه. [٢]

قال جميل بثينة : [٣]

شُعِفْتُ بِجُمليدم اذا كُنت ساكِبا ومثلُ الذي ألقَي من الحب يَشعفُ

ثامنا : شُغِل :

يقال: أَشغَلَه واوا شتَغَل به ، وشُغِل به وأنا شاغل له وقيل لايقال : أشغَلته لأنها لغة رديئة ، وقد شُغِل فلان فهو مَشغَول ، وقال ثعلب : شُغِل من الأفعال التي غلبت فيها صيغة مالم يسم فاعله قال : وتعجبوا من هده الصيغة فقالوا : ماأشغله ، قال وهذا شاذ إنما يحفظ حفظا يعني أن التعجب موضوع علي صيغة فعل الفاعل قال : ولايتعجب مما لم يسم فاعله ، ويقال : شُغِلت عنك بكذا علي مالم يسم فاعله. [٤]

وفي القاموس : شُغِل : كعُنِي ويقال ماأشغله وهو شاذ لأنه

---

(١) اللسان(شعَف) ٢٢٨٠/٤ طبعة دار المعارف والمشعوف : الداهب القلب . اللسان (شعف)
(٢) العباب الزاخر للصغاني حرف الفاء مادة شعف ص ٢٣٢
(٣) ينظر ديوانه جـ ١٣٤
(٤) اللسان (شغل) ٢٢٨٦/٤

لايتعجب من المجهول .[١]

وقال ابن فارس : (قالوا : لايقال أُشغِلت ... وقد جاء عنهم أُشتُغِل فلان بالشيء وهو مُشتَغَل وأنشد :

حَيَّيتك ثُمَّتَ قالت إن نَفرَتَنا اليوم كلهم ياعسرو مُشتغل ،[٢]

تاسعا : أُهِرع بمعني أسرَع :

يقال : قد هُرعوا وأُهرِعوا ، استُهرِعت الأبل : أسرعَتَ إلي الحوض ، وأُهرِع الرجل علي مالم يسم فاعله وخفّ وأرعِد من سرعة أو خوف أو حِرصٍ أو غَضَبٍ أو حُمّيّ

وفي التنزيل : (وجاءه قومه يُهرَعُون إليه)[٣]

قال أبو عبيدة : يُستَحثُّون إليه كأنه يَحث بعضهم بعضا

وقال العباس : (الاهراع : إسراع في طمأنينة ثم قيل له : إسراع في فزع فقال نعم

وقال الكسائي : الإهرَاع : إسراعُ في رِعدة وقال المهلهل

فجاءوا يُهرَعُون وهم أُسَارَيَ يَعُودُهم علي رَغم الأنوف

قال الليث : يُهَرعُون وهم أُسَاري : يُسَاقُون ويُعجَلون يقال : هُرِعوا وأُهرِعوا أبو عبيد : أُهرع الرجل إهراعا إذاأتاك وهو يرعد من البرد ، قال الشاعرَ :

كأن حمولهم متتابعات رَعيلُ يُهرعُون الي رَعيل

(١) القاموس المحيط ٣٨٨/٣ (شغل)

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ١٩٥/٣ (شغل)

(٣) من الآية ٧٨ هود (٢)

قال أبو عبيد (في باب ماجاء في لفظ مفعول بمعني فاعل
وقوله تعالي (وهُم علي آثارهم يُهرَعُون) أي يسعون عجالاً
والعرب تقول : أُهرِعوا فهم مُهرَعُون) (١)

عاشرا : سُلّ

يقال : سُلّ وأسَلّهُ الله فهو مَسلُولُ شاذ علي غير قياس ،

قال سيبوية كأنه وضع فيه السُّل أنشد ثعلب :

أشقّ قَسَامِياً رباعيّ جانبٍ وقارح جَنبٍ سُلّ أَقرحَ أشقَرا

معني سُلّ : أُخرج سليلا.(٢)

حادي عشر : طُلّ :

الطَّلُّ : هَدرُ الدّمِ ، وقيل : هو أَلاّ يُثأَرُ به أو تُقبل ديته

وقد طلّ الدّمُ نَفسُهُ طَلاّ وطَلَلْيه أنا ، وقد طُلّ طَلاّ وطُلُولا فهو

مطلول وطليل وأُطِلّ وأَطَلّهُ الله .

أبو زيد : طُلّ دَمُهُ فهو مَطلُول وأَطَلّهُ الله ، ولايقال طَلّ

دَمُهُ بالفتح ، وأبو عبيده والكسائي : يقولانه ، ويقال : أُطِلّ

دَمُهُ . أبو عبيدة فيه ثلاث لغات : طَلّ دَمُهُ وطُلّ دَمُهُ وأُطِلّ دَمُهُ . (٣)

وقال الزجاج : وطُل دَمُ الرحل وأُطِلّ إذا أهدر .(٤)

ثاني عشر : عُقِم :

يقال : عَقِمَت الرحم عَقْماً ، وعُقِمَت عُقماً وعَقْماً وعَقَماً ورحم عقيم

---

(١) اللسان هرع ٤٦٥٢/٦

(٢) اللسان ة(سُلّ) ٢٠٧٥/٣

(٣) اللسان طلل ٢٦٩٦/٤ (٤) فعلت وأفعلت للزجاج ص ٦١

وعَقيمه معقومة ولقد عُقِمَت مَعقومة وعَقُمَت إذا لم تحمل فهي عَقِيم (١)

وقال الزجاج: (وعُقِمَت المرأةُ وأُعقِمَت إذا كانَت لاتحمل)(٢)

قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومي وقيل هو للحزين الليثيّ :

عُقِم النّساء فَلَن يَلِدن شَبِيهَةً   إنَّ النساءَ بمثِلهِ عُقِمَ

قال ابن بري: الفصيح: عَقَمَ الله رَحِمَها وَعُقِمَت المرأة ومن قال: عَقُمَتْ أو عَقِمت قال : أعقمها الله وعَقَمهَا مثل : أحزنته وحَزَنتُه وأنشد في العُقم والمصدر ·

للمخبل السعدي :

عُقِمَت فَنَاعم نَبتَهُ العُقْمُ

ويقال : عُقمَت المرأة تُعقَمُ عَقْماً ، وعَقِمَت تَعْقَم وعَقماً وعَقُمَت تَعقُمُ عُقماً وأَعقَم الله رحمها فَعُقِمَتَ علي مالم يسم فاعله ·(٣)

ثالث عشر : هُـــزِل :

يقال : هُزِل الرجلُ يُهزَل فهو مَهزُول وقال بعضهم هَزَل القوم وأَهْزَلوا : هُزِلت أموالهم ·(٤)

رابع عشر : دُهِـــش :

يقال : دُهِش فهو مَدهُوش وكرهها بعضهم · وأدهشه اللـــه ، وأدهشه الأمر ، ودُهش الأمر ودَهِش الرجل بالكسر دَهَشاً : تَحَيـرَّ

(١) اللسان (عَقَم) ٣٠٥٠/٤

(٢) فَفعلت وأفعلت للزجاج

(٣) اللسان (عَقم) ٣٠٥١/٤ ص ٦٦

(٤) اللسان هُزِل ٤٦٦٤/٦

وبقال : دُهِش وشُدِه فهو دَهِش ومَشدوه شدّها ، قال واللغة العالية : دَهِش علي فَعِل ، وهو الدهش بفتح الهاء .(١)

خامس عشر : شُدِه : أي دُهش :

يقال شُدِه الرَّجُلُ شَدَها وشُدها : شُغِل وقيل : تحير قال الأزهري : شُده الرجل : دُهِش فهو دَهِش ومشدوه شَدَها .

أبو زيد : شُده الرجل شَدها فهو مشدوه : دُهِش والاسم : الشُّدهُ . ويقال شُدِه الرجل : شُغِل لاغير قال أبو منصور : (لم يجعل شُدِه من الدهش كما يظن بعض الناس أنه مقلوب واللغة العالية دُهِش علي فُعِل .(٢)

سادس عشر : سُدِه :

السَده والسُّداه : شبيه بالدهش ، وقد سُدِه أما قولهم : السَّدهُ في الشَّدهُ ورجل مَسدُوه في معنى مَشدوه فينبغي أن يكون السين بدلا من الشين لأن الشين أعم تصرفا

سابع عشر : فُتِن وأُفتِن :

يقال : فُتِن الرجلُ بالمرأة وافتِتَن وأهل الحجاز يقولون فَتَنَته المرأة إذا وَلّهَته وأحبها وأهل نجد يقولون افتَتَنَهُ قال أعش همدان فجاء باللغتين . (٤)

لئن فَتَنَتني لهي بالأمس أَفْتَنَت سعيداً فأمسيَ قد قلا كُلَّ مُسِلم

---

(١) اللسان (دُهش) ١٤٤١/٢

(٢) اللسان (شُده) ٢٢١٨/٤

(٣) اللسان ((سده) ١٩٧٧/٣ واللسان شده ٢٢١٨/٤

(٤) اللسان (فتن) ٣٣٤٦/٥

قال ابن بري : قال ابن جني ويقال : هذا البيت لأبي قيس وقال الأصمعي : هذا سمعناه من مُخَنَّثٍ وليس بثبت لأنه كان ينكر أفتَتَن وأجازه أبو زيد :

يُعرِضنَ إعراضا لدين المُفتِنِ

وحكي أبو زيد : أُفتِن الرجل بصيغة مالم يسم فاعله أي : فُتن ، وحكي الأزهري عن ابن شميل : أفتَتَن الرَّجُلُ وأُفتُتِن لغتان : قال هذا صحيح : قال وأما فَتَنتهُ ففَتَنَ فَهي لغة ضعيفة .

قال أبو زيد : فُتِن الرجلُ يُفتَنُ فُتوناً وقال ابو السَّفَرِ : أفتَنتهُ إفتانا فهو مُفتَن وأُفتِن الرجل وفُتِن فهو مفتون إذا إصابته فتنه فذهب ماله أو عقله .(١)

ثامن عشر : مُنِي :

المَنَي : بالياء : القدر قال الشاعر :

دَرَيتُ ولا أدري مني الحدثان

منه الله يَمنِيه : قدره ، ويُقال : مني الله لك مايَسُرُّك أي قدر الله مايَسُرّك . والمَنَيَ والمنية : الموت لأنه قدر علينا قد مَنيَ الله له الموت يمنِي ومُنِي له أي قُدِر ، قال أبو قلابه :

ولاتقولن لشيْ سوف أفعله حتي تُلاقي مايمني لك الماني

أي : ما يقدر لك القادر(٢) ومناه الله يمينه : قدره أو ابتلاه واختبره ، والمني : الموت وقَدَرٌ الله والقصد ومُنِي بكذا كـ (عُنِي)

(١) اللسان فتن ٣٣٤٦/٥

(٢) اللسان (مني) ٤٢٨٢/٦

ابتلي به ولكـذا وُثِق . (١)

١٩ - بُتِل بضم الفاء وكسر العين .

وقولهم : بُتِلت النخلة عن أمها وهي بتول إذا افردت .(٢)

٢٠ - حُمَّ - بضم الفاء وكسر العين

يقال : حُمَّ هذا الأمر حَماً : إذا قُضِي وحُمّ له ذلـك :

قدر فاما ما أنشده ثعلب من قول جميل : (٣)

فليت رجالاً فيك قد نذروا دَمِي وحَمُّوا لقائي يابثين لَقُوني

فإنه لم يفسر حُمُّوا لقائي . قال ابن سيده والتقدير عندي وحُـمّ

الشئ وأُحِمّ أي : قُدِر فهو محموم .

قال البعيث :

الا يالقوم كل شيء ماحُمّ واقع وللطير مجري والجنوب مصارع وحُمَّ

الرجل : أصابه ذلك وأحمّه وهو محموم وهو من الشواذ .

قال ابن دريد : وهو محموم به قال ابن سيده: ولست منهـا

علي ثقة وهي أحد الحروف التي جاء فيها مفعول من أفعل لقولهـم

فُعِل (٤) وكأن حُمَّ وضعت فيه الحمي كما أن فتن جعلت فيه الفتنـه

قال السنخري : (٤)

فقد حُمّت الحاجات والليل مقمر وشُدت لطياتٍ مطايا وارحل

---

(١) القاموس المحيط ٣٨٤/٢ (مني) .

(٢) اللسان (بتل) .

(٣) ينظر ديوانه جـ ٢٠٨ (٣)

(٤) اللسان (حُمّ) ١٠٠٧/٢ ، والمخصص لابن سيده ١٧٦/١٤ ،
والبيت لقيس بن ذريح ينظر ديوانه جـ ٩٩

حُمّت : قدرت والطيه : الحاجة وقال أيضا [(١)]

طريد جنايات يتاسرنَ لحمه   عقيرتُهُ لأيّها حُمّ أوّلُ

٢١ - فُلِج

قولهم : فُلِجَ الرجلُ علي خصمه إذا فاز [(٢)] ، قال الجوهري : يقال : قد فُلِج الرجلُ فهو مفلوج ، قال ابن دريد ، لأنه ذهب نصفه قال ومنه قيل [(٣)] لشقه البيت فُلَيجة .

٢٢ - مُتِقع ، أمتُقِعَ

يقال مُتِقع فلان بِسَوءة مَقعاً رمي بها .

ويقال : أُمتُقِع لونه : إذا تغير من حزن أو فزع وكذلك أُنتُقِع بالنون وابتُقِع بالباء والميم أجود وزعم يعقوب أن ميم أُمتُقِع بدل من نون أُنتُقِع . [(٤)]

٢٣ - شُهِر :

يقال : قد شُهِر فُلانٌ في الناس بكذا فهو مشهور وقد شهروه . [(٥)]

٢٤ - (أُهتِر) و (أُستُهتِر)

يقال : أُهتِر الرجلُ فهو مُهتَرُ إذا أُلِع بالقول في الشيء واستُهتِر فلانُ فهو مُستَهتَرُ إذ ذهب عقله فيه وانصرفت همه اليه

---

(١) شرح لاميه الافعال جـ ٤٧ . اللغة تياسرت : اقتسمن لحمه وعقيرته : نفسه .

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٤٤٨/٤ واللسان فلج ٣٤٥٦/٥

(٣) الصحاح للجوهري (فلج) ٣٣٥/١

(٤) اللسان مقع ٤٢٤٤/٦   (٥) مقاييس اللغة لابن فارس ١٢٢/٣

حتي أكثر القول بالباطل . واستُهتِر بأمر كذا وكذا فهو مُستَهتَرٌ إذا كان كثير الأباطيل .(١)

٢٥ - نُتِج :

قال ابن قتيبة : نتجت الناقة ولايقال نَتَجت ، ويقال : قد نَتَجت ناقتي قال الكميت :

وقال الذّمرُ للنّاتجين متي ذَمُرت قَبلي الأرجُلُ ؟

ويقال : أنتجت : إذا استبان حملها فهي نتوج ولايقال مُنتج.(٢)

وفي اللسان : النتاج : اسم يجمع وضع جميع البهائم ، قال بعضهم هو في الناقة والفرس وهو فيما سوي ذلك نَتجُ والأول اصح قال الليث : لايقال نَتَجت الشاه .

إذا وضعت إبلهم وشاؤهم ، قال ومنهم من يقول : أُنتجت الناقة إذا وضعت ، وقال الأزهري : وهذا غلط لايقال أَنتِج بمعني وضعت .

وفي الحديث (كما تُنتَجُ البهيمه بهيمه جمعاء) أي تلد

(١) اللسان (هتر) ٦/٦١١٤

(٢) أدب الكاتب لابن قتيبه ص ٣١١

(٣) هذا جزء من حديث شريف أخرجه البخاري في كتاب الجنائز في باب إذا اسلم الصبي ٣٢٥/١ ، وكتاب المغازي ١٧٢/٣ وكتاب الدعوات ١١٤/٤ والامام أحمد في مسنده ٢٩٣/٢ والامام مالك في الموطأ ٢٤١/١ رقم (٥٢) والنهاية في غريب الحديث والاثر ١٢٦/٣ ومسلم في كتاب القدير ٤٥٨/٢ جـ ١ الحلبي والفائق في غريب الحديث للزمخري ١٢٦/٣ .

يقال : نُتِجت الناقة إذا ولدت فهي مَنتُوجه ·
وأُنتجَت إذا حملت فهو نَتُوج قال ولايقال مُنتِج ونَتَجَت الناقه أَنتِجُها : إذا ولدتها والناتج للابل : كالقابلة للنساء ·

وأما أحمد بن يحي فجعله من باب مالا يتكلم به إلا علي صيغة الموضوعة للمفعول ·

الجوهري : نُتِجت الفرس والناقة : ولدت وأُنتِجَت : دَنا ولادها كلاهما فِعل مالم يسم فاعله وقال لم أسمع نَتَجَت ولا أَنتَجَت علي صيغه فعل الفاعل وقال كراع : نُتِجَت الفرس وهي نَتُوج ليس في الكلام فُعِل وهي فَعُول الا هذا (١)

وقال مسرة : أنتَجت الناقة وهي نَتُوج : إذا ولدت ليس في الكلام أفعَل وهي فعول إلا هذا .(٢)

٢٦ - زُهي :

قال ابن فارس : (ومن الباب زُهِي الرجلَ فهو مَزهُوّ إذا تفخر وتعظم) (٣)

وزُهِي فلان فهو مَزهُوّ : إذاأعجب بنفسه وتكبر ، قال ابن سيده : (وقد زُهِي علي لفظ مالم يسم فاعله جزم به أحمد بن يحي · وحكي ابن السكيت : زُهِيَتُ وزَهَوْتُ وللعرب أحرف لايتكلمون بها إلا علي سبيل المفعول به وإن كان بمعني الفاعل مثل : زُهي الرجل وعُني بالأمر ونُتِجت الشاة والناقة وأشباهها ·

(١،٢)ينظر اللسان نتج ٣٢٥/٤ وخفد ١٢٠٩/٢
(٣) مقاييس اللغة لابن فارس ٢٩/٣

فإذا أمرت به قلت : لِتُزهَ يا رجل وكذلك الأمر من كل فِعل لم يسم فاعله ، لأنك إذا أمرت منه فإنما تأمر في التحصيل غير الذي تخاطبه أن يوقع به وأمر الغائب لايكون إلا باللام كقولك : لَتَبعُم زيد قال وفيه لغة أخري حكاها أبو زيد : زَهَا يَزهُو زَهواً أي تكبر .

ومنه قولهم : ماأزهاه وليس هذا من زُهِي لأن ما لم يسم فاعله لا يتعجب منه قال الأحمر النحوي يهجو العبثي ، والفيض بن عبد الحميد .

لنا صاحبٌ مُولَعٌ بالخلاف كثير الخطاءِ قليل الصواب

ألجّ لجاجاً من الخُنفُساءِ وأزهَي إذ ما مشي من غراب

قال الجوهري : قلت لأعرابي من بني سليم : ما معني : زُهِي الرجلُ قال : أعجب بنفسه ، فقلت : أتقول زَهَا إذا افتخر؟ قال أما نحن ، فلا نتكلم به ، وقال خالد بن جَنبَة : زَهَا فلانٌ إذا اعجب بنفسه . قال ابن الأعرابي : زهاه الكبر ولايقال زها الرجل ولا أزهيته ، ولكن زهوته .

يقال زُهِي الرجل فهو مَزهُوٌ هكذ يتكلم به علي سبيل المفعول وإن كان بمعني الفاعل وفي الحديث :

(إنّ الله لاينظر إلي العامل المزهوّ) (١) ومنه حديث عائشة رضي الله عنها .

---

(١) ينظر اللسان (زها) ١٨٨٤/٣ - ١٨٨٥ .

(إن جارتي تُزهَي أن تلبسه في البيت)

أي نترفع عنه ولا ترضاه تعني درعا كان لها ·

ومن كلامهم : هي أزهي من غراب (١) وفي المثل المعروف زَهوَ الغراب بالنصب أي : زُهِيت زَهوَ الغراب وقال ثعلب في النوادر : زُهِي الرجل وما أزهاه فوضعوا ·

التعجب علي صيغة المفعول ، قال وهذا شاذ·

وإنما يقع التعجب من صيغة فعل الفاعل قال ولها نظائر قد حكاها سيبويه ·

ومن قولهم : فلان لايُزدَهي بحديقة ، وازدهيت فلان أي تهاونت به وأزدهي فلانٌ فلانا إذا استخفه ، وازدهاه الطرب والوعيد استخفّه ·

ورجل مُزدَهي : أخذته خفة من الزهو أو غيره ·

وأزدهاه علي الأمر أجبره وزهقه : ساقه قال ابو النجم :

في أَقحوانٍ بله طَلُّ الضحي ثم زَهَقهُ ريح غيم فازدهي (٢)

٢٧ - وقِص :

يقال : وقِص البعير فهو مُوّقوص إذا أصبح داؤه في ظهره لاحراك فيهَ به وكذلك العنق والظهر في الوقص ·

ويقال وقِص الرجل فهو موقوص ·(٣)

(١) ينظر الأمثال للميداني

(٢) اللسان (زها) ١٨٨٤/٣ - ١٨٨٥·

(٣) ينظر اللسان (وقص) ، ٤٨٩٢/٦ والصحاح للجوهري ١٠٦١/٣ مادة عرض

٢٨ ـ وُقِـــر :

الوَقْرُ : ثقل الأذن . قال ابن السكيت : (يقال وُقِرَت أذنـــه علي ما لم يسم فاعله تُوقَرُ وَقْراً)(١)

٢٩ ـ سُقِـــط :

يقال سقط في يد الرجل : زلَّ وأخطأ ، وقبل نَدِم ، قـال الزجاج(٢) : (يقال للرجل النادم علي مافعل : الحسْرُ علـي مافرط منه . قد سُقِط في يده(٣) وأسقِط ، وقال ابو عمـــرو . لايقال : أُسقِط بالألف علي ما لم يسم فاعله وفي التنزيل (ولمـا سُقِط في أيديهم)(٤)

قال الفارس : (ضربوا بأكفهم علي أكفهم من الندم وقد قـريْ (سَقَط في أيديهم) كأنه أضمر الندم في أيديهم . قال الفـراء في قوله تعالي : (ولما سقط في أيديهم) من الندامة يقال سُقِـط في يده وأسقِط من الندامة وسُقِط أكثر وأجود) (٥)

قال أبو منصور : (وإنما حسن قولهم سُقِط في يده بضم السين غيـر مسمي فاعله الصفة التي في يده. (٦)

---

(١) اللسان وقر ٦/٤٨٨٩.

(٢) فعلت وأفعلت للزجاج ص٤٩ وأدب الكاتب لابن قتيبه ص ٣١١

(٣) فعلت وأفعلت لأبي حاتم السجستاني ص ١٣٢ تحقيق خليل العطيـة

(٤) من الآية ١٤٩ الأعراف .

(٥) معاني القرآن وإعرابه للفراء ١/٣٩٣.

(٦) اللسان (سقط) ٣/٢٠٣٩

٣٠ ـ جُشِر يُجشَــــرُ :

قال الجوهري : يقال : قد جُشِر يُجشَرُ علي ما لم يسم فاعلــه

قال الشاعـــــر :

رُبَّ هَمٍّ جشَمتُه في هواكم   وبعير مُنَفَّهٍ مَجشُـــــور

ويقال : جَشَرَ الصبح يجشُرُ جشورا انغلق وبعير مجشور به سعـــال حازّ .

ويقال به جُشرَةٌ أي : سعال أو خشونة في الصدر .(١)

٣١ ـ عُـذِر :

يقال: عَذَره الله من العُذرة ، فَعُذِر وعذر وهو معـــــــذور أي هاج به وجع الحلق من الدم . (٢)

٣٢ ـ قُهِـــر :

يقال : قُهِر اللحم أيضا إذا أخذته النار وسال ماؤه وقهَـــره قَهراً : غلبه وأقهرته وجدته مقهورا ، قال أبو عبيد ومنــــــه قول المخبل :

تَمنيّ حُصَينٌ أن يَسُود جَداعَهُ   فَأَمسَ حُصَين قد أُذل وأُقهِرا

علي مالم يسم فاعله أي وجد ذلك . (٣)

٣٣ ـ بُهِت :

يقال : بَهتَ الرجل ـ بالكسر ، وعَرس ولَطـــــر اذا

---

(١) الصحاح للجوهري ٦١٤/٢ مادة (جشر)

(٢) الصحاح (عذر) ٧٣٩/٢

(٣) الصحاح للجوهري ٨٠٢/٢ مادة قهر .

دَهِش وتحير وبَهُت بالضم مثله وأفصح منهما بُهِتَ كمال الله عز وجل: (فَبُهِتَ الذي كفَرَ) لأنه يقال رجل مَبهوت ولايقال باهِت ولابهيت(١)

قال الكسائي : يقال بَهِتَ وبَهُتَ .(٢)

٣٤ ـ حُثِر :

قال الأزهري : يقال جُثِر فلان في ذكره وبطنه وأُحتِل فيهما إذا كانا ضخمين من بين يديه .(٣)

٣٥ ـ أُفِكَ :

أَفَكَ : كضرب وعلم إفكاً بالكسر والفتح والتحريك وأُفُوكاً كَذب والإفكة : السنة المجدبة والمأفوك : المكان : لم يُصبه مَطَرٌ وليس به نبات وهي بهاء والضعيف العقل وفعلهما كعني أَفكاً بالفتح .(٤)

ويقال : أُفِكَ الشيُ وأَفِكَ الرجل إذا كذب (٥)

٣٦ ـ وُجِيَ :

يقال : وجأه باليد والسكين وَجئاً مقصور : ضربه ووُجِيَ فهو مَوجُوء ووجأت عنقه وجئا : ضربته .

أبو زيد : يقال للفحل إذا رضت أنثياه قد وُجِيَ وجَاءً شاراد أنه يقطع النكاح لأن الموجوء لايَضرِبُ .

---

(١) اللسان بهت ٣٦٨/١ والصحاح للجوهري ٢٤٤/١
(٢) أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٣١١ واللسان بهت ٣٦٨/١
(٣) اللسان حثر ٨٨٣/٢
(٤) القاموس المحيط (أفك) ٢٨٤/٣
(٥) مقاييس اللغة لابن فارس ١١٨/١ .

وفي الحديث : أنه ضحي بكبشين مَوجوءين [١] أي خَصِيَّين [٢]

٢٧ - حُيِــــفَ

قال الفراء : حُيف فلانٌ علي ما لم يسم فاعله، أي : رذل وأُسقِط .[٣]

٣٨ - بُهِــــر :

يقال بُهِر الرجلُ إذا عدا حتي غلبه البُهرُ وهو الرَّبوُ فهــــو مبهور وبهير [٤]

٣٩ - شُئِف :

يقال شَئِف رجله بالكسر شأَفا بالتحريك إذا خرجت بهــــا الشَّأفةُ وكذلك : شُئِفَت - علي ما لم يسم فاعله فهي مشؤوفه [٥]

وقال أبو عبيد : شُئِف فلانُ - علي ما لم يسم فاعله فهــــو مشؤوف مثال : زُئِد وجُئِثَ : إذا فَزع وذُعر [٦] وشئـــــت رجله كفرح وعُنِي خرجت بها الشأفة فهي مشؤوفه فسرع وذعـــر [٧]

٤٠ - نُــــزِف :

يقال : نَزَفتُ البئر انزفه نزفا إذا نَزَحتَه كُلَّه ونزفَـــتْ هي يتعدي ولا يتعدي ونُزِفَتْ - أيضا - علي ما لم يسم فاعلـــه

---

(١) الوجء : أن ترض أنثيا الفحل رضا شديداً يُذهب شهـــوة الجماع . وقيل أن توجأ العروض والخفيتان بحالهما اللسان (وجأ)

(٢) اللسان وجأ ٧٦٦/٦،

(٣) العباب الزاخر للصفاني حرف الفاء مادة (حيف) ص ١٩٦

(٤) اللسان (بهر) ٣٧٠/١

(٥، ٦) العباب الزاخر للصفاني ص ٤٠٣، مادة (شأف)

(٧) النهاية لابن الأثير ١٣٨/٤

ومنه الحديث الشريف في زمـــرم(١): (لاتُسنَزف ولاتُـــزَم(٢))

أي لايسكرون .

وقال ابن دريد : نُـزِف الرجلُ دمهُ ينزَف نَزفاً : إذا سال حتي يُفرِط فهو منزوف ونزيف .(٣) ونُزِف الرجل في الخصومة : إذا انقطعت حجته .(٤)

٤١ ـ أُزهِـــف :

يقال أُزهِف : ذهب به(٥)

وازدُهِف به أي ذهب بـــه(٦)

٤٢ ـ بُـــرَّ :

قال الفراء : بُرَّ حَجُكَ فهو سيرورُ(٧) البرّ : الصلة والجنـــة والخير ويقال بَرَّ حَجُك وبُرَّ حجك بفتح الباء وكسرها فهو مبـــرور الصدق والطاعة(٨)

٤٣ ـ وُرِد

قال ابن سيدة : هذا الباب ماجاء فُعِل منه علي غير فَعَلَـــت

---

(١) النهاية لابن الأثير ١٣٨/٤

(٢) العبـاب الزاخر للصغاني نزف ص ٥٨٦

(٣) العباب الزاخر للصغاني نزف ص ٥٨٦ .

(٤) المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩١٤

(٥،٦) العباب الزاخر للصغاني (زهف) ص ٢٥٨

(٧) المخصص لابن سيده ١٧٧/١٤

(٨) واللســـان برّ ٣٦٧/١

وذلك نحو : جُنَّ وسُلَّ وُزكَم ووُرِد ومعني ورد : حُمَّ وكذلك رُعِـــد ومرعود ومَســـورُود ومحموم وقالوا علي هذا مجنون ومسلول ومحمـــوم وإنما جاءت هذه الحروف علي جَنَنَتْ وسَلَلَتُ وإن لم يستعمل فـــي الكـــــلام .(١)

٤٤ ـ رُعِـــــد : أُرعِـــدَ

قال ابن سيده : (وكذلك رُعِد ومرعود (٢))

الرِّعدَه : النافض يكون من الفَزع وغيره وقد أُرعِدَ فارتعـــد وتَرَعدَد أخذته الرعدَه والإرتعَادُ : الاضطراب تقول: أرعَـــــده فارتعدَ وأُوعِـــدت فرائصه عند الفزع . وفي حديث زيد بـــن الأسود : (فجيء بهما تُرعَدُ فرائصهما أي ترجف وتضطـــرب من الخوف (٣)

وقال ابن قتيبه : أُرعِدت) فأنا أَرعَدُ (وأُرعِدت فرائصه(٤)

ورَعَد لي بالقول يرعدُ رَعداً وأَرعَدَ : تَهدَّد وأَوعَـــــــد وإذا أوعد الرجل قيل : أَرعَدَ وأبرَقَ وَرعَدَ وبَرقَ .

وكان أبو عبيده: بقول : رَعَد وأرعَدَ وبَرقَ وأبرق بمعنـــي واحد .(٥)

٤٥ ـ رُفِـــت :

رَفَتَ الشيْ يَرفُتُه ويَرفِتهُ رفَتاً ورِفته وهو رُفات : كَســـرَه

---

(١) المخصص لابن سيده ١٧٦/١٤ .

(٢) المخصص ١٧٦/١٤

(٣) اللسان (رعد) ١٦٦٩/٣

(٤) أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٣١١

(٥) اللسان رعد ١٦٦٩/٣

ودَقَّه . ورُفِت الشيْ فهو مَرفوتٌ (١)

٤٦ - وُثِــــــيْ :

الوثء والوثاءة : وَصمٌ يصيب اللحم ولايبلغ العظم فيَــــرِم وقيل هو توجع في العظم من غير كسر وقيل هي الفكّ

أبو زيد : وثأتُ يد الرجل وَثئاً وقد وثِئَت يده تَثَـــــأُ وَثئاً ووَثَئاً فهي وَثِيئَــةً علي فَعلِه ، ووُثِئَت علي صيغة ما لم يسم فاعله فهي مَوثوءة ووثِئية مثل فعيلة ووَثأها هو وأوثأها اللـــــه والوَثِيْ : المكسور اليد .(٢) -

وقال ابن قُتيبة : (وُثِيئَت يدُه فهي موثوءة ، ولايقـــال وَثِيئَت) .(٣)

٤٧ - وُكِــسَ ، (أُوكِــس)

الوَكسُ : النقص . وقد وَكَسَ الشيْ : نكَسَ ووَكَسُــــته فلانا : نقصته ويقال وُكِس فلانٌ في تجارته وأُوكِس أيضا علي مـــا لم يسم فاعله أي خَســر (٤)

٤٨ - غُبِن :

الغَبْنُ : بالتسكين في البيع والغَبَنُ بالتحريك في الرأي والغَبْنُ

---

(١) اللسان رفت ١٨٨٦/٢

(٢) اللسان (وَثأ) ٤٧٦٢/٦

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٣١٠

(٤) اللسان (وَكس) ٤٩٠٦/٦

في البيع والشراء : الوَكسُ : غَبَنَهُ يَغبِنُهُ غَبناً هذا الأكثـــــر أي خدعه . وقد غُبِن فهو مغبون ، وقد حكي بفتح الباء ، وغَبِنـــتُ في البيع غَبَنـا إذا غَفَلتَ عنه بيعا كان أوشراء .(١)

٤٩ - وَعَـــــك :

والوَعكُ : الحُمي : وقيل أَلِمها وقد وَعَكَهُ المرض وَعكاً ووُعِـــك فهو مَوعوك .

والوَعك : مِغث المرض ، وقيل أذي الحمي ووجعها فـــــي البدن والوَعك : الألم يجده الأنسان من شدة التعب .(٢)

٥٠ - رَكَـــــض :

يقال رَكَضتُ الفرس برجلي : إذا استحثثتهُ لِيَعدو ثم كَثُـــر حتي قيل : رَكَضَ الفرس إذا عَدا وليس بالأصل والصواب : رُكِض الفرسُ علي ما لم يسم فاعله فهو مركوض .(٣)

٥١ - رَهِـــــص :

الرَّهصُ : أن يُصِيب الحَجَرُ حافرا أو مَنسِماً فيـــــدوي باطنهُ تقول : رَهَصَه الحجرُ ، وقد رُهِصَت الدابه رَهصـــــــاً ورَهِصَت وأرهَصَه الله ، والاسم : الرَّهصَةُ .

الصحاح : والرَّهِصَةُ أن يدوي باطـن حافِرِ الدَّابةِ من حجـــــر تطؤه مثل الوَقرَة .

---

(١) اللسان (غبن) ٣٢١١/٤

(٢) اللسان (وعَك) ٤٨٧٥/٦

(٣) اللسان رَكض ١٧١٩/٣

أبو زيد : رَهِصَتِ الدّابةُ ، ووقَرِت من الرَّهصَةِ والوَقـــرَةِ

قال ثعلب : رَهِصَتِ الدابه أفصح من رُهِصَت .(١)

وقال الكسائي(٢) : ولمَ يقُل : رُهِصَت فهي مَرهُوصةٌ ورَهِيـــض

ورُهِط الحائط دُعِم والرِّهص بالكسر أسفل عرق في الحائط والرِّهــصُ

: الطين الذي يجعل بعضه علي بعض فيبني به(٣)

٥٢ ـ سُغِــــد : بضم الفاء وكسر العين .

السّغدُ ـ بالضم ـ بساتين نزهة وأماكن مثمرة بسمر قنــد

وسُغِد : كـ (عني) ورُمَّ . وفصال ساغدة ومَســغَدة بفتح الغين رواء

من اللبن سمان .(٤)

٥٣ ـ عُهِد : بضم الفاء وكســر العين ـ

العَهد : الوصية . والتقدم إلي المرء في الشئ والعُهـــد

بالضم الحلف وعُهِــد المكان كـ : (عُني) فهو معهود ومطر بعــد

مطر يُدرِك آخره بَلَلَ أولهِ .(٥)

٥٤ ـ فُئِــد : ـ بضم الفاء وكسر العين ـ

فَأَد الخبر : كمنع جعله في الملة واللحم في النار : شواه

---

(١) اللسان (رهص) ١٧٥٢/٣

(٢) الصحاح رهص

(٣) اللسان رهص ١٧٥٢/٣

(٤) القاموس المحيط ٣٠٠/١ (سعد)

(٥) القاموس المحيط ٣١٧/١

وفئِـد كـ : (عُنِي) وفرح شكاه أو وُجِع فؤاده ·(١)

٥٥ ـ نُكِـــد : ـ بضم الفاء وكسر العين ـ

نَكِـدَ عيشَةُ كـ : فَرِح : اشتد وعسر والبئر : قل ماؤهــا ونَكَدَ الغراب : كـ : نَفَرَ : استقصى في شَحيجه : وكغُني كثـر سؤالهُ وقل نائلهُ · والنُّكدُ : قله العطاء · ويفتح والغزيرات اللبن من الأبل والتي لالبن لها ضد عن ابن فارس ·(٢)

٥٦ ـ رُخِّصَ : الرَّخصُ : الشئ الناعم اللين ، إن وصفت بـــه المرأة فرخصانها نَعَمةُ بَشَرتِها ورِقَّتُها وكذلك : رُخاصة اناولها : لينها · ورُخِّص له في الأمر : أُذِنَ له فيه بعد النهي عنه ·

والاسم الرخصة · والرخصة في الأمر وهو خلاف التشديد وقد رُخِّص له في كذا ترخيصاً فترخص هو فيه ، أي لم يستقصـــي ، وتقول : رَخَّصتُ فلانا في كذا وكذا أي أذنت له بعد نهـــي اياه عنه ·(٣)

٥٧ ـ مُشِــق :

مُشِق الرجل يَمشَقُ مَشقَا فهو مَشِقُ إذا اصطَلت أليَتَاهُ حتـــي تَسحَحَتـا وكذلك باطن الفخذين ·

وفرس مَشِيقَ وممشوق : أي ضامر ، وجاريه ممشوقه : حسنة القوام قليلة اللحم ·

ومُشِق القدحُ مَشقاً : حُمِل عليه في البري لِيَدِقَّ ، والمشـقُ :

---

(١) القاموس ٣١٩/١ (٢) القاموس المحيط ٣٣٩/١

(٣) اللسان (رخص) ١٦١٦/٣

جَذبُ الشيْ ليمتد ويطول .(١)

٥٨ - وُكِـــم :

وَكَـم الرجل وَكمـاً : ردّهُ عن حاجتـة أشد الرد ، ووقمـة الأمر ووكمه : حزنه .

ووُكِمَتِ الأرضُ : وطُئِت وأُكِلَت ، ورُعِيت فلم يبق منهـا ما يحبس الناس . (١)

٥٩ - أُلِــق :

يقال : أُلِقَ الرجلُ فهو مألوق علي مفعول ، ويقال مُؤولــق مثال مُعَولِقٍ ، فإن جعلته من هذا فهــو فوعل (٣)

وألِقَ الـبروق يألق ألقـا والإلقا ككتاب : كذب فهــو ألاّق : البرق الكاذب الذي مطر له ، وأُلِقَ كُعِني أَلقاً ((٤)

٦٠ - نُخِيَــت :

النَخــوة : العظمة والكبر والفخر .

يقال : نخا يَنخُو وانتخي ، ونُخِي وهو أكثر وأنشــد الليث : ومارأينا مَعشَراً فينتَخُوا

الأصبعي : زُهِي فلانُ فهو مَزهُوُ ، ولايقال زَهَا ، ويقــال نُخِي فلان وانتخي ولايقال : نخـا ، ويقال : انتَخَي فلان علينا

---

(١) اللسان مشق ٢١١/٦٤

(٢) اللسان (وكم) ٩١٠/٦٤.

(٣) اللسان (ولق) ٩١٩/٦٤

(٤) القاموس ألق ٢٠٣/٣

أي افتخرِ وتعظم .(١)

وفي القاموس : نَخَا ينخُو نَخوَة : افتخر وتعظم

ونَخُنِي : كُعِني ، وانتخي فلانا : مدحه وانخَي : زاد نخوته.(٢)

٦١ ـ غُــمَّ ، وأُغمِــي :

الغَمُّ : واحد الغموم والغَمُّ والغُمَّةُ : الكرب ، ويقال : انهم لفي غُمَّي من أمرهم إذا كانوا في أمر مُلتبـــس .

وغُمَّ عليه الخبرُ علي ما لم يسم فاعله أي استعجم(٣)

وغُمِي علي المريض ، وأُغمِي عليه : غُشِي عليه ثم أفاق ، وأُغمِـي عليه الخبر اي استعجم مثل غمَّ(٤)

وغُمَّ الهلالُ علي الناس غَماً : سترة الغيم وغيره فلم يُـرَ . ورجل مغموم : مغتم من قولهم : غُمَّ علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس . وفي الحديث : أنه قال : صُوموا لرؤيته وافطـــروا لرؤيته ، فإن غُمَّ عليكم فاكملوا العدة).

قال شُمِــر : يقال غُمَّ علينا الهلال غَمًا فهو مغموم إذا حال دون رؤيته الهلال غيم رقيق . من غممت الشئ إذا غطيتـه وفـي غُمَّ ضميـر الهلال . قال ويجوز أن يكون : غُمَّ مسندا إلـي

---

(١) اللسان (نخا) ٤٣٧٩/٦

(٢) القاموس المحيط (نخا) ٣٨٦/٤

(٣) اللسان (غَمَّ) و (عِمْي) ٣٦٤/٤

(٤) اللسان (غما) ٣٣٠٤/٥

الظرف أي : فإن كنتم مغموما عليكم فاكملوا ، وترك ذكر الهلال للاستقناء عنه قال أبو دؤاد :

ولها قرحة تلألأ كالشعري ... أضاءت وغُمَّ عنها النجوم(١)

وقال مالك بن أبي كعب (أبو كعب بن مالك) :

أقاتل حتي لاأري لي مقاتلا ... وأنجو إذ غُمَّ الجبان من الكرب(٢)

قال الأزهري : (فمعني غُمَّ وأُغمي وغُمِّي واحد ويقال غَمَّ القمر النجوم بهرها وكاد يستر ضوءها .

وليلةٌ غَمّةٌ وليل غَمٌّ أي غامة وصف بالمصدر كما تقول ماء غسور وأمر غام .(٣)

٦٢ - لُقِي :

اللقوة : داء في الوجه ، لُقِي : كُعِني فهو مَلقوٌّ ولقوته : أجريت عليه .(٤)

٦٠ - سَلِس :

يقال شيٌ سَلِسٌ : ليّن سَهل ، ورجل سَلِسٌ أي : لين مُنقادٌ بين السلس والسلاسة .

ابن سيده : سَلِس سلسا وسلاسة وسُلوسا فهو سَلِس ، وسلس المُهر إذا انقاد ، وسَلِس بول الرجل : إذا لم يتهيأ له أن

---

(١) اللسان (غم) ٣٣٠٣/٥ . وأدب الكاتب لابن قتيبته جـ ٣١١

(٢) ينظر الكتاب ٢٥٠/٢ والخصائص لابن جني ٢٦٧/١

(٣) اللسان (غمم) ٣٣٠٤/٥

(٤) القاموس المحيط (لقي) ٢٧٩/٤

يمسكه ، وفلان سَلِس البول إذا كان لايستمسكه ·

والسَّلسُ : بالفتح الخيط الذي ينظم فيه الخرز الأبيض تلبسه الاماء أو القرط من الحلي ·

وقد سُلسِ : ك : عُنِي وسَلِسَت النخله ك : فرح يذهب كَرَبُها كاسلَست فهي ملاس أو مُسلِس إذا تناثر بثرها ·(١)

٦٣ ـ قُحِط : بضم الفاء وكسر العين ·

القحطِ : احتباس المطر · وقد قحَطَ وقَحِط والفتح أعلي قَحطاً وقَحَطا وقُحوطاً ·

وقُحِط الناس ـ بالكسر ـ علي ما لم يسم فاعله لاغير قَحطا وأُقحطُوا وكرهها بعضهم · وقال ابن سيده : لايقال : قُحطوا ولا أقُحِطوا · والقحط : الجدب لأنه من أثرة ·

وحكي أبو حنيفة : قُحِط المطر علي صيغة ما لم يسم فاعله · وأقحَط علي فِعل الفاعل · قال ابن بري : قال بعضهم : قَحَط المطر بالفتح ، وقَحِط المكان بالكسر هو الصواب ، قال ويقال أيضا : قُحِط القطر(٢) ، قال الأعشي :(٣)

وهم إن يطعمون إن قُحِط القطرُ وهبت بشَمأل وضريبُ

٦٤ ـ وُضِع ·

وَضَع الرحلُ نفسه يضعها وضعا ووضوعا وضعِه قبيحة (عن

---

(١) اللسان مسلس ٢٠٦٢/٣ والقاموس المحيط (سلس) ٢١٨/٢

(٢) اللسان قحط ٣٥٢٦/٥

(٣) ينظر ديوانه

اللحياني) ووَضَع منه فلان أي حط من درجته .

ووُضِع في تجارته ضَعَةً ووضِيعة ، فهو موضوع فيها . وأُوضِع ووَضِع وَضعا : غُبِن وخَسر وصيغة ما لم يسم فاعله أكثر قال:

فكان ما رَبحتُ وسط الفيثرهْ وفي الزحام أن وُضِعت عَشَره

ويقال : وُضِعَتُ في مالي وأُوضِعتُ ، ووُكِستُ وأُوكِستُ

وقد وُضِع في البيع يُوضَع وضيعه يعني أن الخساره من رأس المال (١)

٦٥ ـ نكب :

نَكَبَ عن الشئ وعن الطريق ينكُب نَكباً ونكوباً ونَكِب نكَباً ونكَّب وتنكَّب : عدل

ونكبه الدهرُ ينكُبُهُ نكباً ونَكَباً : بلغ منه وأصابه بنكبة

ويقال نكبَتهُ حوادث الدهر .

ونُكِب فلانٌ فهو مُنكوب ونكبته الحجارة نكباً اي لَثَمَتهُ (٢)

٦٤ ـ غشي :

الغشاء : الغطاء تقول : غشيت الشئ تَغشِية : إذا غطيته وغَشِيه الأمر وتغَشَّاه وأَغشَيته اياه وغشَّيته . وغُشِي عليه غَشية وغشيا وغَشيانا : أُعمي فهو مغُشي عليه وهي الغَشية وكذلك غَشِيه الموت ، قال الله تعالي . (نَظَرَ المغشِيّ عليه من الموت) (٣)

وغُشِي الأمر غَشيانا : باشرة وغَشيت الرجل بالسوط وغَشي

---

(١) اللسان (وضع) ٤٨٥٩/٦ وفصيح ثعلب ص ١٤ الطبعة الأولي مصر ١٩٠٧م

(٢) اللسان (نكب) ٤٥٣٠/٦

(٣) من الآية .

المرأة : إذا جامعها وغُشِي عليه : أُغمي عليه [1] .

٦٦ – أُهِلَّ واستُهِلَّ :

هَلَّ السحاب بالمطر وهَلَّ المطر هلاً وانهل بالمطر انهلالاً

واستهلَّ : وهو شدة انصبابه .

المحكم : وأَهَلَّ الشَّهرُ واستَهَلَّ : ظهر هلاله وتبين .

وفي الصحاح : ولايقال أَهَلَّ ، قال ابن بري : وقد قاله غيره المحكم : أيضا : وهَلَّ الشهر ولايقال : أَهَلَّ وهَلَّ الهلال وأَهَلَّ وأُهِلَّ ، واستُهِلَّ على ما لم يسم فاعله : ظهر . الليث : أُهِلَّ القمر ، ولايقال : أُهِلَّ الهلال قال الأزهري : هذا غلط وكلام العرب : أُهِلَّ الهلال وروي أبو عبيد عن أبي عمرو : أُهِلَّ الهلال واستُهِلَّ لاغير وروي عن ابن الاعرابي أُهِلَّ واستُهِلَّ . [2]

٦٧ – ثُلِجَ : الثلج الذي يسقط من السماء معروف .

وقد أَثلجَ يومنا وأَثلَجوا : دخلوا في الثلج . وثُلِجوا : أصابهم الثلج . وثُلِجتِ الارضُ وأُثلِجت : أصابها الثَّلجُ .

يقال : ثَلَجَت نفسي بالامر إذا اطمأنت إليه وسكنت وثبتت فيها ووثقت به .

وثَلَج قلبُه : تيقين . وثُلِج قَلبُه : بَلِدَ وذهب ، ورجل مثلوج الفؤاد : بليد قال أبو خراش الهذلي .

ولم يك مثلوجَ الفؤاد مُهيَّجاً أَضاعَ الشباب في الربيلة والخفض

(١) اللسان (غشا) ٣٢٦٢/٤

(٢) اللسان (هلل) ٤٦٩٠/٦ والقاموس هلل ٦٩/٤

وقال كعب بن لؤي لأخيه عامر بن لؤي :

لئن كنت مثلوج الفؤادِ لقد بدا لجمعِ لُؤَيٍّ منك دِلَّةُ ذي غَمضِ

ابن الأعرابي : ثُلجَ قلبه : إذا بلد ، وثَلِج به إذا سر به وسكن إليه وأنشد :

فلو كنت مثلوجَ الفؤاد إذا بدت بلاد الاعادي لا أُمِرُّ ولا أُحلِيَني

أي لو كنت بليد الفؤاد كنت لا آتي بِحُلوٍ ولا مُرٍّ من الفعل . (١)

٦٨ - أسر :

الأُسرَة : الدرع الحصينة وأَسَرَ قتبه : شده

الأصمعي : ما أحسن ما أسر قتبه أي ما أحسن ما شده بالقِدّ والقِدُّ الذي يوسر به . القَتَبُ يسمي الإسار .

يقال : أَسَرتُ الرجل أَسراً ، وإِساراً فهو أسير ومأسور

قال الفراء : أُسِر فلانٌ أحسن الأسر أي أحسن الخلق وأسره الله خلقه ، وهذا الشيئ لك بأسره أي بعدّه يعني : جميعه كما يقال برمته :

وأُسِر قَولهُ أَسراً احتَبَس والأسم : الأَسرُ .(٢)

٦٩ - أغرب :

الغرب والمغرب بمعني واحد . ، غَربت الشمس تَغرُب غروبا ومغيربانا : غابت وفي المغرب ، وكذلك غرب النجم ، وغرّب وغرب ، أي بَعُدَ ويقال أغرَب عني أي تباعد . وغَرَّبه وغَرَّب عليه تركه بعيدا .

---

(١) اللسان (ثلج) ٥٠٠/١

(٢) اللسان (سر) ٧٨/١ .

وأَغرَبَ الرجل : جاء بشيْ غريب وأَغرَب عليه وأغرب بـــــه صنع به صنعا قبيحا واستغرب الدمع : سال وغَرب الفـــــم : كثر ريقِـه وبلَلَهِ ·

وقد أُغرِب الفرسُ علي ما لم يسم فاعله إذا أخذت عرتــــه عينيه وابيضت الاشفار وكذلك إذا ابيضت من الــزرقُ وأُغــــرِب الرجل : ولد له ولدٌ ابيض · وأُغرِب الرجل إذا اشتد وجعه .(١)

٧٠ ـ نُسِئَ :

نُسِئت المرأةُ تَنسَأ نَسئـاً : تأخر : حِيضها عن وقتـــه وبدا حملها فهي نَــسئٌ ونَسِـــيُءٌ

ونَسَأَ الله في أجله وأنسأ أجله وأنسَأه الدين والبيع أخره بــه أي جعله مؤخرا ونسأت وانتسَأت عنه : تأخرت وتباعـــدت ، وأنسَأه الدين والبيع : أخره به أي جعله مؤخراً ونسأت عنه دينـــه أخرته نساء بالمـد ·

ونُسِئت المرأة : إذا حبلت جعلت زيادة الولد فيها كزيـادة الماء في اللبن ويقال للناقه نسأتها أي زجرتها ليزداد سيرها ·

ونُسِئت المرأة تَنسَأ نَسئاً علي ما لم يسم فاعله : إذا كانــت عند أول حبلها وذلك حين يتأخر حيضها عن وقته فيرجي أنها حبلي(٢)
ونُسِئت المرأة كـ (عُني) وتأخر حيضها عن وقته فرجي أنها حبلي (٣)

---

(١) اللسان غرب ٤/٣٢٣، والقاموس غرب [illegible]
(٢) اللسان (نسأ) ٦/٤٤٠٤
(٣) القاموس المحيط نسأ ١/٣٠

٧١ ـ وُطِـــم :

وطم السِّترُ : أرخاه ، ووَطِم الرجل وَطماً ، ووُطِـــمَ : احتبس نَجوه ، وقد ذكر في الهمزة في ترجمة أطَـــم (١)

٧٢ ـ لِبُط :

لَبَط فلانٌ بفلان يَلْبط لَبطا مثل لَبَــج به ضربها وقيل صرعـــه صرعا عنيفا .

ولُبط بفلان إذا صرع من عين أو حُمَّي.

ولُبِط به لَبطاً ضرب بنفسه الأرض من داء أو أمر يغشـــاه مفاجأة ولُبِط به : يُلبَط لَبطاً : إذا سُقِط من قيام وكذلك إذا : صُرِع ويقال : لُبِط بالرجل فهو مَلبُوط به وفي الحديث : أنه صلي الله عليه وسلم : (خـرج وقريش مَلبُوط بهم يعني أنهـــم سقوط بين يديه . ولُبِط الرجُلُ لبطا : أصابه سُعال وزكام (٢)

٧٣ ـ لُبِـــحَ :

يقال : لَبَحه بالعصا : ضربه وقيل هو الضرب المتتابع فيـــه زحاوة ولُبِج البعير بنفسه : وقع علي الأرض .

ولُبِـج بالبعير والرجل فهو المبيج : رمِّي علي الأرض بنفسه من مـــرض أو اعيــاء . (٣)

وكذلك لُبِـج ـ بالجيم ـ مثل لُبِط به سواء (٤)

(١) اللسان وطم ٦٨٦٨/٦

(٢) اللسان (لبـط) ٣٩٨٨/٥

(٤) اللسان لِبـج ٣٩٨٣/٥

(٥) اللسان لِبـج ٣٩٨٣/٥

٧٤ ـ أُبِصَ :

أُبِص الرجل : أُرعِد عند الفزع (١)

٧٥ ـ طَلِــــــف :

طَلَف : ذهب مالُه ودَمُهُ طَلْفاً وطَلَفاً وطَلِيفاً أي هدرا باطــلا

قال الأفوه الأودي :

حَكَمَ الدهـرُ علينا أنــــــــةَ ‏ طَلَفٌ مانال مِنّا وجُبــــار

وقد أُطلِف . وذهبت سِلعتي طَلَفاً أي بغير ثمن . وأطلقه أي أهــدر دمــــــه . (٢)

٧٦ ـ زُئــــم :

زَئِم الرجل زأماً فهو زَئم : فزع واشتد دعره وزأمه هــــو : ذعره وزئِم به : إذا صاح به

وزُئِم أي : ذُعِــر علي ما لم يسم فاعلــه . (٣)

زأم الرجل يزأم زأما وزؤاما : مات موتا وحِبّا وأكل سدِيداً (٤)

٧٧ ـ زُئـــــد :

زأد يزأده زأداً وزُؤدًا مخفف (عن اللحياني) وزؤدًا أي افرغــه وقيل استخفه .

الكسائي : زُئِد الرجل زؤدًا فهو مَزءُودُ أي : مذعور إذا فـــزع

---

(١) اللسان (أبص)

(٢) اللسان (طلف) ٢٦١٢/٤

(٣) اللسان (زأم) ١٨٠٠/٣

(٤) القاموس المحيط زأم ١٢٢/٤

وفي الحديث : (فَزُئِد : أي فزع . (١)

٧٨ ـ سُئِف :

سُئِف الرجل سَأفا مثله .

وفي حديث المبعَث : فاذا الملك الذي جاءني بحراء فسُئِفت منه أي فُزِعت منه

٧٩ ـ جَئِيث : كـ : فرح : ثقل عند القيام أو عند حمل شيء ثقيل وأجاثه وجاث البعير كـ (منع) : مر مُثقَلاً والرجل نقل الأخبار ، وكُزِهي : حُؤوثاء : فزع

وجُئِث وجَأثا : فُزِع وقد جُئِث : إذا أُفزِع فهو مجؤوث أي (٣) مذعور . (٢)

٨٠ ـ ضَبث :

ضَبث بالشيء ضَبثاً واضَّبث : إذا قبضت عليه بكفك والضبث : قبضك بكفك عن الشيء والضَّبث : الضرب وقد ضُبث عليه على صيغة ما لم يسم فاعله ، وقال شِمرُ ضَبث به إذا قبض عليه وأخذه . (٤)

٨١ ـ ضُئِد :

الضُّؤود والضُّوءدة : الزكام

---

(١) اللسان (زائد) ١٧٩٩/٣

(٢) وسأف ١٩٠٦/٣

(٣) القاموس : جات ١٦٣/١ اللسان (جأث) ٦١٥٢٨/١

(٤) اللسان ضبث ٢٥٤٦/٤

ضُئِد الرجل ضُؤادا وضُؤودا : زُكم
والاسم الضُّؤدة ، وقد أضأده الله أي أزكمه فهو مضئود ومضأدُ(١)

٨٢ - أُرِض :

الأرض : التي عليها الناس أنثي وهي اسم جنس ، وكان حق الواحدة أن يقال : أرضه ، ولم يسمع . والأرض : الزكام : مذكر ، وقال كراع هو مؤنث .

وقد أُرِضَ أَرَضًا وآرضه الله أي أزكمه فهو مأروض يقال رجل مأروض وقد أُرض فلان وآرضه إيراضاً (٢)

والمأروض : المزكوم ، أُرِض وكـ : (عُني) ومن به خبل من أهل الأرض والجن . والأرضة : بالتحريك : دوده بيضاء شبه النمله تظهر في أيام الربيع . (٣)

٨٣ - ذُعِر :

الذُّعرَ : بالضم : الخوف والفزع وهو الاسم ذعره يذعره ذَعراً فانذعر ، وهو مُذدَعِرُ وأَذعَرَهُ كلاهما افزعه وصيره إلى الذُّعر .

وذُعِر فلان ذَعراً فهو مذعور ، أي أخيف . (٤)

٨٤ - قُطِع ، أُقطِع ، انقُطِع :

القطع : إبانه بعض اجزاء الجرم من بعض فصلاً

---

(١) اللسان ضأد ٤/٢٥٤٠ والقاموس (صأد)
(٢) اللسان أرض ٦٢/١
(٣) القاموس ٣٢١/٢ (أرض) (٤) اللسان (دغر) ١٥٥٢/٢

وقُطِع به وانقُطِع وأُقطِع وأَقطَع : ضعف عن النكاح وأُقِطع به اقطاعاً فهو مُقطَع إذا لم يرد النساء ولم ينهض عُجارمُهُ وانقُطِع بالرجل والبعير كَلاًّ وقُطِع بفلان فهو مقطوع به وانقُطِع به فهو مُنقَطَعٌ به إذا عجز عن سفره من نفقه ذهبت أو قامت عليه راحلته أو اتاه أمر لايقدر عليه ان يتحرك معه وقُطِع به إذا انقطع رجاؤه وقُطِع به قَطعا إذا قُطِع به الطريق وفي الحديث : فخشينا ان يُقتَطَع دوننا أي يؤخذ وينفرد به . ويقال للغريب بالبلد : أُقطِع عن أهله إقطاعاً فهو مُقطع عنهم ومُنقطع (١) وقُطِع بالرجل وأقطِع به (٢)

وقُطِع بزيد : كـ (عُني) فهو مقطوع به : عجز عن سفره بأي سبب كان أو حيل بينه وبين مايؤمله . (٣)

٨٥ ـ عجر :

عَجِر الرجل بالكسر : يَعجر عَجراً أي غلظ وسمين وتعجر بطنه وعجر عَجَراً ضخم بطنه ، قال شَمِرٌ : يقال عَجَرتُ عليه وحظرت عليه وحَجَرت عليه بمعني واحد وعَجَر عليه بالسيف أي شد عليه .

وعُجِر علي الرجل : أُلِحّ عليه في أخذ ماله ورجل معجور عليه كثر سؤاله حتي قل ماله (٤) .

---

(١) اللسان قطع ٣٦٨٠/٥

(٢) فعلت وأفعلت للزجاج ص ٧٧ وإصلاح المنطق لابن السكيت ص ٢٧٨

(٣) ينظر القاموس المحيط مادة قطع ٦٨/٣

(٤) اللسان عجز ٢٨١٤/٤

٨٦ ـ سُـدِع :

السَّدْع : الهداية للطريق ورجل مِسدع : دليل ماض لوجهه وسُدع الرجلُ : نُكبِ يمانية ، قال الأزهري : ولم أجد في كلام العرب شاهداً من ذلك .(١)

٨٧ ـ هُقِع ، واهتُقِع :

الهقعة : دائرة في وسط زور الفرس أو عُرض زوره وهي دائرة الحزم تُستَحَبُ .

وقد هُقِع هَقَعاً فهو مَهقُوع قال :

إذا عَرِق المهقوع بالمرء انقَظت حليلتهُ وازداد حَرًا عِجَانُها

واهتُقِع لونه : تغير من خوف أو فزع لايجئ إلا علي صيغة ما لم يسم فاعله .(٢)

٨٨ ـ سُعِف :

السَّعَفُ : أغصان النخله وأكثر مايقال إذا يبست ، وإذا كانت رطبة فهي الشَّطبة وواحدته سَعفةُ .

والسَّعفة والسَّعَفَة قروح في رأس الصبي وقيل : هي قُروح تخرج بالرأس ، وقال كراع هو داء يخرج بالرأس ولم يُعيِّنهُ وقد سُعِف فهو مَسعوف .(٣)

---

(١) اللسان سدع ١٩٧٤/٣

(٢) اللسان مقع ٤٦٧٩/٦، والقاموس هقع ٩٦/٣

(٣) اللسان سعف ٢٠١٧/٣

٨٩ - كُظِم :

كَظَم الرجل غيظه إذا اجترعه كَظَمه يَكظِمه كَظما : رده

وحبسه فهو رجل كظيم

وقد كُظِم وكَظَم علي غيظه يكظم كَظما فهو كاظم وكظِم سكت[١]

وكُظِم : كـ : عُني كظوما : سكت .[٢]

٩٠ - كُلِب :

الكَلبُ : كل سبع عقور ، والكَلبُ : معروف واحد

الكلاب . قال ابن سيده : وقد غلب الكلب علي هذا النوع النابح

وربما وصف به . وكَلِب الكلب واستكلب : ضري وتعوّد أكل الناس

الكلاب : ذهاب العقل من الكَلَب

وقد كُلِب وكَلِبت الإبل كَلَبا اصابها مثل الجنون الذي يحدث

عند الكلب .[٣]

قال الكميت :

ولِيّ باجراء ولافٍ كأنه علي الشّرف الأقصى بُسَاط ويُكلَب

٩١ - رُمِع ورُمِّع :[٤]

التّرمّع : التحرك . رَمَع الرّجل يَرمع رَمعاً ورَمعانا وتَرَمَّع

: تَحَرّك . وقَبّح الله أُمّا رَمَعت به رَمَعا أي ولدته والرّماع :

(١) اللسان كظم ٣٨٨٧٩٥

(٢) القاموس المحيط ١٦٩/٤ .

(٣) اللسان كلب ٣٩١٠/٥

(٤) اللسان ولف ٤٩١٨/٦

داء في البطن يصفر منه الوجه ورُمِّع ورَمِع رَمَعا ، وأرمَع
وقد رُمِع : كـ عُنِيَ اصفرار وتغير في وجه المرأة من داء أصابه
ذلك والأول أعلي بصُيب نظرها كالرَمَع محركة وقد رَمَعَت : كفرح
ورُمِّعَت بالفم مشددة . (١)

أنشد ابن الاعرابي

بِئسَ غِداء الغرب المَرمُوع جَو أبةٌ تُنقِصُ بالضلوع (٢)

٩٢ ـ نُكِس :

النَكسُ : قلب الشيء علي رأسه . نَكَسَه ينكُسُه نكساً فانتكَسَ
ونكس رأسه أماله . والناكِس المطأطِئ راسه . وقال شِمرُ :
يقال نُكِس الرجل : إذا ضعف وعجز (٣)

٩٣ ـ أُوزع :

الوزع : كف النفس عن هواها ، وَزَعهُ وبه يَزَعُ وزعاً : كفه
فاتزع هو أي كُف ، وأوزعته بالشيء : أغربته فأوزَعَ به فهو
مَوزَع به أي مُغري به .

وقد أُوزِعَ بالشيء يُوزَع إذا اعتاده وأكثر منه والوزوع : الولوع
وقد أُوزِع به وزوعا : كأُولِع به وَلُوعا (٤)

---

(١) القاموس المحيط رمع ٣/٣٠
(٢) اللسان (رمع) ١٣٧١/٣
(٣) اللسان نكس ٤٥٤٠/٦
(٤) اللسان (وزع) ٤٨٣٥/٦

٩٤ ـ نُشِـــع :

نَشَعَهُ : كـ : منعه نَشعاً ومَنشَعاً : انتزعه

ونُشِع بكذا كـ : عُني فهو منشوع : أُولِع والناشع : الناشئ (١)

ونشع بالشيء أولع به وانه لمنشوع بأكل اللحم أي مولع به (٢)

٩٥ ـ نُشـــغ :

ونَشغ الماء كـ : منع : سال وبالرمح طَعَن

وقد نُشِغ الصبي كـ : عُني أوجر وبالشيء أولع فهو منشوغ به (٢)

قال ذو السعة : اذا مرئية وَلَدت غلاماً فآلام مُرضِعُ يُشِغ المحارا (٣)

٩٦ ـ أُنتِســف :

نَسِفَ البعير برجله نَسفاً : ضرب بها قُدُماً ونسف الانساء

يَنسِفِ : فاض النَّسفَة من حجارة الحرةِ تكون نخرة ذات تعاريب

يُنسَفُ بها الوسخ عن الاقدام في الحمامات وانتُسِف لونه : أُمتُقع (٤)

٩٧ ـ انتُشِف :

نَشَف الماء : يبس ونَشِف الثوب العرق بالكسر ينشفه نَشفاً

: شربه وانتشف الوسخ : أذهبه مسحا ونحوه وأُنتِشِف لونه انتقع

حكاه يعقوب قال والسين لغة .(٥)

---

(١) القاموس (نشع) ٨٦/٣ واللسان نشع ٤٢٩/٦

(٢) القاموس المحيط (نشغ) ١١١/٣ واللسان نشغ ٤٣٠/٦

(٣) ينظر ديوانه ١٣٩٢/٢

(٤) اللسان (نسف) ٤١٢/٦

(٥) اللسان (نشف)

٩٨ - حُنِـــــش :

الحَنَشُ : الحية وقيل الأفعي، وحنش الشئ يحنِشُه وأحنَشَـهُ : صادة وحَنَشتُ الصيــد : صيدتُــه .

وقد حُنِشَ وحَنَشه عن الأمر يَحنِشُهُ : عطفه وهو بمعني : طردة (١)

٩٩ - شُخِصَ :

شخصَ الرجلَ ببصره عند الموت يَشخَصُ شخوصا : رفعه فلــم يطرف مشتق من ذلك وشَخَص بَصُرُ فلان فهو شاخص إذا فتح عينيـه وجعل لا يطرف .

وشُخِص به : إتي اليه أمر يُقلقِه . يقال للرجل إذا اتــــاه مايقلقه قد شُخِص بِي كأنه رفع من الأرض يقلقه وانزعاجه (٢)

١٠٠ -ضُنِــــــكَ :

ضَنُك الشئ ضَنكاً وضَنَاكةً وضُنوكةً : ضاق وضَنُك الرجل ضَنَاكـه فهو ضَنيك : ضَعفُ في جسمه ونفسه ورايه وعقله

والضُّنكَةُ والضُّناك بالضم : الزكام

وقد ضُنِك علي صيغة علي ما لم يسمي فاعله فهو مضنوك إذا زكم والله أضنكه وأزكه . (٣)

وقد ضُنِك كـ . (عُني) (٤)

---

(١) اللسان (حنش) ٢/ ١٠٢١

(٢) اللســان (شخص) ٢٢١٢/٤

(٣) اللسان ضنك ٢٦١٣/٤ ،

(٤) القاموس ضنــك ٣٠٢/٣

١٠١ - استُفِـــع :

سَفعَ الطائر ضَريبَتهُ كمنع لطمها بجناحيه

ورجل مسفوع العين : غائرها ومسفوع : معيون اصابته سَفعةُ أي عين .

واستُفِع لوُنُه للمفعول تَغَيَّر من خوف أونحوه(١)

١٠٢ - وانتُفِع ، أُستِنقِعَ :

أُنتُقِع لونه مجهولا تغيـــر (٢)

وأُستُنقِع لونه مجهولا تغير واستَنْقَع في العدير : نزل (٣)

١٠٣ - عُنِّـــسَ :

عَنَسَتِ الجارية كـ : سَمَع ونصر وضَرَب عُنُوساً وعِناســـاً : طال مكثها في أهلها بعد إدراكها حتي خرجت من عداد الابكـــار ولم تتزوج قط كأعنَسَت وعَنَّسَت وعُنِّسَت وعَنَّسَها أهلها تَعنِيسًا وهي عَانِسٌ . (٤)

قال الأصمعي : (لايقال عَنَسَت ولا عَنَّسَت ولكن يقال عُنِّسَـــت علي ما لم يسم فاعله فهي مُعَنَّسَة . وقيل يقال عَنَسَت بالتخفيـــف وعُنِّسَت ولا يقال عَنَّسَت . (٥)

---

(١) القاموس سفع ٣/٣٧

(٢) القاموس (نقع) ٣/٨٨

(٣) القاموس (نقع) ٣/٨٨

(٤) القاموس (عنس) ٢/٢٣٤

(٥) اللسان (عنس) ٤/٣١٢٩

١٠٤ - نَطِـــع :

النِّطع - بالكسر وبالفتح وبالتحريك وكعنَب بساط من الأديـم والنُّطُعُ : بضمتين المتشدقون · ونُطع لونه كـ : عُنِي : تغيـــر وتنطـع في الكلام تعمق وغالي (١)

١٠٥ - أرْتج ، أُرْتُتِـج ، استُرْتِج

رَتَّج الباب : أغلقه كأرْتَجَة الصبي رُتجَانـا : درج وكفـرح : استغلق عليه الكلام ، كأُرْتِجَ وأرْتُتِجَ وأُسْتُرْتِج وأَرتَجَـــت الناقه : أَعلَقَت رحمها علي الماء والدجاجة امتلا بطنها بيضـا ، والبحر هاج وكثر ماؤه فغمر كل شئ (٢)

١٠٦ - رُجِـــد :

رُجِـد : كـ (عُنِي) رَجداً بالفتح ورُجِّد ، ترجيــدا : ارتَعَشَ ، وأُرجِـد : أُرعِـــد (٣)

١٠٧ - حُصِـــر :

الحِصر : ضرب من العيّ · ، حَصِر الرجل حَصَراً مثل تَعِب تَعَباً فهو حَصِر عيئي في منطقة وقيل حصر : لم يقدر علي الكلام والحَصـــر : ضيق الصدر والحَصْرُ والحُصُر : احتباس البطن وقد حُصِـــر بغائطه علي ما لم يسم فاعله وأُحْصِر

الأحمصـي واليزيدي : الحَصْر من الغائط والأسر من البـــول

---

(١) القاموس نطع ٨٦/٣

(٢) القاموس (نخ) ١٨٩/١

(٣) القاموس المحيط ٢٩١/١

الكسائي : حُصر بغائطه ، وأحْصِر أشد الحصر وقد أخـــــــذه الحصر وأخذه الأسر شيئ واحد ، وهو أن يمسك ببوله يُحْصَرُ حَصْرا فلا يبول قال ويقولون : حُصِر عليه بوله وخلاؤه (١)

١٠٨ ـ أحتِضُر :

حَضَر كنصر وعلِم حَضورا وحضارة ضد غاب كاحتَضَر وتَحَضَّـــر ويعدي يقال : حَضَره وأحْضَره واحضر الشيئ وأحضر ، ايـــاه .

واحْتُضِر بالضم أي حَضَره الموت . (٢)

١٠٩ ـ عُـــرِق :

العرق ـ محركة : رَشح جلد الحيوان ويستَعَار لغيره

وقد عُرِق كـ : (عُنِي) عَرَقا . والعرق : الطريق يعرقه الناس حتي يستوضح بالكسر للشجر والبدن (٣)

١١٠ ـ عُـــرِف :

عَرَفَـه يَعْرفه مَعْرِفَةً وعرفانا وعِرْفَـةً بالكسر وعِرفّانـــــا بكسرتين مشددة الفاء علمه فهو عارف .

وعُـرِف : كـ :(عُنِي) عَـرْفا بالفتح خرجت به والمعـــروف مـن المنكر . (٤)

١١١ ـ ثُغِـــر :

---

(١) اللسان حصر ٩٨٧/٢

(٢) القاموس حضر ١١/٢

(٣) القاموس عَرَق ٣٥٥/٣

(٤) القاموس عرف ١٦٨/٣

١١١ - ثُغِــر :

الثَّغْــرُ : من خيار العشب ويحرك واحدة بهاء وكل حوبــة أو عورة منفتحة والفم والأسنان أو مقدمتها مادامت في منابتها .

وثُغِــر كـ : (عُني) دقّ فمه . (١)

وثُغِر الصبيُّ إذا سقطت رواضعــــه .

وثُغِر الرجلُ فهو مَثغُور إذا كســر ثغره (٢)

١١٢ - غُــرِي : أُغْــرِي .

غَرَ السـمن قلبه : لزق به وغطاه والجلد ألصقه بالغـــــراء وغَرِي به كَرِض غَرّاً وغِراءً : أُلِع به : كأُغْرِي به وغُرِي بضموميتيــن ، والغدير : يرد ماؤه واغراد به والاسم الغروي . والغراء ما طلـي به أو لصق به (٣)

١١٣ - طُلِـق :

الطَّلْقُ : طَلْقُ المخاض عند الولادة ، والطَّلْقَهُ : المــــرة الواحدة وقد طُلِقَت المرأة تُطَلَقُ طلقاً علي ما لم يسم فاعلــــه (٤)

١١٤ - أُجِـــر - بضم الغاء وكسـر العين -

والأُجر : الجزاء علي العمل كالاجارة مثلثة .والذكر الحســن والمهــر .

---

(١) القاموس ثغــر ٣٧٩/١

(٢) أدب الكاتب لابن قتيبة جـ ٣٦٨

(٣) القاموس المحيط (غرا) ٣٦٢/٤

(٤) اللسان (طلق) ٢٦٩٢/٤ والقاموس المحيط (طلق)

وأُجِر في أولادة : كـ : (عُنِي) أي ماتوا فصاروا أجـــرة ، وبه جبرت (١)

١١٥ ـ أُبْتُيِـــرَ : بضم الأول مع الثالث وكسر ماقبل الآخر .

بَسَرَ : أَعْجَل وعَبَس وقهر والقرحة نكأها قبل النضج كأبْتَســرَ والنخلة نَقَّحها قبل أوانها كابتسرها .

وأُبتُسِر لونه ـ بضم التاء ـ تغير (٢)

١١٦ ـ عُضِــــد :

عَضَدَهَ يَعْضِدُه : قطعه وكنصره أعانه ونصره وأصاب عَضُـــدُه وكعُني : شكا عَضُـــده . (٣)

١١٧ ـ وُجِــــد :

وَجَد المطلوب كـ : وَعدَ . وورِم : يجده ويَجُدُه بضم الجيــم لانظير لها وَجْدًا وجــدةً

ووُجد من العدم كـ (عُني) فهو موجود ولايقال وجده اللــــه تعالي ، وإنما يقال : أوجده الله تعالي . (٤)

١١٨ ـ جُــدِر

الجَدْرُ : الحائط كالجدار وجَدَر وجُدِر كـ : (عُني) ويشــدد وهو مجدور ومُجَدَّر وأرض مَجدَرةُ كثيرته والجدرُ بالكسر نبـــات

---

(١) القاموس المحيط (أجر) ٣٥٩/١

(٢) القاموس مادة بَسَر ٣٧٩/١

(٣) القاموس عضد ٣١٢/١

(٤) القاموس مادة (وجد) ٣٤٠/١

الواحدة بهـــاء (١)

١١٩ - حُفِـــــــر :

حفر الشيْ يَحْفُرُه واحتفره نَقَّاهُ كما تحفر الأرض بالحديدة والفعل كـ (عني ؟ وضَرَب وسَمَع وأحفر الصبي سقطت له الثنيتان العليبيـــان والسفليـــان (٢)

١٢٠ - شُـتِر

الشَّتر : القطع : فعله كـ : ضرب وبالتحريك : الانقطـــاع وانقلاب الجفن من أعلي وأسفل وانشقاقه واسترخاء أسفله

شترتْ العينُ الرجلُ كـ (فرح) و (عُني) وانشـرت وشترها واشترها وانشقاق الشفه السفلي (٣)

١٢١ - عُقِـــــر :

العَقَرة : ويضم العُقْم وقد عُقِرت كـ (عني) عَقَارةً وعُقَـــارةً وعَقَرَتْ تعقر عقرًا وعُقرا وعُقارا فهي عاقر (٤)

٢٢ - أُغتُضِـــر :

عَضَر بالمال كَفرِح أخصب بعدا قتار وغضره الله عَضَـــــــرًا ورجل مغضور كمنصور مبارك أو في غضارة من العيش

وغَضَر عنه يَغْضِرُ : انصرف وعدل كتغضَّر

---

(١) القاموس (جدر) ٣٨/١

(٢) القاموس (حفر) ١١/٢

(٣) القاموس (شتر) ٥٤/٢

(٤) القاموس (عقر) ٩٣/٢

وأُغتُضر مبينا للمفعول : مات شابًّا صحيحا (١)

١٢٣ - مـــثئيز :

شَئِز كـ : (فرح) شَأْزًا وشؤزا فهو شَئِزُ وشَازُ : غلـــط وارتفع واشتد الرجل قلِقَ ، وذُعِر كـ : شئز كـ : (عنـــي) فهو مَشْؤُوزُ ومَشُوزُ وأشازه : غيره واشتاز : نفس (٢)

١٢٤ - أُلِـــسَ :

الأَلْسُ : اختلاطُ العقل . أُلِسَ : كـ (عُني) فهو مألـــوسُ والخيانه والغش والكذب والسرقه وأخطاءُ الهراي (٣)

١٢٥ - طُلِس - بضم الفاء وكسر العين -

طلس الكتاب يَطْلُسُه : فجاه والطِلْس : بالكسر الصحيفة وطَلسَ بالشئ علي وجهه يَطْلُس : جاء به وبصره ذهب وطُلِـــس به في السجن كـ (عني) رُمي به (٤)

١٢٦ -بُلغ - بضم الفاء وكسر العين -

بلغ المكان بُلوغا : وصل اليه أوشارف عليه .

وبُلِغ الرجل كـ (عُني) جُهِد . (٥)

١٢٧ -نُدِغ :

ندغه كـ (منعه) نخسه بأصبعه ولدغه وساءه ونُدغ الصبـــي

---

(١) القاموس (عضر) ١٠١/٢

(٢) القاموس (شَئَز) ١٧٧/٢

(٣) القاموس (ألس) ١٩٦/٢

(٤) القاموس طلـــس ٢٢٤/٢

(٥) القاموس (بلـــغ) ١٠٠/٣

كـ (عني) دغـدغ واندغ : ضحك خفياً ونادغه : غازله [١]

١٢٨ - رُعِـف :

رَعَف كـ (نصر) ومنع وكرم و (عُني) وسمع خرج من أنفه الدم رعفا ورُعا فا كغراب ، والرعاف الدم بعينه [٢]

١٢٩ - ثُبِـر :

يقال : قد ثُبِر لي وأُدِير لغتان [٣]

١٣٠ - غُمِـز :

يقال غُمِـز في حسبه [٤]

١٣١ - أُشِبّ

يقال: أُشِبّ لي الرجل إذا رفعت طرفك فرأيته [٥]

١٣٢ - أُرِق :

أُرِق الـزّرع : أصابه الارقات وكذلك جميع آفات النبات[٦]

١٣٣ - صُعِف

الصعف : طائر صغير وقد صُعِف كـ : (عني) فهو مصعوف[٧]

١٣٤ - أُرِكت :

الأُراك كـ (سحاب) القطعة من الأرض وأَرِكَت الابل كـ فرح ونصر و(عُني) : اشتكت من أكلة فهي آركة[٨]

---

(١) القاموس (نزغ) ١١٠/٣

(٢) القاموس رعف ١٤٠/٣

(٣،٤،٥،٦) المخصص لابن سيده ١٧٦/١٤، ١٧٧ .

(٧) القاموس (صعف) ١٥٧/٣

(٨) القاموس أرك ٢٨٣/٣

١٣٥ -نُهِـــك

نَهكَه كـ (منعه) نهاكهةً : غَلَبه والثوب لبسه حتي خُلـــق وكعني : تَنِفَ وضَنِيَ فهو منتهُوك ونَهِك الشراب كسمع أفنـــاه ونَهَكه الشُرب كـ (منع) أضناه (١)

١٣٦ -أُطِـم وأُتْتُطِم

الأُطْم بضمه وبضمتَين : القصْرُ وكل حصـين مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح .

أَطِم الرجل والبعير كـ (فرح) و (عُني) أَطْما بالفتح وأُطِـم عليه وأُتْتُطِم مبنيين للمفعول ، وتأطم تأجم وغضب والسيل أرتفعت امواجه فتكسر بعضها علي بعض والليل اشتدت ظلمته (٢)

١٣٧ -فُصِـم - بضم الفاء وكسر العين -

فَصَمه تفصْمه : كسره وفُصِم البيت كـ (عُني) انْهدم . (٣)

١٣٨ -هُـــدِم :

الهَدمَ : نقض البناء كالتهدم وكسر الظهر فعلهما : كــ (ضَربَ) وقد هُدِم ك (عُني) والهدمة : المطرة الخفيفة (٤)

١٣٩ -حُبِن - بضم الفاء وكسر العين .

الحَبَنُ : داء في البطن يعظم منه ويَرِم ، وقد حُبن كـ (عني)

---

(١) القاموس نهك ٣١٦/٣

(٢) القاموس أطم ٧٤/٤

(٣) القاموس (فصم) ١٥٧/٤

(٤) القاموس هدم ١٨٥/٤

وفرح حَبْنًا ويحرك وهو أمين وهـي حبناء : الضخمة البطن (١)

١٤٠ ـ رُعِـن : بضم الفاء وكسر العين

الأرْعنُ : الأهوج في منطقه والأحمق والمُسترخي وقد رُعِـن مثلثه رُعونه ورَعنَاً محركة وما أرعنه رَعَنتْه الشمس آلمت دماغـه فاسترخي لذلك وغشِي عليه (٢)

١٤١ ـ طُعِن :

طعنه بالرمحُ كـ (منعه) ونَصَره طَعْناً ضربه ووخره فهـو مطعون وطعين ، وكـ (عُنِي) : أصابه (٣)

١٤٢ ـ عُنِّنَ أُعنَّ

عَنَّ الشيْ يَعِنُ عَناً وعَنَنًا وعنونا : إذا ظهر امامك واعتـرض وعُنِنَ عن أمراته وأُعِنّ وعُنَّ بضمتين حكم القاضي عليه بذلـك أو منع عنها بالسحر (٤)

١٤٣ ـ كُمِن : بضم الفاء وكسر العين .

كَمَن له كـ : نصر . وسمع كموناً استخفي ، والكمُنُة بالضم : ظلمة في البصر أو جرب وحمرة فيه والفعل كـ (سمع) و (عُني) (٥)

---

(١) القاموس (حبن) ٢٠٨/٤

(٢) القاموس (رعن) ٢٢٤/٤

(٣) القاموس (طعن) ٢٤٠/٤

(٤) القاموس (عنّ) ٢٤٥/٤

(٥) القاموس كمن ٢٥٩/٤

١٤٤ - يُمِنَ : بضم الفاء وكسر العين

اليَمنُ : بالضم البركة كالميمنة ، يَمِن كـ (عَلم) وعُنِـــــيَ وجُعل وكرمُ فهو ميمون وأيمن ويامن ويمين

ويَمنَـه كـ (منعه) وعَلمه جاء عن يمينه (١)

١٤٥ - أُمِهَ - بضم الفاء وكسر العين -

أمِه كـ (فرح) نسيَ واعترف وكـ (نصر) عَهِد والأُميهة كـ (سفينة) جُدرِيُّ الغنم ·

وقد أُمِهَتْ كـ (عُنِي) وعلم أمْهاً وأميهَةً فهي أَمِيهَةٌ ومأموهة ومُؤَمَّهة ·

وأُمِهَ الرجلُ فهو مأموه : ليس معه عَقْل (٢)

١٤٦ - عُتِهَ : بضم الفاء وكسر العين

عُتِهَ كـ (عُنِي) عَتْهاً وعُتْهاً وعُتَاهاً بضمها · فهو معتوه : نقص عقله أو فقد أو دُهِش وفي العلم أولِعَ به وحرص عليه (٣)

١٤٧ - بُلِيَ : بضم الفاء وكسر العين ·

بَلِيَ الثوب كرَضِي يَبْلَى بِلًي وبلاءً وأبلاه هو وبَلاّه وفُلانٌ بِلْيُ اسفاره وبِلوها اي بلاه الهم والسفر والتجارب وقد بُلِيَتْ كـ (عُنِي) وابتلاه عذرا أدّاه اليه فقبله (٤)

---

(١) القاموس (يمن) ٢٧٤/٤

(٢) القاموس (أمه) ٢٧٥/٤

(٣) القاموس (عَتِهَ) ٢٨٢/٤

(٤) القاموس (بكي) ٢٩٩/٤

١٤٨ - رُجِــي - بضم الفاء وكسر الراء -

الرجاء : ضد اليأس ورَجيَ كـ (رضي) انقطع عن الكــلام ورُجيَ عليه (عني) : أُرتج عليه وارتجاه : خافة [(١)]

١٤٩ - نُهِــي : بضم الفاء وكسر العين .

نَهاه يَنهاه نهيا : ضد أمره فانتهي ونَهَي وانتهي ونُهــيَ وأُنهِي مضمومتين ، ونَهَي كـ (سعي) قليلة . [(٢)]

١٥٠ - أُشْــرِبَ :

أُشْرِب حب فلانة : أي خالط قلبه [(٣)]

ونلاحظ أن هذه الأفعال التي لم يسم فاعلها أن أغلبها يــدل علي الادواء والمرض والآفات التي لادخل للإنسان فيها ، والفاعــل فيها غالبا هو الله تعالي ولم يستعمل لأنه من المعلوم عادة فهــذه أفعال ليست من أفعال الآدميين ولهذه يعتبرها بعض اللغويــن مبنية للمجهول .

---

(١) القاموس المحيط (رجـي) ٣٢٦/٤

(٢) القاموس (نهي) ٢٩٠/٤

(٣) المخصص لابن سيده ١٧٧/١٤

الأفعال الملازمة للبناء للمجهول

١ جُن	١٩ بتل	٣٧ شئف
٢ عُني	٢٠ حم	٣٨ نزف وينزف
٣ زكم	٢١ فلج	٣٩ رعد ترعد
٤ ملي	٢٢ مقع ، امتقع	٤٠ أزهق، ازدهق
٥ شغف	٢٣ شهر	٤١ بُسر
٦ أولع به	٢٤ أهتر استهتر	٤٢ خُيف
٧ شغل	٢٥ نتج تنتج	٤٣ رفت
٨ شُعف	٢٦ زهي تزهي	٤٤ وثي
٩ أهرع	٢٧ وقص	٤٥ وكس
١٠ سل	٢٨ وقر	٤٦ غبن
١١ طل	٢٩ سقط	٤٧ وعك
١٢ عقم	٣٠ هشر يجشر	٤٨ كض
١٣ هزل	٣١ عذر	٤٩ رهص
١٤ دُهش	٣٢ قهر أقهر	٥٠ سفد
١٥ شده	٣٣ بهت	٥١ عهد
١٦ سده	٣٤ أفك	٥٢ فئد
١٧ فتن أفتن	٣٥ وجئ	٥٢ نكد
١٨ مني	٣٦ بهر	٥٤ رقص

٥٥ مشـــق	٧٥ أطلـــق	٩٥ نشـــغ
٥٦ وكـــم	٧٦ زئـــم	٩٦ انتســـف
٥٧ ألـــف	٧٧ زئـــد	٩٧ انتشـــف
٥٨ نخـــي	٧٨ سئـــف	٩٨ حنـــش
٥٩ غم ، اغمـي	٧٩ جئـــث	٩٩ شخـــص
٦٠ لقـــي	٨٠ ضبـــث	١٠٠ ضنـــك
٦١ قحـــط	٨١ ضئـــد	١٠١ استفـــع
٦٢ سلـــس	٨٢ أرض	١٠٢ انتقـــع
٦٣ وضـــع	٨٣ ذعـــر	١٠٣ عنـــس
٦٤ نكـــب	٨٤ قطع، أقطـع	١٠٤ نطـــع
٦٥ غشـــي	٨٥ عجـــر	١٠٥ اربح ارتتـــج
٦٦ أهل ، استهل	٨٦ ســـدع	١٠٦ رجـــد
٦٧ ثلج ، أثلج	٨٧ هقع، أهتقـع	١٠٧ حصـــر
٦٨ أســـر	٨٨ سعـــف	١٠٨ احتضـــر
٦٩ أغـــرب	٨٩ كظـــم	١٠٩ عـــرق
٧٠ نـــي	٩٠ كلـــب	١١٠ عـــرف
٧١ وُطـــم	٩١ رمع زمّـع	١١١ ثغـــر
٧٢ لبـــط	٩٢ نكـــس	١١٢ غري، أعـــري
٧٣ لبـــخ	٩٣ أوزع	١١٣ طلـــق
٧٤ ألبـــص	٩٤ نشـــع	١١٤ أجـــر

١١٥ ابتسر
١١٦ عُضِد
١١٧ وجد
١١٨ جُدر
١١٩ حفر
١٢٠ شتر
١٢١ عقر
١٢٢ اعتصر
١٢٣ شلز
١٢٤ ألس
١٢٥ خُشِر
١٢٦ بلغ
١٢٧ ندع
١٢٨ رعف
١٢٩ صعف
١٣٠ أرك
١٣١ ضنك
١٣٢ نهك
١٣٣ أطم
١٣٤ فصم
١٣٥ هدم
١٣٦ حبن
١٣٧ رعن
١٣٨ طعن
١٣٩ عتن ، أعن
١٤٠ كمن
١٤١ يمن
١٤٢ أبِهَ
١٤٣ عته
١٤٤ بلي
١٤٥ رجي
١٤٦ نهي
١٤٧ دير
١٤٨ غُمر
١٤٩ أُشبّ
١٥٠ أُشرِبَ

دكتور / محمد عبد النبي عبد المجيد

الأفعال الملازمة للبناء للمجهول

دراسة وتحليــــل

الأفعال الملازمة للبناء للمجهول بين اللغويين والنحويين

الماضـــي المضارع الأمـــر اسم المفعـــول

الأفعال اللازمـــة وزنهـــا

الأفعال المتعديه وزنهـــا

الأفعال المتعديه بنفسها وزنها

الأفعال المتعدية بواسطه حرف الجر وزنها

أ ـ المتعـدي بحرف الجر اليـــاء

ب ـ المتعـدي بحرف الجر (علي)

جـ ـ المتعدي بحرف الجر (عن)

د ـ المتعدي بحرف الجر (فـــي)

هـ ـ المتعدي بحرف الجر (اللام)

و ـ المتعدي بحرف الجر (من)

آراء اللغويين في التعجب والتفضيل منها

آراء النحاة في التعجب والتفضيل هنها

رأي الباحث في التعجب واسم التفضيل

من ألوان البلاغة فى كتاب الصاحبى

أحمد عبد الجواد محمد عكاشه

المجاز العقلي

يذكر بعض البلاغيين موضوع المجاز العقلي في أحوال الإسناد من علم المعاني، حيث إن المجاز العقلي يقع في النسب الإسنادية والنسب الإضافية وبالإسناد تحصل الفائدة ولازمها والأغراض الأخري من خبر وإنشاء .. وهذه كلها مما يحصل به المطابقة ، فكان من المناسب ذكره في علم المعاني من هذه الوجهة وضابطه عند إمام البلاغة في قوله (كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول فهي مجاز[1] وذلك مثل أنبت الربيع البقل : فقد أثبت الإنبات للربيع وذلك خارج عن موضعه من العقل لأن إثبات الفعل لغير القادر لا يصح في قضايا العقول ، إلا أن ذلك علي سبيل التأويل ، وعلي العرف الجاري بين الناس ، أن يجعلوا الشيء إذا كان سببا ، أو كالسبب في وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل ..

فلما أجري الله سبحانه وتعالي العادة وأنفذ القضية أن تورق الأشجار وتظهر الأنوار ، وتلبس الأرض ثوب شبابها في زمان الربيع صار يتوهم في ظاهر الأمر ومجري العادة كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلي الربيع فأسند الفعل إليه علي هذا التأويل

(١) أسرار البلاغة صـ ٣٠٠، ط الاستقامة تحقيق أحمد المراغي ..

والتنزيل ..

وسماه الإمام عبد القاهر مجاز عقليا [١] ومجازا حكميا .. ومجازا في الاثبات، وإسنادا مجازيا .. وعلل المتأخرون هذه التسميات المختلفة ، فقال ابن يعقوب (ومن الإسناد مطلقا مجاز عقلي [٢] لأن حصوله بالتصرف العقلي .. ويسمي مجازا حكميا لوقوعه في الحكم بالمسند إليه ويسمي أيضا مجازا في الاثبات لحصوله في إثبات أحد الطرفين للآخر) ..

ولهذه التسميات المتعددة من الإمام عبد القاهر بالغ بعض البلاغيين في إسناد المجاز العقلي للإمام عبد القاهر ، وأنه من ابتكاره يقول العلامة العلوي عقب تحليله لأمثلة المجاز العقلي ... حيث قال (اعلم أن ما ذكرناه في المجاز الاسنادي العقلي هو ما قرره الشيخ النحرير عبد القاهر [٣] الجرجاني واستخرجه بفكرته الصافية ، وتابعه علي ذلك الجهابذة من أهل هذه الصناعة ، كالزمخشري ، وابن الخطيب الرازي ، ولكننا لا نسلم بهذا القول كله .. بل نعد هذا مبالغة في هذا الاسناد ونرتضي إسناد التسمية إلي الإمام عبد القاهر وزيادة التحليل والكشف عن أسرار المجاز العقلي لأن موئل الدراسات القرآنية قد وقفت علي هذا التجوز والبلاغة في هذا الاسناد ... ويضيف السبكي أن يسمي [٤] هذا مجاز الملابسة).

ولا يقال مجاز إسناد ، لقلة استعمال الإسناد بين الفعل وفاعله ،

(١) أسرار البلاغة صـ ٤٣٢ دلائل الاعجاز صـ٢٢٩ ومابعدها دار المنار تحقيق رشيد رضا ..

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ صـ ٢٣١

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة : يحيي العلوي جـ٣ صـ٢٥٧ ـ ٢٥ ط المقتطف .....

(٤) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ١ صـ ٢٥٤

أو ما قام مقامه ، ولعل الذي دعاه إلي ذلك ، أنه وجد أن علاقة المجاز العقلي هي الملابسة) كما يفهم من كلام القزويني وإنه لابدّ منها في كل مجاز عقلي ، وإلي ذلك يوضح السيوطي في قوله .. (المجاز في التركيب ويسمي [١] مجاز الإسناد والمجاز العقلي .. وعلاقته الملابسة .. وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلي غير ما هو له أصالة لملابسته له)

وبعض البلاغيين ينظر إلي المجاز العقلي علي أنه طريق من طرق الدلالة المختلفة في الوضوح والتي تمنح الكلام ظلالا وتخييلا .. ، ومبالغات غالبا ما نطلبها في دراسة علم البيان .. فوق أنه يندرج تحت الدراسة البيانية من المجاز ويخضع لنفس القواعد من الحاجة لقرينة وعلاقة .. وما فيه من حاجة الإسناد إلي غير ما هو له .لهذا نجد العلامة أبا يعقوب السكاكي يدرجه تحت الاستعارة بالكناية [٢]

ومما تقربه عين الباحث ، حديث ابن فارس عن المجازالعقلي وإن كان لم يسمه بهذا الاسم لكنه أورده في نظام عجيب مستقصيا فيه الأساليب العربية حيث جعلنا ننظر إلي المتأخرين وكأنهم قد نقلوا من صاحبنا أمثلته ممحصين نظرهم في طرفي الاثبات من حيث الحقيقة والمجاز مستكملين الملابسات التي يقع فيها..) .. وها نحن نضع الروافد التي سجلها ابن فارس في هذا الباب حيث قال في :

---

(١) الاتقان جـ صـ للسيوطي ..
(٢) مفتاح العلوم صـ

إضافة الفعل إلي ما ليس فاعلا في الحقيقة :

قال ومن سنن العرب إضافة الفعل إلي ما ليس فاعلا في الحقيقة يقولون أراد الحائط أن يقع .. وفي كتاب الله عز وجل (١)(جداراً يريد أن ينقضى) ..

وهو في شعر العرب كثير قال الشماخ (٢)

أقامت علي رَبْعَيْهما جارتا صفا ... كُمَيْتَا الأعَالِي جَونتاَ مُصطَلاَهُمَا

فجعل الأثا في مُقيمة ..

---

(١) من سورة الكهف رقم / ٧٧ - الصباحي صـ ٣٤٦

(٢) البيت من قصيدة بمدح يزيد بن مربع الأنصاري .. وقبل البيت ديوان الشماخ صـ ٣٠٠ ط المعارف ..

أمِن دمنتين عرج الركب فيهما ... بحقل الرخامي قد أني لبلاهُمَا

الدمنة : الموضع الذي أثر فيه بنزولهم واقامتهم فيه ... والتعرج أن يعطفوا رواحلهم في الموضع ويقفوا فيه .. الحقل : المزرعة التي ليس عليها بناء ولا شجر .. والرخامي : هو شجر مثل الضال وهو السدر البري قد حان بلاهما - والربع : الدار والمنزل والضمير راجع للدمنين .. جارتا : فاعل اقامت : الصفا : الحجر الأملس وجارتا صفا : الأثفيتان لأنهما مقطوعتان من الصفا .. كميتا الأعالي : معناه أن أعلا كل من الأثنبتين في لونه كمنه: وهي لون بين الحمرة والسواد .. وجونتا مصطلاهما : الجون يطلق علي الأبيض والأسود والمراد هنا الأسود .. ومصطلاهما: موضع الوقود منهما ....

وقال الشماخ :

وأشعَث وَرّاد العِداد كأنـــه ... إذا انشق في جوز الغلاة فليق(١)

يصف طريقا يرد ماء وهو لا ورد له ..

ومنه قوله :

كأني كسوتُ الرحل أحقب سَهوقا ... أطاع له من رامتين حديق(٢)

فجعل الحديق مطيعا لهذا الحمار لما تمكن من رعية ، والحديـــق لا طاعة ولا معصية له ..

ونقف وقفة متأنية مع عالمنا ابن فارس في دوره في هذا الباب .. قائلين إن هذا الباب كان مطروقـا عند سيبوية وعند الفراء.. تناول سيبويـة ذلك حيث قال (صيد عليه يومان .. والمعني صيـد عليه الوحش في يومين .. ولكنه اتسع واختصر) ..

ومن كلامهم : بنو فلان بطؤهم الطريق (٣)، يريد يطؤهم أهـــل الطريق وقالوا : صِدنا قَنَوَين .. وإنما يريد صدنا بقنوين .. أوصدنا وحش قنوين .. وإنمـا قنوان اسم أرضي ، ومثله قوله تعالي:(بـل مكر الليل والنهار) (٤) وإنما المعني بل مكركم في الليل والنهار هذه أُصول بثها سيبوية في كتابه علي السعة والاتساع ...

ثم نعرج علي الدراسات القرآنية نجد أبا عبيدة يقول في قولـه تعالي :

(١) أشعث : أغبر .. الفليق : باطن عنق البعير في موضع الحلقوم جوز الفلاة وسطها ..
(٢) الأحقب : الحمار الذي في بطنه بياض ـ السهوق هنا الطويـل الساقين ـ اطاع له : اتسع له وأمكنه الرعي .. رامة : منزل مبينة وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلي مكة ـ الحديـــق الارض المعشبة ..
(٣) الكتاب لسيبوية جـ١ صـ٩٩ ط الهيئة العامة ..
(٤) من سورة سبأ رقم / ٣٣

(اشتدت بهالريحُ في يوم عاصف) (١) يقال قد عصف يومُنا .. وذلك إذا اشتدت الريح فيه ، والعرب تفعل ذلك إذا كان في ظـــرف صفة لغيره وجعلوا الصفة له أيضا كقول جرير :

لقد لميتنا يا أم غيلان في السُّرَي = ونمت وما ليل المطي بنائـــــم

ويقال يوم ماطـر ، وليلة ماطرة ، وإنما المطر فيه وفيها ...

ويقول في قوله تعالي : (فَوَجَدا فيها جدارا يريد أُن ينقض)(٢) ليس للحائـط إرادة ولا للموات ، ولكنه إذا كان في هـذه الحـال من ربّة فهـو إرادته - وهذا قول العرب في غيره قال الحارثي :

يريدُ الرمحُ صدَر بني بـــــراء = ويرغبُ عن دماء بني عقيـــــل

والذي نشاهده ، نجـد الكشف والتوضيح ، وأن الإسناد فيه ، تجـوز وأن التجوز بين الفاعل الحقيقي ، والمجازي لعلاقـة الملابسة تعلقـه بالفعل من حيث الموقوع عليه ..

نري هذا التحليل عند الفراء في معاني القرآن حيث يقول فـــي قوله تعالي (في يوم عاصف)جعل العصوف تابعا لليوم في إعرابه وإنما العصوف للريح وذلك جائز فجاز أن نقول يوم عاصف كما تقول يوم بارد .. ويوم حار (٣)

ومرة ثانية يقول في قوله تعالي (جدارا يريد أن ينقض) يقول ذلك من كلام العرب أن يقولوا الجدار (٤) يريد أن يسقـط

(١) بعضن آية من سورة ابراهيم رقم / ١٨ مجاز القرآن جـ١ صـ٣٣٩ ط الخانجي..
(٢) بعضن آية من سورة الكهف رقم / ٧٧ مجاز القرآن جـ١ صـ٤١
(٣) معاني القرآن للفراء تجـ ٢ صـ ٧٣ تحقيق محمد علي النجار
(٤) معاني القرآن للفراء جـ ٢ صـ ١٥٦

ومثله قول الله تعالي : (ولمّا سكت عن موسي الغضب) (١) والغضب لايسكت وإنما يسكت صاحبه .. وإنما معناه سكن .. والتجوز في إسناد السكوت إلي الغضب فالغضب فاعل مجازي والفاعل الحقيقي هو الإنسان .. ..

وعندما نضع ابن فارس في مقام الموازنة نجد مرتبته في مقام الجمع والتنظيم ولم يكن في مرتبة التحليل والتذوق ، ففي قوله تعالي (جدارا يريد أن ينقَضّ) تحمِل أسرارا ولطائف عدة ، ننظر إليها من جانب المجاز العقلي فيها ، وهو جعل الحائط فاعلا للإرادة والفاعل الحقيقي هو الصاحب ، وفي مقام المجاز اللغوي ، نجد فيها مجازا مرسلا ، حيث عبّر عن المقاربة بالإرادة لأن الإرادة ، سبب ......

كذلك نجد فيها استعارة ، حيث استعيرت الإرادة للمشارفة أي قربة من الوقوع ، شبه قرب السقوط بالإرادة لما فيهما من الميل ، وتحتمل أن تكون الاستعارة مكنية تخييلية ، حيث شبه الحائط بإنسان وأني بلازمة وهي الإرادة ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ..

هذه لطائف بلاغية تجمعت في نظم الآية كستك جمالا وتذوقا وبلاغة ، وفي تمثيله بأبيات الشماخ ففي البيت الأول (٢) الذي يرسل فيه الدمعة الساخنة والحزن المعقي الباعث عليه رؤية آثار أحبته ، وأنه لم يبق فيها غير الأثافي ، وأن الأثفتين المجاورتين

---

(١) من سورة الاعراف رقم ١٥٤/ .. معاني القرآن للفراء جـ٢ صـ١٥٦

(٢) ديوان الشماخ صـ ٣٠٨ .. تحقيق صلاح الهادي

للصفا ، وهو الصخر الأملس وأن أعلاهما يشوبه لون الحمرة المائلة الي السواد ، فهي علي لون الجبل وأن أسافل الأثافي ، قد اسودت من إيقاد النار بينهما ... فالإنساد الذي حصل وهو جعل الأثافي فاعلا للإقامة مجاز عقلي ....

وفي البيت الثاني : وأشعث وراد العداد ..... (١)

حيث أسند الورود إلي الطريق وهو لا ورد له وإنما يكون الورود فيه حيث وصف الطريق بأنه أغبر يرد الماء الدائم فيه الذي لاينقطع مثل ماء العين وماء البئر فيشبهه بالفليق وهو باطن عنق البعير في موضع الحلقوم ووجه الشبه الغبرة فإن ذلك الموضع من البعير يكون بلون الغبرة ـ والتجوز في إسناد الورود إلي الطريق ، واشق الطريق مفعمة ..

وفي البيت الثالث : (كأني كسوت الرحل ..... (٢)

حيث يعبر عن كسوته الرحل لحمار في بطنه بياض طويل الساقين وانقادت له الأرض المعشبة .. ذات المرعي ..

فالإسناد هنا : في جعل الحديق ، مطيعا لهذا البعير لما تمكن من رعيه ، والحديق لا طاعة له ولا معصية .....

وإذا كان ابن فارس لم يفصل القول في العلاقة والقرينة .. فإن الفراء في معاني القرآن ، حلل المجاز والقرينة .. في قوله تعالي (فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهم) (٣) يقول كيف تربح التجارة ؟ وإنما

(١) ديوان الشماخ صـ ٢٤٣
(٢) ديوان الشماخ صـ ٢٤٥
(٣) من سورة البقرة رقم ١٦ معاني القرآن جـ١ صـ ١ تحقيق النجار

يربح التاجر .. وذلك من كلام العرب ، رَبحُ بيعك وخسر بيعك فحسن القول بذلك لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة فعلم معناه ، ومثله من كتاب الله ... (فإذا عزم الأمر [١]) وإنما العزيمة للرجال .. ولا يجوز الضمير إلاّ في مثل هذا .. فلوقال قد خسر عبدك .. لم يجز ذلك .. إن كنت تريد أن تجعل العبد تجارة يربح فيه أو يوُضع .. لأنه قد يكون العبد تاجرا فيربح أو يوُضع .. فلا يعلم معناه إذا ربح هو من معناه إذا كان متجوزا فيه فلو قال قائل : قدربحت دراهمك ودنانيرك .. وخسر بزك ورقيتك كان جائزا لدلالة بعضه علي بعض فالفراء يكشف الصورة واضحة ويبرز الدليل منيرا ويوازن بين الفاعل الحقيقي وهو التاجر والفاعل المجازي وهي التجارة ، وأن الإسناد المتجوز فيه لابد من قرينة فإذا لم تكن قرينة في التجوز لا يصح المجاز الفعلي ..

وهذا ما ينفيه في قوله .. خسر عبدك ، وأنت تريد التجوز لأن العبد قد يكون فاعلا حقيقيا فلا يصح أن يكون فاعلا مجازيا وهو سلعة تشتري .. كذلك لابد أن تكون هنا لحمة نسب بقوله لدلالة بعضه علي بعض ..

باب المفعول يأتي بلفظ الفاعل :

يقول ابن فارس : تقول سر كاتم أي مكتوم .. وفي كتاب الله جل ثناؤه (لا عاصم اليوم من أمر الله) [٢] أي لا معصوم ومنه

(١) من سورة محمد رقم / ٢١ (٢) من سورة هود رقم / ٤٣

(من ماء دافق) [١] فهو في عيشة راضية [٢] أي مرضي بها ·ومنه جعلنا حرما آمنا [٣] أي مأمونا ······

ولا أري جديدا لابن فارس في هذا لأن الفراء قال في قوله تعالي : (لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم) ويجوز رفع من رحم علي جعل عاصم بمعني معصوم كأنك قلت لا معصوم اليوم من أمر الله ولا تفكرن أن يخرج المفعول علي فاعل ألا تري قوله (من ماء دافق) فمعناه والله أعلم مدفوق وقوله (في عيشة راضية) معناها مرضية [٤]

وقال الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ··· واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسِ

معناه : المكسو : نستدل علي ذلك انك تقول ·· رضيت هذه العيشة ولا تقول رضيت ودفِقَ الماءُ ولا تقول دفَقَ ····

وهذا ما سجله أبو عبيدة في مجاز القرآن حيث قال عقب قوله تعالي (هُو الذِّي جَعَل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصِراً) [٥] له مجازان أحدهما : أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل والمعني أنه مفعول لأنه ظرف يفعل فيه غيره ·· لأن النهار لا يبصر ولكنه يُبصُر فيه الذي ينظر ·· وفي القرآن (في عيشة راضية) وإنما يرضي بها الذي يعيش فيها ·· والعرب تفعل ذلك

(١) من سورة الطارق / ٦ (٢) من سورة الحاقة / ٢١

(٣) من سورة العنكبوت رقم / ٦٧ الصاحبي صـ ٣٦٦

(٤) معاني القرآن للفراء جـ٢ صـ ١٦

(٥) مجاز القرآن جـ١ صـ ٢٧٩ بعض آية من سورة يونس رقم/ ٦٧

إذا كان من السبب في شيء يقال : [1] نام ليلهُ وإنما ينام هو

الفاعل يأتي بلفظ المفعول به :

قال ابن فارس : وزعم ناس أن الفاعل يأتي بلفظ المفعول به ويذكرون قوله جل ثناؤه ... (إنه كان وعده مأتيا) [2] أي آتيا

وقال ابن السكيت ومنه عيش مغبون - يريد أنه غابن غير صاحبها ومن ذلك وصفهم مفعولا بمعني فاعل .. ومثل ذلك (حجابا مستورا [3] أي ساترا وقيل مستورا عن العيون كأنه أخذه لا يحس بها أحد ..

ونجد الفراء في الآية الأولي التي هي من سورة مريم يوضح علة الجواز في هذا التعبير بقوله : ولم يقل آتيا وكل ما أتاك فأنت تأتيه ألا تري أنك تقول أتيت علي خمسين سنة وأتت علي خمسين سنة وكل ذلك صواب [4]

فالوعد هو الجنة والجنة لن تأتي ولكن أصحابها يأتونها أو هو من قولك أتي إليه إحسانا أي كان وعده مفعولا منجزا [5]

وصف الشيء بما يقع فيه :

قال ابن فارس : ومن سنن العرب [6] وصف الشيء بما يقع فيه

(١) مجاز القرآن جـ٢ ص ٢٦
(٢) من سورة مريم رقم / ٦١ الصاحبي صـ ٢٦٧
(٣) من سورة الإسراء / ٤٥ الصاحبي صـ ٢٩٦
(٤) معاني القرآن جـ ٢ صـ ١٧٠
(٥) الكشاف جـ ٢ صـ ١١ (٦) الصاحبي لابن فارس صـ ٣٦

أو يكون منه كقولهم يوم عاصف .. المعني عاصف الريح قال جل ثناوءه (في يوم عاصف) [١] فقيل عاصف لأن عصوف ريحه يكون فيه ..

ولقد تحدث الفراء في هذه الآية فقال معقبا بعد قوله تعالي: (في يوم عاصف) فجعل العصوف تابعا لليوم في إعرابه وإنما العصوف للريح وذلك جائز علي جهتين : أحدهما أن العصوف وإن كان ، للريح فإن اليوم يوصف فيه .. لأن الريح فيه تكون فجاز أن تقول يوم عاصف كما تقول يوم بارد ويوم حار [٢] وهذا الوصف عاد علي اليوم والأصل أن يعود إلي الريح لكنهم تجوزوا لأن العصف يكون في اليوم وهذا هو المجاز الفعلي .. ..

كذلك يري الفراء أن يقول أن يريد في يوم عاصف الريح فتحذف الريح لأنها قد ذكرت في أول الكلمة وهي في قوله اشتدت به الريح ......

ويمثل ابن فارس ، بقول أوس بن حجر :

خُذلت علي ليلة ساهرة = بصحراء شرج إلي ناظرة

وكانت ناقة أوس حالت به بين مكانين يقال لأحدهما شرج وللآخر ناظرة فسقط فانكسرت فخذه ..... وفي البيت وصف الليل بأنها ساهرة والساهرة الصاحب ..

(١) من سورة ابراهيم رقم /١٨
(٢) معاني القرآن جـ ٢ صـ ٧٣

كذلك يمثل ابن فارس بقول ابن براق

تقول سُلَيميَ لا تَعرّضن لِقلقةٍ = ولعلك من ليل الصعاليك نائم

ويقولون لايرقد وساده .. وإنما يريدون متوسط الوساد ..

ونحن نلاحظ أنه يذكر أمثلة إسناد الشيء إلي زمانه أو مكانه ولا يذكر ابن فارس سرا بلاغيا ....

في باب إضافة الشيء إلي ما ليس له ، لكن أضيف إليه لاتصاله به

قال ابن فارس وذلك قوله : سَرجُ الفرسِ وثمرة الشجرة وغنم الراعي .. قال الشاعر [١]

حُرٌ وَيُحدهن يحد وهن قصدا = كما يحدو قلائصَه الأجيرُ

فالإضافة هنا ليست له فأضاف السرج إلي الفرس .. والثمرة الي الشجرة والغنم إلي الراعي والقلائص إلي الأجير ..

ومثله باب إضافة الفعل إلي من وقع به ذلك الفعل [٢]

قال ابن فارس ومن سنن العرب إضافة الفعل الفعل إلي من يقع به ذلك الفعل يقولون ضربت زيدا ، وأعطيته بعد ضربه كذا فينسب إلي زيد وهو واقع به [٣] فالجل تناوه : (ألم غلبت الروم في أدني الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) [٣] فأضاف الغلب إليهم وإنما كان كذا .. لأن الغلب وإن كان لغيرهم إلاّ أنه متصل بهم لوقوعه بهم ... فالتجوز واقع في إضافة المصدر وهو الغلب إلي

(١) في رواية الديوان للشماخ فظل بهن يحدوهن قصدا .... القلائص جمع قلوصي .. وهي من الإبل الشابة أو الباقية علي السير أو أول ما يركب من إناثها إلي أن تنني والناقة الطويلة القوام ـ راجع ديوان الشماخ صـ ١٥٥ ... مادة قلص القاموس الصاحبي صـ ٧٠

(٢) الصاحبي صـ ٤١ (٣) من سورة الروم ١ ـ ٣

المفعول ، وهو الضمير راجع علي أهل الروم ....

ومثله قوله تعالي (وآتي المال علي حبّه) [١] (ويطعمون الطعام علي حبّه) [٢] فالحب في الظاهر مضاف إلي الطعام والمال .. وهو في الحقيقة لصاحب الطعام وصاحب المال ..

ومثله قوله تعالي : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) [٣] (وذلك لمن خاف مقامي) [٤] أي مقامة بين يديّ

ومثله قول طرفة

وَبَرْك هجود قد أثارت مخافتي [٥] : نواديه أمشي بعضب مُجَرّد

فأضاف المخافة إلي نفسه وإنما المخافة للبَرك وهي جماعة الإبل الهجود النائمة ونوادي الإبل : أوائلها وما سبق منها والعضب السيف القاطع والمجرد المسلول من غمده ..

وهذه الأمثلة يمكن أن تعد مجازا عقليا في النسب الإضافية والقرينة علي ذلك عدم ورودها علي معالي حروف الإضافة ..

---

(١) من سورة البقرة / ١٧٧

(٢) من سورة الانسان رقم / ٨

(٣) من سورة الرحمن / ٤٦ (٤) من سورة ابراهيم / ١٤

(٥) شرح المعلقات صـ ١٠ ـ تحقيق الشنقيطي ـ دار القلم ..

(صور من خلاف مقتضي الظاهر في الاسم الظاهر)

من سمات العربية التفنن في صياغة أساليبها ، فأحيانا يطابق الأسلوب ظاهر الحال ، فتنتظم الكلمات عقدا تؤدي معانيها علي ما وصغت عليها فيفهم عنها السامع أو القاريء حينئذ ، دون حاجة إلي مساءلة ، ولا اضطرار إلي تلبث أو مراجعة ، إلاّ عند المستغلق من غريب ....

وتارة تأخذ العربية ما يخالف ظاهر الحال لاعبثا [(١)] من عابث ولا اجتراء من مستهتر وإلا سلبت الأساليب خصائصها الفنية ، وصارت مسخا شائها لا قيمة له ولا وزن في سوق الفصاحة ، ولكنها تميل إلي هذا التعبير قصدا إلي إشارة لطيفة أو لمحة دقيقة ، مُعرضة عن المطابقة التي تفرضها قوانين العربية في التعبير ، ، هذا الخلاف ، يختفي الدر ، وإليه يكون القصد حين التأمل فيه للنفاذ إلي مرماه ...

وفي العربية صور من خلاف مقتضي الظاهر في الأسماء الظاهرة والأسماء المضمرة تحت هذه الألوان ، تحدث صاحبنا ابن فارس ، فوضع عناوين في الأسماء الظاهرة منها :

باب الواحد يراد به الجمع

قال ابن فارس : ومن سنن العرب ذكر الواحد [(٢)] والمراد الجمع

(١) انظر مع القرآن الكريم صـ١٠٠ علي النجدي
(٢) الصاحبي صـ ٢٤

كقوله للجماعة : ضيف ، وعدو قال الله جل ثناؤه (إنّ هؤلاء ضيفي) (١) وقال (ثم يخرجكم طفلا) (٢) وقال (لا نُفرّقُ بين أحد منهم) (٣) ..... والتفريق لا يكون الإبين اثنين ؛ ويقولون قد كثر الدرهم والدينارُ .. ويقولون : فقلنا : أسلموا إنّا أخوكم) .. ويقولون : كُلُوا في نصف بطنكم تعيشوا .. وقوله تعالي : (يا أيها الانسان إنك كادح) (٤) ، (ويا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم) (٥)

وتحت باب آخر :

قال ابن فارس : العرب تصف الجميع بصفة الواحد كقوله جل ثناؤه : وإن كنتم جُنبا) (٦) وهم جماعة وكذلك قوله جل ثناؤه (والملائكةُ بعد ذلك ظهير) (٧) .. ويقولون قوم عدل .. ورضي قال زهير :ـ

وإن يَشتَجِر قوم يَقُلْ سَرَوَاتُهم = هم بيننا فهم رضي وهم عدل

هذا الباب الذي سرده ابن فارس كان صورة صادقة لما سجله ابن قتيبة (٨) ولكننا نريد أن نقول إن هذا الأمر كان مبثوثا في كتب السابقين أمثال سيبوية (٩) وأبي عبيدة (١٠) والفراء في معاني القرآن ، وإن كانت فاتتهم النظرة إلي الوقوف علي السر البلاغي

(١) من سورة الحجرة / ٦ (٢) من سورة غافر / ٦٧
(٣) من سورة البقرة ١٣٦ (٤) من سورة الانشقاق رقم/ ٦
(٥) من سورة الانفطار رقم٧ (٥) من سورة المائدة / ٦
(٦) من سورة التحريم /٤ (٧)
( ) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة صـ ٤ ٢
(٩) الكتاب لسيبوية جـ ١ صـ ٢٠٣ ، ٢٠٩ ـ ٢١٠
(١٠) مجاز القرآن جـ ١ صـ ٩ ط الخانجي ......

في تحويل التعبير من أسلوب إلي آخر ووضع المفرد مكان الجمع إلا ما كان من سيبويه الذي عزاه إلي التخفيف والإختصار ..

يقول سيبويه في كتابه : في باب الصفة المشبهة بالفاعل فيما عملت فيه .. قال فإن أضفت فقلت هذا أول رجل (١) اجتمع فيه لزوم الفكرة وأن يلفظ بواحد وهو يريد الجمع ، وذلك لأنه أراد أن يقول : أول الرجال فحذف استخفافا واختصارا .. كما قالوا : كل رجل : يريدون كل الرجال .. فكما استخففوا بحذف الألف واللام استخففوا بترك بناء الجميع واستغنوا عن الألف واللام .. وعن قولهم : خير الرجال وأول الرجال ...

ومرة أخري يقول : وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحدا والمعني جميع حتي قال بعضهم في الشعر من ذلك مالا يستعمل في الكلام وقال علقمة :

بها جِيفُ الحَسْرَي فأما عظامها = فبيض وأما جلدها فصليبُ

يصف الشاعر أرضا فلاة قطعها إلي الممدوح بأنها مملوءة بالجيف التي تركها أصحابها فماتت وأكلت السباع والطير ما عليه من لحم فابيضت عظامها ، وأن جلدها يابس لم يدبغ .. وعبر هنا بلفظ المفرد وهو الجلد وأراد الجلود ..

ويقول سيبويه : ومثل ذلك في الكلام قوله تعالي : (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا) وقررنا به عينا) وإن شئت قلت أعينا وأنفسا (٢)..

(١) الكتاب لسيبويه جـ ١ صـ ٢٠٢

ويوضح الفراء [1] معني الآية القرآنية بقوله : وذلك أن المعني والله اعلم فإن طابت أنفسهن لكم عن شيء) فنقل الفعل من الأنفس إليهن .. فخرجت النفس مفسرة ، كما قالوا : أنت حسن وجها .. والفعل في الأصل للوجه ، فلما حول إلي صاحب الوجه خرج الوجه مفسرا لموقع الفعل ولذلك وجد النفس ولو جمعت لكان صوابا ومثله ضاق به ذراعي ثم تحول الفعل من الزراع إليك فتقول قررت به عينا .. قال الله تبارك وتعالي : (فكلي واشربي وقري عينا) [2]
وقال (سيء بهم وطاق بهم ذرعا) [3]

ومرة أخري يكرر الفراء هذا القول عند ذكر القراءة في قول الله عز وجل (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) [4]
يقول الفراء .... وقرأها مجاهد وعطاء بن أبي رباح مسجد الله وربما ذهبت العرب بالواحد الي الجمع وبالجمع إلي الواحد ألاتري الرجل علي البرذون فنقول : قد أخذت في ركوب البراذين ، وتري الرجل كثير الدراهم فتقول : إنه لكثير الدرهم فأدي الجماع عن الواحد والواحد عن الجمع وكذلك قول العرب : عليه اخلاق نعلين واخلاق ثوب .....

ونحن نجد هذا الأمر في مجاز القرآن حيث ينبئ أبو عبيده عند قوله تعالي : (إن هؤلاء ضيفي) (٥) اللفظ لفظ الواحد والمعني علي الجميع ويكرر هذا اللون عند قوله تعالي : (ثم يخرجكم طفلاً (٦) مجازة انه في موضع اطفال والعرب تضع لفظ الواحد

(١) معاني القرآن جـ١ صـ٢٥٦ (١) من سورة مريم رقم / ٢٦
(٢) من سورة هود رقم / ٧٧ (٤) من سورة التوبة رقم/ ١٧ ـ معاني القرآن جـ ١ صـ ٤٢٦ ط الهيئة العامة للكتاب .
(٥) مجاز القرآن جـ ١ صـ ٣٥٢ الخانجي الآية من سورة الحجر رقم٦٧
(٦) من سورة الحج بعض آية رقم / ٥

في معني الجميع ـ قال : (في حلقكم عظم وقد شجينا) وفي آية أخري : (والملائكة بعد ذلك ظهير) (١) أي ظهراء

وصاحبنا ابن فارس كان في مقام سرد الأمثلة تحت هذا العنوان ولم يتقدم خطوة في الكشف وراء هذه الأسرار البلاغية والبواعث الجملية في ذلك النظم القرآني والشواهد العربية ...... يتبعه إلي هذا الأمر ابن جني حيث نظر إلي هذا النوع نظرة استجلاء لدقائق وابراز لمحاسنه يقول عند قول الله عز وجل (تدمر كلّ شيءٍ بأمر ربها فأصبحوا لا يُري إلا مَساكنُهم) (٢) ويبين أن هناك قراءة مسكنهم وحسن أيضا أن يريد بمسكنهم هنا الجماعة وإن كان قد جاء بلفظ الواحد وذلك أنه موضع تقليل لهم ..وذكر العفاء عليهم .. فلاق بالموضع ذكر الواحد لقلته عن الجماعة ..

فهنا يكشف ابن جني عن السر في قراءة الواحد مكان الجمع وأن الغرض هنا التقليل من هذا : .تكن والإهانة به حيث يكون في الواحد عن الجماعة ..

ثم يقول في قوله تعالي : (ثم تخرجكم طفلا) (٣) أي أطفالا ، وحسن لفظ الواحد ، هنا لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان وتحقير لأمره ، فلاق به ذكر الواحد لذلك لقلته عن الجماعة ولأن معناه أيضا نخرج كل واحد منكم طفلا ..

وهذه لفتة طيبة من العلامة ابن جني في الكشف عن هذا السر

(١) من سورة التحريم رقم/٤ مجاز القرآن جـ ٢ صـ ٤٤ ـ ٤٥
(٢) من سورة الاحقاف آية رقم / ٢٥ المحتسب لابن جني جـ ٢ صـ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ ط المجلس الأعلي
(٣) .. سورة الحج رقم / ٥

البلاغي ومقامات القرآن أكثر من أن تحصي وتتنوع أُسراره ، وهـا نحن نضع أيدينا علي هذه الكلمة في القرآن الكريم نجدها ذكـرت ثلاث مرات بلفظ الواحد مرادا به الجمع ومرة واحدة بلفظ الجمـع مطابقا للمراد به يذكر القرآن كلمة طفل ومرتين في مقام الخلـق وتكوين الجنين : في قوله تعالي (لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلي أجل مسمي ثم نخرجكم طفلا) (١) وفي قوله تعالي : (هو الـذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا) (٢)

فالآيتان تتحدثان عن الأطفال في أول عهدهم بالحياة حين يتنسمون هواءها ، وإن كان الأطفال كثرة متكاثرة ولكنهم فرد واحد حقيقـة ومعني ، مهما تعددت أشخاصهم واختلفت صورهم وألوانهم وتبايـن آباؤهم وأمهاتهم لأنهم يتوحدون في سر الوجود . وكلمة الخلق وهـم خلقوا جميعا علي الفطرة أما ما سوي ذلك من أحوالهم وأسبـاب معاشهم فوسائل وأسباب لاطراد الحياة وتتابع الأجيال . إلي أن يبلغ الكتاب أجله فالطفل بلفظ الافراد أحق بهذا المقام وأصلح له لأنـه يوحي بافراده ما لا يوحي بجمعه وينبه إلي مالا ينبه الجمع إليه، لأن المفرد يراد به الجنس (٣) والواحد أكثر من الجمع . لأن الجنسيـة قائمة في وحدات الجنس كلها ولم يخرج منه شيء فأما الجمع فـلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع (٤) .

وفي سورة النور في قوله تعالي : (وقل للمؤمنات يغضضن مـن أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن علي جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن

(١) من سورة الحج رقم / ٥ (٢) من سورة غافر رقم / ٦٧
(٣) الكشاف ج ٢ صـ ٥٧ ، صـ ٩١ ط
(٤) الكشاف جـ ١ صـ ١٣١

أو أبنائهن (١) أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا علي عورات النساء)

وفي هذه الآية نلحظ أن الآية تكشف عن الذين يباح للنساء أن يبدين زينتهن لهم وأنهم ذكروا جميعا بلفظ الجمع ولكن الأطفال ذكروا وحدهم بلفظ المفرد وهذا هو السر في مخالفة ظاهر الأسلوب فالاطفال هنا في الآيتين السابقتين المراد منهم الجنس . فالاطفال هنا في هذه الآية وإن كانوا قد بعدوا عن عهد الولادة خطوات وقضوا من عمرهم سنوات لكنهم في قضية إبداء الزينة سواء فهم لا يزالون علي سنن الفطرة من الطهر والبراءة فهم كوصفهم من غير أولي الأربة الذين لم يظهروا علي عورات النساء لا يعرفون العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها من الأعضاء .

لذلك كانت شرعة البيان والاعجاز أن لا يذكروا مع من ذكروا معهم بلفظ الجمع مثلهم لأنهم ليسوا منهم ولا علي شاكلتهم في الحكم الذي جمع بينهم . فلهم شأن غير الشأن وفيهم مزية يتفردون بها فليذكروا وحدهم بلفظ الواحد خاصة تنبيها علي ما تحيزوا به اشارة إليه وغناء بإشباع اللفظ في إفراده عن بيان أمره بالألفاظ والعبارات

ولكن إذا بلغ الأطفال الحلم فقد ارتحلوا من طور الطفولة الخالصة إلي طور النضج والتكليف والنزول علي حكم الشارع في شئون العبادة

(١) من سورة النور رقم / ٣١
(٢) انظر القرآن الكريم - علي النجدي ناصف صـ ١١١ دار المعارف

وأحوال السلوك لقد أخذت شخصياتهم تتنوع ، وخصائص نفوسهم تتميز ، واستحقوا إذا ذكروا في أداء منسك أو ملابسة شعيرة أن يذكروا بلفظ الجمع ، ويعاملون معاملة الرجال في التكليف وفي الإسناد والخطاب لأنهم قد بعدوا من الفطرة ، وفقدوا وحدتها وسمتها ، وهي الوحدة التي تجعل من جمعهم فردا كما كانوا في حداثة العهد بالولادة والخروج من ظلام البطون ..

ويعبر القرآن عنهم في هذا النحو في قوله عز من قائل :
(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما أستأذن الذين من قبلهم) (١)

ضلت هذه الأسرار وغابت في كتاب ابن فارس ولن يخبر إلا بالنقط فوق الحروف لكن ابن جني قد وظف هذه الأسرار ووازن بين القراءات وكشف السر البلاغي في القراءة الفاضلة ها نحن نعطف عليه عند قوله تعالي : (يا أيتها النفس المطمئنة أرجعي إلي ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) (٢) .

وقراءة ابن عباس (فادخلي في عبدي) لا عبادي . فيكون الواحد قد وضع موضع الجمع ويعلل إبن جني لهذا بأن التعبير بالواحد هنا ليس اتساعا ولا إختصارا عاريا من المعني وذلك أن جعل عبادة كالواحد أي لا خلاف بينهم في عبوديته كما لا يخالف الانسان نفسه فيصير كقول النبي عليه السلام . وهم يد علي من سواهم . أي متضافرون لا يقعد بعضهم عن بعض كما لا يخون بعض اليد بعضا . فابن جني

(١) من سورة النور رقم / ٥٩
(٢) من سورة التحريم ٢٧ - ٣٠

قد فهم من وضع الواحد موضع الجمع معني الوحدة والتلاؤم والانسجام التام ولم يقف علي أنه لون من الاتساع ·

وكان التفوخي أسعد حظا (١) في تفتيشه عن الأسرار البلاغية في وضع المفرد موضع الجمع ·· إذ يقول في قوله ذي الرّمة

وميّة أجمل الثقلين جيدا = وسالفة وأحسنه قذالا

والسالفة أعلي العنق وقيل ناحية مقدم العنق من لون معلق القرط والقذال : مؤخر الرأس فوق القفا · وأفرد الضمير في أحسنه · ولو قال الشاعر أحسنهم لاحتمل أن يريد حسنهم ولا تكون أفعل تفضيل ولا يجب تفضيلها علي فرد فأفرد الضمير لدفع هذا الاحتمال لأن المقام مقام غزل وتشبيب، والشاعر في سجيته يدرك جمال العالمين ، وقد اجتمع كل شيء فيها للحسن قد حوي حتي جيدها الذي تراءي له أنه أفضل من كل جيد فلم يكن هناك جيد أجمل منه ·· ولقد كان التنوخي مدركا بمراد الشاعر ، فلو عبر بالجمع لسقطت هذه المعاني · ولتلاشت مراد الشاعر فكان اختيار الأفراد هنا دقيقا في مغزاه · ·

وقد فطن ابن السبكي إلي هذه الألوان وجمعها في بوتقة واحدة كاشفا عن سرها البلاغي فيذكر أن السر في التعبير بالمفرد عن الجمع هو أن الأشياء امتزجت وصارت كالشيء الواحد ومنه ما أنشده الحاتمي (٢) وذبيان قد زلت بأقدامها الفعل · والمراد · الفعال

(١) الأقصي القريب للتوخي صـ ٦٣ ـ ٧٢ مخطوط رسالة ماجستير الخضراوري ·

(٢) عروس الأفراح جـ ١ صـ ٤٩٢

وإن كنا لا نقتصر هذا السر علي جميع الأمثلة التي فيها التعبير بالمفرد عن الجمع لأن المقام هو الذي يكشف السر ويوضحه .

وفي تمثيل ابن فارس . بقوله تعالي : (إن هؤلاء ضيفي)(١) حيث أخبر بالمفرد عن الجمع . وإن كان لفظ ضيف يفيد القلة ولكنه حينما يخرج في صورة المصدر يأخذ سمات المصدر فتضفي عليه الكثرة بعد القلة والجمعية بعد الافراد .

لذلك يقول الشهاب والضيف يطلق علي الواحد والجمع لأنه في الأصل مصدر ضافه (٢) فلذا كان خبرا لقوله . هؤلاء ...

وفي قوله تعالي (لاتفرق بين أحد منهم) (٣) قال الفرا : عقب قوله تعالي : (فما منكم من أحد عنه حاجزين) (٤) أحد يكون للجميع وللواحد وذكر الأعمش في حديث عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال : لم تحل الغنائم لأحد سود الرءوس إلاّ لنبيكم صلي الله عليه وسلم) فجعل أحدا في موضع جمع . وقال الله عز وجل : (لا تفرق بين أحد منهم) فهذا جمع لأن بين لا يقع إلا علي اثنين فما زاد .

وقبل أن نترك : أحدا نحب أن نعرج علي لفتة طيبة ذكرها القدماء كي نفرق بين (٥) أحد التي تستعمل في مقام الجمع والتثنية

(١) من سورة الحجر رقم ٦٨ (٢) حاشية الشهاب الخفاجي ج ٥ صـ ٣٠٤
(٣) من سورة البقرة / ١٣٦
(٤) من سورة الحاقة رقم / ٤٧ معاني القرآن للفراء جـ ٣ صـ ١٨٣
(٥) المفردات للراغب جـ ١٢ مادة أحد ط الحلبي .

والواحد والمذكر والمؤنث وهي أن أحدا لا بُدّ من ذكر النفي قبلها . أو ذكر أحد مع كل كلمة كل . قال القرافي في الدر المنظوم قال النحاة : إذا قلت خذ أحد هذين . فألفه منقلبة عن واو ويستعمل في الاثبات . وإذا قلت ما جاء لي أحد فألفه ليست منقلبة عن واو ولا يجوز استعماله في الاثبات بعني إلا مع كل . ثم بين الشهاب أن أحدا [1] الذي لا يستعمل إلا في النفي معناه إنسان باجماع أهل اللغة وأحدا الذي يستعمل في الاثبات معناه الفرد من العدد + وإذا كان مسمي أحد اللفظين غير مسمي الآخر في اللغة . وضابط الاشتقاق أن تجد بين اللفظين مناسبة في اللفظ والمعني ولا يكفي أحدهما تغايرا في الاشتقاق . وبهذا يعلم ما هو أحد الذي لا يستعمل إلا في النفي . وما هو أحد الذي يصلح للمنفي والثبوت بأن تنظر إن وجدت المقصود به إنسان فهو الذي لا يستعمل الا في النفي وألفه ليست منقلبة عن واو وإن وجدت المقصود به نصف الاثنين من العدد فهو الصالح للإثبات والنفي وألفه منقلبة عن واو .

وكذلك سرد ابن فارس للآيات القرآنية في هذا المقام دون أن يعرج علي التحليل البياني في قوله تعالي : (يا أيها الإنسان ..انك كادح) . والمراد من الإنسان الجميع لقوله تعالي (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) [2] .

وكان الحجاج يقول في خطبته .. يا أيها الانسان وكلكم ذلك الانسان . وفي باب وصف الجميع بصفة الواحد يذكر قوله تعالي :

(١) حاشية الشهاب جـ ٢ صـ ٢٤٦
(٢) من سورة العصر رقم ٢ ـ ٣ البرهان للذركشي جـ ٢ صـ ٢٢٣

(وإن كنتم جنبا فاطهروا) وهم جماعة . وهذا قد ذكره أبو عبيده في مجاز القرآن حيث قال : والواحد والاثنين والجميع في الذكر والأنثي لفظة واحد [1] هو جنب وهي جنب وهم جنب وهن جُنبُ ... فالوصف يطلق علي الجميع .

و في قوله تعالي : (والملائكةُ بعد ذلك ظهير) [2] قال القرآن ظهير ، وهذا وصف للملائكة بمعني أعوان واختير الافراد لجعلهم كشيء واحد وحسن أن يجعل ظهيرا للملائكة خاصة لقوله والملائكة بعد نصرة هوءلاء ظهير وهنا لا يمنع أن يكون الظهير خبرا لجبريل ، وصالح الموءمنين والملائكة ، والاخبار عن الجمع بصيغة الوصف المفرد لما فيه من الضم والوحدة وهذا هو السر البلاغي في التعبير .

كذلك الافراد في قوله (وصالح الموءمنين) فإنه واحد في معني الجميع كما تقول : لا يأتيني إلا سائس الحرب . فمن كان ذا سياسة للحرب فقد أمر بالمجيء واحدا كان أو أكثر منه .. فالمراد من الصالح الجنس الشامل [3] للقليل والمراد به الجمع هنا ولذا عم بالإضافة لان الجمع المضاف من صيغ العموم .

وفي قول زهير :

وإن يشتجر قوم يَقُل سَرَواتُهم = هم بيننا فهم رضي وهم عَدل

المشاجرة هي الخصومة . وسروات القوم : أشرافهم . وهم بيننا أي الحاكمون بيننا ومعناه أنه اذا اختلف قوم في أمر رضوا بحكم هوءلاء

(١) مجاز القرآن جـ ١ صـ ١٠٥٥
(٢) من سورة التحريم رقم (٤) و معاني القرآن جـ ٣ صـ ١٦٧
(٣) حاشية الشهاب جـ ٨ صـ ٢١٢
(٤) ديوان زهير صـ ١٠٧

لما عرف من عدلهم وصحة حكمهم ... وهنا نري وصف الجمع بالمفرد وكان المفرد مصدرا حيث جعل العدل مصبهم وأصلهم وأن العدل واحد لن يتجزأ ولن يتعدد فكلهم مصبهم العدل . وفي هذا من المبالغة الطريفة في الإسناد والوحدة في المصدر تعطي الكثرة بعد القلة والجمعية بعد الافراد هذا ما أشار اليه الزمخشري عند قوله تعالي : (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) (١)

باب الجمع يراد به واحد واثنان :

يذكر ابن فارس : أن العرب عبرت عن الاتيان بلفظ الجميع ، والمراد واحد واثنان ، كقوله جل ثناوءه : (وليشهد عذابتهما طائفة من الموءمنين) (٢) يراد به . واحد واثنان ، وما فوق .

وقال قتادة في قوله جل ثناوءه (إن يُعفَ عن طائفة منكم نعذب طائفة) (٣) كان رجل من القوم لا يمالئهم علي أقوالهم في النبي صلي الله عليه وسلم ، ويسير مجانبا لهم فسمّاه الله جل ثناوءه طائفة وهو واحد .

ومنه : (إن الذينَ يُنادونك من وراء الحجرات) (٤) كان رجل نادي يا محمد إن مدحي زين ، وإن شتمي شين ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم .. ويلك ذاك الله جل ثناوءه) قال :(فقد صَغَتْ قلوبكما) وهما قلبان وقال : (بِمَ يرجع المرسلون) وهو واحد يدل عليه قوله جل ثناوءه . ارجع إليهم . ومن الجمع الذي

(١) مجاز القرآن جـ١ صـ ١٧٦
(٢) من سورة البقرة رقم / ٢٠ راجع الكشاف جـ١ صـ ٢٢ ط الهيئة المصرية . (٣) من سورة النور رقم / ٢
(٤) من سورة التوبة رقم / ٦٦ (٥) من سورة الحجرات رقم / ٤
(٦) من سورة التحريم رقم / ٤

يراد به الاثنان قولهم (امرأة ذات أوراك ومآكم) وقد يصفون الواحد بلفظ الجمع فيقولون .. (بُرمة أعشار) وثوب أهدام وحبل أحداف .. قال الشاعر :

جاء الشفاء وقميصي أخلاق = شَراذِمُ يضحك منه التوّاق

ومن الباب : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله)(١) إنما أراد المسجد الحرام . ويقولون : (أرض سباسب) يسمون كل بقعة منها (سبسبا) لاتساعها ...

ويذكر ابن فارس تحت باب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع(٢) أن العظيم يقول : أنظروا في أمري ... وكان بعض أصحابنا يقول : إنما يقال هذا لأن الرجل العظيم يقول : ونحن فعلناه (فعلي هذا الإبتداء خوطبوا في الجواب . قال الله جل ثناؤه : (قال ربّ أرجعون)(٣) .

وقبل الولوج في هذا اللون أقول إن هذه الصورة التي بينها ابن فارس هي صورة صادقة لما سجلة ابن قتيبة في(٤) تأويل مشكل القرآن فكان دور الصاحبي النقل فقط ، ولكني أريد أن أنظم هذه الأمثلة تحت ألوان كما وضحها السبكي في عروسة ونتنتاول اللون الثاني وهو

باب التعبير بالجمع وإرادة المفرد :

ذكر ابن فارس من هذا الباب قوله تعالي (ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله(٥)) وهو يعني المسجد الحرام وحده . يقول

(١) من سورة التوبة رقم /١٧ راجع الصاحبي لابن فارس صـ ٣٤٩-٣٥٢
(٢) الصاحبي صـ ٣٥٣ (٣) من سورة المومنون رقم / ٩٩
(٤) تأويل مشكل القرآن صـ ٢٨٣
(٥) من سورة التوبة رقم / ١٧

الفراء . وربما ذهبت العرب بالواحد الي الجمع وبالجمع إلـــي الواحد ألا تري الرجل علي البرذون فتقول[١] قد أخذت في ركوب البرذون ، وتري الرجل كثير الدراهم فتقول إنه لكثير الدرهم فأدي الجماع عن الواحد . والواحد عن الجمع ، وإذا كانت الصورة تبــرز الامتزاج والالتصاق والاتحاد وأن الواحد هو الجمع في هذا اللون فاننا نستوحي من تعبير الجمع عن المفرد مقام العظمة والرفعة والكبرياء ، وأن الفرد الواحد بمنزلته في مقام الجمع وهذا يكون في مقام التفخيم والتعظيم نري ذلك في كـــلام الزمخشري حينما يقول : موءكـــدا أن : مساجد الله .. في هذه الآية هو المسجد الحرام . بقوله تعالــي وعمارة المسجد الحرام[٢] وأن المسجد الحرام هو في مقام التعضيــم والتكريم فعبر عنه بالجمع الذي يدل علي الكثرة لأن المسجد قبلـــة المساجد كلها وإمامها فعامره كعامر جميع المساجد ولأن كل بقعـــة منه مسجد . أو أن يراد جنس المساجد وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو الجنس ومقدمته وهو آكد لأن طريقته طريق الكناية كما قلت فـــلان لا يقرأ كتب الله كنت أنفي لقراءة القرآن من تصريحك بذلك ..

ومثله قوله تعالي : ﴿ فما آمن لموسي إلا ذرية من قومه علي خـــوف من فرعون وملئهم أن يفتننهم ﴾[٣] فقال = (ملئهم) وفرعـــون واحد لأن الملك إذا ذكر بخوف أو بسفر أو قدوم من سفر ذهـــب الوهم إليه والي من معه . ألا تري أنك تقول : قدم الخليفة فكثـــر الناس . تريد بمن معه وقدم ففلت الأسعار لأنك تنوي بقدومه قـــدوم

---

(١) معاني القرآن للفراء جـ ١ صـ ٣٦٤

(٢) الكشاف جـ ١ صـ ٣٨٦ (٣) من سورة يونس رقم ٨٣ معانـــي القرآن جـ ١ صـ ٤٧٦

من معه . ومقام التفخيم والتعظيم للملك لما له من السلطان والجاه والنفوذ بين قومه وعشيرته وأتباعه ومن كان هذا شأنه فهو بعدل مجموعة من البشر وليس فردا واحدا والجمع يناسب هذه المكانة .

ومن هذا الباب وهو وضع ضمير الجمع بدل ضير الفرد .. لأن المقام يحتم ذلك وهو في مقام التعظيم . فيقوله تعالي علي لسان الكافر : (حتي إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ أرجعون ، لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنّها كلمة هو قائلها) (١) يجأر ويستغيث الكافر متحسرا علي ما فرط فيه من الايمان والطاعة لما اطلع علي الأمر لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أنرجعك إلي الدنيا فيقول إلي دار الهموم والأحزان بل قدوما إلي الله تعالي وأما الكافر فيقول : ربّ ارجعون .. ففي النداء ، والاستغاثة الموجهة من الكافر إلي خالق البشر والقوي والخالق يستحق التعظيم والتفخيم (٢) في كل الأوقات وخاصة في السؤال والمسئول عنده الإجابة فقال الكافر : (ارجعون) .. تعظيما للمخاطب وهو الله عز وجل بغية أن يستظل بظله وينعم بعفوه - وفي قوله تعالي : (كلمة) ولم يقصد بها القلة المفردة ولكن المراد منها الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض فهي بمعني الكلام كما يقال كلمة الشهادة وهي مجاز عن الكلام والكملة هي الشهادة .. ومقامها التعظيم والتكريم .. فعبر بالمفرد عن الجمع .

ويمثل ابن فارس بقوله تعالي : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) (٣)

(١) من سورة (المؤمنون رقم ٩٩ - ١٠٠ (٢) راجع حاشية الشهاب جـ ٦ صـ ٣٤٦ (٣) من سورة النور رقم / ٤)

وقراءة قتادة (إن يُعفَ عن طائفة منكم تعذب طائفة) [١] والطائفة يراد بها واحد واثنان وما فوق ٠

ونقول أن مادة الطواف تدور حول الدوران أو الاحاطة كالطواف بالبيت والطائفة اسم فاعل موءنث [٢] فهو إما صفة نفس فتطلق علي الواحد أو صفة جماعة فتطلق علي ما فوقه وهو كالمشترك بين تلك ، المعاني فيحمل في كل مقام علي ما يتناسبه بحسب القرائن فلا تنافي بينها ٠ قال الراغب في المفردات (الطائفة من الناس : جماعة منهم ٠ [٣] ومن الشيء قطعة ٠ وقال بعضهم قد تقع علي واحد فصاعدا فهي إذا أريد بها الجمع جمع طائفة ٠ وإذا أريد بها الواحد يصح أن تكون جمعا كني به عن الواحد ويصح أن تكون كراوية وعلامة انتهي ٠

وفي شرح البخاري حمل الشافعي الطائفة في مواضع من القرآن أوجه مختلفة بحسب المواضع فهي في قوله تعالي : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) واحد فأكثر واحتج به علي مقبول خبر الواحد وفي قوله (وليشهد عذابهما طائفة) أربعة وفي قوله تعالي : (فلتقم طائفة منهم معك) [٤] ثلاثة ٠ وفرقوا في هذه المواضع بحسب القرائن

أما في الأولي ٠ (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) فمعناه والله اعلم فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعة قليلة ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها وليجعلوا غاية

(١) من سورة التوبة رقم ٦٦ (٢) حاشية الشهاب جـ ٦ صـ ٣٦٠
(٣) المفردات في غريب القرآن صـ ٣١١ الراغب الاصفهاني ط الحلبي
(٤) من سورة النساء رقم ١٠٢ (٥) من سورة التوبة رقم ١٢٢

سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة ارشاد القوم وانذارهم وتخصيصه بالذكر لأنه أهم .. وفي هذا دلالة علي لزوم العمل بخبر الواحد لأن الطائفة تقع علي الواحد . والإنذار يحصل به ...

أما في قوله تعالي : (وليشهد عذابهما طائفة) زيادة في التنكيل فإن التنكيل بالتفضيح ورؤية الفاحشة اشد وأفحش من العذاب لأن الاشاعة أشد وأنكي من العذاب وهو حينما تكون من الكثرة والجمع أشد وأفحش .

وأما في قوله تعالي : (فلتقم طائفة منهم معك) فالطائفة هنا بمعني الجمع لذكرهم بلفظ الجمع في قوله (فليأخذوا أسلحتهم)وأقله ثلاثة وكونها مشتقة من الطوف لا ينافيه .

وفي قوله تعالي (وإني مرسلة إليهم يهديه فناظرة بم يجع المرسلون) روي انها بعثت منذر بن عمرو في وفد وأرسلت معهم غلمانا علي زي الجواري وجواري علي زي الغلمان وحقافيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب ، وقالت إن كان نبيا ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدر ثقبا مستويا وسلك في الخرزة خيطا فلما وصلوا إلي معسكره ورأوا عظمة شأنه ، تقاصرت إليهم نفوسهم فلما وقفوا بين سليمان وقد سبقهم جبريل بالحال (٢) وطلب الحق وأخبر عماةفيه فأمر الأرضة فأخذت شعرة وقفذت في الدرة وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت من الجزعة ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخري ثم تضرب بها وجهها والغلام كما يأخذه يضرب

(١) من سورة النمل رقم / ٣٥
(٢) تفسير البيضاوي علي الكشاف جـ ٧ صـ ٤٦

به وجهه ثم رد الهدية ٠

والتعبير في الآية ٠(وإني مرسلة إليهم) فعبرت عن المفردبالجمع وإنما أرسلت إلي سليمان وحدة لما فيه من تعظيم الملوك والرؤساء وأنهم أمم في مقامهم ٠ وقالت (بم يرجع المرسلون)٠ والرسول كان واحدا بدليل فلما جاء سليمان وهذا من باب اظهار العرب للخير أمر كان من واحد علي وجه الخير عن جماعة إذا لم يقصد قصد الخبر واحد بعينه يشار اليه بعينه قسمي في الخبر ٠

وفي قوله تعالي : (إن الذين ينادونك[٢] من وراء الحجرات) ، إستند ابن فارس علي رواية قتادة إن المنادي واحد فعبر بالجمع عن المفرد ٠

ومعني الآية إن الذين ينادونك من وراء الحجرات من خارجها خلفها أو قدامها ومن ابتدائية فإن المناداة نشأت من جهة الور وفائدتها الدلالة علي أن المنادي داخل الحجرة والحُجرة : القطعة من الأرض المحجورة بحائط والمراد حجرات النبي صلي الله عليه وسلم وفي ذكر الحجراتكفاية عن خلوته بالنساء لأنها معدة لها ولم يقل القرآن حجرات نسائك ولا حجراتك توفيرا له صلي الله عليه وسلم وتحاشيا عما يوحشه ٠ ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها أو بأنهم تفرقوا علي الحجرات متطلبين له ، فأسند فعل الإبعاض إلي الكل [٣]

(١) تفسير الطبري جـ ١٩ صـ ٩٨
(٢) من سورة الحجرات رقم / ٤
(٣) حاشية الشهاب علي البيضاوي جـ ٨ صـ ٧٤

وقيا إن الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وفدا علي رسول الله صلي الله عليه وسلم في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد أخرج إلينا .... والإسناد هنا الي جميعهم لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به ، أو لأنه وجد فيما بينهم وفي هذا حث علي الأدب ومراعاة الحشمة وتوقير الرسول العظيم .

ومن هذا الباب ....

وصف الواحد بلفظ الجمع

فيقولون بُرمة أعشار ....

البُرمة : قدر من حجارة والجمع (١) بُرم . وبرام . وبُرم . أعشار متكسر فلم يشتق من شيء . قال اللحياني : قدر أعشار من الواحد الذي فرق ثم جمع كأنهم جعلوا كل جزء منه عشرا ...

ويقال ثوب أهدام أخلاق من الثياب والهدم بكسر الهاء الثوب الخلف وحبل أحداق : أخلاق كأنه حذف أي قطع جعلوا كل جزء منه حذيقا . والخَلَقَ للواحد والاثنين والجمع (٢) والمذكر والمؤنث بلفظ واحد لأنه يجري مجري المصادر ، وقد يثني ويجمع فيقال : ثياب أخلاق لأنه يوصف به فيجري مجري االأسماء . وقد قالوا ثوب أخلاق . قال الراجز :

جاء الشتاء وقميصي أخلاق

فوصفوا به الواحد قال الكسائي : أرادوا أن نواحيه أخلاق فلذلك

(١) راجع اللسان مادة برم ومادة عشر ومادة خلق .
(٢) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي جـ ١ صـ ٤٥ ط الهيئة العامة ...

جمع وهذا الوصف الذي جري مجري المصدر أطلق وأريد منه الجمع الدال علي الكثرة وأخلاق وصف الجمع للمفرد للدلالة علي تعدد نواحيه وجزئياته ...

وقد أشار إلي ذلك الفراء عند قوله تعالي : (وأرسلنا الرياح لواقح) [1] وتقرأ (وأرسلنا الريح لواقح) قرأها حمزة [2] فمن قال الريح لواقح فجمع اللواقح والريح واحدة لأن الريح في معنى الجمع لأن اللام هنا للجنس وصيرها الجنس في معني الجمع فلذا صح جعل لواقح حالا منها فالمعني جنس الريح .

والرياح اللواقح . لواقح : حوامل شبه الريح التي جاءت بخير من انشاء سحابة فأمطر بالحلمل . كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقم [3] أو بمعني مُلقحات للشجر أو السحاب . من ألقح الفحل الناقة إذ ألقي ماءه فيها لتحمل فاستعير لصب المطر في السحاب وإسناده علي الأول حقيقة وعلي الثاني مجاز إذ الملقي في الشجر السحاب لا الريح ولقح الشجر تنميته ليثمر ويزهو أو أن يجري الماء فيه .

ومن هذا اللون قوله تعالي : (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) [4]

يكشف الله تعالي لنا أصل الانسان وخلقته التي تكون منها فبين أنه مخلوق من دفعة من ماء مهين ، وأنه مع ذلك خلق عجيب يسمع ويبصر . ويحس ويشعر فيعقل ويدبر . يكتشف المجهول . ويري الرأي فيه أهل لأن يكون خليفة الله في الأرض يعمرها ويسخر قوي الطبيعة فيها وينظم أمورها . إنه آية الله الكبري في خلقه وحجته القائمة .

(١) من سورة الحجر رقم / ٢٢ (٢) معاني القرآن جـ ٢ صـ ٨٧
(٣) حاشية الشهاب جـ ٥ صـ ٢٨٩ (٤) من سورة الانسان رقم ٢ ،

ومع ما أودعه الله من الاسرار العجيبة والنعم الفاضلة ، إنما يريد خيره وصلاح أمره يذكر أصله وهوانه وضعفه لئلا يغتر ولا يستكبر أن ينزل نفسه من خالقه بالمنزلة التي هي لها صدقا وعدلا فيستشعر عظمته ويتصاغر لجلاله وخشية ويصف الله النطفة التي خلقه منها بأنها امشاج ، أي أخلاط ومفرد الأمشاج مَشج بفتح فكسر والنطفة خلق مفرد اللفظ وقد وصف بأمشاج وهو جمع فاختلف الموصوف وصفته كما اختلف في قول العرب إناء أصفار ، أي فارغ .. والأصل أن يتطابق الموصوف وصفته ولم يختلفا في الآية إلا لمعني لا يكون فيهما حين يتطابقان ، فوصف المفرد يعني أن الموصوف يتصف بصفته اتصافا مجردا لا يدل علي حظة منها قوة وضعفا ولكنه بحيزه في جنسه ويحد من المشاركة في صفته .

أما الوصف بالجمع فيدل علي أن الصفة لا تقوم بموصوفها في جملته كما في وصف المفرد بالمفرد ـ ولكنه يدل علي أن الصفة تقوم بموصوفها في أجزائه تفصيلا والأجزاء المختلفة فيها رقة وغلظا (١) وصفرة وبياضا وطبيعة وقوة وضعفا حتي اختص بعضها ببعض الأعضاء علي ما أراده الله بحكمته وعلمه بقدرته . فوصف النطفة بالأمشاج لا يعني أن ماء الرجل وماء المرأة إذ يختلطان لا يكون خلاطهما مجرد لقاء يجمع بينهما معا فإذا هما في رأي العين شيء واحد أو كالشيء الواحد كما يكون في مزج سائل بسائل ، ولكنه يعني خلاصا أشد قوة وأعمق غورا ، وأبعد مدي حتي يحصل منهما شيئا واحدا (٢)

(١) حاشية الشهاب جـ ٨ صـ ٢٨٧
(٢) مع القرآن الكريم صـ ١٢٩ علي النجدي ناصف ....

يعقب آثار تتواحد ذاتيا وصفات وهو كذلك في الاخصاب البشري كما تعبر عنه الآية . ويقره العلم فهو إنما يكون من خلية من الذكر وأخري من الأنثي ....

ومن هذا اللون ذكر ابن فارس باب مخاطبة الواحد خطاب الجمع إذا أريد بالخطاب هو ومن معه (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء[1]) فخوطب صلي الله عليه وسلم بلفظ الجمع لأنه أريد هو وأمته . فقد خص النداء . وعم المخطاب بالحكم لأنه إمام أمته فنداوءه كندائهم كما يقال لكبير القوم يا فلان افعلوا كذا وكذا . فتخصيصه صلي الله عليه وسلم لرفعة شأنه ولذا اختير لفظ النبي لما فيه من الدلالة علي علو مرتبته والخطاب بالحكم وهو التطليق لعمد تهن وقد قيل إنه بعد ما خاطبه صرف الخطاب عنه [2] لأمته كراهة أن يلصق الطلاق بالنبي عليه السلام تعظيما له .

وهذا الأمر مخالف لما قبله لأن الأول عبر عن المفرد بالجمع أوعن الجمع بالمفرد والثاني عبّر عن المفرد في مكانه ثم انتقل به الي غيره وهو الجمع وهذا القسم قريب من الالتفات لأن فيه الانتقال من اسلوب لآخر وليس التفاتا لأن الالتفات الانتقال من أحد الأساليب الثلاثة وهي التكلم والخطاب والغيبة إلي غيره ..

التعبير بالجمع عن التثنية : :

ومثل له ابن فارس بقوله تعالي : (إن تتوبا إلي الله فقد صغت قلوبكما) ولكنه لم يوظف البلاغة في هذا التعبير وإن كان الغرض

(١) الآية رقم ١/ من سورة الطلاق . الصاحبي ص ٣٥٥

البلاغي الامتزاج والاختلاط والتلاحم والمبالغة في الكثرة بجعل القليل كثيرا وأن الشيئين يتفرعان إلي اجزاء متعددة أو أن تكون قصدت المبالغة في أحدهما بتقسيمه (١) دون الآخر لأن الجمع يحصل بثلاثة ومنه المناكب والمرافق والحواجب وإنما هما منكبان ينقاس منه .. شيئين بينهما تواصل (إن تتوبا إلي الله فقد صفت قلوبكما) خطاب لحفصة وعائشة علي طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما وهذا الالتفات من التبعية في قوله تعالي (وإذ أسر النبي الي بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض) فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير) فالضمير الغائب الفاعل في نبأت يعني أخبرت حفصة عائشة رضي الله عنهما بالحديث .. التفت من الغيبة إلي الخطاب للمبالغة فإن المبالغ في العقاب يصير المعاتب مطرودا (٤) بعيدا عن ساحة الحضور ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد .. وفي قوله تعالي :
(فقد صفت قلوبكما) (٥) فعبر بالقلوب عن القلبين للمبالغة في أن التوبة إذا حصلت منهما فقد عمت جميع جسدهما وكأن القلب قلوب متعددة فالجوارح كلها مسالمة وملانية ومصفية لطاعة الله ، وهذا من الامتزاج والمبالغة في وصف المثني بالكثرة والجمع وهذا ما توحي به الآية .

ومن هذا اللون قوله تعالي : (ثم أستوي إلي السماء وهي دخان فقال لهما وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) (٦)

---

(١) عروس الافراح جـ ١ صـ ٩٣ (٢) من سورة التحريم رقم / ٤
(٣) من سورة التحريم رقم / ٣ (٤) حاشية الشهاب جـ ٨ صـ ٢١١
(٥) من سورة التحريم رقم / ٤
(٦) من سورة فصلت رقم / ١١ حاشية الشهاب جـ ٧ صـ ٢٩٢

وإن كان لم يذكره ابن فارس ولم يقف علي سر هذا اللون ٠ الآية تعرض فنونا من اللون البلاغي ٠ تنظم صورة باهرة من صور قدرة الله وجلال عظمته ففيها أمر الخالق للسماء والأرض بالانقياد والمشيئة والامتثال لسلطانه ٠ وكان الجواب علي ما تقتضيه الإرادة الإلهية والخضوع الكامل للة ربّ العالمين ٠

ثم استوي إلي السماء ٠ قصد نموها وقال لها وللأرض ائتيا بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر وأبرزا ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة ٠ أو أئتيا في الوجود علي أن الخلق السابق يعني التقدير والترتيب للرتبة أو الاخبار أو أتيان السماء حدوثها ٠ وإتيان الأرض أن تصير مدحوة ودحوا الأرض موءخر عن خلق السماء أو ليأت كل منكما الأخري في حدوث ما أريد توليده منكما ويوءيده قراءة وآتيا من المواتاة أي ليوافق كل واحدة أختها فيما أرادت طوعا أو كرها ٠٠ شئتما أو أبيتما ٠ والمراد اظهار كمال قدرته ووجوب وقوع مراده لا اثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقعا موقع الحال ٠ وهذا الأمر من البلاغة الفائقة في جعل الجماد عاقلا ناطقا ٠ وهي من الاستعارة لأنهما لما نزلا وهما من الجمادات منزلة العقلاء إذ أمرا وخوطبا علي طريق الاستعارة المكنية والتخييلية أو التمثيلية أثبت لهما ما هو من صفات العقلاء من الطوع والكره ترشيحا وهما موءولان بطائع وكاره ٠ لأن المصدر لا يكون حالا بدون ذلك ٠

فالتمثيلية في تصوير تأثير قدرته فيهما وتأثرهما بالذات عنها

وتمثيلهما بأمر المطاع واجابة المطيع الطائع فيه حالة السماء والأرض التي بينها وبين خالقهما في إرادة تكوينهما وايجادهما بحالة أمر ذي جبروت لهنفاذ في سلطانه وإطاعة من تحت تصرفه من غير تردد . والجمال البلاغي في تصوير قدرته وعظمته والقصد في التركيب إلي أخذ الذبدة والخلاصة من المجموع من غير نظر الي مفرداته .....

يجوز أن يكون من الاستعارة التخييلية بعد أن تكون (١) الاستعارة في ذاتها مكنية كما تقول نطقت الحال بدل دلت فتجعل الحال كإنسان يتكلم في الدلالة ثم يتخيل له النطق الذي هو لازم المشبه به وينسب إليه ، واثبات القول الطواعية للسماء والأرض تخيلية وهي قرينة المكنية لأن القول الطواعية خاصة لمن يعقل ويتكلم .

وكانت الإجابة التي هي بيت قصيدنا (أتينا طائعين) وهي مخالفة للفظ لأنها لو وافقت لقالنا (طائعتين) ، ولكنه قال (طائعين بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء الذكور وأوثر لأنه لا وجه للتأنيث عند اخبارهم عن انفسهم لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط نظرا إلي الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكره . كذلك تكون الطاعة من السماء والأرض (٢) ومن كل من فيهما . السماء بالملائكة في ملئها وبالنجوم والكواكب في عالمها . والأرض بمن فيها من الإنسان والجن وبكل ما تحمل علي ظهرها من شيء .

---

(١) حاشية الشهاب جـ ٧ صـ ٣٩٢
(٢) معاني القرآن للفراء جـ ٣ صـ ١٢

قال ابن فارس من العرب [illegible] افعلا ذلك ويخاطبون المخاطب
واحدا أنشد الفراء :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا = بنزع أصوله واجدز شيحا

وقال آخر :

فإن تزجراني بما ابن عفان انزجر = وان تدعاني احُم عرضا ممنعا

وقال الله جل ثناؤه : (ألقيا في جهنم) (٢) وهو خطاب لخزنة النار والزبانية .

قال : وترى أن أصل ذلك أن الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة نفر . فجري كلام الواحد علي صاحبيه . ألا تري أن الشعراء أكثر الناس قولا يا صاحبيّ . وياخليليّ . .

ومنه نسبة الفعل إلي اثنين وهو لأحدهما وفي كتاب الله جل ثناؤه (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما) (٣) وقد بلغا وكان النسيان من أحدهما لأنه قال (نسيت الحوت) (٤) وقال مرج البحريلتقيان (٥) ثم قال ـ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) (٦) وإنما يخرجان من الملح لا العذب .

والذي يقف عند هذه الأمور يجد ابن فارس لا يرسل الفائدة الباعثة علي هذا التعبير ولا يحلل هذه الشواهد والكشف عما فيها

---

(١) الصاحبي صـ ٣٦٣ (٢) من سورة ق رقم / ٢٤
(٣) من سورة الكهف رقم / ٦١
(٤) من سورة الكهف رقم / ٦٣
(٥) من سورة الرحمن / ١٩ (٦) من سورة الرحمن رقم / ٢٢

الميزة البلاغية لهذا اللون للتعبير وأن ايحاءاته حول ارادة التأكيد التي تنحبس إلي تقسيم الشيء إلي مرتين ويلقي علي دفعتين وتسمية كل منهما بأسمه (١) والإيثار بارادة تكرار الفعل وأن الفعلين امتزجا وصار حضورأحدهما حضور للآخر ..

وهذه الشواهد العربية تعرض إليها الفراء عند قوله تعالي :
(ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) (٢) حيث قال : العرب تأمر الواحد والقوم بما يؤمر به الاثنان فيقولون للرجل قوما عنا ويمعت بعضهم ويحك : ارحلاها وازجراها .

ومعني الآية : ألقيا ... خطاب من الله تعالي لأحد ملائكته وهذا خطاب للواحد من وجهين الأول بنقله الزمخشري عن المبرد وذلك أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنيته الفعل لاتحادهما كأنه قبل ألق ألق ألف للتأكيد (٣) . والثاني سجله الفراء وإن كان الزمخشري لم يذكر صاحب هذه النقلة وذلك أن العرب أكثر ما يوافق الرجل منهم اثنان فكثر علي ألسنتهم أن يقولوا خليلي وصاحبي وقفا حتي خاطبوا الواحد خطاب الأثنين عن الحجاج انه كان يقول يا حرسي اضربا عنقه ....

وفي بيت مضرس بن ربعي الأسدي :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا = بنزع أصوله واجتز شبحا

والمعني : يوجه القول إلي صاحبه بأنه لا يحبسه عن شيء (اللحم بأن

(١) عروس الأفراح جـ ١ صـ ٤٩٢ (٢) من سورة ق رقم / ٢٤ معاني القرآن جـ٣ صـ ٧٨
(٣) الكشاف جـ ٢ صـ ٤٠٤ الطبعة البهية

تقلع أصول الحطب وعروقه بل اكتنف بقطع الشيح فهو اسهل واسرع والشاهد في لا تحبسانا ٠٠ حيث خاطب الواحد بلفظ الاثنين تأكيدا بتكرير الفعل مرتين ٠٠٠٠٠

ومثله قول سويد بن كراع : وكان قد هجا بني عبد الله بن دارم فاستعدوا عليه سعيد بن عثمان بن عفان فأراد ضربه فقال سويد قصيدة منها :

فإن تزجراني يا ابن عفان انزجر = وإن تدّعاني أحِم عرضا مُمنعا

فخاطب الشاعر اثنين سعيد بن عفان ومن ينوب عنه أو يحضر معه وإن تدعاني أي أن تمركاني حميت عرضي ممن يوءذيني وإن زجرتماني انزجرت وصبرت ٠

وفي قوله عز وجل : (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما)[1] قال الفراء في تفسيرة وإنما تسيه بوشع فأضافه إليهما[2] ويدل قوله لموسي عليه السلام (إني نسيت الحوت) وفي قوله تعاليي: (يخرج منهما اللوءلوء والمرجان)[3] واللوءلوء الدر والمرجان هذا الخرز الأحمر وقيل اللوءلوء كبار الدر والمرجان : صفاره ٠ ويكشف الزمخشري عن التعبير بالمثني عن المفرد[4] بقوله فإن قلت لم قال منهما وإنما يخرجان من الملح قلت لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرجان كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه ٠

---

(١) من سورة الكهف رقم / ٦١
(٢) معاني القرآن جـ ٢ صـ ١٥٤
(٣) من سورة الرحمن رقم / ٢٢

باب نسبة الفعل إلي أحد اثنين وهو لهما :

التعبير بالمفرد عن المثني : -

ومثل له ابن فارس يقول الله عز وجل : ([1] وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ... وإنما انفضوا إليهما .. وقال الله جل ثناؤه : والله ورسوله أحق أن يرضوه [2] وقال : ÷ (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة) [3]

ثم قال الشاعر :

إن شرخ الشباب والشَّعر الأسـ = ود ما لم يعاصيَ كان جُنونا

وقال آخر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك = راضي والرأيُ مختلف

هذا اللون الذي أتي به ابن فارس كعادته سردا ونقلا فقط لاتحليلا وكشافا عن أسراره . أقول إن البلاغيين قالوا إن التعبير عن المثني بالمفرد إذا كان هناك امتزاج واتحاد والتصاق بين الشيئين [4] حتي صار شيئاواحدا صح التعبير بالمفرد عن المثني كذلك إذا صح ورود واحد علي صاحبه .

في قوله عز وجل : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) فجعل الهاء في اليهما للتجارة دون اللهو . وفي قراءة عبد الله : واذا رأو لهوا أو تجارة انفضوا اليها . وذكروا أن النبي عليه السلام كان يخطب يوم الجمعة ، فقدم دحية الكلبي بتجارة من الشام فيها كل ما يحتاج إليه الناس ، فضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فخرج

(١) من سورة الجمعة رقم / ١١ (٢) من سورة التوبة رقم / ٦٢
(٣) من سورة البقرة رقم / ٤٥ الصاحبي صـ ٣٦٢
(٤) عروس الأفراح جـ ١ صـ ٤٩٢

جميع الناس إلا ثمانية نفر . فأنزل الله عز وجل [1] وإذا رأوا تجارة . يعني : التجارة التي قدم بها أو لهوا يعني الضرب بالطبل ولو قيل : انفضوا إليه ، يريد اللهو كان صوابا كما قال الله عز وجل : (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا) [2] ولم يقل بها . ولو قيل بهما . وانفضوا إليهما كما قيل : إن يكن غنيا أو فقيرا فالله [3] أولي بهما (كان صوابا) ولكن الآية جاء فيها الضمير راجعا إلي التجارة مفردا لأن التجارة كانت أهم إليهم وهم بها أسر منهم بضرب الطبل . لأن الطبل انما دليل عليها فالمعني كله لها ". هذا هو السر البلاغي الذي ابرزه الفراء .

ويؤكد ذلك الأمر الزمخشري في قوله فإن قلت كيف قال إليها وقد ذكر شيئين قلت تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا اليها [4] أو لهوا انفضوا إليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه . فالمقام هو الذي يفضل ايثار رجوع الضمير إلي التجارة للحاجة وهم إليها أحوج وحذف ضمير اللهو لدلالة المذكور عليه هذا ما بينه البلاغيون ...

وفي قوله تعالي : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه)

ومعناه : يحلفون بالله علي معاذيرهم فيما قالوا أو تخلفوا ليرضوكم لترضوا عنهم والخطاب للمؤمنين والله ورسوله أحق أن يرضوه [5]

---

(١) معاني القرآن للفراء جـ ٣ صـ ١٥٧ (٢) من سورة النساء رقم/١١٢
(٣) من سورة النساء رقم / ١٣٥ (٤) الكشاف جـ ٢ صـ ٤٦٠
(٥) راجع حاشية الشهاب جـ ٤ صـ ٣٤٠

أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق ووحد الضمير في (يرضوه) لأن الظاهر في الخطاب بعد العطف بالواد التثنية . وقد أفرد الضمير وذلك لأن ارضاء الرسول صلي الله عليه وسلم لا ينفك عن إرضاء الله تعالي فتلازمهما جعلا كشيء واحد فعاد عليهما الضمير المفرد . وأحق علي هذا خبر عنهما من غير تقدير أو لأن الكلام في إيذاء الرسول عليه السلام فيكون ذكر الله تعظيما له وتمهيدا له فلذا لم يخبر عنه وخص الخبر بالرسول عليه السلام . أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك ..

وقيل أن علة الافراد تأدبا لئلا يجمع بين الله وغيره في ضمير تثنيه وقد نهي عنه علي كلام فيه هذه أسرار أبرزت عللا للإفراد ، وإن كان طابع الامتزاج والاتحاد هو الذي يسيطر لأن رضا الرسول من رضا الله عز وجل وطاعتهما لا تنفك .

وفي قوله تعالي : (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا علي الخاشعين (١) أفرد الضمير في قوله وإنها ولم يقل وانهما ، فقال أبو عبيدة عقب هذه الآية (٢) العرب تقتصر علي احد هذين الإسمين فأكثر الذي يلي الفعل قال عمرو بن أمريه القيس :

نحن بما عندنا وأنت بما = عندك راض والرأي مختلف

الخبر للآخر وفي القرآن مما جعل معناه علي الأول قوله تعالي : وإذا رأوا تجارة أو لهوا امفضوا اليها) ... فنبين أبو عبيدة إنه قد يحذف من الأول لدلالة الثاني عليه وقد يحذف من الثاني لدلالة الأول عليه ....

---

(١) من سورة البقرة رقم / ٤٥

والضمير في إنها راجع إلي الصلاة وتخصيصها برد الضمير [1] إليها لعظم شأنها واستجماعها ضروبا من الصبر ... فكأن الاتحاد حاصل بين الأمرين فأفرد الضمير في الآية لهذا ..

ومن هذا اللون قوله عز وجل : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها) [2] عاد الضمير علي احدهما ولم يقل ولا ينفقونهما لأن العرب تفعل ذلك . ثم يبرز العلة البلاغية لهذا وذلك أن العرب إذا اشركوا بين اثنين قصروا فخبروا عند احدهما استغناءً بذلك وتخفيفا لمعرفة السامع بأن الآخر قد شاركه ودخل معه في ذلك الخبر . ومثله قول الشاعر حسان ابن ثابت :

إن شرخ الشباب [3] والشعر الأسود مالم يعاصي كان جنونا

ولم يقل يعاصيا وشرخ الشباب : قوته ونضارته وأفرد الضمير في قوله لم يعاصي وإن كان لاثنين وذلك لأن كل واحد منهما بمنزلة [4] فخرجا مجري الواحد ألا تري أن شرخ الشباب هو أسودا والشعر ولولا أنهما لاحصما بهما صارا بمنزلة الفرد ...

باب مخاطبة المخاطب :

ثم يجعل الخطاب لغيره أو بخبر عن شيء ثم يجعل الخبر المتصل به لغيره ذكر ابن فارس هذا العنوان ثم سرد الأمثلة ونحن نبتدي ء بالانتقال من الاثنين إلي الواحد ويمثل له بقوله تعالي : (فمن ربكما يا موسي) [5] فانتقل من الخطاب بالتثنية لموسي وهرون ولكنه

(١) حاشية الشياب جـ ١ صـ ١٥٤ (٢) من سورة البقرة رقم/ ٤٥
(٣) مجاز القرآن جـ ١ صـ ٢٥٧ (٤) الصاحبي صـ ٣٥٨
(٥) من سورة طه رقم / ٤٩

أفرد النداء في قوله يا موسي .. لأنه صاحب النداء والتخصيص إذ كان هو صاحب عظيم الرسالة وكريم الآيات .. ذكره ابن عطيه أو لأن هرون أفصح لسانا منه علي ما نطق به القرآن ثبت عن جواب الخصم الألد . وفي قوله تعالي : (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقي[(١)] انتقال من ضمير التثنية إلي ضمير المفرد وهو لآدم وحده الشقاء دون حواء بعد اشراكهما في الخروج لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في حيز الرجال[(٢)] والرجل قيم أهله وأميرهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاختصر الكلام باسناده إليه دونها مع المحافظة علي الفاصلة التي يقتضيها النظم والشقاء هنا التعب في طلب الموت وذلك معصوب برأس الرجل ..

ثم يذكر ابن فارس . الانتقال من خطاب الشخص ثم العدول به إلي غيره ويمثل بقوله تعالي : (فإن لم يستجيبوا لكم)[(٣)] الخطاب للنبي صلي الله عليه وسلم ثم قال للكفار (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) يدل علي ذلك قوله تعالي : (فهل أنتم مسلمون) وهذا ما بينه الفراء[(٤)] حيث قال : فإن لم تستجيبوا لكم (فلكم أريد بها النبي صلي الله عليه وسلم) وقوله تعالي : (فاعلموا ليست للنبي عليه السلام إنما هي لكفار مكة . ألا تري أنه قال فهل أنتم مسلمون) .

والآية تحمل شاهدين - الأول أني بضمير الجمع في قوله (لكم) يجيب علي ذلك الزمخشري مبرزا السر البلاغي فإن قلت : ما وجه

---

(١) من سورة طه رقم / ١١٧ (٢) الكشاف جـ ٢ صـ ٣٦ البرهان للزركشي جـ ٢ صـ ٢٤٠ (٣) من سورة هود رقم / ١٤
(٤) معاني القرآن للفراء جـ ٢ صـ ١١ الدار المصرية ....

جمع الخطاب بعد افراده وهو قوله لكم فاعلموا بعد قوله فأتوا قلت : معناه فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن رسول الله صلي الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم(١) ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلي الله عليه وسلم كقوله (فإن شئت حرمت النساء سواكم ٠٠)

والشاهد الثاني في فاعلموا انتقل الخطاب إلي غيره وهم الكفار ومعناه فاعلموا أنما أنزل الله أي أنزل ملتبسا بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلف واخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه فاعلموا أن لا إله الا الله وحده وأن توحيده واجب والاشراك به ظلم فهل أنتم مسلمون مبايعون بالاسلام بعد هذه الحجة القاطعة وهذا وجه حسن ٠٠٠ ويجوز أن يكون الخطاب للمسلمين ومعناه فاثبتوا علي العالم الذي أنتم عليه ٠ وإزدادوا يقينا وثبات قدم علي أنه من عند الله وعلي التوحيد ومعني فهل أنتم مسلمون فهل كنتم مخلصون ويجوز أن يكون الكل خطابا للمشركين في لكم للمشركين والضمير الغائب في لم يستجيبوا لمن دعوهم فيعود إلي من في من استطعتم(٢) ومعناه فإن لم يستجيبوا لكم إلي الظاهر ، لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة فاعلموا به نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق فهل أنتم داخلون في الاسلام بعد قيام الحجة القاطعة وفي هذا الاستفهام معناه الطلب والتنبيه علي قيام الموجب وزوال العذر ٠٠٠

(١) الكشاف جـ ١ صـ ٣٥، ط النهضة سنة ١٣٤٣ هـ
(٢) حاشية الشهاب جـ ٥ صـ ٨٢

ويمثل ابن فارس في هذا الباب وهو أن يبدأ بالشيء ثم يخبر[١] عن غيره ، يقول شداد :

ومن بك سائلا عني فإنني = وجروة لا ترود ولا يعارُ

وجروة : فرسه فالمسألة عنه والخبر عن غيره [٢] وترود : تجيء وتذهب ومعناه أن فرسه مرتبطة بالفناء لعتقها وكرمها ، لا تترك وتهمل ولا تعار وتبذل - ترك الخبر عن نفسه وجعل الخبر لفرسه ولم يقل الشاعر لا ترود ولا تعار فيدخل نفسه معها في الخبر .

ومثله قول الأعشى :

وإن امرأ أهدي إليك ودونه من الأرض موماة وبهماء خيفق

لمحقوقة أن تستجيبي لصوته وأن تعلمي أن المعان موفق

قال أبو عبيدة : كان المحنق أهدي إليه طلبا لمديحه وكانت العرب تحب المدح فقال لناقته يخاطبها : وإن امرأ أهدي إليك ودونه)[٣] ترك الخبر عن أمريه وأخبر عن الناقة فخاطبها ...

تعرض ذلك إبو عبيدة عند قول الله عز وجل (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب)[٤] حيث قال العرب إذا جازت بمن يفعل كذا فإنهم يجعلون خبر الجزاء (لمن) وبعضهم بترك الخبر الذي يجاز به (لمن) ويخبر عما بده فيجعل الجزاء له ومثله قوله تعالى (ومن يتوكل علي الله فإن الله عزيز حكيم)[٥]

---

(١) الصاحبي جـ ٣٥٨ (٢) الكتاب لسيبوية جـ ١ صـ ٣٠٢ تحقيق هرون . (٣) مجاز القرآن جـ ١ صـ ٢٤٤ ط الخانجي بمصر
(٤) من سورة الانفال رقم / ١٣ (٥) من سورة الانفال رقم / ٤٩

ويمثل ابن فارس تحت هذا اللون بقوله تعالي : (إنّ الذيـــــن(١) آمنوا والذين هـادوا والصابئين والنصاري والمجوس والذين اشركوا) فبدأ بهم ثم قال : إن الله يفصل بينهم . بدأ بهم ثم حول الخطاب

ومثله قوله تعالي : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجـــا يتربّصن) (٢) فخبّر عن الأزواج وترك الذين .

وهذا اللون قد أشـار ا' ليه أبو عبيده عقب قوله تعالي : (إن الذين آمنـوا والذين هـادوا) قال قد تبدأ العرب بالشيء ثـــم يحول الخبر إلي غيره إذا كان من سببه(٣) .

قال الفراء عقب قوله تعالي : (والذين يتوفون منكم ويـــذرون أزواجـا يتربصن) يقال : كيف صار الخبر عن النساء (٤) ولاخبر للأزواج وكـان ينبغي أن يكون الخبر عن الذين فذلك جائز اذا ، ذكرت أسماء ثم ذكرت أسماء مضافة إليها فيها معني الخبر أن تترك الأول ويكون الخبر عن المضاف اليه . فهذا من ذلك لأن المعني والله أعلم إنما أريد به . ومن مات عنها زوجها تربصت . فترك الأول بلا خبر وقصد الثاني لأن فيه الخبر والمعني . فهنـــا ترك الخبر عما ابتديء به الكلام إلي الخبر عن بعض أسبابـــه ، فالأزواج اللواتي عليهن التربص لما كان إنما ألزمهم التربص بأسباب أزواجهن ، صرف الكلام عن خبر ما ابتديء بذكره . إلي الخبر عمن قصد الخبر عنه ....

---

(١) من سورة الحج رقم / ١٧ (٢) من سورة البقرة رقم / ٢٣٤
(٣) مجاز القرآن جـ ٢ صـ ٤٧

ومثله قول الشاعر :

بني أسد إن ابن قيس وقتلّه   بغير دم دار المذلة حُلتّ

فترك ابن قيس وخبّر عن القتل كأنه قال : قتل ابن قيس ذُلّ .

وهذا الحذف من الأول لوجود دليل يدل عليه في الثاني ....

وبعـــد ..

فقد أثـار ذلك البحث عند هذا الرجل موضوعات تستحـق النظـر كنت علي الخوض فيها كالاستعارة في الأعلام والمترادف ، واستقصاء موضـوع المجاز في الحـروف ، أطلت هذه القضايا مـن رأسي لولا أن المقام اقتضي ما كـان فعلي العودة عزمت والله مـن وراء القصـد ..**وهو حسبي .. ونعم الوكيل**

وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم ..

الفقير إلي ربه الجواد
دكتـور
أحمد عبد الجواد عكاشـة
مدرس البلاغة والنقد في جامعة الأزهر
بأسـيوط

الفرح والحزن في القرآن الكريم

د. يحيي محمد يحيي

الفرح في اللغة نقيض الحزن ، فهو يطلق علي السرور وقد يطلق علي البطر [1].. وقالوا : أفرحه بمعني سرّه ، وقال ثعلب الفرح : هو أن يجد في قلبه خفة والإنسان بطبعه يتأثر بما يلقي علي حواسه ومشاعره ، فما قبله وارتاح إليه كان مبعثا لفرحه وسروره ، وما تركه وضجر به كان مبعثا لحزنه وضيقه ..

والله سبحانه وتعالي ـ خلق الإنسان وركّبه وأودع فيه من الأحاسيس والمشاعر ، ما يتفاعل مع الاحداث ويتجاوب مع الوقائع التي يعيشها أو يجابهها ، بحيث إذا ما التزم الانسان بشرع ربه ، وتوجيهات بارئه ومصوره .. قضي عمره في هذه الحياة محتفظا بمشاعر حيّة وأحاسيس نابضة ونفس قوية هادئة وحواس تؤدي وظائفها بانتظام وتتابع .. أما اذا لم يلتزم بهدي ربه أو لم يعرفه ، تخبط وتضجر وأيس وتنقل من صراع الي صراع وفقد في كل واقعة حساً وضيع في كل نازلة نعمة ، وبدّد عند كل مصيبة طاقة حتي إذا ما تتابعت بلاءاته تناثرت وتمزقت أوصال مشاعره وخمدت جذوتها وضلت هدفها وعاش صاحبا بلا وعي يذكر ، وبلا شعور يجدي فتتنكر له الإخوان وتتجافي عنه الأهل والولدان إلا من يتربص به أو يكتسب منه ..

---

(١) انظر لسان العرب مادة فرح .. والقاموس المحيط صـ ٢٤ جـ ١ ط الحلبي سنة ١٩٥٢ ..

لذلك ، كان واجبا علينا أن نستمع لصوت السماء الهادي ، ولقول ربنا الراشد لنتعلم متي نفرح ؟ وكيف ؟ ولم ؟

إن الناظر في ايات الذكر الحكيم يجد كلمة (الفـــــرح ومشتقاتها قد دارت ووردت اثنتين وعشرين مرة في إحدي وعشريـن آية وهو عدد ليس بالقليل ولا بالكثير ولعل ذلك يشير الي تكـــرار وترداد حالات الفرح للانسان في عمره الذي يقضيه في تلك الحيـــاة فهي حالات لا هي بالكثيرة ولا هي بالقليلة إذا ما قيست مع مـــا يعتريه من أحوال وحالات تتلون وتتشكل وتتنقل علي طول عمـــره وظروفـــه ..

أو أنه عـدد أحصي الله تعالي فيه كل ألوان الفرح التي تنتظـر حياة الانسان مع تقييم وتقدير لكل لون بغية التزود من النافـــع وترك الضار بدليل انه يمكن تقسيم هذا العدد إلي ثلاثة أقســـام هي :-

الأول :

فيه تحصر المواضع التي يكون فيها الفرح أمراً مطلوبا والمفروح به جدير بذلك ..

الثاني :

فيه تحصر المواضع التي يكون فيه الفرح أمراً مظنونا والمفروح به ليس أهلا ..

الثالث : ـ

فيه تنحصر المواضع التي يكون فيه الفرح أمراً ممقوتا والمفروح به مجلبة للهمّ والغم والخسران المبين ..

والقسم الأول تتبلور معالمه من خلال أيات ثلاث فقط ..
والقسم الثاني تتبلور معالمه من خلال ثماني آيات ..
والقسم الثالث تتبلور معالمه من خلال عشر آيات ...

وبالتأمل فيما بين الأعداد من قلة وكثرة نلحظ أنه قد يكون في ذلك اشارة إلي أن حياة الإنسان ليست مجالا ولا ظرفا موائما للأفراح والفخارات بل كل ما يوجب الفرح الحقيقي أمره ميسور وإحصاؤه معلوم وفهمه مقدور .. أما عندما يتمرد الإنسان أو يحاول التحلل فيقابل بأمور تتسع عليه وتعتسف وتتآزر ضده وتردف .. ، فإذا لم يتحرك في دائرة المطلوب الواجب ألقي بنفسه في أتون المظنون والمرجوح وهو أضعاف الواجب عدداً وكلفه ، وإذا ما وخمر وتاه وغاب ، ألقي به في اكثر من سابقه وأشد منه وطأ وأحط مآلا ...

وهاهي ذي آيات الفرح المحمود والأمل المنشود لدي كل عاقل راغب في الهناءة ناءٍ عن كل ما يشين :ـ

الآية الأولي وهي رقم ٥ من سورة يونس (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ..

والثانية وهي الآية ١٧٠ من آل عمران في حق الشهداء :

(فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ..

والثالثة وهي اية ٤ من الروم (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهوالعزيز الرحيم) ..

وبالنظر في الآيات الثلاث مجتمعة نجد انها جمعت كل خير ونفع للإنسان ، فالإسلام والجنة وما ينشأ عن العمل بهما ولهما ..

والإسلام والجنة ، إشارتان لمبعث البهجة والفرحة والمسرة في الدنيا والآخرة ، فالإسلام كدين ذي سلوك محدد ومعين إذا ماالتزم به أسبغ السعادة الحقيقية وأشاعها في كل اتجاه وهذا أمر يوجب الفرح ويزيل بواعث الحزن ..

والجنة كهدف وملتقي الأحبة ، فيها كل شيء يشيع الأنس ويؤجج الحب ، ويزكي المودة ، لهي بذلك جديرة بأن يفرح بها ولها ..

ولكن أيّهما سبب في الآخر ؟ إنه الاسلام كسلوك وكخلق وكبذل يجلب خيرات تدوم ولا تنقطع ، تحيا ولاتفني ،تزيدولاتنقص . وهذه هي الجنة في حدود مقدورنا من التمثيل والتخييل ..

وبالله ، هل ما يفرح به الناس الآن ويصيحون به وعليه ، ويتركون الغرض والنافلة من أجله ، والأهل والولد ، أهو مما دعت إليه تلك الآيات الثلاث ؟

هذا سؤال يستوجب أن ندلف إلي أهل التفسير لكتاب الله

تعالي لنستجلي الأمر - فإلي الآية ٥ من يونس ...

ففضل الله هو الإسلام ورحمته هو ما وعد عليه [١] ومما يزيد الأمر تأكيداً ما ذكره المفسرون عند مطلع الآية (أصل الكلام - بفضل الله ورحمته فليفرحوا ، فبذلك فليفرحوا ، والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا ، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء لمعني الشرط ، كأنه قيل : فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح فإنه لا مفروح به أحق منهما [٢].

وبالنظر في هذا الكلام نجده حاسما واضحا فيه التأكيد والتقرير ليوجد جواً كله الصدق وحب الخير والنفع ، وخروج الكلام علي معني الشرط ، والشرط لا يتخلف جوابه عند الله ، وجزاؤه زيادة في الحث والدعوة إلي الفرار إلي الاسلام كدين وخلق وعقيدة وعمل يجب ويستأهل الصبر عليه وله حتي نظفر بالجنة في الدنيا والآخرة ، في الدنيا ، هدوء نفس وراحة صدر وثقة كبيرة في الله تعالي ، وفي الآخرة إنجاز لما وعد به الله وتحقيق سخي له .. كما أنه ختم الآية بهذه الجملة (هو خير مما يجمعون) أي ما ذكر من فضل الله ورحمته ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، وفي ذلك نعي (عليهم إذا ما فرطوا في النصيحة ، وخير يساق - إليهم إذا ما التزموا ويزيد من خطر معناها وبليغ مبناها ، أن المتكلم رب ، يعلم الخير لعباده ويرتب ما يجمعونه ثم يخلفونه ، ثم

(١) ، (٢) راجع في ذلك الكشاف صـ ٢٤١ جـ ٢ ط الحلبي وصـ ١٥٦ جـ ٤ أبو السعود ط دار احياء التراث .....

يحاسبون عليه .....

وفيها اشارة إلي أن خيرية الدين والعقيدة فوق ما يجمع من حطام الدنيا حتي ولو كان من حلال ، فقد ذهب في جمعه وقت كبير وجرّ علي صاحبه شغلا واهتماما ، ثم لا يفوته أن يحاسب عليه بينما الدين والتقي والرضا والهدي لا يجلبان إلا الهدأة والنعمة الكبري ..

أما آية آل عمران ١٧٠ ، فهي صورة معبرة عن منحي عظيم ينتحيه المسلم ولا يتكاسل عن ولوجه ، وهو الاستشهاد في سبيل الحق والخير وهو يعرف تماما ، أنه وإن ضحّي بروحه ، ففي ذلك إبقاء لعقيدته كريمه مصانه عزيزة في دنيا الناس ، يذور عنها كل أبي ويرخص دونها كل غالٍ ، وهو وإن ترك الدنيا فهو صائر وآيب إلي ربه وجنته ونعيمة وكل ذلك مفرح له ولكل من يحب اللحاق به من إخوانه .....

بينما الناس في هذا الزمان يكرهون الموت ويبغضون استماعه ويبكون علي من يسلك مسلك الشهداء ويتباكون علي ما يتركونه حطامات للدنيا لا تساوي شيئا ، ولو عقلوا لفرحوا واستبشروا وتمنوا

يقول الزمخشري موضحا سبب فرحهم (فرحين بما آتاهم الله من فضله ـ وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل علي غيرهم من كونهم أحياء مقربين معجلا لهم رزق الجنة ونعيمها (١)

ويذكر العلامة الرازي أن القوم قد جمعوا خيرات ثلاثة :

---

(١) صـ ٤٧٩ جـ ١

منفعة ، وتعظيم ، وتعلق بالرازق الكريم ، يقول صاحب التفسير الكبير (اعلم أن المتكلمين قالوا : الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فقوله تعالي : (يرزقون - اشارة إلي المنفعة ، وقوله : (فرحين - إشارة إلي الفرح الحاصل بسبب ذلك التعظيم وقوله : (فرحين بما آتاهم الله من فضله) يعني ان فرحهم ليس بالرزق بل بإيتاء الرزق لأن المشغول بالرزق مشغول بنفسه والناظر إلي ايتاء الرزق مشغول بالرازق .. (١)

أما الآية الثالثة وهي ٤ من الروم فهي تضع علامة من علامات الدين والتشيع له وهي الفرح حينما تعلو راية الإسلام ويرتفع أهله عن الذلة والهوان وتكسر شوكة عدوهم ، وفي ذلك الفرح استشعار برضا الله تعالي علي عباده في هذا الوقت الذي تعلو فيه رايتهم ، وفيه ، كذلك حث علي التمسك التام بدين الله والذود عنه، وفي الآية كذلك ما يشير الي وجوب الفرح عند كل مؤمن وتغليب الفرح بالنصر لدين الله فوق كا ما عداه من حطام فان ..

وبالنظر في أيامنا هذه ، نجد الناس ، قد غفلوا عن تلك الحقيقة فدين الله وأهله يعانون ويحاربون ويتجشمون الصعاب المزلزلة واخوانهم من حولهم ، في دنياهم يفرحون ، ونحو ملذاتهم ينساقون ، وعن دينهم والدفاع عنه ، يتغافلون ..

ويكشف صاحب روح المعاني عن دواعي الفرح في الآية فيقول : (ويومئذ - أي ويوم إذ يغلب الروم فارسا ، يفرح المؤمنون بنصر

(١) صـ ٩٤ جـ ٩ ط دار احياء التراث العربي ....

الله ، وتغليبه من له كتاب علي من لا كتاب له ، وغيظ من شمت بهم من كفار مكة ، وكون ذلك مما يتفاءل به لغلبة المومنون علي الكفار .. وقيل نصر الله تعالي ، صدق المومنين فيما اخبروا به المشركين من غلبة الروم علي فارس .. وقيل نصره عز وجل أنه ولّي بعض الظالمين بعضا ، وفرق بين كلمتهم حتي تناقضوا وتحاربوا ، وقلل كل منهما شوكة الآخر (١)

ومما قاله الألوسي - نلحظ أن دواعي الفرح للمومن قد تكون من موء ازرة الله لمن شابههم في إنزال كتاب عليه ، أو من وقوع ما أخبر به المومنون المشركين وفي ذلك عزة لهم وتصديق من السماء لإخبارهم أو من فلّ عزيمة عدوهم وكسر شوكته ففي ذلك نصرة لهم وإراحة لإعداداتهم ومبعث فأل لهم ..

وكلها - ولا شك - يستشعرها المومن ولا يفرق بينها ويتقرب إلي الله بالفرح بها ..

وبالتأمل في الآيات الثلاث مجتمعة نري شمولها لكل منافذ السعادة والبهجة للمومن ، فهي تربطه بإخوانه وأهل ملته ، وهي تحثه علي خروج من الدنيا محفوف بالإعزاز والتكريم ، وهي أخيرا تشحذ همته وتستحث عزيمته وتستجيش مشاعره إلي جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ..

وبعد أن انتهينا من الفرح الذي هو في موضعه ننتقل إلي الآيات التي تصور نوعا آخر من الفرح وهو فرح مظنون وبعيد عن

راجع في ذلك تفسير العلامة الألوس صـ٣٠ ط دار احياء التراث العربي وكذلك الكشاف صـ ٢١٤ جـ ٣

الحق وما ذكره القرآن وعبر عنه بلفظة الفرح إلا علي حسب اعتقاد أهله وظنهم وفرحهم به لكنّ رب الناس يعرّف الناس أن هذه الأشياء لا تستحق الفرح وأن الفرحين بها قد وضعوا غشاوات علي عقولهم لو أزالوها لتيقنوا أنها لا تستحق الفرح والسر ينحصر فيما يلي :-

أ - لمشوبة هذا الشعور بالظلم والعدوة والعاقل لا يفرح إن عادي أو ظلم ..

ب - لقصر زمن المفروح به وعدم بقائه .. والعاقل لا يفرح الإ بما خلص ودام ..

ج - لعدم التمهل في فهمه وتحسس حركته .. والعاقل لا يفرح الإ بما تأكد من تقييمه ..

والآيات التي تشير الي الناحية (أ) هي :-

قوله تعالي في الآية ٥٣ من المومنون (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) ..

وآية ٣٢ من الروم (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) ..

وآية ٣ من غافر (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا يستهزءون) ..

ومن النظر فيما قاله المفسرون في هذه الآيات نجد ما يلي :-

أولا :

الآيات الثلاث تحكي عن أقوام الرسل المعاندين المخالفين

الذين تحزبوا وتفرقوا وكل جماعة منهم رضيت بما عبدته وإن اتحدوا في مخالفتهم لدين الله وفي اتخاذ معبود لهم من دون الله ..

ثانيا :

أن هذه التحزبات مدعاة للتناحر والتنافر فيما بينهم من جهة وفيما بينهم وبين الموحدين المؤمنين من جهة أخري ، وفي ذلك إشارة لمشاعر العداوة والبغضاء دون سبب يذكر أو أن ذكر ففيما بينهم كل منهم يظلم الآخر وفيما بينهم وبين المؤمنين هم يظلمون المؤمنين ..

ثالثا :

التعبير بلفظة (فرحون وفرحوا) توحي بأن القوم ظنوا - وهم علي ضلال - أن صنيعهم هذا مدعاة للفرح ومجلبة للسرور وكذبوا فهم علي ضلال وفي ظلمات ..

رابعا :

تجمع الآيات الثلاث وما يسبقها ويتلوها في كل سورة علي ذم أولئك الفرحين لأن فرحهم مبني علي مجرد الظن ووراءة عقاب وخسران عظيم (١).. وفي ذلك ملحظ يجب الإلتفات إليه وهو أنه قد يفرح امرؤ أو جماعة ولا يحسن الحكم علي فرحهم إلا بعد أن يتحدد المفروح به من جهة والمقابل له من

---

(١) راجع في ذلك ما يلي : روح المعاني صـ ١٤١ /١٤٢ جـ ١١ والكشاف صـ ٢٢٢ جـ ٣ أبو السعود صـ ٧ ٢ جـ ٧ والكشاف صـ ٤٣٩ جـ ٣

جهة اخري ، فإن روي في المفروح به ضلالا وفي مقابلة شرفا وحقا كان فرحهم مجرد وهم وظن وعلي العاقل أن يتجنبه. وما أكثر ما تمتلئ به الحياة من أوهام ومعتقدات بالية يصيح بها أهل الشر والمجون ويحاولون بها النيل من أهل الحق وعقائدهم..

وقد يكون الفرح مظنونا نظرا لسرعة تقضية وعدم ضمانة وبقائه مع المفرح به من الناس وهذا هو ما تحكيه آيات الناحية (ب) وآياتها هي :-

قوله تعالي في سورة الرعد آية ٢٦ (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع)..

وقوله في سورة النحل آية ٣٦ (فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون)..

وآية الرعد تلفت الانظار إلي كل ما يتصل بالدنيا فهو بالنسبة للآخرة نذر قليل النفع سريع النفاذ ومن تعلق به فرحا مبتهجا ففرحه في غير موضعه لأنه مقطوع عنه بالموت أو لأن الفرح منقض وزائل بتغير ، الأحوال من بسط الي قبض .. وكان جديرا به أن يتعلق بالباسط وهو الله تعالي ويعبده حتي لا يكون مستدرجا بتلك النعمة..

والعلامة أبو السعود وغيره من المفسرين (١) يشير إلي أمور في الآية

---

(١) أبو السعود صـ ١٩ جـ ٥ والكشاف صـ ٣٥٩ جـ ٢

فيها من البلاغة ما يؤدي الي غرضنا في هذا المقام فهو يشير إلـــي التوكيد والتقرير من أن بسط الرزق وتضييقه محتمل وقائم وأن هذا بيد الله وحده لابيد غيره ، وذلك آت من أسلوب القصر (اللــــه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي لا أحد غيره م يقوم بتلك المهمة وكذا في أسلوب القصر في عجز الآية والذي ينعي علي هؤلاء الفرحين (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) فهو ينفي أن يكون المفروح به شيئا يستحق الفرح ويثبت الجدارة والأهمية لما هو مرتقب فـــي الآخرة وذلك زيادة علي ما في الجملة من ايحاءات وظلال تحس مـن التعبيرات اللفظية بكلمة (دنيا) وما فيها من السفل والوطـــاءة والدنو وكلمة (في الآخرة) وما فيها من تركيز علي الآخرة وأن ـ العبرة بها لا بما في الأولي وكلمة (إلامتاع) بتوجيه الاثبات الي كلمة (متاع) وصيغتها المنكرة والمفيدة للتحقير والتضليل وهمـــا خستان للموصوف الواحـد ..

وبهذا لا يكون الفرح هنا إلا فرحا مظنونا لا يحدث إلا مـــن ضعاف العقول ..

وأما آية النحل فتحكي ردّ سليمان عليه السلام علي قوم بلقيس المشغولين بالدنيا ومتاعها أما هو فمن أهل الآخرة وممن يقدّرون ، متاع الدنيا بمقداره الحقيقي وهو أنه ليس جديرا بالفرح بل الفرح كلـــه في الآخرة وما يهدي إليها (بل أنتم بهديتكم تفرحون) أي فرح افتخار واعتداد بها .

وواضح أن بلاغة الإضراب هنا بالحرف (بل) فائدته التنبيه

إلي أن امداده عليه السلام بالمال منكر قبيح ، قيل وينبئ عن اعتدادهم بتلك الهدية التنكير في قول بلقيس (وإني مرسلة إليهم بهدية) ومما يزيد من قبح المفروح به هنا أن الكلام قد يكون علي الكناية أي انه عليه السلام أراد أن يرد عليهم بما مقصوده : أنتم من حقكم أن تفرحوا بأخذ الهدية لا أنا فخذوها وافرحوا .. وهو معني لطيف كما يري الألوسي[1] ..

ورده عليه السلام هدية القوم فيه تدليل علي أن المفروح به عندهم لا يستحق الفرح عند أهل الله وكونهم قاسوا حاله علي حالهم مما يدل علي قصورهم في التفكير ..

وقد يكون الفرح مظنونا لعدم التمهل والروّية في استقباله وإدراك جوانبه وأسبابه ودواعيه .. والآيات التي تعين علي فهم هذه الناحية ..

الآية ٢٢ من يونس ، ٣٦ من الروم ، ٤ من الشوري ..

وآية يونس هي (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتي إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا لنكونن من الشاكرين) ..

وآية الروم (إذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) ..

---

(١) راجع الكشاف صـ ١٤ جـ ٣ والألوسي صـ ٢٠٠ جـ ١٩

وآية الشوري (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) ..

والآيات الثلاث وردت فيها لفظة (فرح) تعبيرا عن الابتهاج السريع الذي لا يلبث أن يزول مع تقلبات الأحوال وتداول الأيام واللحظات وذلك وصف للإنسان المتسرع الذي لا يربط الأحداث ، بأسبابها ونتائجها ولا يتقبل الأمور مع احتمال تقلباتها ولا يتخيل ترحا إثر فرح أو شقاء بعد راحة ، فهو بذلك يعيش في الدنيا ولا يعرفها وتتخطفه الأحداث ولا يعيها ويعيش متقلبا في الشقاوات والعذابات أما إن صفت نفسه وعرف ربه أسلم له الأمر وشكر مخلصا عند النعمة ، وصبر ثابتا عند المحنة فهو بربه في كل حال وإلا يكون فرحه فرحا مظنونا لادوام له ولا أثر حسن منه ..

ولاحظ المفسرون بلاغة الالتفات في آية يونس ، وأن القصد منه أن يعجب الله تعالي من حالهم فهم لا يذكرون الله إلا عند الشدة وبعد ما يزيلها سبحانه إذا هم ينشغلون عنه ويتلهون بما لا يليق وفي ذلك إنكار وتقبيح لهم ولأمثالهم .. والإلتفات عند قوله تعالي (وجرين بهم) بعد قوله (يسيركم - كنتم) يقول الزمخشري (فائدة صرف الكلام عن الخطاب الي الغيبة هي المبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح)(١)

وآية الروم تؤكد علي جحود الإنسان إذا ما قابل الشدة

(١) الكشاف صـ ٢٣١ جـ ٢

بقنوط ويأس بينما يقابل الصحة والسعادة بالفرح البطر وكان جديرا به أن يقابل الشدة بالصبر والأمل والثانية بالشكر والحمد ..

فالله تعالي اجري نظامه في ملكه بأن زاوج بين السراء والضراء وكلتاهما خير ونعمة للإنسان عرف أم لم يعرف ، رضي أم كره لذا كان فرحه بالسراء وقنوطه بالضراء ، تصرفاً غير محمود لأنه فرح فرحا مظنونا غير منظور فيه لقرينه ومقابله في هذا الحياة ، مع أن من رحمته تعالي الإكثار من إحداث السراء والإقلال من إنزال الضراء ، وهذا ما أشار اليه الألوسي والزمخشري [1] من بلاغة التعبير (بإذا) في الآية بجانب الرحمة دون السيئة يقولان في الآية (رحمة) أي نعمة من صحة وسعة ، وجوابها ـ بطروا وأشروا فإن الفرح المذموم دون الفرح حمدا وشكرا .. والسيئة الشدة .. إذا هم ـ يقنطون ـ فاجأوا القنوط من رحمته عز وجل ، والتعبير بإذا الرحمة وكثرتها دون المقابل وفي نسبة الرحمة إليه تعالي دون السيئة تعليم للعباد أن لا يضاف إليه سبحانه الشر ، وهو كثير ..

وآية الشوري قريبة من اية الروم في الغاية من إيرادها مع اشارة لطيفة ذكرها العلامة أبو السعود عند قوله (وإن تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم فإن الإنسان كفور) ولم يقل (فإنه كفور) أي بوضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل علي أن هذا الجنس موسوم بكفران ـ النعم [2] وما جلب علي نفسه هذا الوصف إلا تعجله بالفرح ،والبطر إبّان أحداث تستوجب الحمد والشكر وتوقظ صاحبها الي احتمال

---

(١) الكشاف صـ ٢٢٢ جـ ٣ والألوسي صـ ٤٣ جـ ٢١

وقوع الضد ، وأن كلا منهما خير إذا ما أحسن المرء استقبالهما.

والي هنا نصل إلي النوع الثالث من أنواع الفرح ، وهو الفـــرح الممقوت وهو لايقع إلا من أهل المعاصي والشرور ، وهو يختلف عـــن سابقه فسابقه ليس صاحبه مداوما علي المعصية أو علي هذا الشعـــور بل قـد يفيق ويحس حـاله أما هنـا ، فالفرحون إما مشركون أو ـ منافقون أو مسلمون انشغلوا بالنعمة عن المنعم أو أنهم قوم متهربـون من الواجب ، أو مزيفون للحقيقـة .. فهـذا إصرار علي الضـــلال والمعصية وفي سابقه تصوير لحالات تعتري نوعا من الناس لكنهم ليسوا أهل ضلال ولا شرك ..

ومن الآيات التي تخبر بهذا النوع من الفرح آيات :ـ

أ ـ يحدث فيها الفرح من أهل الشر في إهل الخير والحق عندمـــا يبتلون من الله تعالي ..

ب ـ يحدث فيها الفرح بالنعمة دون المنعم ..

ج ـ يحدث فيها الفرح عند التهرب من الواجب ..

د ـ يحدث فيها الفرح عند القدرة علي الزيف وإيقاع الشبهات ..

والآيات التي تجلي الناحية (أ) هي آيتا (١٢٠ ، [illegible]) من آل عمران ..

قوله تعالي : مخاطبا رسوله الكريم والمؤمنين معا :(إن تمسسكم حسنة تسوءهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقـــوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط) ..

وقوله (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم) ومثل الأولي آية ٥٠ من التوبة (إن تصبك حسنة تسوءهم وإن تصيبك ، مصيبة يقولون قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون)

والآية الأولي من تمام وصف المنافقين ، فهم مترقبون نزول نوع من المحنة والبلاء بالمؤمنين حتي يفرحوا منهم ثم يغتمون بحصول نوع من أنواع الحسنة للمسلمين (١) ويلاحظ ابن عطيه (٢) (ان الله تعالي ذكر المس في المحنة ليبين أن بأدني طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين ، وفي السيئة ذكر لفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن لأن الشيء المصيب لشيء هو متمكن منه أو فيه فدل بذلك علي شدة العداوة إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدة بل يفرحون بنزولها بالمؤمنين)

فبالله ، هذا النوع من الفرح لا يوصف إلا بالمقت والبغض من قبل الله ومن كل عاقل ، فهم بهذا يشمتون في هؤلاء المؤمنين مع أنهم لا يشكلون عليهم خطرا كما أن رقابتهم علي المؤمنين دائمة في السراء والضراء وفي ذلك مضاعفة ومبالغة في الكيد للمسلمين لكن الله تعالي أرشد المسلمين الي ما يزيل هذا الضرر وذلك بالصبر والتقوي .. وقد لاحظ أبو حيان (٣) بداعة بلاغية في ذكر السيئة

---

(١) تفسير الرازي صـ ٢٠٢ ، ٢٠٣ جـ٩ ط دار احياء التراث العربي
(٢) تفسير أبو حيان صـ ٤٢ مجلد ٣ ط دار الفكر ..
(٣) المرجع السابق بصفحته ....

مقابل الحسنة والفرح مقابل المساءة وبلاغتها آتيه من معنى الشمولية في التتبع لما ينزل بالقوم ..

والآية الثانية في حق اليهود كما قال ابن عباس (هم اليهود حرفوا التوراة وفرحوا بذلك وأحبوا أن يوصفوا بالديانة والفضل فالموصول عبارة عن المذكورين ، أو عن مشاهيرهم وضع موضع ضميرهم والجملة مسوقة لبيان ما تستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الأخروي إثر بيان قباحتها وقد أدمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهو إصرارهم علي ما هم عليه من القبائح وفرحهم بذلك ومحبتهم لأن يوصفوا بما ليس فيهم)(١)

وواضح من هذا أن صفة الفرح هنا من هؤلاء القوم شنيعة وخسيسة فهوفرح ممقوت إذ كيف يفرح بالزيف والتضليل ويحب ان يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا جزاء أنسب من نار تحوطهم وتكافئهم (فلا تحسبنهم بمفارة من العذاب ولهم عذاب أليم) ..

ومما هو قريب من ذلك ومعه في المقت والبغض هذا الفرح الذي ذكرته الآية ٧٥ من غافر وهي (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) ..

وواضح هنا أن الفرح ممقوت لصدوره من منكر كافر إثر ارتكابه مخالفة من مخالفاته لأهل الحق والخير في الدنيا ..

وفي الآية نوع من التوبيخ الشديد وذلك يفهم من ربطها

(١) أبو السعود صـ ١٢٥ / ١٢٦ جـ ٢

بالآيات قبلها وهي (الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا .... الي قوله (ذلكم إذ يري في ذلك أبو السعود[1] هذا فيقول (ذلكم - أي الاضلال - بما كنتم تفرحون في الأرض - أي تبطرون وتتكبرون بغير الحق - وهو الشرك والطغيان وبما كنتم تمرحون تتوسعون في البطر والأشر .. والإلتفات للمبالغة في التوبيخ لأنه بعد ضمير الغيبة في (الذين كذبوا) عدل إلي ضمير الخطاب في ذلكم .....) ..

وهناك نوع من الفرح الممقوت يتمثل في التهرب من الواجب الذي تنقاد له كافة المكلفين وتحكي ذلك الآية ٨١ من التوبة (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا - بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) ..

والآية هنا تحكي فرحا لمن قعد عن واجب وتكاسل عند اداء أمانة وذلك لما علم الله من نفاقهم وكفرهم .. والمخلفون هنا أي الذين خلفهم النبي (ﷺ) بالإذن لهم في القعود عند استئذانهم أو خلفهم الله بتثبيطه إياهم لما علم في ذلك من الحكمة الخفية أو خلفهم كسلهم أو نفاقهم[1]

وبالتأمل في حكمة (وكرهوا) إثر كلمة (فرح) تثير توهما قام بنفوسهم بأنهم يكرهون الضرر ويفرحون للنفع والسلامة مع

---

(١) أبو السعود صـ جـ ٤ والكشاف صـ ٢٠٥ جـ ٢

أن الحقيقة عكس ذلك تماما ، فما كرهوه تنافس عليه أهل الخير والإيمان ، وما فرحوا به بكي وحزن له أهل الإيمان والتوحيد الخالص إذن ففرحهم فرح ممقوت لأنه معكوس الهوية ومقلوب الرؤية ..

يقول أبو السعود (وكرهوا أن يجاهدوا ..... الخ الآية - لا إيثارًا للدعة والخفض علي طاعة الله تعالي فقط بل مع ما في قلوبهم من الكفر والنفاق فإن إيثار أحد الأمرين قد يتحقق بأدني رجحان فيه من غير أن يبلغ الآخر مرتبة الكراهية) ويضيف (وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم علي أن يقال وكرهوا أن يخرجوا إلي الغزو إيذانا بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب وأشرف المطالب التي يجب ان يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله (صلي الله عليه وسلم) (١)

وهناك النوع الأخير من الفرح الممقوت وهو الفرح بالنعمة دون المنعم وآياته الحاكيات هي : ٤٤ من الانعام ، ١٠ من هود ، ٧٦ من القصص ، ٢٣ من الحديد ..

وآية الانعام هي قوله تعالي : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتي إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) ..

---

(١) أبو السعود صـ جـ ٤ والكشاف صـ ٢٠٥ جـ ٢

وآية هود (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور) ..

وآية (إن قارون كان من قوم موسي فبغي عليهم وآتيناه من الكنوز ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) .. وآية الحديد (لكيلا تأسوا علي ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) ...

وواضح في الآيات الأربع الجامع المشترك وهو الزهو والفرح والفخار عند نزول النعمة وهذا أمر يلهي ويشغل عن منزل النعم ومجري الخير وهو الله تعالي بدليل التصريح في الآية الأولي (فلما نسوا ما ذكروا به) وفي الآية الثانية (لفرح فخور) وفي الثالثة (إن الله لا يحب الفرحين) .. وفي الرابعة النهي الصريح بعدم الفرح (ولا تفرحوا بما آتاكم) ...

وآية الأنعام تشعر بأن القوم حينما تمادوا في غيّهم ولم تزدهم النعم شكراً لربهم وحمدا علي خيره وكرمه فاجأهم الله ليكون ذلك أشد وافظع ..

ودلالة (حتي) في الآية علي الغائبة ولادلة (إذا) في الآية علي المباغته ودلالة الجملة الاسمية هم مبلسون) بإيحاء انها المفعمة بدوام اليأس وشمول النكال .. يقول أبو السعود (وحتي - غائبة كانه قيل ففعلوا ما فعلوا حتي إذا ما اطمأنوا بما اتيح لهم وبطروا واشروا أخذناهم بغته أي نزل بهم عذابنا فجأة ليكون أشد عليهم وقعا

وأفظع هولا .. فإذا هم مبلسون) جملة اسمية فيها دلالة علي استقرارهم علي تلك الحالة الفظيعة) (١)

فأي فرح يستحق التهيؤ والاهتمام به أبغض وأكثر مقتا من فرح يجر عليهم هذا الوبال والنكال ..

وآية هود قريبة من ذلك تماما ، وأما آية القصص فهي تنعي علي الفرحين بتلك الطريقة لذا جاء النهي (لاتفرح) وأعقبه كلام مقرر ومؤكد لعلة النهي (إن الله لا يحب الفرحين) وفي ذلك تنبيه كما يذكر الألوسي علي أن عدم محبته تعالي كاف في الزجر عما نهي عنه فما بالك بالبغض والعقاب .. إذ لو تبصر الفرح في الدنيا لعلم أن ما فيها من لذة مفارق لامحالة وذلك يوجب الشرح حتما ..

ومن جميل ما قالوه :-

وإذا نظرت فإن بؤسا زائلا ... للمرء خير من نعيم زائل (٢)

وآية الحديد من أجلّ الآيات واشملها نفعا وعظة ، لا سيما وقد استخدمت فيها ايحاءات ودلالات الالفاظ علاوة علي ترابط الكلام وصياغة التراكيب فتصير الآية بهذا التعليل البليغ) لكيلا تأسوا علي ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) أي أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا علي ما فاتكم من نعم الدنيا - ولا تفرحوا بما آتاكم فإن من علم أن الكل مقدربفوت ما قدر فواته ويأتي ما قدر

---

(١) الكشاف صـ ١٩ جـ ٢ وأبو السعود صـ ١٣٣ جـ ٣
(٢) راجع ذلك - الكشاف صـ ١٩ جـ ٣ والألوسي صـ ١١٢ جـ ٢٠

إتيانه لا محالة ، لا يعظم جزعه علي ما فات ولا فرحه بما هـو آت) (١)

والفرح هنا هو الفرح المذموم الذي يوجب بطرا واختيالا بدليل التعقيب بعده بهذه الجملة الاسمية المثبته والتي تقضي أن يكون ، هناك حب من الله لهذا الصنف من الناس ، فإن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت في نفسه اختال وافتخر بها لا محالة ..

ويلاحظ في الختم بالنهي عن الفرح أنه أقبح من الأسي علي الغائب وفي ذلك ... وتشديد في النكير علي من يفرح بما لا يدوم أو يختال بما سيفارقه (٢)

هـذا هو العرض القرآني الذي تدور فيه كلمة الفرح ، وقد رأينا أنها لاتكون في محلها إلا أن كانت مقرونة بنصر من الله لأهل الحق والخير أو بنيل للشهادة في سبيل الله أو بالفوز المحقق في الجنة وما عدا ذلك فهو يدور بين مظنون في وقوعه أو مشكوك في حدوثه ....

والآن إلي العرض القرآني الذي تدور فيه كلمة (الحزن) لنري لطف الله وكرمه في تكوين الإنسان وغرز المشاعر الخفية فيه والتي تمكنه في كل حال من إفراز أحاسيس الصبر مع الشعور بالحزن حتي تتصاحب وإن قلت درجة احداهما عن الأخري لكنهما موجودة والأمر يرجع إلي بصر الإنسان وصلته بربه ليصيغ تلك

---

(١)،(٢) راجع في ذلك صـ (١) جـ ٨ أبو السعود .....

الأحاسيس ويحركها تحريكا خاصا .. يضمن له رضا ربه واحتساب ما فقد عنده ..

والحزن بالضم ويحرك بمعني الهمّ .. وأحزنه جعله حزينا وهو نقيض الفرح وخلاف السرور ..

وقد لوحظ أن دوران كلمة الحزن ومشتقاتها قد بلغ إحدي وأربعين دورة قد أمكن متابعتها لاستكشاف أنها تحركت علي النحو التالي :ـ

أ ـ مجموعة منها تحكي أمورًا تستدعي حزنا وصبرا والحزن أشد وهذه مركوزة في الدين وفي الولد وهي تنتظم خمس آيات ..

ب ـ مجموعة أخري تحكي أمورا تستدعي صبرا وحزنا والصبر أولي وهذه معللة بمعيّة الله تعالي أو اشفاقا منه تعالي علي نفس عبده ومخلوقه وهي تنتظم ثلاث عشرة آية ..

ج ـ مجموعة ثالثة وأخيرة تبشر بالأمن والطمأنينة وتزيل الخوف والحزن وهذه تشمل بخيرها وبشرياتها الدنيا والناس من مبدئهما حتي نهايتهما وتجديد التفاؤل إلي الضالين من الناس وتقديم التوجيه النافع لأهل الله ـ ثم أخيرا تسوق صورا ومبشرات لأهل التقي والصلاح في الدنيا والآخرة وهذه التحركات تضم في مجموعها ثلاثا وعشرين آية ..

ولنبدأ بالمجموعة الأولي وآياتها هي :ـ

١٥٣ من آل عمران ، ٩٢ من التوبة ، ١٣ ـ ٤ ـ ٦ من يوسف

والآيتان الأوليان تتناولان الاهتمام والاحساس بالحزن تجاه دين الله تعالي وما آل إليه حال القوم بعد تقصيرهم وعدم التزامهم بما أمر رسولهم أو حزنهم علي عدم القدرة علي المشاركة في الجهاد لرفع راية دين الله ..

والآية الأولي ٥٣ من آل عمران تقول :-

(إذ تصعدون ولا يلوون علي أحد والرسول يدعوكم فيأخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا علي ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون) ..

فهي تثبت أن هناك حزنا أصاب القوم وغمّ علي نفوسهم ومشاعرهم فأوقع الله تعالي ما سمعوه في حق الرسول الكريم من الإرجاف بقتله وكسر رباعتيه مقابل ما شاهده عليه السلام في أصحابه من قتل وجرح .. وهذه مقابل تلك حتي لا تنصرف أحزانهم علي الظفر بالمشركين وغنائمهم والفرح بالنصر .. هذا علي أن الضمير في (فأثابكم) للرسول أي فآساكم في الأغنام[٢] وواضح من صياغة الآية (لكيلا تحزنوا) ووقوع هذه الجملة معللة وموضحة لسبب ايقاع هذا الغم وتصريفه إليهم وإلي الرسول الكريم ... وورود المضارع بصيغته المدلة علي التجدد والحدوث لفيه أكبر النفع والتوجيه علي عدم المبالاة بأحداث الحياة بشرط الأخذ بالأسباب ..

ويقوي من قيمة هذه النصيحة الغالية ما قيل إن المعني (جعلكم مغمومين يوم أحد في مقابلة ما جعلتموهم مغمومين يوم بدر لأجل

---

(١) اللسان لابن منظور مادةحزن والقاموس صـ ١٥ جـ ٢
(٢) راجع ذلك الكشاف صـ (٧) جـ ١

أن يسهل أمر الدنيا في أعينكم فلا تحزنوا بفواتها ولا تفرحوا باقبالها .. وفي هذا المعني توسيع لمدي العبر والتحمل لمواجهة أقدار الحياة ، واحتمال كل شيء بحيث يواجه بما يحيله قدرا ، إلهيا مقبولا ..

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالي حكاية للذين حزنوا علي تخلفهم عن الجهاد مع رسولهم مع انهم غير قادرين ورسولهم لم يجد ما يحملهم عليه (ولا علي الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا واعينهم لفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) ..

وهذه الآية تصور مدي تألم القوم حينما لم يشاركوا في رفع راية الحق وتصور كذلك كم كان رسول الله (صلي الله عليه وسلم) حريصا علي تطييب خواطرهم بدلائل صياغية في الآية منها ان إيثار قوله (لا أجد) بدلا من ليس عندي) فيه ما فيه من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين كأنه (ص) يطلب ما يسألونه علي الاستمرار فلا يجده . ثم ما يصوره الفعل (تولوا) من وقوعه جوابا لإذا أي كان ردهم المغادرة والترك عن اسي وحزن يحكيه الفعل (تفيض) أي تسيل أعينهم بشدة من الدمع وهو أبلغ من (يفيض دمعها) لإفادتها أن العين بعينها صارت دمعا فياضا كما أن في نصب (حزنا) حكاية للسبب الذي فاضت من أجله عيونهم بالدمع (١)

---

(١) راجع في ذلك الكشاف ص ٢٠٠ جـ ٢ وابو السعود ص ٩٢ جـ ٤

وهاتان الآيتان ملحوظ فيهما أنهما يحكيان أحداثا من المسلمين الأوائل اعتصرهم فيها الحزن لا من أجل مكسب فاتهم أو دنيا فاتوها وإنما من أجل دينهم وعقيدتهم ورسولهم ..

أما الآيات الثلاث فهي من سورة يوسف وتصور الحزن الذي يعتري الآباء علي ابنائهم والأب هنا سيدنا يعقوب وولده هو سيدنا يوسف عليهما السلام ..

والأولي هي ١٣ من السورة والثانية ٤ ، والثالثة ٦
والأولي قوله تعالي حكاية (قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) والثانية (وتولي عنهم وقال يا أسفي علي يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) والثالثة (قال إنما أشكو بثي وحزني إلي الله وأعلم من الله ما لا تعلمون)

والأية الأولي تصور مدي صدقه في مشاعره ومدي تقبله علي مضض ، ما طلبوه منه ، معتذرا إليهم بشيئين أحدهما أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .. والثاني خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم أو قل به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم .. والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف وإنزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الأول إلي الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثاني إلي ما يتوقع نزوله من أكل الذئب ويزيد من تصوير تأثيره مجيء الجواب من السوءال وهو ما يسمي في علم المعاني (بالإستئناف) إذا المعني أن قال : استئناف مبني علي سوءال من يقول فماذا

قال يعقوب ؟ فقيل قال إني ليحزنني (١)

والآية الثانية : تصور حاله بعد ما وقع ما تحسبه) وابيضت عيناه من الحزن) لأنه إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلي بياض كدر والحزن كان سبب البكاء الذي حدث من البياض فكأنه حدث من الحزن وفي ذلك إيماء بأن الحزن صار مسيطرا عليه ومحركا لكل ما يقع به وأنه لا شيء سوي الحزن أثر علي عينيه ولولاه ما ترك البكاء هذا الأثر .. وهذا تصوير لحنان الأبوة العالي (٢) ..

والآية الثالثة : تحكي حثه لبنيه علي أن يتحسسوا لعلهم يجدون أخاهم فهو دائم الشكوي والبث إلي الله تعالي .. وفي تدليل كلمة (البث) وايحائها أثر بعيد إذ هي أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلي الناس .. وفي هذا ملحظ مؤداه أنه لم يعد يحتمل هذا الهم وأنه كذلك ليس باثأله إلا لله تعالي الذي يثق فيه أنه مرجعٌ له ولديه .. وقد كان) (٣)

ولعله واضح أن سيطرة الحزن علي الصبر هنا ، ليس من باب التمرد علي قضاءات الله وإنما هي ذات شقين : الأول إمدادها بعاطفة أبوية مشبوبة لا دخل له فيها والثاني : تغذيتها برجاءات وظن حسن في الله .. وقد كان لذا يقول الزمخشري :

فإن قلت كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

(١) ، (٢)، (٣) راجع في ذلك الكشاف صـ ٣٠٦/ ٣٣/ ٣٣٩ جـ ٢
وأبو السعود صـ ٢٥٧ جـ ٤

قلت : الإنسان مجبول علي أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتي لا يخرج إلي ما لا يحسن (١)......

والآن إلي القسم الثاني من أقسام الحزن وهو ما شاركه أو ما يمكن أن يشاركه فيه الصبر والصبر أولي ..

وهذا القسم الثاني يعلو فيه جانب الصبر والتصبر لأن الله تعالي يضم المبتلي في معيته أو أنه سبحانه يتجلي عليه بإشفاقاته وملاطفاته ..

ويندرج تحت الأول أربع آيات وتحت الثاني تسع آيات والآيات التي تستدعي صبراً وحزنا والصبر أولي لمعيّة الله المكتنفة للمبتلي هي :-

١ - قوله تعالي في الآية ٤٠ من سورة التوبة (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذهما في النار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم يروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلي وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) وآية ٢٤ من مريم فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا) وآية ١٠ من المجادلة (إنما النجوي من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلي الله فليتوكل المؤمنون

وواضح أن الآيات الأربع فيها حزن وارد قد أمر بالكف عنه

من إيمان بالله واليوم الآخر وعمل صالح من صلاة وزكاة وصدقات والآيات هي :ـ

١١٢ ، ٢٧٧ من البقرة ، ٥١ من الأحزاب ثم ٢٦٢ ، ٢٧٤ من البقرة كذلك وآيتا البقرة الأوليان هما قوله تعالي (بلي من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، وقوله تعالي (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

وآية الاحزاب هي (ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء ومن ابتغت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدني ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما) ..

ثم آيتا البقرة الأخيرتان هما قوله تعالي (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يبتغون ما انفقوا منا ولا أذي لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ..

وبالنظر في هذه الآيات مجتمعة نجد انها بمثابة الإرشاد والتوجيه بالحرص علي النافع والأصل المهم ..

وبالتأمل نجد أن الآيات مجتمعة حافز صريح لاخلاص العمل واسلام الوجه لله ثم حث علي الاستقامة والاستدامة في الصلاة والزكاة

ثم العدل والتسوية بين الزوجات كداع قوي لاشاعة الطمأنـــة ونشـر الهدوء النفسي في الأهل ثم تحفيز آخر علي الانفاق فـــي صورتين جميلتين الأولي دون اتباعه بمنّ ولا اذي والثانية : تعميمهـا في الليل والنار .. كل هذه التصرفات تستحق الطمأنه ونزع الخـوف وإزالة الحزن ..

ولا شك أن الآية بلي من أسلم .... الخ) سبق أن ذكرنـا أن فيها ترغيبا علي الطاعة والانقياد لله تعالي (١) والثانية (ذلـك أدني .... الخ الآية) آي أقرب الي قرة عيونهن ورضاهن جميعا لأنـه حكم كلهن فيه سواء ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منـك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن (٢)

والآية الأولي في الانفاق فهي أتت مبينة للأمور التي يجب تحصيلها حتي يبقي ذلك الثواب منها ترك المنّ والأذي .. والمنّ كما يقولون هو اظهار الاصطناع اليهم والأذي شكايته منهم بسبب ما أعطاهم (٣)

والآية الثانية في الانفاق قالوا في سبب نزولها انها عامة في الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة تحرضهم علي الخير فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا اقتضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقت ولا حال ولوحظ في نظمها ان الفاء في قوله (فلهم) جواب الذين لأنها تأتـي بمعني الشرط والجزاء فكان التقدير من أنفق فلا يضيع أجره (٤) وهذا مما لايرتاب فيه عاقل . فإيمان بالله واليوم الآخر مع صلاة وزكاة ،

---

(١) صـ ١ جـ ٤ الرازي (٢) أبو السعود صـ ١١ جـ ٧
(٣) صـ ٤٧ جـ ٧ الرازي (٤) صـ ٣ / ٤ جـ ٧ الفخر الرازي

وأما الشق الآخر الذي يتغلب فيه الصبر علي الحزن هو شق تتجلي فيه نسمات الرحمة والملاطفة من الله تعالي لرسوله الكريم في مواضع ثمانية له، ولأصحابه في موضع واحد ..

والموضع الواحد هو الآية ١٣٩ من آل عمران (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) فهنا الكلام موجه الي الرسول الكريم وأصحابه بعدما حزن القوم علي قتلاهم وانكسرت قلوبهم من هول الهزيمة أما قوله تعالي (وأنتم الأعلون) فهي جمله منشطة للقوم وباعثة لهم علي الوثوب والحركة ورمي الحزن والوهن جانبا سواء كان معناها أنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد ، أو أنتم تحاربون لأجل كلمة الله وهم يحركهم الشيطان ، أو أن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة أي وأنتم الأعلون في العاقبة .. أما جملة إن كنتم مؤمنين فهي جملة متعلقة بالنهي بمعني ولا تهنوا إن صح إيمانكم لأن صحة الايمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه أو أن يكون الإيمان معناه التصديق بما يبشركم به من علو وغلبة في العاقبة (١)..

وهي ولاشك جملة ثانية منشطة ومحفزة بل ومبهجة للقوم حتي يخلعوا رداء الضعف والخور والسكون ويهبوا مجدّدين العهد ومدركين قدرهم وتمكنهم من الإرتفاع فوق الهزيمة والتهيوء للفوز والعلو ..

---

(١) راجع الكشاف صـ ٦٥، ج١ والرازي ص ١٣ ج٩ وابو حيان صـ ٦٢ مجلد ٣ ..

أما الآيات الثماني المتجهة إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم إشفاقا وتخفيفا عن نفسه التي كادت تذهب علي الكفرة حسرات من مماطلتهم وتكاسلهم عن الدخول في الإيمان وهي:-

(١) قوله تعالي : (آية ٤١ من المائدة (يا ايها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر ..... الخ الآية)..

(٢) قوله تعالي (١٧٦ من آل عمران (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا - يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم)..

(٣) آية ٣٣ من الانعام (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)..

(٤) آية ٦٥ من يونس (ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم)..

(٥) آية ٨٨ من الحجر (لا تمدن عينيك إلي ما امتعنا به ازواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين)..

(٦) آية ٧٠ من النحل (ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون)..

(٧) آية ٢٣ من لقمان (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فلننبئهم بما عملوا)..

(٨) آية ٧٦ من يس (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون)..

وبالنظر في هذه الآيات مجموعة نجدها خطابات لسيدنا رسول الله

صلي الله عليه وسلم تتسم بمحاولة التخفيف والاشفاق عليه صلي الله عليه وسلم وأن القوم ما لم يهدهم ربهم فلا هداية لهم ، وأنه لا يحزن منهم فإنهم سيعاقبون وأنه لا يحزن من كفرهم ولا مكرهم فكل ذلك معلوم عنده سبحانه .. وكلها مدللة علي أن الرسول الكريم كان مشغولا بكل تلك القضايا فوق ما يؤديه من دعوة وتبليغ وطاعة لله تعالي ، وفي ذلك التعب الكبير والعبء الثقيل فكانت هذه الآيات إشفاقا وإرشاداً ..

وفي التصريح بصلة الموصول في قوله (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) تفيد أن القوم يقعون في الكفر سريعا ويرغبون فيه أشد رغبة [1] فهل هؤلاء القوم يستحقون أو أهل لأن يحزن عليهم الرسول الكريم وهم ماضون مسرعون في ارتكاب حماقاتهم كما أن في تخصيصه (صلي الله عليه وسلم) بالخطاب تشريفا وتكريما له بالتسلية [2] والتخفيف عنه ..

وأما عن كونهم يكيدون للإسلام والرسول مهموم من ذلك فإن الله يقول له (يا أيها الرسول لا يحزنك ....) والمعني لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر أي في اظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالاة المشركين فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم [3] وفي ذلك طمأنه له (صلي الله عليه وسلم) وتخفيف مما أصابه من حزن .. كما ان خطابه (صلي الله عليه وسلم) بعنوان ، الرسالة وما فيها من تشريف يعين في نفس الوقت ويشعر بما يوجب

(١) صـ ( ) جـ ١ الكشاف (٢) الألوسي صـ ١٣٢ جـ ( )
(٣) صـ ٦١٢ جـ ١ الكشاف ..

عدم الحزن [1]..

وتنوع الجمل التعليلية في الآيات بحيث تكون رديفة للنهي عن الحزن مدعاة إلي طمأنته (صلي الله عليه وسلم) وتسليته .. فقوله تعالي :(فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون)فالمعني إنا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التي لا يعزب عن علمنا شيء منها وفيه فضل تسلية لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) ويضيف ابو السعود (وتقديم السر علي العلن إما للمبالغة في بيان شمول علمه تعالي لجميع المعلومات لأن علمه تعالي بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما في الحقيقة فإن علمه تعالي يشمل كل شيء [2]..

والجانب الاقتدائي بالرسول الكريم هنا هو أن يلتزم كل في مجاله بخالص الدعوة إلي الخير وصدق العزم في التدليل [illegible] للخير وما فوق ذلك يتركه لله سبحانه وتعالي ، سواء كان ذلك بيته وأهله أو مع إخوانه في الدين والعقيدة كل علي قدر درجته قرباً وبعداً ..

أما المجموعة الثالثة التي تبشر بالأمن وتزيل الخوف والحزن فهي تتحرك في أربع جهات هي : الأول : نداءات الله ودعوته المطمئنه والمطلة من لدن آدم حتي سيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) .. الثانية : الإسلام هو المنقذ لكل أصحاب الملل . الثالثة توجيهاته للمومنين لمجلبات الأمن .. الرابعة : تبشيراته لأهل

---

(١) أبو السعود صـ ٣٦ جـ ٣ (٢) أبو السعود صـ ١٧٩ جـ ٧

وصدقات غير مقيدة بمنّ أو بوقت لفي ذلك خير عميم يريده الله لنا وهنيئا لمن عرف فالتزم .

أما الجهة الرابعة للطمأنه والتبشير فهي تحكي ألوانا من الإكرامات والكرامات لأهل الله في الدنيا والآخرة .. أما مبشرات الدنيا فتحكيها هذه الآيات :-

الآية ٦٢ من يونس (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فهذه الآية بيان علي وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لأعمال المومنين .. وصدرت الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق لزيادة ، تقرير مضمونها .. والولي في اللغة القريب والمراد بأولياء الله خلّص المومنين لقربهم الروحاني منه سبحانه وتعالي كماسيفصح عنه عنه تفسيرهم .. ولا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب (١) ولا شك أن الخوف والحزن غير مسيطر عليهم لا في الدنيا ولا في الآخرة بدليل قوله بعده (لهم البشري في الحياة الدنيا والبشري تشيع البهجة وتزيل الأحزان والمخاوف ، أما الآخرة فقد أذهب الله عنهم الحزن لأنه غفور شكور .

أما آية طه (٤٠) وآيتنا ١٣،٧ من القصص فهي تحكي طمأنة الله تعالي لأم سيدنا موسي عندما أمرها بإلقائه في اليم ثم إعادته اليها بعد ذلك لقصد ازالة حزنها ورفع خوفها عليه وكل ذلك وقع منها ومعه في الدنيا كتبشير قوي لأهل الخير في هذه الحياة فآية من طه تقول (إذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم علي من يكفله

(١) أبو السعود صـ ١٥ جـ ٤

فرجعناك إلي امك كي تقر عينها ولا تحزن)

وآية ٧ من (وأوحينا إلي موسي أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) وآية ١٣ (فرددناه إلي أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق) ..

يقول الألوسي (ولا تخافي - عليه ضيعة أو شدة من عدم رضاعة في سن الرضاعة ولا تحزني - من مفارقتك إياه .. إنا رادوه إليك عن قريب بحيث تأمنين عليه ... والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن وإيثار الجملة الإسمية وتصديرها بحرف التحقق للإعتناء بتحقيق مضمونها أي إنا فاعلون ردّه وجعله من المرسلين لا محالة [1]) ..

وقريب من إزالة الخوف هنا إزالته عن لوط عليه السلام لما جاءته رسل الله تحكي آية ٣٣ من العنكبوت (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك واهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) ..

يقول الألوسي (رسلنا) المذكورين بعد مفارقتهم ابراهيم عليه السلام - سيء بهم أي اعتراه المساءة والغم بسبب الرسل مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء كما هو عادتهم مع الغرباء وقد جاءوا إليه (س) بصورة حسنة انسانية .. وقيل المعني لا تخف علينا وعليك ولا تحزن بما نفعله بقومك [2] وواضح هنا نهيه وكفه عن الخوف والحزن وفي ذلك طمأنه وإراحه له عليه السلام ..

(١) الألوسي صـ ٤٥ جـ ٢٠ (٢) الألوسي صـ ١٥٥ جـ ٢٠

وأما الشق الآخر الذي يتغلب فيه الصبر علي الحزن هو شق تتجلي فيه نسمات الرحمة والملاطفة من الله تعالي لرسوله الكريم في مواضع ثمانية له، ولأصحابه في موضع واحد ..

والموضع الواحد هو الآية ١٣٩ من آل عمران (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم موءمنين) فهنا الكلام موجه الي الرسول الكريم وأصحابه بعدما حزن القوم علي قتلاهم وانكسرتقلوبهم من هول الهزيمة أما قوله تعالي (وأنتم الأعلون) فهي جمله منشطة للقوم وباعثة لهم علي الوثوب والحركة ورمي الحزن والوهن جانبا سواء كان معناها أنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد ، أو أنتم تحاربون لأجل كلمة الله وهم يحركهم الشيطان ، أو أن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة أي وأنتم الأعلون في العاقبة .. أما جملة إن كنتم موءمنين فهي جملة متعلقة بالنهي بمعني ولا تهنوا إن صح إيمانكم لأن صحة الايمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه أو أن يكون الإيمان معناه التصديق بما يبشركم به من علو وغلبة في العاقبة (١)..

وهي ولاشك جملة ثانية منشطة ومحفزة بل ومبهجة للقوم حتي يخلعوا رداء الضعف والخور والسكون ويهبوا مجدّدين العهد ومدركين قدرهم وتمكنهم من الإرتفاع فوق الهزيمة والتهيوء للفوز والعلو ..

(١) راجع الكشاف صـ ٤٦٥ جـ١ والرازي صـ ١٣ جـ٩ وابو حيان صـ ٦٢ مجلد ٣ ..

أما الآيات الثماني المتجهة إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم إشفاقا وتخفيفا عن نفسه التي كادت تذهب علي الكفرة حسرات من مماطلتهم وتكاسلهم عن الدخول في الإيمان وهي :ـ

(١) قوله تعالي : (آية ٤١ من المائدة (يا ايها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر ...... الخ الآية)..

(٢) قوله تعالي (١٧٦ من آل عمران (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا ـ يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم)..

(٣) آية ٣٣ من الانعمام (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)..

(٤) آية ٦٥ من يونس (ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم)..

(٥) آية ٨٨ من الحجر (لا تمدن عينيك إلي ما امتعنا به ازواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين)..

(٦) آية ١٢٧ من النحل (ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون)..

(٧) آية ٢٣ من لقمان (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فلننبئهم بما عملوا)..

(٨) آية ٧٦ من يس (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون)..

وبالنظر في هذه الآيات مجموعة نجدها خطابات لسيدنا رسول الله

من إيمان بالله واليوم الآخر وعمل صالح من صلاة وزكاة وصدقات والآيات هي :-

١١٢ ، ٢٧٧ من البقرة ، ٥١ من الأحزاب ثم ٢٦٢ ، ٢٧٤ من البقرة كذلك وآيتا البقرة الأوليان هما قوله تعالي (بلي من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، وقوله تعالي (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

وآية الاحزاب هي (ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء ومن ابتغت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدني ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما) ..

ثم آيتا البقرة الأخيرتان هما قوله تعالي (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يبتغون ما انفقوا منا ولا أذي لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ..

وبالنظر في هذه الآيات مجتمعة نجد انها بمثابة الإرشاد والتوجيه بالحرص علي النافع والأصل المهم ..

وبالتأمل نجد أن الآيات مجتمعة حافز صريح لإخلاص العمل واسلام الوجه لله ثم حث علي الاستقامة والاستدامة في الصلاة والزكاة

ثم العدل والتسوية بين الزوجات كداع قوي لاشاعة الطمأنينة ونشر الهدوء النفسي في الأهل ثم تحفيز آخر علي الانفاق في صورتين جميلتين الأولي دون اتباعه بمنّ ولا اذي والثانية : تعميمها في الليل والنار .. كل هذه التصرفات تستحق الطمأنه ونزع الخوف وإزالة الحزن ..

ولا شك أن الآية بلي من أسلم .... الخ) سبق أن ذكرنا أن فيها ترغيبا علي الطاعة والانقياد لله تعالي[١] والثانية (ذلك أدني .... الخ الآية) آي أقرب الي قرة عيونهن ورضاهن جميعا لأنه حكم كلهن فيه سواء ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن[٢]

والآية الأولي في الانفاق فهي أتت مبينة للأمور التي يجب تحصيلها حتي يبقي ذلك الثواب منها ترك المنّ والأذي .. والمنّ كما يقولون هو اظهار الاصطناع اليهم والأذي شكايته منهم بسبب ما أعطاهم[٣]

والآية الثانية في الانفاق قالوا في سبب نزولها انها عامة في الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة تحرضهم علي الخير فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا اقتضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقت ولا حال ولوحظ في نظمها ان الفاء في قوله (فلهم) جواب الذين لأنها تأتي بمعني الشرط والجزاء فكان التقدير من أنفق فلا يضيع أجره[٤] وهذا مما لايرتاب فيه عاقل . فإيمان بالله واليوم الآخر مع صلاة وزكاة ،

---

(١) صـ ٤ جـ ٤ الرازي (٢) أبو [illegible] صـ [illegible] جـ ٢

(٣) صـ ٤٧ جـ ٧ الرازي (٤) صـ ٢ [illegible] جـ ٧ الفخر الرازي

وصدقات غير مقيدة بمنّ أو بوقت لفي ذلك خير عميم يريده الله لنا وهنيئا لمن عرف فالتزم .

أما الجهة الرابعة للطمأنه والتبشير فهي تحكي ألوانا من الإكرامات والكرامات لأهل الله في الدنيا والآخرة .. أما مبشرات الدنيا فتحكيها هذه الآيات :-

الآية ٦٢ من يونس (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فهذه الآية بيان علي وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين .. وصدرت الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق لزيادة ، تقرير مضمونها .. والولي في اللغة القريب والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين لقربهم الروحاني منه سبحانه وتعالي كما سيفصح عنه عنه تفسيرهم .. ولا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب (١) ولا شك أن الخوف والحزن غير مسيطر عليهم لا في الدنيا ولا في الآخرة بدليل قوله بعده (لهم البشري في الحياة الدنيا والبشري تشيع البهجة وتزيل الأحزان والمخاوف، أما الآخرة فقد أذهب الله عنهم الحزن لأنه غفور شكور.

أما آية طه (٤٠) وآيتا ٧،١٣ من القصص فهي تحكي طمأنة الله تعالي لأم سيدنا موسي عندما أمرها بإلقائه في اليم ثم إعادته اليها بعد ذلك لقصد ازالة حزنها ورفع خوفها عليه وكل ذلك وقع معها ومعه في الدنيا كتبشير قوي لأهل الخير في هذه الحياة فآية من طه تقول (إذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم علي من يكفله

---

(١) أبو السعود صـ ١٥ جـ ٤

فرجعناك إلي امك كي تقر عينها ولا تحزن)

وآية ٧ من (وأوحينا إلي موسي أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) وآية ١٣ (فرددناه إلي أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق) ..

يقول الألوسي (ولا تخافي - عليه ضيعة أو شدة من عدم رضاعة في سن الرضاعة ولا تحزني - من مفارقتك إياه .. إنا رادوه إليك عن قريب بحيث تأمنين عليه ... والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن وإيثار الجملة الإسمية وتصديرها بحرف التحقق للإعتناء بتحقيق مضمونها أي إنا فاعلون ردّه وجعله من المرسلين لا محالة [(١)]) ..

وقريب من إزالة الخوف هنا إزالته عن لوط عليه السلام لما جاءته رسل الله تحكي آية ٣٣ من العنكبوت (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك واهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) ..

يقول الألوسي (رسلنا) المذكورين بعد مفارقتهم ابراهيم عليه السلام - سيء بهم أي اعتراه المساءة والغم بسبب الرسل مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء كما هو عادتهم مع الغرباء وقد جاءوا إليه (س) بصورة حسنة انسانية .. وقيل المعني لا تخف علينا وعليك ولا تحزن بما نفعله بقومك [(٢)] وواضح هنا نهيه وكفه عن الخوف والحزن وفي ذلك طمأنه وإراحه له عليه السلام ..

(١) الألوسي صـ ٤٥ جـ ٢٠ (٢) الألوسي صـ ١٥٥ جـ ٢٠

صلي الله عليه وسلم تتسم بمحاولة التخفيف والاشفاق عليه صلي الله عليه وسلم وأن القوم ما لم يهدهم ربهم فلا هداية لهم ، وأنه لا يحزن منهم فإنهم سيعاقبون وأنه لا يحزن من كفرهم ولا مكرهم فكل ذلك معلوم عنده سبحانه .. وكلها مدلله علي أن الرسول الكريم كان مشغولا بكل تلك القضايا فوق ما يؤديه من دعوة وتبليغ وطاعة لله تعالي ، وفي ذلك التعب الكبير والعبء الثقيل فكانت هذه الآيات إشفاقا وإرشاداً ..

وفي التصريح بصلة الموصول في قوله (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) تفيد أن القوم يقعون في الكفر سريعا ويرغبون فيه أشد رغبة [1] فهل هؤلاء القوم يستحقون أو أهل لأن يحزن عليهم الرسول الكريم وهم ماضون مسرعون في ارتكاب حماقاتهم كما أن في تخصيصه (صلي الله عليه وسلم) بالخطاب تشريفا وتكريما له بالتسلية [2] والتخفيف عنه ..

وأما عن كونهم يكيدون للإسلام والرسول مهموم من ذلك فإن الله يقول له (يا أيها الرسول لا يحزنك ....) والمعني لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر أي في اظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالاة المشركين فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم [3] وفي ذلك طمأنه له (صلي الله عليه وسلم) وتخفيف مما أصابه من حزن . كما ان خطابه (صلي الله عليه وسلم) بعنوان ، الرسالة وما فيها من تشريف يعين في نفس الوقت ويشعر بما يوجب

---

(١) صـ ٤١ جـ ١ الكشاف (٢) الألوسي صـ ١٣٢ جـ ٤

(٣) صـ ٦١٢ جـ ١ الكشاف ..

عدم الحزن (١)..

وتنوع الجمل التعليلية في الآيات بحيث تكون رديفة للنهي عن الحزن مدعاة إلي طمأنته (صلي الله عليه وسلم) وتسليته .. فقوله تعالي :(فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون)فالمعني إنا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التي لا يعزب عن علمنا شيء منها وفيه فضل تسلية لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) ويضيف ابو السعود (وتقديم السر علي العلن إما للمبالغة في بيان شمول علمه تعالي لجميع المعلومات لأن علمه تعالي بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما في الحقيقة فإن علمه تعالي يشمل كل شيء (٢)..

والجانب الاقتدائي بالرسول الكريم هنا هو أن يلتزم كل في مجاله بخالص الدعوة إلي الخير وصدق العزم في التدليل التوجيه للخير وما فوق ذلك بتركه لله سبحانه وتعالي ، سواء كان ذلك في بيته وأهله أو مع إخوانه في الدين والعقيدة كل علي قدر درجته قرباً وبعداً ..

أما المجموعة الثالثة التي تبشر بالأمن وتزيل الخوف والحزن فهي تتحرك في أربع جهات هي : الأول : نداءات الله ودعوته المطمئنه والمعللة من لدن آدم حتي سيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) .. الثانية : الإسلام هو المنقذ لكل أصحاب الملل .. الثالثة توجيهاته للمؤمنين لمجلبات الأمن .. الرابعة : تبشيراته لأهل

(١) أبو السعود صـ ٣٦ جـ ٣ (٢) أبو السعود صـ ١٧٩ جـ ٧

موقف ابراهيم أنيس من التقديم

د . عبد المنعم سيد عبد السلام

دفعني دافع إلي قراءة كتب الدكتور إبراهيم أنيس [(١)] ، وتقليب صفحاتها ، فوجدت فيها فكرا مستنيرا ، وعقلا متحررا ، وعرضا شيقا جذابا ، وحرصا علي معرفة آراء المتقدمين والمحدثين في قضايا اللغة المختلفة ، ولفت نظرى ما صادفته في كتابه ـ من أسرار اللغة ـ من آراء بلاغية ، حول (الفصل والوصل) ، و(القصر بإنما وما وإلا (تبادل الأفعال بعضها مواقع بعض) والفرق بين الإخبار بالفعل المضارع واسم الفاعل ، والاستفهام ، والتقديم في صوره الثلاث تقديم المسند إليه ، وتقديم المسند ، وتقديم المفعول علي الفعل،وغير ذلك من مسائل بلاغية عرضها ، أو استطرد إليها ، ورأى فيها رأيا أو رجح فيها وجها على وجه ، وهى بحاجة إلى بحث يتولي جمعها، ومناقشتها مناقشة علمية منسقة ، لأن المرحوم الدكتور أنيس كثيرا ما كان يتحرر من أصول البلاغيين ، فيخرج عليهم بما لم تعرفه قواعدهم ومقرراتهم ، وكثيرا ما كان يعرض بالبلاغيين ، ويحمل علي عبد القاهر ، دون أن يبدي من المبررات القوية ما يجعلنا نقر برأيه ، ونقبل وجهة نظره ، ولا يصح أن نتجاهل أنه كان استاذا في دار العلوم ، وعضوا في مجمع اللغة العربية ، وأحد البارزين في دراسة قضايا اللغة ، فقهها ، ولهجاتها ، وأصولها ، ودلالة ألفاظها ، ومعاجمها ، وغير ذلك مما يدرسه الدراسون في أقسام اللغة

(١) راجع الكلام عن حياته ، ووظائفه ، وكتبه ، وما يتصل بشخصه : (إبراهيم أنيس لغويا) ماجستير ، مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية بأسيوط ، للاستاذ / علي سيد جعفر .

بالجامعات ، أي أنه صاحب صوت مسموع ، وله جمهوره العريض من القراء ، فلذلك رأيت أن أدرس كلامه حول التقديم ، وخاصة ما يتصل منه بكلام عبد القاهر ، فكان هذا البحث ، الذي نرجو فيه التوفيق والسداد .

وكان أستاذنا الدكتور أبو موسي [١] قد تعرض لكلام الاستاذ أنيس حول (إنما ، وما وإلا) ، كما عرض ذلك أستاذنا الدكتور محمد جلال الذهبي [٢] ، كما عرض الأستاذ الدكتور عبد القادر حسين [٣] لكلامه عن تبادل الأفعال بعضها مواقع بعض ، وهي محاولات جادة ـ وممتعة ، تحثنا علي مراجعة كتب هذا الرجل ، وأضرابه من المحدثين ، كالاستاذ أمين الخولي ، والدكتور أحمد بدوي، وغيرهم ، ومناقشتها ، في ضوء ما قرره أفاضل علمائنا في القديم والحديث .

وغني عن البيان أن التقديم قد لقي عناية النحاة ، كما لقي عناية البلاغيين ، إلا أن كل فريق قد انصرف للبحث عما يدخل في منهجه ، نحقق النحاة ما يجوز تقديمه وتأخيره ، وما لا يجوز ،واهتم البلاغيون بأسرار التقديم ، وإشاراته ، ومراميه ، ولا سيما في آيات القرآن الكريم ، وكان عبد القاهر أول من حرر أصول هذا الباب ، وجمع شوادره ، وقعد قواعده ، وتركها مهذبة مصفاة مصنفة وتبعه الزمخشري فسار علي دربه ، وطبق أصوله ، خلال تفسيره للقرآن

(١) دلالات التراكيب د. أبو موسي ١٢٩ : ١٣٨، ١٦٦ ، ط الأولي ١٩٧٩م .
(٢) صورة من البيان القرآني د. الذهبي ٥٧، ٥٨ ط مطبعة الأمانة ١٩٨٤م.
(٣) فن البلاغة ٢٩٢، ٢٩٣ مطبعة الأمانة بدون تاريخ ...

الكريم ، وأقتفي أثرهما البلاغيون ، كابن الأثير ، والعلوي والسكاكي ، والخطيب ، وشراحهما ، ولاشك أن المرحوم أنيس قد نظر في كلام عبد القاهر ، والزمخشري ، وابن الأثير والخطيب عن التقديم ، كما سيتضح أثناء البحث .

(أ) تقديم المسند

معلوم أن الجملة العربية تتكون من مسند ، ومسند إليه ، وقيد يقيد المسند ، إذا كان فعلا ، والمسند إليه في الجمل الاسمية هو المبتدأ ، وفي الفعلية هو الفاعل كما أن المسند في الجمل الاسمية هو الخبر ، وفي الفعلية هو الفعل ، وبدهي أن وضع أي جزء من أجزاء الجملة في موضعه ، سواء كان مسندا أم مسند إليه أم مفعولا به ، أم ظرفا ، أم جارا ومجرورا ، إنما يخضع لترتيب المعني في ذهن المنشيء أو الكاتب ، فإذا انحرف أحد من هذه الأجزاء عن مكانه المحدد له في الجملة دل ذلك علي قصدمعني غير الذي يكون إذا وضع في موضعه ، فإذا قلت مثلا : الحمد لله ، أفدت معني خبريا غفلا ، وهو أن الحمد بمفهومه الحقيقي يكون منك لله ، فإذا قلت : (لله الحمد)، أفاد ذلك قصر الحمد علي كونه لله ، فلا يتجه إلي غيره ، أو لا يليق أن يكون لسواه ، وقد تعجب حين ترى المرحوم أنيس لا يجد فرقا بين المسند وتأخيره في المعني . فبعد أن أورد قوله تعالي : (لله ملك السموات والأرض)(١)

(١) الشوري / ١٩ .

وقوله :(ألكم الذكر وله الأنثي) (١) وغيرهما من آيات قدم فيها المسند علي المسند إليه ، قال: (ولا فرق هنا بين أن يتقدم المسند، أو يتأخر، فالتعبيران جائزان مقبولان ، غير أن الكاتب قديؤثر أحدهما في موضع ما ، ويؤثر الآخر في موضع ثان ، ولا يكاديختلف المعني في كلتا الحالتين ، فالفرق بينهما فرق أسلوب) (٢) فما مراده بـ (فرق الأسلوب) هذا ؟ يتضح ذلك من تعليقه علي قوله تعالي : (فإن كان لهن ولد فلكم الربع) (٣) حيث يقول : (كان من الممكن أن يقال : (فالربع لكم) وتؤدي الآية حينئذ نفس المعني، فاختيار أحد الأسلوبين يرجع إلي تلك النواحي الفنية التي تتأثر بمزاج الكاتب ، وموسيقي الكلام . وعلاقة الجملة بما يليها وما يسبقها) (٤) كأنه يريد أن تقديم المسند في الآيات المذكورة لرعاية الفواصل ، والحفاظ علي موسيقي الكلام ، وندع التعليق علي رأيه هذا الآن ، ريثما نفرغ من عرض نظرته في تقديم المسند المسبوق باستفهام أو نفي ، فنراه يقرر نفس ما قرره في الحالة الأولي ، فلا فرق عنده بين أن تقول : (أمع الله إله) وقوله تعالي: (أإله مع الله) (٥) ولا فرق عنده بين أن تقول : (لا غول فيها) وقوله تعالي : (لا فيها غول ولاهم عنها ينزفون) (٦) وهو بعد أن يقرر هذا في الآيتين والمثالين يقول : (ويظهر أن الفرق بين التقديم والتأخير هنا لا يعدو أن يكون فرق أسلوب ، فالمعني في

---

(١) النجم / ٢١ (٢) من أسرار اللغة ٣٢٠ (٣) النساء / ١٢
(٤) من أسرار اللغة ص ٣٢٠، ٣٢١
(٥) تكررت هذه الآية في سورة النمل / ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤
(٦) الصافات / ٤٧

في الحالتين واحد) (١) أي أن تقديم المسند في هذه الصورة يكون لرعاية الفواصل ، والحفاظ علي موسيقي الكلام كما كان شأنه في الجمل المثبتة ، إذن فأول ما يمكن تسجيله عليه أنه اعتبر تقديم المسند وعدمه سواء في المعني ، وهذا وحده مزلق خطر يحتم علي محبي هذا الرجل ، وقراء كتبه أن يلتزموا الحذر الشديد في تقبل آرائه ، وكان عبد القاهر (٢) ينعي علي أمثاله ممن يسوون بين تقديم الشيء وتأخيره في المعني ، وثاني ما يمكن تسجيله عليه أنه اعتبر المحافظة علي موسيقي الكلام غرضا عاما لتقديم المسند، يدور معه في سائر صوره ، ولم يشر الي أهم أغراضه وهو الاختصاص مع وضوحه في أكثر ما ذكر من الآيات ، كقوله تعالي: (لله ملك السموات والأرض) (٣) وقوله : (ولله المشرق والمغرب) (٤) وقوله : (ولله ميراث السموات والأرض) (٥) وقوله : (لا فيها غول) .

وكان ابن الأثير سباقا الي القول برعاية الفواصل في هذا الباب ، ذكر ذلك في آيات يتضح فيها معني الاختصاص ، كقوله تعالي : (الي ربك يومئذ المستقر) (٦) وقوله : (ألا إلي الله تصير الأمور) (٧) وقوله : (عليه توكلت وإليه أنيب) (٨) فمعني

---

(١) المرجع نفسه ٠ ٢٢٢

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٤٠ ط الأولي ٠ تحقيق د/ خفاجي ١٩٦٩م ٠

(٣) الشوري / ٤٩ (٤) البقرة / ١١٥

(٥) الحديد / ٩ (٦) القيامة / ١٢

(٧) الشوري / ٥٣ (٨) هو / ٨٨ والسوري / ١٠

الاختصاص في تقديم المسند هنا واضح جلي ، فعليه وحده نتوكل، وإليه وحده ننيب ، وإليه مرجعنا ومآبنا ، وهكذا ، ولكن ابن الأثير لم ير ذلك ، كما لم يره الفاضل الدكتور أنيس ، وإن كان ابن الأثير لم يعمم هذا الغرض في صور تقديم المسند كما صنع صاحبنا، فنحن نري ابن الأثير يقر بأن تقديم المسند للاختصاص في قوله تعالي: (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد) (١) فيقول : (فإنه إنما قدم الظرفين ها هنا ، في قوله : (له الملك وله الحمد) ليدل بتقديمهما علي اختصاص الملك والحمد لله وحده) (٢) فأي فرق بين التقديم في هذه الآية وبين الآيات التي ذكرها الدكتور أنيس ، كقوله تعالي : (لله ملك السموات والأرض) وغيره ؟ .

إن التقديم في هذه الآيات للاختصاص ، ولا يغفل عن هذا المعني إلا غافل ، والاختصاص لا يتنافي مع الحفاظ علي موسيقي الكلام، ورعاية الفواصل القرآنية ، وقد ذكر ذلك ابن أبي الحديد (٣) ، والعلوي (٤) ، وابن يعقوب المغربي (٥) ، قال العلوي : (والمختار عندنا أنه لا منافاة بين الأمرين ، فيجوز أن يكون التقديم من أجل الاختصاص ، والتشاكل ، فيكون في التقديم مراعاة لجانب اللفظ والمعني جميعا ، فالاختصاص أمر معنوي ، والتشاكل أمر لفظي) (٦)

(١) أولي آيات سورة التغابن .
(٢) المثل السائر ٢/ ٢٢٤ تحقيق الدكتورين : طبانة والحوفي .
(٣) الفلك الدائر علي المثل السائر ٤/ ٢٤٩
(٤) الطراز ٢/ ٦٧ (٥) مواهب الفتاح ٢/ ١٥١، ١٥٢
(٦) الطراز للعلوي ٢/ ٦٧ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

وإذا كانت آراء البلاغيين قد اختلفت في تقديم المسند الذي لم يسبق بنفي أو استفهام ، فقال الجمهور بالاختصاص ، وقال ابن الأثير بمراعاة الفواصل ، فإنهم قد اتفقوا في الجمل المعتمدة على استفهام أو نفي ، علي أن تقديم المسند لا يكون إلا للاختصاص ، ولا نجد منهم واحداً قال بغيره ، ويمثلون لما اعتمد علي نفي بالآية التي سبقت في كلام المرحوم أنيس ، وهي قوله تعالي : (لا فيها غول) ويفرقون بينها وبين أن تقول : (لا غول فيها) بأن القصد من الآية تفضيل خمر الجنة علي غيرها من خمور الدنيا بأنها لاتغتال العقول وتصدعها كما تصنع ذلك الخمر في الدنيا ، وهذا المعني يذهب في قولك : (لا غول فيها) لأن هذا التركيب ليس فيه أكثر من نفي الغول عنها ، دون تعرض لإثبات الغول الي خمور الدنيا وتجد هذا الفرق في قوله تعالي : (لا ريب فيه) وقولك : (لافيه ريب) فالآية الكريمة تفيد نفي الريب عن القرآن الكريم،واثبات أنه حق وصدق ، لا باطل وكذب كما كانوا يزعمون ، وقولك :(لا فيه ريب) يفيد نفي الريب عن القرآن كما في الآية ، ويفيد أيضا إثبات الريب إلي غير القرآن من الكتب السماوية الأخري، ذكر ذلك الزمخشري [١] ، وكرره ابن الأثير [٢] ، والعلوي [٣] ، والخطيب [٤] وسائر البلاغيين ، فهو من الأمور المجمع عليها بين البلاغيين،

---

(١) الكشاف ١/ ١١٥ ط دار الفكر .

(٢) المثل السائر ٢/ ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٣) الطراز ٢/ ٧١ ، ٧٢

(٤) الايضاح ٢/ ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ شروح .

وقد غاب هـذا وخفي علي الفاضل العلامة الدكتور أنيس ، ومـــن المفيد أن أشير الي رأي مشهور لهذا الرجل في قيضة الإعراب ، لعله كان وراء هـذا الخلط ، وحاصل هذا الرأي أن المرحوم أنيــس ينكر الإعراب في لغة العرب ، ويري أن حركات الإعراب ليســت دلائل علي المعاني ، فالفاعل في نظره لا يعرف بضم آخره ،والمفعول عنده لا يعرف بنصب آخره ، بل يعرف كل منهما بموقعه المحـــدد في الجملة العربية ، ذلك الموقع الذي حددته آثار اللغة الموروثة عن الجاهليين والإسلاميين ، شعرهم ونثرهم ، ومن هنا يزعم المرحـــوم أنيس أنه اذا انحرف أحد ركني الجملة عن مكانه المعهود فيهـــا ، لم يخف ذلك علينا ، لأن الجملة تشتمل علي ما يرمز إليه، بنظامهـا الموروث ، وملابساتها اللغوية . (١)

هــذا حاصل رأيه في إنكار ظاهرة الإعراب في لغة العرب، ولا كلام لنا حول هـذا الرأي ، انما الذي يعنينا هو أن رأيه هذا قـــد كان أساسا لما نحن بصدده ، وهو تسويته بين تقديم المسند وتأخيره في المعني ، فلكي يحافظ علي رأيه هـذا لم يجد فرقا بين قولـــك : (لا غول فيها) وقوله تعالي : (لا فيها غول) ولا بين قولك : (لا فيه ريب) وقوله تعالي : (لا ريب فيه) والفرق بين هذه التراكيب من دقائق هذا العلم ، فكان الأحري به أن يحافظ علي أصول أهـــل العلم ، أو أن يترك قضايا البلاغة وشأنها ، حتي لا يتورط فيمـــا تورط فيه .

---

(١) راجع هذا الرأي في (من أسرار اللغة) صـ ٢٤٢، ٢٤٣ .

ولعلك تعجب بعد هذا إذا رأيته يصف شيخ البلاغيين - عبد القاهر الجرجاني - بالتكلف ، والتعنت ، وإرتكاب الشطط ، ذكر ذلك عندما تعرض لكلام عبد القاهر حول الفرق بين قولك : « زيد المنطلق » ، و « المنطلق زيد » ، يقول المرحوم أنيس : « وقد حاول عبد القاهر أن يفرق بين مثالين من صنعه ، هما : (زيد المنطلق ، والمنطلق زيد) فلقي من العنت ، والمشقة، ماأجهده وأجهدنا معه ، ويظهر أن صعوبة تمييز المسند من المسند إليه، في مثل هذه الجملة - التي يكون كل من الطرفين فيها معرفة - هي التي ألجأت عبد القاهر وغيره الي تكلف الشطط في علاجها، ويبدو لي أن المسند إليه في هذه الحالة هو المتحدث عنه ، أي الشخص، أو الشيء الذي نعني بالحديث عنه ، ونهدف الي نسبة صفة إليه .. أنظر الي قول يوسف لأخوته : (أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا) فلا شك أن المسند إليه هنا هو الضمير (أنا) لأنه يشير إلي شخص معين ماثل أمامهم ، يرون من سماته ، ومن ملامحه ، ومن زيه ، ما لا يتطرق إليه شكهم ، وتهدف الآية إلي أن تصف ذلك الشخص الماثل أمامهم بوصف جديد يجهلونه ، وهو أن أسمه يوسف ، كذلك قوله : (وهذا أخي) ، فقد كانوا يشاهدون - بنيامين - ويرونه بأعينهم ، ويعرفون كل سماته ، غير أنهم كانوا يجهلون أخوته للشخص الآخر ، الواقف أمامهم » (١)

---

(١) انظر (من أسرار اللغة) د . إبراهيم أنيس صـ ٣٢٣، ٣٢٤ ط . الخامسة ١٩٧٥م مكتبة الأنجلو المصرية ...

وخطر هذا الكلام يرجع إلي ما تضمنه من تهويش علي عبدالقاهر، وأن صعوبة التمييز بين المسند والمسند اليه في الجمل التي يتكافأ طرفاها من حيث التعريف قد ألجأته الي ما سماه الاستاذ أنيس شططا وتكلفا وإعناتا ورهقا ، ولذلك اجتهد الدكتور الفاضل ليحل هذا الاشكال ، فرأي أن المسند اليه في هذه الحالة هو الشخص - أو الشيء الذي نعني بالحديث عنه ، فهل كان رأيه هذا غائبا عن ذهن عبد القاهر ؟ إن عبد القاهر هو الذي قرر هذا المفهوم للمسنداليه، حيث قال : (وها هنا نكتة ... وهي أن المبتدأ لم يكن مبتدأ لأنه منطوق به أولا ، ولا كان الخبر خبرا لأنه مذكور بعد المبتدأ بل كان المبتدأ مبتدأ لأنه مسند إليه ، ومثبت له المعني، والخبر خبر لأنه مسند ، ، ومثبت به المعني) [1] ثم إنه ليس في كلام عبدالقاهر ما ينافي يعتبر ضمير المتكلم (أنا) من قول يوسف (أنا يوسف) مسنداإليه ، وأن يعتبر (يوسف) خبرا عنه ، ولا أن يعتبر (هذا) من قوله (وهذا أخي) مسندا اليه ، ويعتبر (أخي) خبرا عنه، ليس كلام عبد القاهر ينافي هـذا حتي يخرج به الدكتور أنيس علينا معززا به هذه الاتهامات الجائرة ، التي أرسلها علي عبد القاهر، بغير مبرر ، ثم إن القول بأن المسند إليه في الجمل التي طرفاها معرفتان هو الشخص أو الذات قد سبق اليه فخر الدين الرازي الذي قال : (متي اجتمعت الذات والصفة ، فالذات أولي بالمبتدئية، والصفة أولي بالخبرية) [2] ولو عرضنا كلام عبد القاهر في التفريق

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٠٥

(٢) نهاية الإيجاز للرازي ص (٤،٥) ط مطبعة الآداب والمؤيد - بالقاهرة ١٩٧٧ هـ

بين (زيد المنطلق ، والمنطلق زيد) علي هذا لما وجدنا تناقضا ، ويبدو لي أنه قد خفي علي الدكتور أنيس أن عبد القاهر قد عرض للتفريق بين هذين المثالين في مقامين مختلفين ، الأول من حيث تقديم أحد اللفظين علي الآخر ، وذلك أن كلا من (زيد والمنطلق) يصلح أن يكون مبتدأ ويصلح أن يكون خبرا ، فإذا قدمت زيدا ، فقلت : (زيد المنطلق) فقد أخبرت بالانطلاق عن زيد ، وإذا عكست فقدمت المنطلق ، وقلت (المنطلق زيد) فقد أخبرت عن المنطلق بمسمي زيد ، وهذا كما تقول : (زيد أخوك) ثم تعكس فتقول : (أخوك زيد) فالمقدم هو المسند اليه في مثل هذه الحالات ، لتكافوء الطرفين في التعريف ، وعبد القاهر يسمي تقديم أحدهما علي الآخر (تقديما لا علي نية التأخير) وهو غير التقديم الذي علي نية التأخير ، كتقديم المفعول علي الفعل في نحو (زيدا ضربت) وتقديم الخبر علي المبتدأ في نحو (له الملك وله الحمد) لأن كلا من المفعول والخبر قد بقي علي إعرابه الذي كان قبل التقديم ، وهذا الجانب يدرسه البلاغيون في باب التقديم ، وهناك جانب آخر درس فيه عبد القاهر الفرق بين (زيد المنطلق ، والمنطلق زيد) وقد عني فيه بمعني الإخبار عن زيد بالمنطلق ، والإخبار عن المنطلق بزيد ، فذكر أن قولك : (زيد المنطلق) يفيد تخصيص (زيد) بالانطلاق ، وأن هذا التركيب يقال لمخاطب يعلم بأن انطلاقا قد كان ، إلا أنه لا يعلم ممن كان ، فأنت تقول له : انه كان من زيد خاصة ، ولأجل معني التخصيص في هذا الإخبار لا يصح

أن تقول : (زيد المنطلق وعمرو) ، أما قولك : (المنطلق زيـد) فيقال لمن يري أمامه انسانا ينطلق ، ولا يعلم أنه زيد، فأنت بهـذا التركيب تخبره بأن الذي يراه من بعيد منطلقا هو زيد بعينه [1] ، وهذا الجانب يدرسه البلاغيون في باب (تعريف المسند) ، وقـد كان عبد القاهر جيد الإدراك لهذه الدقائق ، بصيرا بمراميهـا وإشاراتها ، فقلبها علي وجوهها ، واستخرج منها دررا ولآلئ خفيـت علي الدكتور أنيس ، فاتهمه بارتكاب الشطط ، وزعم أنه أرهـق نفسه ، وأرهقه معه ، وظن أنه بهذه الجعجعة يمكن أن ينال مـن هـذا الصرح الشامخ ، ولكنه بات كما قال القائل :

كناطح صخرة يوما ليوهنهـا .. فلم يضرها وأوهي قرنه الوعـل

---

(١) راجع دلائل الاعجاز ص ١٣٧، ١٣٨ ، ١٩٦، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، تحقيق د / خفاجـي ....

ب = تقديم المسند اليه

أول ما يمكن تسجيله للاستاذ أنيس في هذا الباب قوله: (لا شك أن تحديد موضع المسند اليه في جملة من الجمل يترتب عليه أن يتحدد أيضا موضع المسند ، فتقديم أحدهما يستلزم تأخير الثاني، والعكس بالعكس ، لا داعي إذن أن نسلك مسلك البلاغيين حين عرضوا لأحوال كل منهما ، فذكروا لنا من أحوال المسند اليه التقدم والتأخر ، ثم حين عرضوا للمسند جعلوا من أحواله أيضا التقدم والتأخر) (١)

وهذا كلام اختلط فيه الحق بالباطل ، لأننا لا ننكر أن تقديم أحد طرفي الجملة يستلزم تأخير الآخر ، فإذا قلت : (الحمدلله) فالمسند اليه هو (الحمد) والمسند هو الجار والمجرور ، فاذا عكست فقلت : (لله الحمد) فالمسند اليه لا يزال هو (الحمد) والمسند هو الجار والمجرور ، فتقديم المسند اليه اقتضي تأخير المسند ، في الحالة الأولي ، كما أن تقديم المسند اقتضي تأخير المسند اليه في الثانية ، أي أن من أحوال المسند اليه التقدم تارة، والتأخر أخري ، ومن أحوال المسند أيضا التقدم تارة، والتأخر أخري، فكيف لا يكون هناك داع لاعتبار التقدم والتأخر من أحوالهما؟

ثم يقول المرحوم أنيس : (كذلك لا معني لأن ننساق مع البلاغيين حين يعزون تقدم المسند اليه الي أمور تلمسوها من شواهد معينة،

(١) من أسرار اللغة ص ٢٠٦ .

كالتمكن في ذهن السامع ، والتعجيل بالمسرة أو المساءة، والاستلذاذ والتعظيم والتحقير ٠٠٠٠ الخ ٠ ومن الغريب أنهم يجعلون نفس هذه الأسباب أو معظمها داعيا من دواعي تقدم المسند أيضا ، ودراستهم هنا لا تعدو أن تكون نقدا أدبيا لأمثله معينة تصوروا فيها تلك ، الأمور التي أشاروا إليها) [١] ولا يخفي أن البلاغيين حين يسوقون هذه الأغراض يدركون أنها أغراض جانبية ، يستلهمها الناقد المتذوق ، وقد يقع فيها الاختلاف من شخص الي آخر ، فالشاعر الذي يقول :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ٠٠ ليلاي منكن أم ليلي من البشر

قد يقصد من تقديم المسند اليه (ليلاي) الالتذاذ بذكر اسم محبوبته وقد يكون قاصدا الي تعظيم صاحبة هذا الاسم ، ثم إن الأغراض المذكورة قد ساقها الخطيب وشراحه ، ومعلوم أن الخطيب وشراحه قد أتوا في فترة عني فيها البلاغيون بالشروح والتعليقات والحو التقارير ، فلا يليق بالناقد المنصف أن يتلمس مواضع الضعف عند علماء هذه الفترة ، ويعزوها الي البلاغة العربية بعامة ، والبلاغيون أنفسهم يدركون أن هذه الأغراض محدودة القيمة ، ولكن لا شك في دلالتها علي حالات نفسية وشعورية عند المنشئين ٠

هذا ، ومعلوم أن تقديم المسند اليه علي الخبر الفعلي عند عبد القاهر يفيد الاختصاص ، متي ولي حرف نفي ، كقولك : (ما أنا بنيت هذه الدار) ، و (ما أنا قلت هذا الشعر) فالتركيبات

---

(١) من أسرار اللغة ص ٣٠٦

يفيدان أن المتكلم يسلم كون الدار مبنية ، والشعر مقولا، إلا أنه ينفي أن يكون هو الباني للدار، وهو القائل للشعر ، وعلي هذا قول المتنبي :

ما أنا أسقمت جسمي به .. ولا أنا أضرمت في القلب نارا

فمجيء الضمير - وهو المسند اليه - بعد النفي هنا أفاد أن المتنبي يسلم حدوث السقم في جسمه ، واشتعال قلبه بنار الحب ، غير أنه ينفي أن يكون هو الذي أحدث ذلك ، والمرحوم إبراهيم أنيس يتفق مع عبد القاهر في هذه الصورة ، ويمثل لها بقول المتنبي أيضا :

وما أناوحدي قلت ذاالشعر كله ..ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

ويعقب بقوله : (فالشعر قد قيل فعلا ، وتم نظمه ، وانما محل النفي أن يكون الشاعر وحده هو الذي قام بنظمه ، ولنا من نفس البيت الدليل الكافي علي إرادة القصر والحصر ، وهو كلمة (وحدي) فاذا تقدم المسند إليه علي المسند في هذا النوع من الجمل أحسسنا أن كلا من المتكلم والسامع يفترض أن الحدث قد كان ، وأن موضع نفيه هو المسند اليه نفسه وبذاته ، فعليه ينصب النفي) (٢)

وهناك صور يري عبد القاهر أن تقديم المسند اليه فيها يفيد التخصيص ، أو التقوي بحسب المقام ، وهي التي لا يلي فيها المسند إليه حرف النفي ، سواء كان ضميرا ، أم اسما ظاهرا معرفا ، أم اسما ظاهرا منكرا ، وسواء كان الخبر الفعلي مثبتا أم منفيا،

(١) راجع دلائل الإعجاز ١٥٤، ١٥٥

(٢) من أسرار اللغة صـ ٣١٢، ٣١٣ بتصرف ..

والذي يرشح لقصد أحد الغرضين هو المقام وسياق الكلام ، إذا فلم يشترط عبد القاهر بعد هذا أن يكون الخبر فعلا ماضيا، كما ستعرف عن رأي الدكتور أنيس ، وانما اشترط أن يكون الخبر فعليا ، وأن لا يلي المسند اليه حرف النفي (١)، أما المرحوم أنيس فيري أن تقديم المسند اليه في هذه الحالة يفيد التخصيص متي كان الخبر فعلا ماضيا، كقوله تعالي : (والله خلقكم ثم يتوفاكم) وقوله : (والله فضل بعضكم علي بعض في الرزق) وقوله : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) وقوله : (واله أخرجكم من بطون امهاتكم) وقوله : (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) وقوله : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) ، وهي من الآيات / ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٨، ٨١، ٩٠، من سورة النحل ، ثم يقول :

(وقد جاءت هذه الآيات الشريفة مفصلة لنعم الله علي الناس ودفعا لما قد يتوهم من أن لله شريكا فيها ، وأن للانسان يدا في الحصول عليها، فاقتضي المقام أن يقصر أمر تدبيرها علي الله سبحانه ، وأن يؤكد هذا المعني في أذهان الناس . لذلك تعد هذا النظام في مثل هذه الآيات أسلوبا من أساليب القصر، يحسن ألا نلجأ إليه إلا حين نريد قصر صفة من الصفات علي المسند اليه،ومتي استقر هذا في الأذهان فلسنا بحاجة الي دليل آخر علي إفادة هذا القصر ، كأن نلتمس من السياق أو الملابسات دليلا علي إرادة القصر بمثل هذا النظام) (٢) ونحن نوافق المرحوم أنيس علي أن تقديم

(١) راجع دلائل الإعجاز ١٥٤ ومابعدها .
(٢) من أسرار اللغة ص ٣١٠، ٣١١

المسند اليه في آيات سورة النحل المذكورة للاختصاص ، وقد نص علي ذلك الزمخشري في قوله تعالي : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها) [١] ولكن المرحوم أنيس اتخذ من هذه الآيات قاعدة عامة ، ونظاما عاما لإفادة القصر ، كأنه يريد أن كل مسند اليه مخبر عنه بفعل ماض يفيد تقديمه القصر ، دون اعتبار لمقتضيات المقام ، وعبد القاهر كما تقدم يري أن ذلك يعينه المقام ، فإن اقتضي المقام التخصيص كان التقديم للتخصيص ، وإن اقتضي توكيد الحكم وتقويته ، كان تقديم المسند اليه للتقوي ، سواء كان الخبر فعلا ماضيا أم مضارعا ، وهذا هو الفرق بين الرأيين ، ولعلك تعجب حين تري الدكتور أنيس يأتي في الصورة الأخري ، وهي التي يخبر فيها عن المسند اليه بفعل مضارع ، فينفي أن تكون مما يفيد القصر أو التقوي ، فيقول : (ليس في الجملة المضارعية حين يتقدم المسند إليه ، أي نوع من القصر أو ما يشبه القصر ، وليس فيها ذلك التقوي في المحكوم عليه ، كما يقول عبد القاهر ، حين يتحدث عن مثاله المشهور (وهو يعطي الجزيل) [٢] وقد كبا العلامة هنا كبوة عظيمة فزعم أن عبد القاهر في قولك : (هو يعطي الجزيل) يقول بتقوي المحكوم عليه ، وهذا مجانب للصواب ، لأن عبد القاهر لم يقل بذلك بل قال : إن تقديم المسند اليه في هذا المثال وما جري مجراه يفيد تقوي الحكم ، وفرق كبير بين تقوي الحكم ، وتقوي المحكوم عليه ، فالثاني من قبيل قولك : (حضر زيد نفسه) ، أو عينه ، أو جاء

(١) الزمر / ٢٣ ، وأنظر الكشاف ٣/ ٣٩٤

(٢) من أسرار اللغة ص ٣١٧ .

الطلاب كلهم ، فالتأكيد بالنفس ، أو العين ، أو غيرهما من ألفاظ التوكيد ، انما هو للمحكوم عليه ، وليس هذا مما نحن فيه ، وهذا واضح ، وليس بحاجة إلي تعزيزه من كلام عبد القاهر ، أو غيره،ومع ذلك فقد غاب عن ذهن العلامة الدكتور أنيس ، أما أن المسند اليه إذا كان خبره مضارعا ، فلا يفيد التخصيص أو تقوي الحكم ، فإنه رأي غريب رآه الدكتور الفاضل ، ولا أدري ماذا دفعه الي التفريق بين المسند اليه المقدم المخبر عنه بفعل ماض ،والمخبر عنه بفعل مضارع ، فلم يفرق عبد القاهر بين الصورتين ، وكذلك نص الزمخشري في قوله تعالي : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) [١] علي أن تقديم السمند اليه يفيد الاختصاص [٢] ، والمقام لا يدفع هذا المعني والخبر في الآية كما تري هو الفعل المضارع (يبسط) ، ويمكن أن يقال هذا في غير موضع من القرآن ، كقوله تعالي : (الله يعلم ما تحمل كل أنثي) [٣] وقوله : (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) [٤] فالمقام هنا يقتضي إرادة التخصيص ، كما لا يخفي ويقوي هذا ما ذكره السبكي في قوله تعالي : (فلما جاء سليمان قال أتمدنن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) [٥] فقد قدم المسند اليه ــ وهو الضمير ــ أنتم ــ علي خبره ــ وهو الجملة الفعلية المضارعية ــ والغرض التخصيص ، لأن قوله (أتمدونن بمال) واضرابه عن ذلك بــ (بل) يقوي هذا القصد

(١) الرعد / ٢٦ (٢) الكشاف / ٣٥٩ (٣) الرعد / ٨
(٤) النحل / ١٩ (٥) النمل / ٣٦

وكأن المعني : بل أنتم تفرحــون بهديتهم ، لا أنا ، لأن المتبادر أنه لم يرد نفي فرحــه عليه الصلاة والسلام بهديتكم ، بل أراد إثبــات فرحهم هم بها .(١)

أما إفادة تقديم المسند اليه للتقوي ، بمعونة المقام ، فأمثلته كثيرة أطال عبد القاهر في شرحها ، وتحليلها ، وتوضيح قصد التقوي فيهــا ، ومنها قول الشاعر :

هم يفرشون اللبد كل طمــرة .. وأجرد سباح يبذ المقالبا (٢)

قال عبد القاهر : (لم يرد أن يدعي لهم هذه الصفة دعوي من يقودهــم بها ، وينص فيها عليهم ، .. وانما أراد أن يصفهم بأنهم فرســـان يمتدحون صهوات الخيل ، وأنهم يقتعدون الجياد منها) وسر التقــوي عند عبد القاهر في نحو هــذا أن تقديم المسند اليه مجردا مــــن العوامل ينبه المخاطب اليه ، ويشعر بأن هناك شيئا ينوي المتكلــم اسناده اليه ، فإذا ذكر المسند وقع من نفس السامع وقوع المأنــوس به ، المهيأ لقبوله ، وهــذا أنفي للشبهة ، وأبعد عن الشك ، وأدخــل في التحقيق ، أما سبب التقوي في هذه الصور عند السكاكي فهو تكـرر الاسناد ، وذلك أن المسند الفعلي قد اسند الي المسند اليه المقــدم مرتين ، مرة الي لفظه ، وأخري الي الضمير المستتر في الفعـــــل ، العائد عليه ،(٣) وتعليل عبد القاهر تعليل ذوقي معجب ، بخلاف تعليــل السكاكي فهو تعليل نحوي ، وأماما ذكره الاستاذ أنيس هنا فهـــو

---

(١) راجع عروس الأفراح ٣٩٦/١

(٢) واللبد : الشعر المتلبد ، والطمرة : مؤنث الطمر ، وهو الفرس الكريم ، والأجود : الفرس القصير الشعر ، ويبذ : أي يغلب .

(٣) راجع دلائل الاعجاز ١٥٩، ومفتاح العلوم للسكاكي ص ٩٦

تحكم محض لا دليل عليه .

وقوع المسند فعلا مضارعا، أو وصفا مشتقا منه :

يتصل بالحديث عن المسند ، كلام الدكتور أنيس حول الإخبار بالفعل المضارع ، والاخبار بوصف مشتق منه ، وذلك أنه لا يري فرقا في المعني بين هاتين الحالتين ، يقول : (فإذا تقدم المسند اليه وأخبر عنه بفعل مضارع ، كقوله تعالي : (والله يدعو الي دار السلام)(١) وجب أن تعد الجملة جملة اسمية ، ولا فرق بينها حينئذ ، وبين أن نقول : (والله الداعي الي دار السلام) فالمضارع هنا ليس في الحقيقة فعلا ، وانما هو وصف ، يجوز عليه ما يجوز علي الوصف ، من وجوب مطابقته لموصوفه في كل شيء ، فلا فرق بين المضارع في مثل هذه الجمل حين يتقدم المسند اليه ، وبين ما يشتق منه من صفة، لافي معناهما ، ولا فيما يصيب كلا منهما من تغيير مع التثنية، أو الجمع أو التأنيث) .

ثم يعرض لحديث الشيخ عبد القاهر في هذه القضية ، ويرفضه، فيقول : (وقد أجهد عبد القاهر نفسه ، وأجهدنا معه ، حين حاول أن يتلمس فروقا بين استعمال الفعل المضارع ، واستعمال ما اشتق منه، زاعما لنا أن المعني مع المضارع يفيد التجدد ووقوع الحدث شيئا فشيئا ، في حين أنه مع المشتق لا يكاد يعدو ثبوت الصفة وحصولها ، ويجاري عبد القاهر في هذا كل البلاغيين ، ويسوقون لنا ذلك الشاهد المشهور :

(١) يونس / ٢٥

أو كلما وردت عكاظ قبيلة .. بعثوا الي عريفهم يتوسم

وفي الحق أن التجديد هنا مستفاد من التعبير بكلمة (كلما) لا من استعمال المضارع - يتوسم -) [١] والواقع أن كلام عبد القاهر في هذه القضية دقيق غاية الدقة ، وقد غفل الاستاذ أنيس عن أهم ما فيه ، فقد ذكر عبد القاهر أنك إذا قلت مثلا : زيد طويل، فأنت تريد وصف زيد بالطول ، وهذا يكون حيث يصبح زيد رجلا قد استقر طوله ، وانتهي عند نهاية ثابتة لا يتجاوزها النمو ، فاذا كان الموصوف متجددا لطول ، بأن كان في فترة اليفاع أو الصبا ، فاللائق أن تقول : (زيد يطول) فتأتي بالفعل المضارع ، لا بالصفة المشتقة منه ، ومثل ذلك تقول في النبات : إنه نام ، أو إنه ينمو، فأنت تخبر بالاسم ، حيث يكون النبات قد استقر نموه وثبت ، وكاد أن يصبح حصيدا ، وتخبر بالفعل المضارع ، حيث يكون نباتا صغيرا ، يتلاحق نموه ، ويتجدد ، ومن هنا كان في الإخبار بالاسم معني الاستقرار والاستمرار ، وفي الاخبار بالفعل المضارع معني التجدد والحدوث ، وعلي هذا ساق عبد القاهر شواهد للحالتين، ففي الاخبار بالاسم يسوق قول الشاعر :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا .. لكن يمر عليها وهو منطلق

وتأمل قوله (وهو منطلق) حيث جاء المسند اسما، ليشعر بأن الدراهم تمر علي صرة هؤلاء الممدوحين، [٢] مسرعة منطلقة، وكأن هذا طبعها وديدنها ، وهذا المعني أدل علي كرمهم وإيثارهم للفقراء

(١) من أسرار اللغة ص ٣١٤ ، ٣١٥ .
(٢) الصرة : الكيس الذي توضع فيه النقود والدراهم .

بتلك الدراهم من أن لو قال : (وهو ينطلق) ، وعلي ذلك قوله تعالي : عن كلب أهل الكهف : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد)(١) فالاخبار باسم الفاعل في الآية يفيد غير ما يفيده المضارع لوكانت الآية هكذا (وكلبهم يبسط ذراعيه بالوصيد) لأن القصد هو تصوير هذا الكلب ، باسطا يديه أمامه ، مقعيا علي إليتيه في صورة ثابتة مستقرة ، تأخذ كل أعضاء الكلب فيها مواضعها ، ولو قال : (وكلبهم يبسط) لأفاد غير ذلك ، أما في الإخبار بالفعل فقد ذكر عبد القاهر قول الأعشي :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة .. الي ضوء نار في يفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها .. وبات علي النار الندي والمحلق

ولاحت : أي نظرت ، واليفاع الجبل المرتفع ، والمقروران : اللذان اشتد عليهما البرد ، والاصطلاء : الاستدفاء بالنار ، والبيتان للأعشي في مدح المحلق ، والشاهد هو الوصف بالفعل المضارع (تحرق) وأصله تتحرق ، فحذفت إحدي التائين ، وقد أفاد الفعل المضارع هنا معني التجدد والحدوث ، أي أن اشتعال هذه النار يتجدد شيئا فشيئا ، كلما غزاها المحلق بالحطب ، والوقود ، والأعشاب اليابسة .

كما ذكر عبد القاهر البيت الذي ساقه الاستاذ أنيس ، وهو قول طريف بن تميم العنبري :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة .. بعثوا إلي عريفهم يتوسم

، وعكاظ سوق للعرب كانوا يجتمعون فيه كل عام ، ويتناشدون

(١) الكهف / ١٨

الأشعار ، وعريف القوم : قائدهم ، وكان الشاعر مطاردا من قبائل العرب جميعا ، فلكل قبيلة عنده ثأر ودم ، حتي نزل عكاظ،وجاءت القبائل اليه تباعا ، وكلما وردت قبيلة قام عريفها يتوسم في وجه الشاعر ، ويتفرس فيه ، لتنال منه القبيلة ثأرها ، فالفعل المضارع (يتوسم) هنا أفاد معني التجدد والحدوث ، أي أن هذا التفرس يقع من العرفاء ، ويتلاحق ، ويتجدد ، كلما حلت قبيلة سوق[1] عكاظ فليس هذا التجدد مستفادا من كلمة (كلما) كما زعم الدكتور أنيس ولعل الذي أغراه بذلك أنه وجد هذا الرأي في كلام السبكي[2] ، فاهتبله ، وتبناه ، ليخرج به علي البلاغيين ، وكان العلامة السبكي قد أجاب عن هذا الرأي بأن هذا البيت قد ذكر مثالا ، لا شاهدا ، أي أنه اذا كان قد انضم الي المضارع لفظ (كلما) هنا في إفادة التجدد ، فقد جاء الفعل المضارع لهذا المعني منفردا في أمثلة أخري ، كالأمثلة التي تقدمت في كلام عبد القاهر ، وقد اتضح معني التجدد فيها ، دون شك ، فللفعل المضارع موضع ، ولاسم الفاعل موضع ولا يصلح أحدهما في موضع الآخر ، ولذلك جاء كل منهما في موضعه في قوله تعالي : (أو لم يروا الي الطير فوقهم[3] صافات ويقبض) قال الزمخشري : (فان قلت لم قيل - ويقبض - ولم يقل - وقابضات قلت : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة من الأطراف وبسطها وأما القبض فطاريء علي البسط ، للاستظهار به علي التحرك ، فجيء

(١) راجع الدلائل ص ١٩٣ وما بعدها .
(٢) عروس الأفراح ٢/ ٢٨
(٣) الملك / ١٩

بما هو طاريء غير أصل بلفظ الفعل ، علي معني أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح) (١) .

وهذا كلام جدير بأن يكتب بماء التبر ، لا بالحبر كما يقولون وقد ذكر السبكي أنه لما كان للوصف بالاسم معني الاستمرار والثبوت وللوصف بالفعل معني التجدد والحدوث جاء كل منهما في موضعه في قوله تعالي : (قالوا سلاما قال سلام) (٢) لأن سيدنا ابراهيم عليه السلام قصد أن يحيي الملائكة بأحسن مما حيوه به ، رعاية لمعني قوله تعالي : (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) (٣) وعلي هذا جاء قوله تعالي : (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) (٤) أي : هل أحدثت لنا ما لم تكن تألفه ؟ أم أنت علي اللعب الذي كان مستمرا من الصغر علي زعمهم ، وعليه قوله تعالي : (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) (٥) أي : سواء عليكم تجدد دعائكم وصمتكم المستمر ، لأن الصمت عندهم هو الذي كان عادة مستمرة ، فلو كان الإخبار بالفعل كالإخبار بالاسم المشتق منه كما يزعم المرحوم أنيس لما كان لكون هذا اسما ، وذاك فعلا معني ، فما ذكره هنا لا يعدو أن يكون تشويشا وتهويشا بغير دليل .

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣٨
(٢) الذاريات / ٢٥
(٣) النساء / ٨٦ (٤) الانبياء/٥٥ (٥) الأعراف / ١٩٢ .

جـ - تقديم المفعول علي الفعل :

يذكر الدكتور أنيس أن المفعول قد يسبق الفاعل في حالات منها اسلوب الحصر ، كقوله تعالي : (وما يعلم تأويله الا الله) (١) ، ومنها طول الكلام مع الفاعل وتوابعه ، مما قد يغمر المفعول به ، ولا تكاد تتبينه ، حين يتأخر ، كقوله تعالي : (وإذا حضر القسمة أولي القربي واليتامي والمساكين فارزقوهم منه) (٢) ، ومنها أن يشتمل الفاعل علي ضمير يعود علي المفعول ، كقوله تعالي : (وإذا يتلي ابراهيم ربه) (٣) وهذه توجيهات نحوية طيبة ، كثيرا ما يذكرها البلاغيون بين يدي كلامهم عن تقديم المفعول علي الفاعل ، أعني (تقديم بعض معمولات الفعل علي بعض) .

وقد كان المرحوم أنيس موفقا حين ذكر السر في تأخير الفاعل علي المفعول في قوله تعالي : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) (٤) فقد قال : (إن السر في تقديم المفعول ، وتأخير الفاعل هنا هو النفور من التعجيل بذكر كلمة (الموت) الكريهة علي النفس البشرية) وذكر مثل هذا في قوله تعالي : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه) (٥) وهو يتابع ابن الأثير في الاحتفاء بالتوازن الموسيقي ، واتفاق أواخر الجمل في الحرف الأخير ، فيذكر أن تأخير الفاعل قد يكون لرعاية الفواصل القرآنية ، كقوله تعالي : (فأوجس في نفسه خيفة موسي) (٦) وقوله : (فلما جاء أل لوط المرسلون) (٧) أما تقديم المفعول وما يشبهه من المتعلقات علي الفعل

---

(١) آل عمران / ٧ (٢) النساء / ٨ (٣) البقرة / ١٢٤
(٤) البقرة / ١٣٣ (٥) الزمر / ٨ (٦) ط / ٦٧
(٧) الحجر / ٦١ ، وراجع من أسرار اللغة ص ٢٤٢ : ٢٤٧

فله فيه كلام عجيب ، ذلك أن المفعول قد يتقدم علي الفعل في جملة مثبتة ، أي لم تعتمد علي نفي أو استفهام ، كقولك : (زيدا ضربت) وقد يتقدم علي الفعل ، وقد سبقه نفي أو استفهام ، كقولك :(أزيدا ضربت ، وما زيدا ضربت) والبلاغيون لا يفرقون بين هاتين الصورتين في صحة تقديم المفعول وعدم صحته ، بل ولا يهتمون بذلك وانما يهتمون بالغرض الذي لأجله قدم ، وكأنما ظن المرحوم أنيس أن البلاغيين يعنون بجواز التقديم وعدمه ، فلذلك نجده يرفض تقديم المفعول علي الفعل في الصورة الأولي ، ويقبله في الثانية ، يقول في ذلك : (ولست أغالي حين أقرر هنا أن المفعول لا يصح أن يسبق ركني الإسناد ، في الجمل المثبتة ، كما يزعم أصحاب البلاغة، في تلك الأمثلة المصنوعة ، من نحو : (زيدا ضربت ، وزيدا ضربته أما التقديم في مثل الآيات القرآنية : (إياك نعبد وإياك نستعين) [(١)] (فإياي فاعبدون) [(٢)] ، (ولكن أنفسهم يظلمون) [(٣)] ،(خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه) [(٤)] ، (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) [(٥)] ، فالأمر فيه لا يعدو أن يكون رعاية لموسيقي الفاصلة القرآنية ، فهي إذن أشبه بالقافية الشعرية التي يحرص الشاعر علي موسيقاها كل الحرص ، أما في الجمل الاستفهامية ، أو المعتمدة علي نفي ، فقد أمكن أن يتقدم المفعول علي ركني الإسناد ، مثل قوله تعالي : (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) [(٦)] ، (قل أغير الله أتخذوا وليا فاطر السموات والأرض [(٧)]

---

(١) الفاتحة / ٥ (٢) العنكبوت / ٥٦ (٣) آل عمران / ١١٧
(٤) الحاقة / ٣٠، ٣١ (٥) الضحي / ٩ ، ١٠ (٦) المائدة/ ٥

(فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر)[١] ففي هذه التعابير المعتمدة علي نفي أو استفهام وحدها ، يصح أن نقول كما قال أهل البلاغة : إن التقدم لرد الخطأ في التعيين ، أورد الخطأ في الاشتراك ، حسب ما يقتضي سياق الكلام ، فالانكار في الآيات السابقة منصب علي المفعول به المقدم ، ففي الآية الأولي لا ينكر عليهم ابتغاء الحكم ، وانما الذي ينكر عليهم هو ابتغاء حكم معين ، هو حكم الجاهلية بالذات ، وفي الآية الثانية لا ينكر عليهم اتخاذ الولي ، وانما الذي ينكر عليهم هو أن يكون الولي غير الله ، وفي الآية الثالثة لا يدهش الكفار أو يعجبون من أن يكونوا تابعين أو مطيعين ، وانما هم يدهشون أو يأبون اتباع بشر مثلهم)[٢]

وهذا الكلام مليئ بالتخليط ، فإن البلاغيين لا يبحثون في جواز التقديم وعدمه ، بل ذلك غرض النحاة ، فهم الذين اجازوا تقديم المفعول علي الفعل ، وهم الذين مثلوا له بهذه الأمثلة التي سماها المرحوم أنيس مصنوعة ، فلما صح ذلك عند النحاة في هذه الجمل المثبتة نظر البلاغيون فيها ، حسبما يتفق مع منهجهم ، فقالوا : إن تقديم المفعول علي الفعل قد يفيد الاختصاص ، وهو المراد برد الخطأ في التعيين ، ورد الخطأ في الاشتراك ، حسبما يقتضي المقام وسياق الكلام فان كان المخاطب يزعم أنك ضربت عمرا، فقلت له : (زيدا ضربت) فالقصر قصر قلب لأنك قلبت ما يعتقده ، ورددت خطأه ، وان كان يعتقد أنك ضربتهما معا ، فقلت له :

(١) القمر / ٢٤
(٢) راجع من أسرار اللغة ص ٣٣١ : ٣٣٣

(زيدا ضربت) فالقصر قصر إفراد،وهذا هو المراد برد الخطأ في الاشتراك ، وبهذا تعلم أن مهمة البلاغيين قد بدأت من حيث انتهت مهمة النحاة ، فكيف يأتي الاستاذ أنيس ، فينسب الي البلاغيين ما لا يدخل في منهجهم . (١)

إن القول بصحة تقديم المفعول علي الفعل في الجمل المثبته ذكره النحوي العظيم أبو الفتح ابن جني ، في حديثه عن التقديم والتأخير ، حيث يقول : (وذلك ـ أي التقديم ـ علي ضربين : أحدهما مايقبله القياس ، والآخر ما يسهله الاضطرار ، الأول كتقديم المفعول علي الفاعل تارة ، وعلي الفعل الناصبه أخري ، كضرب زيدا عمرو، وزيدا ضرب عمرو ، وكذلك الظرف نحو: (قام عندك زيد) ، (وعندك قام زيد) ، (وسار يوم الجمعة جعفر) ، ويوم الجمعة سار جعفر ...) (١) .

أما أن تقديم المفعول علي الفعل في (إياك نعبد وإياك نستعين) لرعاية الفواصل القرآنية ، فذلك رأي ذكره ابن الأثير ، في مقام الرد علي الزمخشري الذي رأي أن تقديم المعمول هنا للاختصاص ، ومعني الآية يعضد رأي الزمخشري ، وذلك أن المراد كما قال الزمخشري : (نخصك بالعبادة ، ونخصك بطلب المعونة) (٢). هذا فضلا عن أن القول بأن تقديم المفعول هنا للاختصاص لا ينافي أن يكون ذلك لرعاية الفواصل القرآنية ، كما ذكر العلوي ، وابن أبي الحديد ، وابن يعقوب ، وتقدم ذلك في تقديم المسند ، وذلك أن

---

(١) انظر الخصائص ٢/ ٣٨٢ (٢) الكشاف ١/ ٦٢

الاختصاص نكتة معنوية ، ومراعاة الفواصل القرآنية نكتة لفظيـة ، وهذه لا تنافي تلك ، ولو نظرت الي قوله تعالي : (إياك نعبد وإياك نستعين) لوجدت أن المعني ينص علي قصد الاختصاص ، كما سبـق عن الزمخشري ، ومع ذلك لا يمنع هذا من افادة التقديم لحسن النظـم السجعي ، فقبل هذه الآية قوله تعالي : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، وهذه الآيات انتهت بحرف النون ، وكذلك ختمت الآية التي معنا بالنون ، وهـذا هو مراعاة الفواصل ، وتوخـي حسن النظم السجعي ، الذي عناه ابن الأثير وزعم أنه لو قيل (نعبـدك ونستعينك) لذهب هذا الحسن ، وكذلك صنع في الآيات الأخـري التي تابعه فيها الاستاذ أنيس ، كقوله تعالي : (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) وقوله : (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلـوه) وقوله : (ولكن أنفسهم يظلمون) (١) ، وقد تبع ابن الأثير من المتقدمين أيضا العلامة سعد الدين (٢) ، وابن يعقوب (٣) المغربي ففـي الآية الأولي يذكر ابن يعقوب أن المراد النهي عن قهر اليتيم وانتهار السائل ، وفي الثانية يذكر أن تقديم الجحيم علي التصلية لمراعـاة الفاصلة ، إذ ليس المراد الرد علي من يعتقد أنه يصلي غير الجحيـم ، حتي يكون التقديم للتخصيص ، وكذلك الشأن في قوله تعالي : (ثم فـي سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) وفي الآية الثالثة يقـول : (فالمراد الاخبار بظلمهم أنفسهم ، لا الرد علي من زعم ظلمهم غيـر أنفسهم) وبعد هذا يقول : (وإن كانت رعاية الفواصل لا تنافـي

(١) راجع المثل السائر ٢/ ٢١٩
(٢) المطول ص ٢٠٠ ، ومختصر السعد ٢/ ١٥١، ١٥٢
(٣) مواهب الفتاح ٢/ ١٥٢

الحصر عند صحته في المقام) فتلخص من هذا أن علماء البلاغة يقررون أن للاختصاص موضعا ، ولمراعاة الفواصل موضعا آخر ، والقاضي بأحد الغرضين هو المقام ، فقد يجتمعان معا، كما في (إياك نعبد وإياك نستعين) وقد يرتفعان معا ، كما في تقديم المفعول لمجرد الاهتمام والعناية ، كما في المثال الذي ذكره عبد القاهر لذلك، وهو (قتل الخارجي زيد) بتقديم المفعول علي الفاعل ، وذلك أن هذا المجرم قد كثر منه الأذي ، وضاق به الناس ، فهم في حاجة الي سماع نبأ قتله ، لا في حاجة الي معرفة قاتله [١] ، ولكن الشيء الذي تجاهله الأستاذ أنيس هو أن الاختصاص غرض غالب ملازم لتقديم المفعول ، قال الخطيب : (والتخصيص لازم للتقديم غالبا [٢]) وهو هنا يعبر عن رأي جمهور البلاغيين ، أما الدكتور أنيس فيزعم أن التقديم في الجمل المثبتة لمراعاة الفواصل ، وفي الجمل المعتمدة علي نفي أو استفهام يمكن أن يكون للاختصاص ، وهذا تحكم لا معني له، وهو يذكرنا بما كان من ابن الحاجب والعلوي ، في هذا المقام،فقد كان ابن الحاجب يخالف ما قرره الجمهور في غلبة التخصيص علي تقديم المفعول ، ويقول: والاختصاص الذي يتوهمه كثير من الناس في تقديم المعمول وهم ، ويستدل علي ذلك بأن الله سبحانه وتعالي قد ذكر في سورة الزمر آيتين ، تقدم الفعل علي المفعول في احدهما وتقدم المفعول علي الفعل في الأخري ، فقد قال أولا ، (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) [٣] وبعد ذلك قال في السورة نفسها

---

(١) الدلائل ص ١٣٨

(٢) الايضاح ٢/ ١٥٠ ضمن شروح التلخيص .

(٣) الزمر / ١١

(لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) (١) وتابعه العلوي في إنكار الاختصاص في قوله تعالي : (بل الله فاعبد) ، واستدل هو الآخر بأن هذا التركيب قد جاء فيه المفعول مؤخرا في آيات من القرآن ، منها قوله تعالي: (فليعبدوا رب هذا البيت) (٢) وقوله : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) (٣) وقوله : (واعبد ربك حتي يأتيك اليقين) (٤) وقوله (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) (٥) ثم قال : ولو كان التقديم في (بل الله فاعبد) للاختصاص لوجب تقديم المفعول في هذه الآيات كلها، لأن المعني واحد فيها جميعا) (٦) .

وهذا الكلام فيه اغفال لسياق الآية التي معنا ، وقد أحسن السبكي في الرد علي ابن الحاجب حيث ذكر أن الآية الأولي من سورة الزمر ، وهي (أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) ليس فيها اختصاص وكذلك يقال في الآيات الأخري التي جاء فيها المفعول مؤخرا ، أما قوله تعالي (بل الله فاعبد) ففيه الاختصاص بلا ريب ، وذلك أن الله قد خاطب المؤمنين في صورة خطاب للنبي صلي الله عليه وسلم بأنهم إن اشركوا حبطت أعمالهم ، ثم أضرب عن ذلك بـ (بل) ، فقال (بل الله فاعبد) فلو كان تقديم المعمول هنا لغير الاختصاص لما كان لهذا الإضراب معني، فكأن هذا الاضراب يؤكد أن المراد (ما أعبد الا الله) وهذا ما يستظهره كل ذي ذوق سليم ، ومثله

---

(١) الزمر / ٦٥ ، ٦٦
(٢) سورة قريش / ٣
(٣) النساء / ٣٦
(٤) الحجر / ٩٩
(٥) البقرة / ٢١
(٦) انظر عروس الأفراح ٢/ ١٥٢: ١٥٤ ، والطراز للعلوي ٢/ ٦٦، ٦٧

تقديم الجـار والمجرور في قوله تعالي : (قل أبالله وآياته ورسولـه كنتم تستهزئون) [(١)] وقوله : (قل هو الرحمن آمنا به وعليـــه توكلنا) [(٢)] وقوله : (أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء ممـــا تعملون) [(٣)]

دكتور

عبد المنعم سيد عبد السلام الاشقر

مدرس البلاغة والنقـد

بالكليـــة

---

(١) التوبة / ٦٥

(٢) سورة الملك / ٢٠

(٣) يونس / ٤١

أصوات مابين الأسنان

ا . د ناجح عبد الحافظ مبروك

دراسة الأصوات اللغوية من أهم الدراسات اللغوية علي الإطلاق لأنها هي اللبنات في تكوين الكلمات ، والوصول بها إلي حيز الوجود . وقد بدأت عند علماء العربية بداية حسنة ، بما دوّنه (سيبويه) في الكتاب من أقواله ، وأقوال أستاذه (الخليل بن أحمد ، وبما أضافه من بعدهما العلامة (ابن جني) في كتابه (سر صناعة الإعراب) من زيادات وتفصيلات دقيقة ، وشروح وتفسيرات واضحة، وبما أضافه كذلك علماء التجويد القرآني من تفصيلات كثيرة وأحكام تطبيقية في كتبهم التعليمية الخاصة (١) وبما قدمه علماء النقد والبلاغة من توضيحات عند حديثهم عن فصاحة المفرد وغير ذلك(٢)

ولكن في الحقيقة هذه الدراسة ، وتلك المباحث قد وقفت عند هذا القدر الضيق من البحث ، وقد كان يرجي منها أن تجاوز هذه الموضوعات الأولية إلي موضوعات أخري أعمق وأدق من ذلك ، كالتي نجدها في المباحث الصوتية الحديثة عند المستشرقين ، والتي من أهمها : دراسة تطور الأصوات في اللهجات العربية القديمة ، والعامية الحديثة . وعوامل تطور الأصوات في البيئات والأزمان المختلفة . ونقد مادة اللغة نقداً بمقاييس صوتية ، وذلك لتنقية المعجمات من الكلمات المتنافرة الأحرف ، أو التي لا تحسن في التركيب .....

(١) برجستراسر : التطور النحوي للغة العربية

(٢) د. ناجح عبد الحافظ : الأصوات اللغوية في لسان العرب ١١ ــ ١٦

والحق أن الدراسة الصوتية قد اكتملت وسائلها وموضوعاتها ومناهجها عند الأوربيين ، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أو قبل ذلك بقليل ، عندما رأي الباحثون ضرورة تفريع البحوث اللغوية فروعا مختلفة ، يتناول كل فرع منهاجانبا من جوانب اللغة ، وكان علم الأصوات واحدا من بين هذه الفروع ، فأنشأ له العلماء المدارس الخاصة به ، واستحدثوا الأجهزة العلمية والمعامل وآلات التسجيل ، وأجهزة التصوير .... الخ .

ونحن جديرون أن نقفوا آثارهم ، ونستفيد منهم ، وننتفع بتجاربهم كما انتفعوا هم بتجارب الخليل ، وسيبويه ، وابن جني ، وابن سينا في بدء دراساتهم للأصوات اللغوية .

وبحثنا هذا الذي نقدمه بين يدي القارئ نحاول فيه أن نقفوا آثار اللغويين المحدثين ، وننتفع بتجاربهم ، وذلك بعقد مقابلات صوتية بين بعض أصوات اللغة العربية الفصحي ، والعامية في مصر ونوضح ذلك بتناول الأصوات بين الأسنانية في الفصحي ، وما يقابلها في عامية مصر ، لنري ما أصاب هذه الأصوات العربية من عوامل التطور ، أو التعاقب والإبدال في اللهجة المصرية .

وقبل أن نعقد هذه المقابلة الصوتية يجدر بنا أن نتعرف علي مخارج هذه الأصوات عند القدماء ، وعند المحدثين ، وعلي صفاتها وكيفية تكونها ، ثم نعرج بعد ذلك إلي أحكامها من حيث إدغام بعضها في بعض ، وإدغامها في الأصوات الأخري ، وابدالها مع ذكر بعض الأمثلة لهذه الأحكام من العربية الفصحي والعامية المصرية

فنقول :

(الثاء ، والذال ، والظاء) أصوات عربية . اختلف اللغويون قدامي ومحدثون في الموطن الذي تخرج منه هذه الأصوات علـــي النحو التالي :

فالخليل بن أحمد الفراهيدي يري أن هذه الأصوات تخرج مــن اللثة ، ودليلنا علي ذلك قوله : (والظاء :، والذال ، والثاء لثويـة لأن مبدأها من اللثة) (١)

وسيبويه ، وابن جني يريان أن مخرجها هو طرف اللسان وأطراف الثنايا فقد ورد عنهما (ومما بين طرف اللسان ، وأطراف الثنايا مخرج الظاء ، والذال ، والثاء) (٢)

والمبرد يري كذلك ما يراه ابن جني وسيبويه ، فقد ورد عنه : (ومن طرف اللسان ، وأطراف الثنايا العليا مخرج الظاء ، والثـاء والذال) (٣)

هذا ملخص ما ورد عن لغوي العرب القدماء بشأن مخرج هـــذه الأصوات .

أما اللغويون المحدثون من العرب ، وبعض المستشرقين فقد ورد عنهم ما يقارب رأي سيبويه وابن جني . فالأستاذ الدكتور/ إبراهيم أنيس ، والدكتور محمود السعران يقولان : ومن بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا مخرج الظاء ، والذال والثاء . (٤)

(١) الخليل بن احمد : العين ١/ ٦٥
(٢) سيبويه : الكتاب ٤/ ٤٣٣ ـ ابن جني : سر الصناعة ١/ ٥٣
(٣) المبرد : المقتضب ٢/٢٢٩ تحقيق الأستاذ عبدالخالق عضيمة .
(٤) أنيس : الأصوات اللغوية ٤٨ ـ السعران : علم اللغة ١٩٠

والمستشرق هنري فليش ، يقول : (ما بين الأسنان ، أو مما بين الأسنان ثلاثة : الذال ، والظاء المفخمة من مخرج الذال ،وهما مجهوران ، والثاء الرقيقة المهموسة من نفس المخرج) (١)

هذا ، وبمقارنة وجهة النظر القديمة بوجهة النظر الحديثة بشأن مخرج هذه الأصوات يتبين أن القدماء قد ذكروا لهذه الأصوات مخرجين مختلفين : الأول أنها تخرج من اللثة ، والثاني أنها من بين طرف اللسان ، وأطراف الثنايا ، علي حين أن المحدثين يكاد يكون بينهم شبه اتفاق علي مخرج هذه الأصوات .

ولا شك أن الفرق كبير بين رأي الفريق الأول من القدماء الذي يجعل اللثة مخرجا لهذه الأصوات ، والفريق الثاني من القدماء والمحدثين الذين يجعلون مخرج هذه الأصوات طرف اللسان وأطراف الثنايا ، أو من بين الأسنان .

فالرأي الذي جعل اللثة موضعا لخروج الثاء ، والذال ، والظاء بعيد كل البعد عن الصواب ، ولم يحالفه التوفيق ، وذلك لأن اللثة لا دخل لها في مخرج هذه الأصوات ، يقول الدكتور أنيس : (اما تسمية الذال ، والثاء ، والظاء بالحروف اللثوية ، فاصطلاح عجيب فلا ندري أن اللثة لها أي دخل في صدور هذه الحروف ، أو النطق بها) (٢) ولأن التجارب الحديثة قد برهنت علي أن هذه الأصوات تحدث بوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا العليا والسفلي .

(١) فليش : العربية الفصحي ٣٦ تحقيق وتعريب د/ عبد الصبور شاهين
وانظر كمال بشر : علم اللغة العام (الأصوات) ١٠٢ .
(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ١٥/ ١٤٦

من هذا يتضح لنا أن رأي الفريق الثاني لعلماء العربية القدامي الذي حدد الموضع الذي تخرج منه هذه الأصوات بـ (من بين طرف اللسان ، واطراف الثنايا) أي الثنايا العليا والسفلي ، يوافق ما توصل إليه المحدثون الآن ، لأن ذلك يعني انها أسنانية ، او من بين الأسنان .

أما (الثاء) فصوت أسناني أو من بين الأسنان ، رخو أو احتكاكي ، مهموس . ويتم النطق به ، بأن يوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا العليا والسفلي بصورة تسمح للهواء بالمرور مع احداث نوع من الحفيف والاحتكاك ، ومع عدم تذبذب الأوتار الصوتية .

وليس لصوت الثاء وجود في اللهجات المصرية العامية [١] وإنما قد تطور في النطق العامي ، واستعيض عنه إما بصوت التاء ، وإما بصوت السين ، فمن أمثلة الاستعاضة عنه بصوت التاء قولهم : التلات ليوم الثلاثاء ، والتلت والتلتان في الثلث والثلثين ، والتعبان في الثعبان ، وتقيل في ثقيل [٢] ، والتعلب في الثعلب ، وغير ذلك من الكلمات الكثيرة التي قلبت فيها الثاء تاء في العامية المصرية .

---

(١) د. / تمام حسان مناهج البحث في اللغة ٩٩ دار الثقافة بالدار البيضاء ط ثانية ١٩٧٤م .

(٢) لا وجود للثاء في النطق العامي إلا عند اللثغ ، فإنهم يقلبون السين ثاء كقول الألثغ (ثمير في سمير) مثلا . واذا أراد العامة في مصر النطق بالثاء نفسها قلبوها سينا فقالوا في (ثقيل سقيل) وأبقوا الفتحة كأنهم حافظوا علي الكلمة حروفها ووزنها . راجع : احمد تيمور : معجم تيمور الكبير ١/ ٤٠ تحقيق د/ حسين نصار - الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م

ومن أمثلة الاستعاضة عنه بصوت السين قولهم سابت في ثابت، وسورة في ثورة ، وأم كلسوم في أم كلثوم ، وسريا في ثريا ...

وقد يستعاض عن الثاء أيضا في العامية المصرية ـ وإن كان هذا قليل بالنسبة لصوتي التاء ، والسين ـ بصوت الدال ، فيقولون : فلان ألدغ وهم يريدون (ألثغ) وربما يستعيضون عنه بصوت الطاء فنسمع منهم : فلان أطرم لمن وقعت ثناياه ، والصواب (أثرم) . هذا ، وإن قلب (الثاء) إلي هذه الأصوات المذكورة علي ألسنة العوام وبعض المثقفين في مصر ، وإن كان من الخطأ الظاهر الذي يجب التخلص منه ، وخاصة من ألسنة بعض معلمي اللغة العربية في مدارسنا ، فإن له في اللهجات العربية القديمة ما يبرره ، ويستند إليه ، ففي مخصص ابن سيده ، ورد قلب الثاء تاء ، في قوله : (رثأت الميت ، ورتأته لغة همدان ، والعامة الآن قلبت ثاءه سينا لا تاء)[(١)] وفي شرح السيرافي علي سيبويه ، ورد (خيبر والنضير يبدلون من الثاء تاء في كثير من الحروف ، في القاموس : القفنز، والقنثر : القصير)[(٢)]

كما أن هذا القلب له ما يؤيده ، إذ التاء أخت الثاء كلاهما صوت مهموس وهما متجاوران في المخارج ، إذ الثاء أسنانية ، والتاء أسنانية لثوية . ومما ورد بشأن قلبها سينا ، ما جاء في اللسان في مادة (ثدي) يقال : ثديت الأرض : كسديت .

والسين كذلك مثل الثاء يشتركان في صفة الهمس ، كما أن بينهما تقارب في المخارج .

(١) ابن سيده: المخصص ١٢/ ١٩٢ (٢) السيرافي علي سيبويه ١/ ٢٧٩ _ ٢٨٠

وأما قلبها إلي دال ، أو طاء فله ما يؤيده من شروط القلب ، وهو أن بين الثاء ، والدال والطاء قرب في المخارج ، إذ الثاء - كما بينا - أسنانية أو من بين الاسنان ، والدال والطاء كلاهما أسناني لثوي .

الإبدال بين الفاء والثاء :

ورد في كتب اللغة أمثلة كثيرة أبدل فيها أحدهما من الآخر مثل : الفوم والثوم ، وقرىء (وقثائها وثومها) ولكن القراءة المشهورة (فومها) . والجدف : القبر ، هو الجدث ، قال الفراء العرب تعقب بين الفاء والثاء في اللغة ، فيقولون : جدث وجدف وهي الأجداث والأجداف) [1]

ومنه الحثالة والحفالة [2] ، والأثافي ، ولغة بني تميم : الأثاثي وثم وفم [3] . وهذا الابدال بينهما له ما يؤيده ؛ إذ الفاء شفوية أسنانية احتكاكية مهموسة ، والثاء - كما بينا - من بين الأسنان احتكاكية مهموسة ، فالصوتان متقاربان مخرجا وصفة .

وأما (الذال) فهو المقابل المجهور لصوت الثاء ، ويتم نطقه بالطريقة التي يتم بها نطق الثاء ، ولا فرق بينهما إلا أن الأوتار الصوتية تتذبذب عند النطق بصوت الذال ، وعلي ذلك فالذال صوت من بين الاسنان احتكاكي مجهور .

(١) الجوهري : الصحاح مادة (جدف) .
(٢) الحثالة والحفالة : الرديء من كل شيء
(٣) السيوطي : المزهر في علوم اللغة ١/ ٤٦٥

وليس لصوت الذال وجود في العامية المصرية ، إذ قد تطور في النطق العامي ، فأضحي ينطق دالا ، أو زايا . فمن أمثلة نطقه دالا قولهم : الكدب والكداب في الكذب والكذاب ، ودهب في ذهب وديل الجلباب ، وديل الحصان في ذيل ، والديب في الذئب ، ودكر في ذكر ، ودقن في ذقن إلي غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي قلب فيها صوت الذال دالا . .

ومن أمثلة قلب الذال زايا قولهم : الولد بيزاكر دروسه في يذاكر والفلاح يبزز البزور في يبذر البذور ، وزلك في ذلك ، وفلان مزبزب في مذبذب ، والزنب في الذنب ....

هذا ، وقلب الذال أو تطورها إلي صوتي الدال أو الزاي ، وإن كان من الخطأ الظاهر الذي يجب التخلص منه ، فإن له في اللهجات العربية القديمة ما يبرره ويستند إليه ، من ذلك ما ورد عن الأصمعي من قول العرب : (ذرق الطائر وزرق . وعن غيره : بذر البذر وبزرت البزر) [1] وفي أمالي القالي : ذرق الطير وزرق ، وزبرت الكتاب وذبرته) [2] وقوله أيضا : (لغة ربيعة عذوفة ، وسائر العرب بالدال المهملة) [3] .

وفي القاموس في مادة (دكر) : الذكر بالكسر : الذكر لغة ربيعة كما أن قلبها أو تطورها إلي صوتي الدال أو الزاي له ما

---

(١) أبو الطيب اللغوي : الإبدال ٢/ ٦

(٢) القالي : الأمالي ٢/ ١٧٣ - ١٧٤

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٩٣

يؤيدد من قواعد القلب ، إذ الذال كما بينا صوت من بين الأسنان ، والدال صوت أسناني لثوي ، كما أنها صوت مجهور كالذال ، فالصوتان متقاربان مخرجا وصفة .

والزاي كذلك بينها وبين الذال قرب في المخرج والصفة ، إذ الزاي لثوية ، يتم نطقها بأن يعتمد طرف اللسان خلف الأسنان العليا مع التقاء مقدمه باللثة العليا ، والذال أسنانية أو من بين الأسنان ، كما أن كلاهما صوت مجهور يتذبذب معه الوتران الصوتيان .

وأما (الظاء) فصوت خص به لسان العرب ، لا يشركهم فيه أحد من سائر الأمم ، ويتم نطقه بالطريقة التي تم بها نطق الذال ولا فرق بينهما إلا في أن اللسان مع صوت الظاء ينطبق على الحنك الأعلي آخذا شكلا مقعرا ، حيث يرتفع مؤخره وطرفه ، ويتقعر وسطه ، شأنه في ذلك شأن الأصوات المطبقة المستعلية ، فهو إذن صوت من بين الأسنان احتكاكي مجهور مطبق مستعل . أما الذال فلا يأخذ معه اللسان هذا الوضع لأنه صوت منفتح مستفل .

هذا ، وقد تطور صوت الظاء في العامية المصرية فأصبح ينطق ضادا ، وذلك في قولهم : (الضهر) في (الظهر) ، (ضهر) في (ظهر) وضلمة وضلام في الظلمة والظلام ، والضاهر في الظاهر والضل في الظل ....

---

(١) ابن منظور : اللسان ٩/ ٣١٤ - ابن جني : سر الصناعة ١/٢٣٢

وإذا أراد العامة النطق بصوت الظاء نفسه قلبوه زايا مفخمة فنسمع منهم (زالم) في ظالم ، (زريف) في ظريف ، و(نازر) في ناظر المدرسة مثلا ...

وقلب الظاء إلي صوتي الضاد ، أو الزاي ، وإن كان من الخطأ الذي يجب أن نعمل علي الخلاص منه ، فإن له في اللهجات العربية القديمة ما يستند إليه ، ويعود إليه ، ففي الغريب المصنف : فاظت نفسه) تفيظ : مات ، وناس من بني تميم يقولون : فاضت نفسه تفيض) [1] .

وفي الصحاح : التقريظ مثل التقريض ، يقال فلان يقرض صاحبه إذا مدحه أو ذمه . [2] وكان إبن الاعرابي يجيز تعاقب الضاد والظاء مطلقا ، ونص العبارة التي ذكرها له ابن خلكان تقول : (جائز في كلام العرب أن يعاقبوا بين الضاد والظاء ، فلا يخطئ من يجعل هذه في موضع هذه) [3]

كما أن التعاقب بين الظاء والضاد متمشي وفق قواعد القلب والإبدال ، إذ صوت الظاء - كما بينا - أسناني أو من بين الأسنان احتكاكي مجهور مطبق ، والضاد أسنانية لثوية مجهورة احتكاكية مطبقة فالصوتان متقاربان مخرجا متحدان صفة .

أصوات ما بين الأسنان والإبدال :

عرفنا فيما سبق أن أصوات الثاء والذال ، والظاء ، قد أبدلت

(١) السيوطي : المزهر في علوم اللغة ١/ ٥٦١
(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٦٣
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/ ٤٣٣

في النطق العامي ، إلي تاء أو سين ، أو دال أو زاي ، أو ضاد ، وأمكننا أن نرد هذا الإبدال وهذا التطور إلي بعض اللهجات العربية القديمة ، ونريد هنا أن نتعرف علي الإبدال بين هذه الأصوات - أي إبدال أصوات ما بين الأسنان بعضها من بعض - في العربية ، فنقول : قد تبدل الذال من الثاء ، والثاء من الذال كما تبدل الظاء من الذال ، والذال من الظاء ، فمن إبدال الثاء من الذال أو الذال من الثاء ، ما روي عن الأصمعي : يقال لتراب البئر : النبيثة ، والنبذة . ويقال : قرب حذحاذ ، وحثحاث : إذا كان سريعا (١) . ويقال : قرأ فما تلعثم ، وما تلعذم . وعن اللحياني : يقال : خرجت غثيثة الجرح وغذيذته : إذا خرجت مِدته وما فيه ، وقد غث يغث ، وغذ يغذ (٢) .

ومن الإبدال بين الذال والظاء ، ما ورد في مادة (شنظر) من الصحاح : يقال : شنظير وشنظيرة : سيء الخلق ، وكذلك شنذيرة وهي في رأي الجوهري لغة أو لثغة ...

وحكي أبو الطيب اللغوي : أقبلت المرأة تخنظي وتخنذي : إذا رفعت صوتها بالوقيعة ، وامرأة خنذيان وخنظيان : إذا كانت تسخر من الناس وتوسد بينهم ، وتقع فيهم . (٣)

الثاء والذال والظاء والإدغام :

والإدغام هو : إدخال صوت في آخر ليرتفع بهما اللسان ارتفاعة

(١) ابن السكيت : الإبدال ١٠٨ تحقيق د. حسين محمد شرف القاهرة ١٩٧٨م .
(٢) المرجع السابق (٣) أبو الصيب اللغوي : الابدال ٢/ ٢٠

واحـدة تيسيرا ، واقتصاداً للجهد العضلي ، وهو أصل في حروف الفـم واللسان ـ كما يذكر سيبويه ـ لأنها أكثر الحروف [1]

والإدغام في هذه الأصوات أكثر وأجود ، لأنها من طرف اللســـان وأطراف الثنايا العليا والسفلي ، وأكثر أصوات اللسان من طرفــه ولكن البيان فيهن أمثل ، وسنبين فيما يلي الأصوات التي تدغـــم فيها ، ثم إدغام بعضها في بعض : فمن الأصوات التي تدغم فيهــــا (الضاد) نحـو : (احفضّيفك) في احفظ ضيفك ، (خضّيفك) فــي خذ ضيفك (ابعضيفك) في ابعث ضيفك .

(والشين) نحو : (احفشّيئا) في احفظ شيئا ، (خشّيئـا) فـي خـذ شيئا ، (ابعشّاكرا) في ابعث شاكرا .

والبيان في ذلك عربي جيـد ، وهو أجود منه في الضاد ، لبعـــد المخرجين .

(والسين) نحو : (ابعسّلمه) في ابعث سلمة ، (احفسّلمـــة) في احفظ سلمة ، (مسّاعة) في مذ شاعة ، والبيان في ذلك أمثل .

(والصاد) نحو : (خصّابرا) في خذ صابرا .

(والزاي) نحو : (احفزّهيرا) في احفظ زهيرا ، (مزّمـــان) في مذ زمـان .

(والدال) نحو : (خدّاود) في خذ داود ، (أبعدّلك) فـــي أبعد ذلك .

---

(١) سيبويه : الكتاب ٤/ ٤٤٨

(والتاء) نحو : (ابعتّلك) في أبعث تلك ، (انعتّابتـا) في انعت ثابتا .

(والظاء) نحو : (احفطّالبا) في احفظ طالبا . (١)

ومن إدغام أصوات ما بين الأسنان بعضها في بعض ، قولك في الظاء مع الذال : (احفذّلك) في احفظ ذلك ، (خظّالما) في خذ ظالما .

وفي الظاء مع الثاء : (احفثّابتا) في احفظ ثابتا ، (ابعظّالما) في ابعث ظالما .

وفي الذال مع الثاء : (خثّابتا) في خذ ثابتا ، (أبعذّلك) في ابعث ذلك (١) والإدغام أكثر وأجود .

وبعد ، فقد تبين لنا مما سبق أن الأصوات بين الأسنانية، قد تحولت في العامية المصرية إلي أصوات أسنانية لثوية ، أو لثوية وذلك لأن الثاء قد تطورت وتحولت إلي صوت التاء في الأعم الأغلب ، أو سين ، أو دال ، أو طاء ، كما تحولت الذال إلي دال أو زاي ، وتحولت الظاء إلي ضاد ، أو زاي . وهذا التحول - وإن كان من الخطأ الذي يجب تصحيحه ، والابتعاد عنه ، خشية أن تبعد عاميتنا عن الفصحي التي تفرعت عنها - له في لهجات العربية القديمة ما يماثله ويقاس عليه ، وهذا ولا شك دليل قاطع علي الصلة الوثيقة بين عاميتنا في مصر ، واللغة العربية الفصيحة ، وإن كانت هذه الصلة تتفاوت وهنا ، وضعفا في الأطوار الزمنية التي

(١) المرجع السابق ....

تمر بها .

وإذا كانت الصلة - كما بينا - وثيقة بين عاميتنا ، والعربية الفصحي ، فإن هذا لخير شاهد علي أن مصر هي البلد العربي الوحيد ، الذي انقرضت لغاته القديمة (١) ، لتحل محلها العربية . وهذا ولا شك حظ عظيم لم تظفر بمثله أمة عربية أخري . فالبلاد العراقية مثلا تحيا فيها لغات أخري غير العربية كالبابلية أو الكردية والبلاد الشامية تحيا فيها العبرية والسريانية ، والجزيرة العربية تحيا فيها لغات مختلفة ، وبلاد المغرب العربي فيها لغات كثيرة متناثرة ، بعضها قديم ، وبعضها حديث (٢)

هذا ، ولقد تعرضت فصحانا في كثير من البلدان لكثير من الخطوب والعواصف التي عصفت بها ، فاضطرت بغداد - وكانت عروس العروبة - إلي أن تتكلم الفارسية بضعه قرون ، ثم قهرها الظلم بعد ذلك إلي أن تتكلم التركية زمنا غير قليل ، كذلك البلاد الشامية والمغربية بمختلف أقطارها قد تعرضت لأمثال تلك الخطوب ، ولكن ظلت مصر موئل اللغة العربية ، وحصنها الحصين فكانت المساجد في القاهرة ، وفي سائر الحواضر المصرية ، مدارس جامعه لنشر علوم اللغة والدين ، وما يزال الناس يذكرون ، كيف حفظ الأزهر الشريف مخلفات الفرس ، والهنود ، والعراقيين ، والشوام

---

(١) يؤكد لنا التاريخ أن المصريين قبل الإسلام ، كانت لهم لغة في الشمال ، ولغة في الجنوب ، كما يؤكد لنا أيضا أنهم عرفوا لغة ثالثة هي اللغة اليونانية .

(٢) أنور الجندي : الفصحي لغة القرآن ١٠٤ دار الكتاب اللبناني - بيروت ..

والمغاربة ، والأندلسيين في ميادين المعقول والمنقول . (١)

ولقد تغلغلت العربيــة في دماء المصريين نحو ثلاثة عشر قرنـــا وكانت مصر هي الدرع الواقي الذي يصد عن العربيــة ، ما يوجـــه إليها من سهام ونبال .

هــذا وبالله التوفيق

اعــداد
أ.د / ناجح عبد الحافظ مبروك
رئيس قسم اصول اللغة بالكليــة

المسلمون في أقريطش

ا . د عبد الرزاق الطنطاوي

مما لا شك فيه أن البحر الأبيض المتوسط تمتّع منذ أقدم العصور بموقع جغرافي ممتاز ، استهوي كل القوي التي ظهرت علي شواطئه في أن تثبت وجودها فيه ، وان تكمل السيطرة عليه ليكون لها النفوذ والهيمنة علي الدول التي تطل عليه .

وفي عصرنا الحاضر يلعب هذا البحر كذلك دوراً خطيرا في رسم سياسة العالم ، فكل من الدولتين العظميين ، صاحبتي القوة العسكرية في العالم (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) تحاول أن يكون لها النفوذ والسيطرة عليه دون غيرها .

وما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية في ابريل ١٩٨٦م ضد الجماهيريهالليبية الشعبية لخير دليل علي أن تكون لأساطيلها البحرية الهيمنة والسيطرة علي هذا البحر ودوله ، فانطلقت القاذفات المقاتلة تصب جام غضبها علي الجماهيرية بدون رحمة أو هوادة لأنها أظهرت موقفا عدائيا من وجود الأسطول الأمريكي وحاملات الطائرات في هذا البحر ، الذي يهدد وجودها أمن وسلامة الدول المطلة عليه .

لقد كان موقف الولايات المتحدة من ليبيا هو الذي دفعني للبحث في بطون الكتب عن الأحداث المشابهة في التاريخ الاسلامي ، فظهر أن إقريطش (كريت) الإسلامية كانت تمثل مركزاً أساسيا للتصدي لأعتي القوي التي عاصرتها وهي الأمبراطورية البيزنطية ، ففي

تاريخ هذه الجزيرة مع الاسلام دليل واضح علي أن اتحاد المسلمين اليوم هو الحامي لكيانهم ، الحافظ لبقائهم ، المؤدي إلي تبوئهم المكانة اللائقة بهم في عصر الكيانات السياسية الكبيرة والقوية في نفس الوقت . هذا العصر الذي تختلف فيه التيارات ، وتتضارب الاتجاهات ، وتتجاذب القوي السياسية والفكرية وجود المسلمين، وكيانهم كله .

فمع رايات الإسلام الخفاقة علي اقريطش لنقف علي دورها الواضح في سبيل الإسلام ، وجمع كلمة المسلمين في بعض حقب التاريخ مما مهد الطريق لسيطرة المسلمين علي هذا البحر وجعله جديرا بأن يسمي بحر العرب لا بحر الروم .

الموقع والمساحة :

تقع جزيرة كريت (إقريطش) في قلب البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) الشرقي بين خطي عرض ٥٠ر°٣٤ ، ٤٠ر°٣٥ شمالا ،وخطي ٣٠ر°٢٣ ، ٦٠ر°٢٦ من خطوط الطول شرقا ، فهي بذلك تتوسط القارات الثلاث آسيا وأوزوبا وافريقيا ، وتكادتة اري في البعد عنها ، كما نعد مرقبا لما يجاورها من ممالك هذا البحر . كما كانت بحكم موقعها ، مركز التقاء الحضارات المختلفة لشعوب القارات الثلاث وكان موقعها عند الحد الجنوبي للبحر الإيجي قد جعلها تقسمه إلي قسمين وتتحكم فيهما ، مما هيأ لها فرض السيطرة علي عديد من الجزر اليونانية في هذا البحر والشواطئ المطلة عليه .

وتبعد هذه الجزيرة عن رأس ماليا في بلاد اليونان ستين ميلا وعن رأس كريو في الطرف الغربي من برّ الأناضول مسافة عشرة ومائة ميل ، وعن جزيرة رودس مائة ميل ، وعن قبرص حوالي ثلاثمائة ميل.

ويبلغ طولها من الشرق إلي الغرب ستين ومائة ميل ، ويختلف عرضها بين ستة وخمسة وثلاثين ميلاً ، فتبلغ مساحتها علي ذلك حوالي تسعة وتسعين ومائة وثلاثة آلاف ميل مربع . أما محيطها فيبلغ ثلاثمائة وخمسين ميلاً . (١)

وتعتبر هذه الجزيرة إحدي أربعة جزر كبري في هذا البحر (قبرص ، وصقلية ، وسردينيا) مع تمتعها من بين الجزر الأربع بمركز استراتيجي هام اكسبها مكانة ممتازة بين سائر الجزر اليونانية . ويقابلها في افريقيا ليبيا التي تعتبر أقرب نقطة اليها.

الاسم :

عرفت الجزيرة في العصور المختلفة باسماء عديدة ، فعرفت في العصور القديمة باسم (ماكارونيسوس) و (يريا) نظراً للطف هوائها ، واعتدال مناخها ، كما عرفت كذلك باسم (دوليخة) بسبب تكوينها المستطيل الشكل ، وسميت باسم (تلخينيا) نسبة إلي الشعب المعروف باسم (تلخينيس) وهو أحد الشعوب التي استوطنت الجزيرة ، في الأزمنة القديمة ، وأطلق عليها كذلك اسم (ايدايا) نسبة إلي جبل أيدا أضخم جبال الجزيرة . وسماها العرب إقريطش (٢)

(١) أبو الفدا . تقديم البلدان . ص ١٩٤ ـ ١٩٥ مكتبة المثني ببغداد .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ق ١ ص ٢٠٣ ورحلة ابن جبير ص ٦ ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٦ .

وأقريطية [١] وإقريطش البترليش ، ومعناها المائة مدينة علي حد تعبير القلقشندي [٢] ، وسماها الأتراك كريد ، واليونانيون يسمونها كريتي . أما أهل البندقية فيسمونها كانديه [٣] ، ويسميها المؤرخون البيزنطيون كريتا [٤] . وسنقتصر علي استعمال الإسم العربي (إقريطش) أو (كريت) الاسم المعاصر لها .

تربة الجزيرة واقتصادياتها :

تعتبر تربة إقريطش خصبة ، وخاصة سفوح الوديان والسهول الساحلية ، حيث ان طبيعة الجزيرة صخرية معقدة ، تتخللها بعض الجبال مثل إيدا ، مادارس ، لاسيتي ، أما السهول فهي سهول ساحلية حول أطراف الجزيرة ، وسهول فيضية داخلية حول مجاري الانهار العديدة التي أهمها بلاطاموس ، ميلوبوكاموه ، أنابوثياري، ومتربولي بوتاس ، واليكترا ، وليثاكوس ، وماساتيا ، وغيرها .

ولوجود هذه الأنهار جاءت الزراعة بأرض الجزيرة ، وأهم المحاصيل الفاكهة والخضروات والحبوب ، كالشعير والحنطة والذرة، وقصب السكر والبن والنيلة ، بجانب التوت الذي ينتشر بكثرة في كافة انحاء الجزيرة ، والذي اعتمدت عليه في تربية دود القز وصناعة المنسوجات الحريرية ، وتغطي غابات الزيتون سهول الجزيرة

(١) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ٨٥

(٢) صبح الأعشي جـ ٥ ص ٢٧١

(٣) تاريخ كريت . بحث في مجلة الهلال ص ٦٠٩ (السنة الخامسة ابريل ١٨٩٧م) .

(٤) اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ص ٣٢ ط. دار المعارف ١٩٨٢م .

جبث يعتبر أوفي محاصيلها وأجودها قيمة ، وتختلف ثماره حجما ولونا ، ومنه تعصر كميات وفيرة من الزيت يصدر الفائض منها ، ويكثر كذلك البرتقال والجوز والقسطل والكروم والخروب ، بجانب الكمثري والبرقوق والتين والخوخ والبلح والموز والبشملة والسفرجل .

وبجانب الزراعة يشتغل السكان بتربية الحيوانات ، وأهمها الأغنام والماعز والخنازير والأرانب ، والخيول والبغال والحمير ، ويوجد بعض المعادن كالذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد وغيرها (١).

إقريطش قبل الإسلام :

يرجع تاريخ الجزيرة إلي الأزمنة البعيدة ، بل أن تاريخها القديم مليء بالأساطير ومع ذلك فقد حمل الفينيقيون والمصريون (الفراعنة) تجارتهم وصنائعهم اليها ، فتحضرت وازدهرت ، في الوقت الذي كان اليونانيون لا يزالون في أعماق الهمجية . (٢)

وقد أثبتت الحفريات وجود تمثال صنع في مصر حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م مما يعتبر دليلا ماديا واضحا علي علاقات كريت بمصر في ذلك الزمن الموغل في القدم (٣) .

ويقال إن أميرين من أمراء الجزيرة اشتركا في حرب طرواده وهما ايدومينوس وميروت ، كما كانت مهداً للحضارة الهللينية ، وعندما قوي أمر الرومان ، واخضعوا سوريا والأناضول ، استطاعت

(١) حسين كامي الخانيوي : تاريخ كريد جـ ١ ص ٦٨ـ ٧١ بتصرف .
(٢) تاريخ كريت : بحث بمجلة الهلال ص ٩١٥ .
(٣) آثار كريت : بحث في المقتطف من ٢٠٨ من الجزء الثالث ، ... ٢٦ ... ١٩٠١م .

الجزيرة مقاومتهم ، واستمرت الحروب بينهما قرابة ثلاثة أعوام رضخت بعدها إقريطش للنفوذ الروماني سنة ٦٧ ق.م (١) وكان ذلك آخر عهد الجزيرة بالاستقلال .

وخلال عصر الامبراطورية الرومانية القديمة ضمت إقريطش (كريت) لولاية مكدونيا حتي فتحوا مصر ، فاتبعها الرومان لاقليم سيرن (برقة) فكونتا مقاطعة واحدة ، حكمت حكما ذاتيا عن طريق مجلس شيوخ ، ووجد بها نائبا عن بابا روما وموظفا واثنين لجمع الخراج (٢)

وفي زمن الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧ م) ضمت الجزيرة الي مقاطعة الليريا (أو ايليريا) ، وحكمت عن طريق قنصل موفد من قبل الامبراطور البيزنطي وتحالفت مدنها تحت السيادة البيزنطية . وبعد موت قسطنطين انقسمت المملكة الي أقسام ، تبعت اقريطش لمملكة المغرب الرومانية ، ثم ما لبثت أن عادت لمملكة المشرق في القسطنطينية ، وظلت كذلك حتي فتحها المسلمون سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م .

الأسطول الاسلامي ونشاطه في الدولة الأموية :

لقد كان ظهور الاسلام أثر كبير في تغيير مجري تاريخ حوض البحر المتوسط ، فبوقوع الاسكندرية - عاصمة مصر في العهد الروماني

(١) د/ زينب راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ١٦ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٤م .

(٢) أسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ص ٤٣

تحت نفوذ الاسلام سنة ٢١ هـ / ٦٤١م [١] تبدل الحال غير الحال، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل تاريخه الطويل ذلك لأن انتشار الأسلام في الاقطار الواقعة علي سواحله، والتي كانت خاضعة لدولة الـــروم أدي الي محاولة المسلمين لتأمين وجودهم في هذه المناطق، وذلـــك بالقضاء علي جيوب مقاومة الروم في هذه السواحل ؛ والتي يتخذونها قلاع يعتصمون بها، وينقلون اليها المؤن وأدوات القتال بواسطـة الاسطول البيزنطي الذي كان منفرداً بالسيادة علي البحر المتوسـط آنذاك ٠

وقد رأي معاوية بن أبي سفيان وهو أمير الشام انذاك، أنه لن يسهل القضاء علي تلك الجيوب البيزنطية إلا بقطع طريق الاتصـال البحري بينها وبين الروم، ولن يتمكن المسلمون من ذلك إلا بواسطة إسطول إسلامي يحققون به ما يريدون ٠

ومن المرجح أن معاوية لم يدرك عواقب الخطر البيزنطي البحري إلا في سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥م وذلك عندما رأي البيزنطيين قد بعثوا الي مصر اسطولاً ضخما باغت من كان بالاسكندرية من المسلمين وفتـك بحاميتها [٢]، وكانت خطة الروم تنطوي علي الهجوم من الاسكندريـة حيث تنضم اليها قوات الروم الموجودة في افريقية ٠ ثم يتجهون شرقـا لمقابلة الجيش الثاني الذي ينقض علي المسلمون من آسيا الصغـري بعد أن يتم لهم الاستيلاء علي مصر ٠ [٣]

(١) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج٩ ورقة ٢٧ـ٣١ مخطوط ٠
(٢) العيني : عقد الجمان جـ ٩ ورقة ٣١ ٠
(٣) د/ محمود زيادة : عصر الفتوحات الاسلامية ص ٤٩ ٠

ومن جانب آخر كان طول السواحل الإسلامية التي امتدت الي مسافات طويلة في سوريا ومصر وشمال افريقيه يستلزم اسطولاً قويا يحمي هذه السواحل من غارات القراصنة البيزنطيين وغيرهم .

لهذا كله رأي معاوية أنه لابد للمسلمين من اسطول قوي ، يقيهم شرّ هجمات الروم وغيرهم ، وقد تم لهم ذلك بعد محاولات مضنية(١) وبدأت بذلك مسيرة الأسطول الإسلامي الظافرة ، في العصر الأموي فقد كان في عكا مصانع واحواض للسفن ، استولي عليها المسلمون وأولوها عناية كبيرة ، حيث انشأوا بها سفنا كبيرة ، من اشجار غابات الأرز ومستعينا بصناع الاقطار المفتوحة التي مرنت منذ القدم علي الملاحة البحرية ، سواء في عكا أو في غيرها من المدن واطلق علي اماكن صناعة السفن اسم دار الصناعة التي انتجت اسطولاً استطاع ان يقض مضاجع الروم الذين كانوا يتحينون الفرصة للعودة إلي أماكنهم القديمة ، باستخدام الغارات البحرية ، ولكن معاوية بدهائه استطاع أن يحقق هدف المسلمون ، فقد ساق اسطوله في البحر لغزو جزيرة قبرص (٢) ورودس . وقد نجحت الحملة في النزول إلي قبرص حيث صالحوا أهلها علي دفع جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار (٣) كما أغارت حملة بحرية أخري من سورية علي قبرص سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢م ، وعادت منها بغنائم عظيمة ، مما يدل علي أن أهل قبرص قد أخلوا بالاتفاق الذي تم بينهم وبين المسلمين وان الإسطول الإسلامي قادر علي التعامل مع اعدائه بقوة .

---

(١) راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٥٠ ـ ٣٥
(٢) كان ذلك سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨م . البلاذري : فتوح البلدان ص ١٥٩ ـ ١٦٠ و [illegible] ابراهيم العدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ٨٨ ـ ٩١ . (٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٨

وفي نفس العام اغارت حملة أخري علي جزيرة رودس وكـــان نصيبها النصـر . وبعد ذلك بعام حمل العرب علي جزيرة قبرص مرة أخري واحتلوهـا احتلالاً كاملاً(١)

ونتيجـة هـذا النشاط للأسطول الاسلامي ، كان ردّ الفعل للإسطول البيزنطي الذي حاول أن يلقي بكل ثقله في معركـة يقضي بها علـي القوة المجيدة التي تحاول انتزاع سيطرته علـي مياه البحر المتوسط . ولذلك التقي الاسطولان في البحـر علي مقربة من جنوب آسيا الصغري وعند خليج فينكس ، وقـد اسفرت تلك المعركـة التي تعرف بذات الصواري(٢) ؛ عن انتصـار بحري كبير أحرزه المسلمون ضد البيزنطيين ، حتي اعتبرها المؤرخ الإغريقي تيوفانس (يرموكا)ثانية علي الروم . فلقد تحطم الأسطول البيزنطي ، وهرب قائده الامبراطور قنسطانزين هرقل الي جزيرة صقلية ليتخذها مقراً له بعيداً عن هجمات المسلمين ، ومركزاً يتوسط كلاً من ايطاليا وشمال افريقيه البيزنطـي، ويدفع منه الزحف الإسلامي علي ما تبقي لدولته من أراضي ، ولكـن الأمبراطور لقي مصرعـه حين وصل مدينة سيراكوزا بصقلية ، إذ أتـت عوامل البغضاء التي بدأت في ايطاليا ثمارهـا حين دخل هذه المدينـة فقتله شخص من خدمه يدعي (اندرياس) Andreas وهـو بالحمام ، ثم نودي بشخص يدعي ميزيزيوس Mizizios امبراطورا.

ولكن هذه المؤامرة لم تدم طويلا إذ جاء قسطنطين بن قنسطانز إلي صقلية سريعاً ، وقبض علي القاتل والامبراطور المزعوم واعدمهما(٣)

(١) د./ العدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ٩٢
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٠ ، تاريخ الطبري ج٥ص ٦٩-٧٠
(٣) د./ العدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ٧٩ .

وانشغل بتقوية الجبهة الغربية من دولته لصد أي زحف اسلامي قد يبدأ من مصر . ولكنه انشغل باخماد ثورة جند الاناضول ، وترك للأسطول الإسلامي حرية الحركة في البحر الابيض المتوسط (بحر الروم) الذي كان حرياً بأن يطلق عليه اسم (بحر المسلمين) لا بحر الروم.

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية العديدة بغلق بحر إيجه وسد منافذه الرئيسية في وجه السفن البيزنطية ، ومنعها من الوصول الي بلاد المسلمين ، وعمل علي تحقيق ذلك بالاستيلاء علي جزيرة (إقريطش) ـ كريت ـ إذ تسيطر هذه الجزيرة تماما علي بحر إيجه الذي يشبه طرفه الجنوبي فوهة قربة تمتد جزيرة إقريطش عبرها بامتداد مائة وستين ميلاً ، وتقسم الجزيرة هذه الفتحة إلي مدخلين تتحكم في كل منهما .

ففي سنة ٥٥ هـ / ٦٧٣م أرسل معاوية جنادة بن أمية الأزدي الذي استولي علي رودس في نفس السنة ليفتح هذه الجزيرة الهامة، ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لمهاجمة بلاد الشام ؛ إلا أن جنادة الأزدي لم يستطع الاستيلاء عليها لضخامتها ، واكتفي بالاغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها (١)

وبذلك سلطت القوة البحرية الاسلامية تسليطا عنيفاً علي منطقة بحر ايجة في محاولة للسيطرة عليها .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٤، ، قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٥١ ، العراق ١٩٨١م .

وهكذا استطاع معاوية بما بذله من جهد بحري من تقليم أظافر البيزنطيين - أصحاب السيطرة علي اقريطش - وجعلهم يدركون ما عليه بحرية المسلمين الناشئة من فتوة وقوة - وتتخلي الدولة البيزنطية عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التي استولوا عليها في شرق هذا البحر .

ولكن يبدو أن الاهتمام بالحروب البرية في عهد معاوية - مع البحرية وفي عهد خلفائه من بعده أدت الي تقلص نفوذ الاسطول البحري شيئا فشيئا حتي أفل نجمها في اخريات هذه الدولة وبخاصة ابتداء من سنة ١٢٨هـ / ٧٤٧م أثناي حكم مروان بن محمد الذي شغلته الثورات الداخلية في الشام والعراق وخراسان وفارس والحجاز واليمن الي محاولة القضاء عليها ، فأهمل شأن الاسطول جانبا بما كان له أثره العكسي ،فأدار الزمن ظهره له ، وتنكر الحظ للمسلمين في البحر ، فزاد نفوذ البيزنطيين حيث جرت معركة حاسمة بين الطرفين علي مقربة من قبرص ، وقد أحاط فيها أسطول (إقريطش) البيزنطي بالاسطول الإسلامي الواهن فقضي عليه ، وكان الأسطول ضخما قوامه الف سفينة ، فهزمه هزيمة منكرة بحيث لم تنج من سفنه العديدة غير ثلاث لاذت بالفرار . (١)

وهكذا لم يستطع المسلمون في عهد الدولة الأموية أن يستولوا علي جزيرة إقريطش وإن شنوا عليها غارات عادت بكثير من الغنائم كما حدث في عهد الوليد بن عبد الملك (٢) وإن كان للأسطول نشاط في

(١) د. زينب راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ١٨ أرشيبالدلويس القوي البحرية والتجارية ص ١٠٨ - الخراج لقدامه بن جعفر ص ٢٥١

(٢) د. ابراهيم خرخان : المسلمون في أوربا في العصور الوسطي ص ١٤

مناطق عديدة غيرها .

موقف إقريطش من فتح شمال افريقية :

وإذا كانت مصر بعد فتحها ؛ تعتبر مركزاً لإمداد القوات الإسلامية المتوجهة لفتح شمال افريقية ، فقد وقف الاسطول البيزنطي المتمركز في جزيرة إقريطش (كريت) وغيرها من جزر البحر الأبيض الخاضعة للقسطنطينية حجر عثرة في سبيل تقدم المسلمين في الساحل الأفريقي . فقد ساعد هذا الاسطول كسيلة البربري علي التمرد والعصيان ، وإلحاق الهزيمة بالقوات الاسلامية التي كانت تحت قيادة عقبة بن نافع الفهري سنة ٦٥ هـ /

وفي سنة ٦٩ هـ / ٦٨٣م جهز عبد الملك بن مروان حملة كبيرة إلي شمال افريقية بقيادة زهير بن قيس البلوي لاستردادها، فزحف علي القيروان واستعادها وقتل كسيلة في المعركة ، واستمر في تقدمه غربا ، فلما علم البيزنطيون بتقدم زهير ارسلوا اسطولا كبيرا من كريت وصقلية ، فنزل برقه ، وقطع خط الرجعة علي زهير الذي قاتل ببسالة وشجاعة منقطعة النظير مع جيشه حتي استشهد في سبيل الله .

ولم تؤثر هذه الهزيمة علي المسلمين ، فما أن قضي الخليفة عبد الملك بن مروان من منافسة العنيد عبد الله بن الزبير حتي جهز جيشا كبيرا قوامه ٤٠ر٠٠٠ رجل تحت قيادة حسان بن النعمان الذي اهتم بالمعاقل الساحلية البيزنطية ، وتمكن بمساعدة بعض الوحدات البحرية الاسلامية من القضاء علي تلك المعاقل الواحد تلو

الآخر . فسقطت قرطاجنة بعد معارك عنيفة ولذلك نراه يدمر اسوارها وحصونها حتي لا تتخذ حصنا بعد ذلك ، وسقطت كذلك بنزرت وسطفورة ، وهكذا نجح حسان في تحطيم معاقل الروم علي ساحل افريقية ، وكان لانتصاراته علي الروم دوي شديد ، ورفع من هيبة اقوة الدولة الاسلامية ، حتي اصبح الروم منها في خوف ،وشعروا بقرب نهايتهم .

ولكن البيزنطيين والبربر عادوا الي الحرب إذ ثار البربر بزعامة امرأة يهودية يقال لها الكاهنة من قبيلة جراوة واستطاع الاسطول البيزنطي بزعامة يوحنا بطريق صقلية استعادة قرطاجنة (١) غير أن هذه المحاولات البيزنطية ذهبت ادراج الرياح ، إذ عادالمسلمون بعد أن وصل المدد الي القائد حسان من استئناف العمل ضد القوات المناوئة ، حتي عجزت الكاهنة وقواتها عن التصدي للمسلمين ، وماتت الكاهنة سنة (٨١ هـ / ٧٠٠م في إحدي المعارك في مكان يسمي (بئر الكاهنة) .(٢)

وقد استطاع الاسطول الاسلامي والقوات البرية الاسلامية في إجبارالسفن البيزنطية التي ساعدت التمرد الي الإنسحاب شرقا للحصول علي امدادات جديدة فرسا في جزيرة كريت . إلا أن الحوادث سرعان ما تحركت لتغير من هدف هذه الحملة ، ولتؤكد ضياع قرطاجنة ليمنعوا تكرار التهديد البحري البيزنطي لها، وعندما رسا الاسطول البيزنطي المنسحب في كريت ، اصاب القلق البيزنطيين

(١) ارشيبالدلويس : القوي البحرية والتجارية ص ٩٩
(٢) د. عبدالفتاح شحاته : دراسات في تاريخ الأمويين جـ٢ ص ١٢٠

بسبب فشلهم في الاحتفاظ بأفريقية وخشوا العودة الي الإمبراطور وهم يجرون وراءهم اذيال الفشل فيعاقبهم (١).

وبسرعة انفجر تمرد عام بين الجند ، قتلوا خلاله قائدهم، وعلقوا أملهم في شخص أبسيمار القائد البحري الكبير ؛ الذي ابحر رأسا الي القسطنطينية ، فقاومهم الإمبراطور ليونتيسوس لفترة إلا أن حراس الأبواب تمت رشوتهم فسهلوالهم فتح الأبواب ، فاستباحها وجنوده ، ثم تم اعلان ابسيمار امبراطورا في القسطنطينية .

إقريطش في أوائل العصر العباسي :

لم تخضع إقريطش للنفوذ الإسلامي الكامل في عصر الدولة الأموية وإن اكتفي المسلمون بالهجوم عليها ، والعودة بالغنائم كما سبق أن ذكرنا ، ويرجع السبب في ذلك إلي استخدام قسطنطين لصقلية كمركز لدولته أبعد الأساطيل الإسلامية عن هذه الجزيرة التي ظلت بمنأي عن الأساطيل الإسلامية النشطة .

وفي العصر العباسي نقل العباسيون عاصمتهم الي الداخل في العراق ، فأدي ذلك إلي إهمال الأسطول الاسلامي في البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه أبعد المركز عن الحدود البيزنطية وازاء ذلك رسم العباسيون سياسة أخري تجاه الروم والجزر البحرية، فكان نشاطهم الحربي عبارة عن غارات لإظهار القوة وتخويف العدو فقط

(١) وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتي منتصف القرن الثامن الميلادي ص ٥٨ - ط الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ١٩٨١م

(٢) المرجع السابق .

أو الهجوم علي مناطق التخوم فيما يعرف بالصوائف والشواتي التي أخذت شكل حملات منظمة نوعا في عصر القوة لهذه الدولة وخاصة في عهد الرشيد والمعتصم . وإن كانت الأحوال العامة في العالم المعاصر هي السبب ؛ ففي الأندلس دولة أموية قوية تناصب العباسيين العداء الشديد، وفي فرنسا دولة تحاول ان تحل محل الدولة الرومانية الشرقية ذات القوة والهيبة والاتساع والنفوذ ، وهناك الدولة البيزنطية أو دولة الروم في القسطنطينية تحاول إعادة الماضي إليها ، كان هذا هو الذي جعل العباسيين لا يهتمون كثيرا بالجزر للعلاقة الطيبة مع دولة الفرنج ، فعداء يقابلة صداقة لمنافع كل طرف من الأطراف .

ولذلك اختفت الأساطيل الاسلامية في الدولة الإسلامية في الشرق ففي مصر اختفي اسطولها طوال قرن من الزمان تقريبا ولم تستعد سلطانها فعلاً إلا أيام الفاطميين . وفي الشام علي مدي ربع قرن وإن بدأت الأيام بعد ذلك تتحدث بذكر الأسطول الغربي السوري وتشير الي نشاطه في أواخر القرن التاسع الميلادي علي يد ليو الطرابلسي في أواخر القرن التاسع الميلادي [1] أما الاسطول الاسلامي في شمال افريقية فقد أصابه الخمود أيضا ، وقلمت أظافره هي الأخري وظل كذلك مدة نصف قرن .

أما بيزنطة فقد احتفظت بسيادتها البحرية في بحر الروم لمدة نصف قرن ابتداء من سنة ١٣٢هـ / ٧٥٢م فقد بسطت نفوذها خلال ذلك علي جزر قبرص وصقلية وكريت وسردينية ، كما استطاعت ان

أرشيبالدلويس : القوي البحرية ص ١٠٨

تتحكم في المضايق ذات القيمة البحرية والهامة الواقعة علي طريق التجارة البري بين الشرق والغرب (١)

ولكن رغم ذلك كانت هناك محاولات إسلامية لفتح جزيرة اقريطش (كريت) ، وربما كان ذلك محاولة لاستعادة النفوذ ، فقد أرسل هارون الرشيد حملة بحرية يقودها حميد ابن معيوف الهمداني ففتح بعضها (٢)

ويذكر البلاذري ان البيزنطيين استعادوا هذه الأجزاء من جديد وإن لم يحدد التاريخ ، وإن كان المرجح أن ذلك لم يتم اثناء حياة الخليفة هارون الرشيد الذي بلغت الدولة الاسلامية في عهده عنفوان شبابها وقوتها ، وكانت تلتزم سياسة الهجوم دفاعاً عن كيانها ونشراً لدعوتها ، وتأمينا لحدودها ، وقد أحرزت الكثير من الانتصارات علي الدولة البيزنطية التي اتخذت جانب الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذي انتابها ، والغالب ان البيزنطيين قد استعادوها إبان الخلاف بين الأمين والمأمون .

ثم كانت المحاولة الكبري لفتح الجزيرة في خلافة المأمون علي يد أبي حفص عمر بن عيسي الأندلسي المعروف بالأقريطس (٣) وقد تم لهم فتحها وهذا ما سنراه واضحا في الصفحات التالية بعد أن نلقي الضوء علي الأحداث التي أدت الي ذلك .

(١) د. زينب راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ١٨
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧٩ ، قدامه بن جعفر : الخراج صـ ٣٥ .
(٣) قدامه بن جعفر : الخراج صـ ٣٥١ .

ثورة الربض (١)

لما كان من المتعارف عليه أن الذين حملوا راية الإسلام الى إقريطش (كريت) هم فلول الربض الذين طردهم الحكم بن هشام الأموي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ / ٧٩٧ م)ـ (٨٢١م) بعد ثورتهم عليه، والتي تعرف بثورة الربض ، لزم القاء الضوء عليها .

يستفاد من المصادر التاريخية أن سبب هذه الثورة ما حاوله الحكم بن هشام من الانتقاص من المكانة السامية التي حصل عليها الفقهاء والعلماء أيام حكم أبيه ، بجانب فرض الضرائب ، واستخدام العنف فسخط العلماء ، وطعنوا في سلوكه وحرضوا الناس عليه ، واتفقوا مع أحد أفراد الأسرة الحاكمة للخروج علي الحكم ، لكنه خذلهم، وأوشي بأمرهم للخليفة ، فأمر بالتخلص منهم ، فقبض عليهم ، وصلب اثنين وسبعين رجلاً من زعمائهم ، مما كان له أثر عكسي علي الخليفة، فقد امتلأ جو قرطبة حقدا عليه .

وأنطوت النفوس علي الثورة ضده ، ولم يسبق سوي اشعال الفتيل الذي تمثل في قتل أحد مماليك الأمراء غلاماً ، فغلت مراجل الغضب ، وانفجرت براكين الحقد الدفين، وكأنهم كانوا يترقبون هذا الحادث بفارغ الصبر ، فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا علي المملوك القاتل فقتلوه ، ثم خرجوا منادين بخلع الحكم

---

(١) سبق تناول هذا الموضوع بالتفصيل في بحث بعنوان (الربضيون

وكان أول من شهر السلاح في وجهه أهل الربض بعدوة النهر، ثم انضم اليهم أهل المدينة والأرباض الأخري ، فخاف الحكم من مغبة الثورة ، وتحصن في قصره ، وأوكل حراسته الي كتائب من العبيد والجند .

واشتدت الثورة ، وكاد الثوار يتغلبون علي جنود الحكم، لولا أنه التجأ الي الحيلة والخديعة ، حيث أرسل جماعة أحرقت دور الثوار [١] الذين ما أن علموا بذلك حتي عادوا أدراجهم إلي البيوت حيث النساء والأولاد ، فأخذتهم سيوف جنود الحكم ، فقد تلقاهم حرس القصر من خلفهم وجنوده من أمامهم ، وقد اثخنوا فيهم قتلا وتجريحا، حتي أنه خلال ثلاثة أيام من القتال تجاوز عدد القتلي العشرة آلاف رجل وفرّ أضعافهم من قرطبة ، ولكنه لم يكتف بذلك بل أمر بصلب ثلاثمائة من المقبوض عليهم [٢] زيادة في النكاية بهم ، وأمر بهدم الربض القبلي فأعيد بطحاء مزروعة .

ولما انقضت ثلاثة أيام من القتل والتشريد وسفك الدماء ، أمر الحكم برفع السيف عنهم وتأمين فلولهم علي أن يخرجوا من قرطبة فخرج بعضهم الي الساحل الشمالي لبلاد المغرب حيث نزلوا مدينة فارس ، وبنوا لهم محلة فيها عرفت باسم (محلة الأندلسيين) أما جمهورهم الكبير فقد ركبوا السفن واتجهوا شرقا فوصلوا الي الإسكندرية ، ومكنت لهم الظروف التي كانت تمر بالبلاد من السيطرة علي تقاليد الأمور بها لعدة سنوات [٣] حتي استطاع عبد الله بن

(١) د. القرموط : الربضيون بالاسكندرية بحث بمجلة كلية البنات بأسيوط العدد الأول ص ١٣٦ ومابعدها .

(٢) ابن عذاري : البيان المعرب ج٢ص ١١٣، الكامل لابن الأثير ج٦ ص ٢٩٩ .

(٣) راجع خطط المقريزي جـ١ ص ٣٢٢ ، النجوم الزاهرة لابن تغري ج٢ ص ١٦٦ ، الولاة والقضاة للكندي ص ١٦٥ ، مصر في فجر الاسلام للدكتورة سيدة الكاشف ص ١٥١ ـ ١٥٢

طاهر والي الخليفة المأمون علي مصر أن يخلص الاسكندرية من قبضتهم ، وان يطلب منهم الخروج من المدينة الي حيث يشاءون علي شروط أهمها :

١ - ألا ينزلوا في بلد خاضع للخلافة العباسية .

٢ - ألا يستصحبوا معهم أحداً من المصريين في مراكبهم .

٣ - ألا يأخذوا عبيدهم معهم .

فإن فعلوا ذلك حلت له دمائهم ، ونكث عهدهم ، فرضوا بشروطه ورغم اخلالهم لبعض هذه الشروط إلا ان ابن طاهر عفا عنهم ، وتركهم يغادرون الاسكندرية - فرحلوا عنها في النصف الثاني من ربيع الأول سنة ٢١٢هـ / النصف الثاني من يونيو ٨٢٧م (١)

إلي إقريطش :

لم يكن اخراج الربضيين من الاسكندرية نهاية المطاف في رحلتهم الشاقة وانما كانت بداية لمرحلة أخري جديدة أكثر إشراقا وأشد تأثيرا ، وذلك انهم ركبوا البحر في مراكبهم أو مراكب هيأها لهم عبد الله بن طاهر (٤٠ مركبا) وقطعوا غباب البحر إلي إقريطش التابعة للدولة البيزنطية ، ونزلوا بها .

والواقع أن هذا الاختيار لم يكن وليد الصدفة، فقد كانوا علي معرفة مسبقة بتلك الجزيرة وغيرها من الجزر اليونانية الأخري التي طالما تعرضت لغاراتهم ، وكانت آخر غارة قاموا بها علي إقريطش

(١) انظر تاريخ الطبري جـ١٠ صـ ٢٧٥-٢٧٦ ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ نفح الطيب للمقري جـ ١ ص ٣١٨، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ح ٢ ص ١٦٢ [illegible] .

سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦م حين ارسلوا من الاسكندرية عدة سفن حوالي عشر سفن أو عشرين سفينة أغارت عليها وعادت محملة بكثير من الغنائم والأسري بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة (١) كما أن هذه الجزيرة اقرب الجزر الي الاسكندرية ، ومن ناحية ثالثة معرفتهم بضعف شوكة الدولة البيزنطية عليها ، بجانب الاضطراب الذي اصاب الجزيرة وعدم توقعهم مثل هذا الهجوم ، خاصة وان أحوال مصر كانت مضطربة بسبب الخلاف الناشب بين الأمين والمأمون ، وبين الأمراء فيها ، فلم يدر بخلد أي واحد من أهل الجزيرة انها ستقع تحت قبضة حملة اسلامية في هذه الظروف بالذات إلا ان ذلك وقع .

وأول ما يصادف الباحث هنا هو مشكلة تحديد تاريخ الفتح الاسلامي للجزيرة ، بصورة دقيقة ، فالمصادر اليونانية علي حد قول فازليف (تحاول الربط بين هذه الفكرة ـ الفتح ـ وفكرة ثورة توماس الصقلي الذي ثار علي الامبراطور البيزنطي (٨٢٠ـ ٨٢٣ / ٢٠٥/ ٢٠٨ هـ) حيث تجمعت له كل القوات البحرية عند القسطنطينية (٢) .

ولكن مما يفند هذا الرأي أن ثورة توماس الصقلي كانت قد أخمدت قبل احتلال كريت عام ٨٢٧م/ ٢١٢ هـ بأربع سنوات كما انهم كما سبق ذكره قد اغاروا علي الجزيرة عدة مرات مما يتبين ان المسلمين كانوا علي معرفة تامة باقريطش ، ولعلهم عرفوا خصب تربتها وكثرة مواردها الطبيعية ، مما أرضاهم عنها وأطمعهم فيها حتي

---

(١) د.العدوي: الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ١٠٧، اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٦٤ ، فازليف : العرب والروم ص ٥٥

(٢) العرب والروم ص ٥٥ .

سنحت لهم الفرصة ٠

فوصول المسلمين الي جزيرة إقريطش بدأ في شهر ربيع الأول ٢١٢ هـ / يونيو سنة ٨٢٧ م علي ما حددته المصادر العربية [(١)] حيث أن هذه المصادر قد تتبعت أخبار الربضيين خلال الفترة التي قضوها بالاسكندرية ، حتي خروجهم منها ، كما أن بعضهم كالطبري كان معاصراً لهذه الأحداث ، فتاريخه لهذه الأحداث أقرب الي التحقيق ٠

وصل المسلمون البالغ عددهم نحو خمسة عشر ألفا [(٢)] غير النساء والأطفال جزيرة إقريطش تحت قيادة رجل مشهور يعرف بأبي حفص عمر بن عيسي البلوطي ، ويعرف بالغليظ أو ابن الغليظ من أهالي قرية بطروج من عمل فحص البلوط المجاورة لمدينة قرطبة ٠ [(٣)]

وتسميه المصادر البيزنطية أبو خبص Apochaps ، حيث نزلوا علي الشاطيء الشمالي للجزيرة عند موضع خراكس وتذكر هذه المصادر كذلك أنه ما كاد الفاتحون المسلمون يبتعدون قليلا عن الشاطيء حتي أمر أبو حفص باحراق السفن التي نقلتهم إلي كريت وقد غضب الأندلسيون لذلك أشد الغضب ، وتملكهم الخوف علي نسائهم وأطفالهم فهدأهم أبو حفص وامتدح غني الجزيرة وجمال الكريتيات وصلاحيتهن للزواج [(٤)] ٠

(١) تاريخ الطبري جـ ١٠ ص ٢٧٥-٢٧٦ ، الكامل في التاريخ ج٦ ص ٣٩٨ النجوم الزاهرة جـ٢ ص ١٩٢ ، العبر لابن خلدون جـ٣ ص ٢٥٣

(٢) الكندي: الولاة والقضاة ص ١٥٧ - ١٥٨ ، د٠ حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٣٧ ٠

(٣) الضبي : بغية الملتمس ص ٢٩٤٠

(٤) أسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٦٦- ٦٧

وزاد الدكتور حسين مؤنس قوله : وسوف تؤدي لكم نساء كريت الجميلات وظائف الزوجات ، وبذلك تصبحون آباء جيل جديد [1]

وزاد بعضهم ان أبا حفص عندما وطئت قدماه أرض الجزيرة ، صاح في جنده :(هاهي الأرض الطيبة التي وصفها النبي بالبلد الذي يتدفق فيه اللبن والعسل) .

ولو صح أمر تحطيم السفن - وليس من المستبعد حدوثه فقد سبق به طارق بن زياد - فيحتمل أن عمرقد فعل ذلك تيمناً بطارق الذي كتب له النصر في فتوحه . كما يوضح حرص القائد علي اجبار اتباعه علي الاستقرار في الجزيرة والاستماتة في فتحها والدفاع عنها.

اما ما ذكر من قول النبي السابق فلم يصدر عنه مثل هذه الأقوال وإنما هو نوع من حماسة البابوية للحروب الصليبية التي ذكرت مثل هذا القول .

كما أن قوله : (امدكم بوطن تجدون فيه زوجات) لا يمكن أن يصدق ، ذلك أنه لم يكن هدفهم مجرد اشباع نوازع النفس ،وإنما الدعوة الي الله في المقام الأول .

ورغم عدم استحالة احراق السفن كما زعم المؤرخون البيزنطيون فإننا نقول أن السفن التي احرقها القائد المسلم إنما هي السفن غير الصالحة للاستعمال وليست جميع السفن لأن غالبهم علي الأقل لايستغني عن السفن كما أن مهمتهم في فتح باقي الجزيرة تحتاج الي سفن

---

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٦٨ وانظر العرب والروم لفازيليف ص ٥٧ .

تعاضدهم وتساعدهم في الاستقرار في هذا المكان الجديد.

فتح الجزيرة

ترك إبو حفص قبل نزول الجزيرة في كل سفينة عشرين رجلاً لحمايتهم من أن يوءخذوا من البحر ، ونزلوا في خراكس أو شواكس وأقاموا علي الشاطئ معسكرا لهم ، أمنوا جوانبه وحصنوه بتحصينات منيعة ، وحفروا حوله خندقا عظيما ، وعرف هذا المكان بعد ذلك باسم الخندق ، وفيه نشأت المدينة المعروفة باسم قانديا(كانديا) وهي تحريف لكلمة الخندق .(١)

وعلي عكس ما توقع المسلمون ، فلم يجدوا مقاومة تذكر لا من جانب السلطات البيزنطية بالجزيرة ، ولا من جانب الأهالي ويرجع ذلك لأمرين :-

أولهما :

بغض الأهالي للحكم البيزنطي نتيجة سوء معاملة السلطات لهم وتدخلها في شئونهم الدينية(٢)

ثانيهما :

ثورة توماس الصقلي وما أدت اليه من خراب الولايات التابعة للامبراطورية ، وتدهور تام في البحرية البيزنطية ، أوعلي حد

(١) د.الخربوطلي : الاسلام في حوض البحر المتوسط ص ٨٢، د.حسين مونس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ص ١٣٧.

(٢) راجع في ذلك : الامبراطورية البيزنطية وكريت للدكتورة : أسمت غنيم ص ٦٨ - ١ ، العرب والروم لفازيليف ص ٥٨

ارشيبالدلويس (ان بيزنطة خرجت عرجاء تماماً من هـــــذه المأساة ، فقد تشتت شمل اساطيل الولايات ، وأتت عليهـــا الحرب الأهلية حين اشتدت الحاجـة اليها لموءازرة اسطـــول القسطنطينية [1] ولذلك كان فتح المسلمين للجزيرة اهم واخطر النتائج التي ترتبت علي هذه الثورة .

وحين اطمأن المسلمون الي عدم وجود مقاومة من جانب السكـان في الجزيرة ، شرعوا في فتح باقي اجزائها ، حيث استولوا علـــي تسع وعشرين مدينة لم تحفظ اسماؤها [2] واخـذ أبو حفص بمن معه مواصلة التقدم والفتح في الجزيرة حتي لم يبق من الروم أحد ،وأخرب حصونهم [3] وإن ظلت أرض سفاكيا بعيدا عن سيطرة المسلمين [3]

ويبدوا أن السيطرة علي الجزيرة بأكلمها لم يتم إلا في سنـــة ٢٣٠هـ / ٨٤٥م [4]

وهكذا استطاع المسلمون فتح الجزيرة واقامة دولة اسلامية عمرت حوالي ١٣٥ سنة ، كانت متمتعمة بالاستقلال الذاتي الداخلي، علـــي الرغم من ولائهم السياسي للخليفة العباسي في بغداد ، حيث وجدوافـي ذلك التماساً للأمن والأمان وتأبيداً لبقائهم ووجودهم ، ولذلك اعتنقوا المذهب السني ، وان كان الحكم فيها وراثيا ، إلا انها في التقسيم

(١) القوي البحرية والتجارية ص ١٦٩ ،راجع عن هذه الثورة د.اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٧٤-٩٢.
(٢) فازيليف : العرب والروم ص ٥٨
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٥ ، الكامل جـ٦ص ١١٠-١١١ ، نفح الطيب جـ١ صـ ١٥٩
(٤) شكيب ارسلان : فتوح العرب ص ١٤٣، دائرة المعرف الاسلامية م ٤ ص ١١٢ .
(٥) أسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٩٢

الاداري للدولة العباسية كانت تتبع اقليم مصر [١] وظلت كذلك في عهد الطولونيين والإخشيديين .

وقد ظل المسلمون في مركزهم الجديد باقريطش مبعثاً للرعب والفزع لمنطقة بحر ايجة ، ومصدر تهديد للعرش البيزنطي طوال فترة وجودهم بها .

وواضح من ظروف الفتح الاسلامي أن الذين قاموا به لم يكونوا قراصنة ـ كما يدعي أرشيبالدلويس الذي جاراه بعض العرب كصديق شيبوب ودائرة المعارف الاسلامية ـ ولا كانوا هواة حرب وتدمير وتخريب ، وإنما كانوا قوما شردتهم الفتن وأحلتهم عن ديارهم في الاندلس لموقفهم من أجل الدين ، فراحوا يطلبون وطنا جديدا يبغون فيه حياة مستقرة ، شأنهم في ذلك شأن من تضطره ظروف العيش إلي الهجرة ، بجانب رغبتهم في حمل راية الاسلام الي مناطق جديدة ، بعيدة عن متناول أيدي المسلمين حتي ذلك الوقت .

وكان أكثرهم من الشباب ، فكافحوا وناضلوا في سبيل الاستقرار والعيش في هدوء كفاحاً صادقاً ، وكونوا أسراً ، وجمعوا ثروات ، وبمرور الأيام أقبل زعماؤهم علي الزواج من سكان الجزيرة،فاتصلت الانساب ، وتوثقت روابط الدم وعمت المساواة ، وسادت علاقات من الود والتعاون والتراحم بين الناس أدت إلي إزدهار الحياة في الجزيرة ازدهاراً كان من شأنه أن يؤدي إلي طراوة العيش وازدياد عدد السكان بعد الذي اصابها من انحلال وتدهور ، ثم فقر ونقص في

(١) النعمان : أبوحنيفة المغربي : المجالس والمسايرات جـ٢ لوحة ٤١٦ مخطوط بجامعة القاهرة .

عدد السكان (١) .

ونظرا لموقع اقريطش البحري ، ولطبيعة الأندلسيين المسلمين الذين مارسوا هذا العمل البحري الجرئ ،كان عليهم دائما الاحتفاظ باسطول قوي ليدعم وجودهم في الجزيرة ، ولذلك نراهم بعد استقرارهم هناك يتجهون الي الاستفادة من اخشابها في صناعة السفن ، فأنشأوا اسطولا ضخماً ، وبدأت بفضله سيادة المسلمين (٢) تنتشر علي البحر المتوسط الشرقي ، وتحدي الأندلسيون الوجود البيزنطي مدة بقائهم في الجزيرة وأثبتوا أنهم شوكة في حلقة ، واعقبوا وتناسلوا علي حد قول النويري (٣) .

محاولات فاشلة لاسترداد اقريطش

ادرك البيزنطيون مدي الخسارة التي حلت بهم نتيجة لفقدانهم إقريطش ، وعوّل الامبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠- ٨٢٩م)/ ٢٠٥- ٢١٤ هـ) علي انتزاعها من أيدي العرب المسلمين ، فقد أدرك هذا الأمبراطور مدي الخطر الذي سيلحق بالممتلكات البيزنطية نتيجة استيلاء المسلمين علي هذه الجزيرة ، إذ أن موقعها الاستراتيجي الهام يتيح لها التحكم في مداخل البحر الإيجي ، كما يهيء لهم السيطرة علي جزر وسواحل هذا البحر ، وتهديد سواحل اسيا الصغري وبلاد اليونان ، هذا الي جانب الخسارة الاقتصادية التي تتعرض لها

(١) د. زينب راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ٢١
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم ، د. احمد العبادي : تريخ البحرية الاسلامية ص ٨٤ .
(٣) نهاية الأرب جـ٢٠ ص ٢٥٨. (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

الدولة البيزنطية بفقدها مثل هذه الجزيرة الغنية بمواردها الطبيعية فضلا عن تهديد المسلمين باقريطش لتجارة بيزنطة في عالم البحر المتوسط . ففكر الامبراطور في استردادها يعتبر أمرا عاديا خاصا وأن احوال البيزنطة الداخلية والخارجية آنذاك كانت تسمح بالقيام بمحاولات في هذا المجال (١) ، فقد اخمدت الفتن الدينية الداخلية ، وقضي علي الاضطرابات الداخلية ، كما تمت بينهم وبين البلغار هدنة تعرف بهدنة الثلاثين عاماً والتي عقدت سنة ٨١٤م / ٢٠١ هـ ، كما أن جيرانهم الروس لم يسببوا للأمبراطور متاعب. كما ساد الهدوء مع العباسيين في جبهتهم الشرقية لانشغال الخليفة المأمون بقمع الفتن والثورات الداخلية .

ولذلك اتخذ الإمبراطور ميشيل الثاني (ميخائيل) عدة تدابير لاسترجاع جزيرة إقريطش تمثلت في ثلاث محاولات حاول بها الإمبراطورية طرد المسلمين من الجزيرة ، ورغم ضآلة المعلومات حول هذه المحاولات إلا إننا نحاول القاء الضوء عليها .

(١) ففي سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م أصدر الامبراطور أوامره الي القائد البيزنطي فوتيناس Photinas حاكم ثيم اقليم الأناضول وهو ممن ينتمون إلي أعرق الأسرات البيزنطية - فهو الجد الثالث للامبراطوره... نروي ام قسطنطين البوثيري - حيث أمره بالتوجه لتخليص إقريطش من قبضة المسلمين . (٣)

---

(١) راجع د./ اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٩٦
(٢) فازيليف : العرب والروم ص ٦٠

ويبدوا أن هذه الحملة كانت صغيرة ، وغير كاملة الاستعدادات والدليل علي ذلك أنه بعد وصول فوتينوس باسطوله بالقرب من اقريطش ورأي إستعدادات المسلمين بها تأكد لديه بأنه امام خصم من الصعب التغلب عليه ، فأرسل يطلب المدد من القسطنطينية فأردفه ميخائيل بقوات حربية تحت قيادة داميان المشرف علي الأصطبلات الأمبراطورية .

وبعد وصول هذه الامدادات تقابل الطرفان الاسلامي والبيزنطي انتهت بانتصار ساحق لمسلمي إقريطش ، وأسر داميان اما فوتينوس فقد استطاع الفرار من المعركة الي جزيرة ديا Dia شمال الخندق ، ومنها اتجه الي القسطنطينية يجر اذيال الخيبة والهزيمة .(١)

وهكذا فشلت أول محاولة بيزنطية لاسترداد الجزيرة بعد فتح المسلمين لها بوقت قصير .

(٢) لم تؤثر هذه الهزيمة في افكار ميخائيل أو تحطم آماله،فلم ينحني أمامها ، بل صمم علي إعادة الكرة ، وازالة نفوذ المسلمين عن الجزيرة مهما كلفه ذلك ، قبل أن يشتد عودهم ويقوي بأسهم ويصبحون خطراً في عاصمته ، ولذلك جهز حملة بحرية تتألف من سبعين سفينة حربية جمعها من مواني آسيا الصغري التي اشتهرت بشجاعة بحارتها ، وجودة تدريبهم ، وجعل علي قيادتها كراتيروس حاكم ثيم كبير هايوت علي الساحل الجنوبي لآسيا الصغري (٢)

(١) د. العدوي : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع ص ٦١ .

(٢) د. إسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ١٠١

وطلب منه تحطيم قوة المسلمين دون هواده .

انطلق كراتيروس بهذا الاسطول في اتجاه اقريطش ، وتمكن من النزول بأرض الجزيرة فعلا ، ولم تحدد المراجع بالدقة المكان الذي نزلت فيه الحملة ، ولكنها اشتبكت مع القوات الاسلامية في قتال عنيف من مطلع الشمس الي مغيبها، وكان صمود المسلمين رائعا طوال النهار ولكنهم ضعفوا عند المساء،فاستطاع البيزنطيون الحاق الهزيمة بهم ، وايقاع بعضهم في الأسر،والاستيلاء علي كثير من الأسلحة ، ولما حل الظلام انسحبت فلول المسلمين إلي داخل الجزيرة ، لجمع شملهم ، واصلاح أمرهم ولم يتعقبهم البيزنطيون ظنا منهم أنهم أنزلوا بهم هزيمة منكرة لن يقووا بعدها علي منازلتهم ، أو أنهم خشوا أن يكون ذلك خديعة لاستدراجهم إلي الداخل فلم يتعقبوهم ، ولو تتبعوهم لاستطاعوا هزيمتهم ، بل والقضاء علي الموجودين في الجزيرة من المسلمين ، ولكنهم فرحوا بما أصابوه ، ثم اقلعوا عن القتال حتي صباح اليوم التالي حيث قضوا ليلتهم سكاري اعتقادا ان هذه النصر والظفر كفيل بارهاب المسلمين أو أنهم لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك ، أو عدم جرأتهم علي العودة إلي اطراق الجزيرة مرة أخري .

ولكن العرب اغتنموا هذه الفرصة فأسوا جراحهم ، ولموا شملهم ، ونظموا صفوفهم ، وعادوا إلي المعسكر البيزنطي حيث عملوا السيف في رقاب السكاري ويقال إنهم ابادوا رجال الحملة

عن آخرهم (١) .

أما القائد كراتيروس فقد تمكن من الفرار علي ظهر سفينة تجارية الي جزيرة كوس Cos ، وحين تنبه المسلمون لفراره سارعوا باللحاق به وأدركوه هناك فاعادوه الي الجزيرة حيث تم إعدامه شنقا .

ويلقي المؤرخ البيزنطي (جينيزيوس) مسئولية الهزيمة علي عاتق كراتيروس ، ويصفه بالجبن والتكاسل ، ويوضح أنه أمر رجاله بعدم مطاردة المسلمين وتأجيل ذلك حتي صباح اليوم التالي (٢) .

(٣) وعلي الرغم من هذه الهزائم الشديدة المتلاحقة التي منيت بها القوات البيزنطية فلم يثن ذلك من عزم الامبراطور ميخائيل الثاني عن استرداد جزيرة أقريطش . فهو من الرجال الذين تصهرهم الشدائد ، وتزيد من قوتهم وعنادهم واصرارهم للإقدام علي عظائم الإمور ، فلم يعترف بهزيمة أمام مسلمي الجزيرة وإنما قرر إرسال حملة ثالثة أقوي من سابقتيها علّه يستطيع أن يضع بها نهاية الحكم الاسلامي فيها .

لذلك نراه قد عهد الي أوريفاس Oryphas بقيادة حملة تضع نهاية للوجود الاسلامي هناك .

(١) د/ إسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ١٠٠

(٢) المرجع السابق - نفس الصفحة .

وقد حــدد فازيليف تـاريخها خلال عامي ٨٢٨ـ ٨٢٩م/ ٢١٣ـ٢١٤هـ (١)
وقد أجزل الامبراطور العطاء للمشتركين في هذه الحملة كوسيلة لرفع معنوياتهم التي لابــد وأن تكون قد تأثرت نتيجـة لمـــا أصاب الحملتين السابقتين من فشل ذريع ، فأعطي كل واحد مــن المشتركين فيها أربعين قطعة ذهبية ، وليستحثهم بها علـــي القتال ، وليغري غيرهم ، ولكن الذهب لا يجعل الجبان شجاعـــاً ولم تكن هذه الحملة أحسن حالاً من سابقتيها ، فلم تستطع إلا إحتلال بعض الجــزر الصغيرة المحيطة بها دون أن تنــــزل الجزيـــرة (٢)

فهي لم تحقق هدف ميخائيل الذي تيقن أنه لافائدة من عــودة إقريطش إلي حوزة امبراطوريته كما توهم ، لذلك نراه يوجـــه همه للدفاع عن جزيـرة صقلية التي نزلها الأغالبة وساعدهــــم البحريون الأندلسيون في إقريطش علي احتلال مواقع فيهـــا وطلب النجدة من البندقية .

ونتيجة هــذا الفشل المنكر قصرت أيام ميخائيل ، ولم بـــه العمر ، فما كان شهر اكتوبر ٨٢٩م/ ٢١٤ هـ حتي لفظ انفاســه الأخيرة كمداً وحسرة لأنه لم يحقق هدفه في استرداد الجزيـرة.

نتائج فشل محاولات ميخائيل

كان من أهم نتائج فشل محاولات ميخائيل الثاني الثلاث هي:ـ

(١) العرب والروم ص ٦١
(٢) د./ ابراهيم العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلاميـة ص ٩٠

(١) تأكيد سيطرة المسلمين علي إقريطش ومواصلة فتوحاتهم بها.

(٢) غزو السواحل والجزر البيزنطية المجاورة .

أسباب فوز المسلمين :

مما لاشك فيه أن الهزائم المتتالية التي ليقيتها القوات البيزنطية علي يد الفاتحين المسلمين تدعو للتساؤل عن العوامل والاسباب الحقيقية التي أدت إلي اخفاق هذه الحملات رغم أن الفتح الاسلامي للجزيرة كان لا يزال في مرحلته المبكرة ، ولم يكن المسلمون قد ثبتوا أقدامهم بعد في هذه الجزيرة ، فكيف استطاعوا أن يحرزوا مثل هذه الانتصارات علي البيزنطيين ، وأن يلحقوا بحملاتهم الهزيمة تلو الأخري ؟

إن ذلك يرجع في الغالب إلي أسباب منها :-

(١) الروح الدينية الوثابة التي تهفو إلي الجهاد في سبيل الله بالروح والمال ، لاعلاء كلمة الله في أرض جديدة ، وقد سيطرت روح الجهاد عليهم ، وتمكنت من نفوسهم إلي درجة كبيرة ، حتي ان ابن حوقل الرحّالة المعاصر للأحداث قال : (إنهم في غاية الجهاد) (١)

(٢) الرغبة الأكيدة لهؤلاء المجاهدين في محافظتهم علي هذاالكسب الجديد الذي امتن الله به عليهم ، ممادفعهم إلي الإستماتة في الدفاع عنه .

(١) صورة الأرض ق ٢ ص ٢٠٤ ط ليون سنة ١٩٣٨م .

(٣) وهناك سبب يتصل بالجانب البيزنطي فهم بعد لم يأسوا جراح الحرب الأهلية التي انهكت قواهم ، وعادت بأسوأ النتائج العسكرية والاقتصادية . وقد اضطر الامبراطور للقيام بهذه المحاولات حرصا علي استرداد جزيرة اقريطش قبل أن يوطد المسلمون نفوذهم بها .

(٤) انشغال الامبراطورية البيزنطية بميدان قتال آخر مع المسلمين في جزيرة صقلية الذي بدأ سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧ م حين بدأ زيادة الله بين الأغلب سلسلة محاولاتهم للسيطرة عليها بارسال حملة بقيادة أسدبن الفرات مما أجبر ميخائيل علي تشتت جهوده العسكرية ، وعدم تركيزها علي إقريطش (١) فانفرد عرب الجزيرة بالعمل وحدهم لا يخافون تهديداً ولا يخشون خطراً ثم انتقل زمام المبادرة اليهم ، فردوا علي الهجمات السابقة بهجمات مضادة ، سنتناولها في النقطة التالية .

نشاط المسلمين في إقريطش

علي أن السياسة الحربية النشطة التي انتهجها ميخائيل الثاني والخاصة بالمحاولات المستمرة لاستعادة كريب لم تلبث ان أصيبت بنكسة في عصر خلفه ثيوفيل (٨٢٩ـ ٨٤٢م / ٢١٤ ـ ٢٢٧ هـ) حيث لم نقرأ عن أية محاولة قام بها ضد إقريطش ، رغم الغارات العديدة التي قام بها المسلمون في الجزيرة علي ممتلكات الامبراطورية

(١) راجع : الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ١٨٨ ، ابن عذاري البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

البيزنطية ، وبخاصة في الأيام الأولي من عهد هذا الإمبراطور.

فمجرد أن تولي ثيوفيل العرش في اكتوبر ٨٢٩م (شعبان ٢١٤هـ خرجت من كريت حملة بحرية قوامها ٥٠ سفينة حربية هاجمت شواطئ أيونيا Lona وكاريا علي الساحل الجنوبي الغربي لأسيا الصغري ، كما هاجمت أديرة الرهبان في جبل أتوس Atus وقد ترتب علي هذه الهجمات إن هجر الرهبان صوامعهم وفرّوا طالبين السلامة لأنفسهم (١) .

وفي نفس العام (٢١٤هـ) أبحر اسطول من جزيرة اقريطش وهاجم سواحل تراقيا ، واستولي منها المسلمون علي غنائم وفيرة ، وعلي العديد من الأسري ، وفي طريق عودتهم فاجأهم حاكم ولاية تراقيا ويدعي قسطنطين كونتوميتس Constantinus Comtomytes واشتبك معهم في معركة بحرية ، دمر فيها الأسطول الإسلامي ،حيث سقط كثير من الشهداء .

ولم تفت الهزيمة في عضد المسلمين ، فبعد وقت قصير من المعركة عاود المسلمون إغارتهم ، واثناء احدي الغارات علي جزر السيكلاديز تقابل الاسطول الكريتي في طريق العودة مع اسطول بيزنطي عند جزيرة ناسوسي احدي جزر البحر الايجي - وأوقع الاسطول الإقريطشي بالاسطول البيزنطي هزيمة مروعة ، حيث اصابه التدمير التام .

وفي سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٨ م استولي مسلموا اقريطش علي برنديزي

---

(١) د./ اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ١١٠ ، فازيليف : العرب والروم صـ ٨٥ - ٨٦ .

بأسطول من مسلمي كريت أو من شمال افريقيا أو من كليهما معاً (١) ولما حاول البنادقة الثأر لهذه الهزيمة ، وجهزوا اسطولا من ستين سفينة للدفاع علي اقليم برندي حطمه العرب المسلمون عند كروتوني علي خليج طارنت سنة ٢٢٦ هـ / ٨٣٩م . كما احرزونصرا حاسماً بتدمير الاسطول البيزنطي في نفس العام قرب جزيرة فاسوس Phasos (٢) كما استطاع العرب في اقريطش من فتح كادانت عام ٢٢٧هـ / ٨٤٠م ، وهي قاعدة بحرية هامة علي مدخل البحر الادرياتيكي . وتولي عرب كريت حكمها بعد ذلك حيث امتد حكمهم لها حوالي أربعين سنة . (٣)

ورغم هذه المحاولات التي قام بها المسلمون في اقريطش الإسلامية علي الممتلكات البيزنطية ، لم يبذل الامبراطور البيزنطي ثيوفيل جهداً كبيرا في تجريد أية حملة بحرية بقصد استرداد الجزيرة امتداداً لسياسة والده ميخائيل الثاني ، وربما كان انشغاله مع العباسيين - في منطقة الحدود بينهما فقد استغل ظروف العباسيين - المأمون - ومحاولة قمعهم الفتن الداخلية واستولى ثيوفيل علي زبطرة ، وأغار علي المصيصة وطرسوس ، ولذلك كان رد الخليفة المأمون عليه عنيفا حين جرد الحملات الحربية اليه ففضت مضجعه ، واذا قته مرارة الهزيمة اكثر من مرة، وقلمت أخطاره، ومهدت الطريق لفتح عمورية (٤)

---

(١) د. الخربوطلي : البحر المتوسط بحيرة عربية ص ٦٥
(٢) طرخان : المسلمون في اوربا ص ٨٦
(٣) الخربوطلي : الاسلام في حوض البحر المتوسط ص ١٩٢، المسلمون في أوربا ص ٢١٤ .
(٤) راجع عن هذه الأحداث تاريخ الطبري جـ١٠ ص ٢٨٠-٢٨٣ ، ٢٩٣، ٣٣٥ ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٩٢ .

كانت الأحوال علي الحدود بين الدولتين غير مواتية لكي يرسل ثيوفيل بحملات الي اقريطش ، فلم يتمكن لذلك من معالجة مشاكله منها ، وطرد المسلمين منها .

ورغم أن المصادر لا تمدنا بمعلومات وافية عن موقف مسلمي كريت خلال الفترة التي انشغل فيها البيزنطيون بحروبهم مع العباسيين ، فمن الراجح انهم استغلوا هذه الفرصة ، وواصلوا غاراتهم علي الأراضي البيزنطية القريبة منهم ، أو أنهم يكونوا قد نعموا بفترة من الهدوء والاستقرار النسبي ، ثم عادوا فتوحاتهم في الجزيرة ومحاولة استخلاصها تماما لأنفسهم ، في القضاء علي النفوذ البيزنطي فيها (١) اذ يذكر أبو المحاسن نصاً يفهم منه ان المسلمين أتموا فتح اقريطش في سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤م) (٢) ، والجزء الأخير من مرحلة الفتح هذه يغطي كل عصر الامبراطور ثيوفيل .

وهنا يتبادر الي الذهن سؤال يقول : هل ثمة اتفاق بين مسلمي إقريطش والخلافة العباسية في بغداد لفتح جبهة جديدة في الجهاد ضد البيزنطيين في الوقت الذي شغلوا فيه بالهجوم علي أراضي الدولة العباسية في الشرق ؟

الواقع إننا لا نستطيع الجزم بعقد مثل هذا الاتفاق ، فضلا عن أن الجانب البيزنطي هو الذي بدأ هذه الحروب ، مستغلا الظروف السياسية الحرجة التي تعرضت لها الدولة العباسية آنذاك .

---

(١) د./ إسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ١٢١

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٧

لذلك فإن الأمر علي ما يبدو لايعدو أن يكون مجرد ظـــــروف سياسية طارئة ظهرت علي مسرح الحوادث في هذه الفترة من الزمـــن أو هيأتها أحداث معينة خاصة بالدولتين العباسية والبيزنطيــــــة واستغلها مسلمو إقريطش لصالحهم ، ولا يستبعد كذلك ان يكـــــون المسلمون في اقريطش قد حاولوا الوقوف مع العباسيين المسلميـــــن - الخاضعين لهم - ضد العدو المشترك للإجهاز عليه بدون اتفاق مبـــرم سوي الشعور الاسلامي الذي يربطهم ·

ولذلك كان للهزائم التي انزلها المسلمون في اقريطش بالدولـــة البيزنطية منذ بداية فتحهم للجزيرة - وحتي ذلك الوقت - اسوأ الأثـر في نفس الامبراطـــور ثيوفيل وزاد من شعوره بالمرارة الضربـــات العنيفة التي انزلها به العباسيون في اسيا الصغيري ، فأدرك حينئـذ انه لا قبل له بمواجهة المسلمون ، لذلك نراه يطلب المساعدات مـــن الخارج ، وإن كانت من المسلمين ضد المسلمين ، فقد أشار المقري المؤرخ المغربي المعروف إلي سفارة أرسلها الامبراطور ثيوفيل الـي الخليفة الأموي عبد الرحمن الثاني (٢٠٧- ٢٣٣ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢م) وذلك في عام ٢٢٥هـ / ٨٤٠م) ، ولم يعرض المقري لتفاصيل هـــــذه السفارة ، وإنما أشار اليها في عبارات مقتضبة ، حيث ذكر أن - توفلس (ثيوفيل) أرسل للأمير عبد الرحمن يطلب مواصلته، ويرغبـــه في ملك سلفه بالمشرق [(١)] .

وقد ردّ الخليفة الأموي عليه رداً مفصلا عن كل نقطة من رسالتـــه

---

(١) نفح الطيب جـ ١ صـ ٣٢٤ ·

وفُهِم من الرد الذي نشره ليفي بروفنسال أن الامبراطور طلب منه التعاون العسكري ضد العباسيين وجزيرة كريت (اقريطش) حيث طلب منه وضع حدّ لغارات أهل كريت ضد دولته . وقد أرسل الخليفة الأموي سفارة علي رأسها يحيي الغزال ، ويحيي بن حبيب المعروف بصاحب المنيقة ، فلما وصلت السفارة الي القسطنطينية قوبلت بحفاوة وترحيب بالغ ، حيث أدي يحيي الغزال سفارته علي خير وجه،وعمل علي توثيق الصلة والمودة بين الطرفين ، أو علي حدّ تعبير المقري (فأحكم بينهما الوصلة) (١)

ويطرأ علي الذهن سؤال عن دوافع هذا التحالف بين ثيوفيل وعبد الرحمن الثاني . والإجابة تتضح إذا علمنا أن هناك عوامل ساعدت علي هذا التحالف ومنها :-

(١) تباعد الحدود بين الأندلس والدولة البيزنطية ، وبالتالي عدم وجود مشاكل سياسية بين الطرفين ، مما أدي الي ارتباطهما بعلاقات تقليدية تقوم علي الود والصداقة المتبادلة .

(٢) ادراك الامبراطور البيزنطي لطبيعة العداء المستحكم بين الأمويين في قرطبة والعباسيين في بغداد .

(٣) تفهم ثيوفيل للحزازات الموجودة بين حكام الأندلس وبين مسلمي إقريطش فقد أضحي لهؤلاء من رعايا العباسيين بعد طردهم من الأندلس ، فهم في نظر الأمويين متمردين وثوار خونه يحق عقابهم ، والنيل منهم إذا واتتهم فرصة .

(١) فتح الطيب جـ ١ صـ ٣٢٤ .

(٤) لعل النهضة[1] التي بلغتها الدولة الاسلامية في الاندلس في شتي المجالات في عهد عبد الرحمن الثاني هي التي شجعت الامبراطور البيزنطي علي خطب وده والقيام تحالف بينهما ٠

إلا أن هذا المشروع لم ير النور ، نظرا لتطورات التي مرت بالدولتين ، فقد تعرضت بلاد الأندلس لغارة كبيرة من قبائل الفيكونج[2] الذي قدموا علي متن ثمانين سفينة نزلت علي الساحل الغربي للبلاد في لشبونة وفارس ، وفشذونة ، واتجهوا إلي اشبيليه فشغل عبد الرحمن الثاني برد الهجوم الكاسح عن مشروع التحالف البيزنطي ، كما أن المنية انشبت اظافرها في ثيوفيل في ٢٩ ربيع الأول ٢٢٧ هـ / ٢٠ يناير ٨٤٢م بعد اشتداد الحمي به ٠ وتولي ابنه ميخائيل العرش تحت مجلس وصاية ، حيث كان في السادسة من عمره[3] .

وكانت ظروف الدولة البيزنطية بعد موت ثيوفيل قد صرفتها عن التفكير الجدي في القيام بحملة جديدة ضد كريت

حملة فاشلة :

بعد استتباب الأمور نسبيا في الدولة البيزنطية واستقرار الأحوال فيها ، قرر المسئولون القيام بحملة علي اقريطش بقصد استعادتها فأعدت قوات كثيرة ، وسفن عديدة لهذا الغرض ، وقد ابحرت فعلا

(١) راجع عن هذه النهضة ابن عذاري : البيان المقرب جـ٢ص ١٣٥-١٣٦
(٢) راجع عنهم وعن نشاطهم أوربا في العصور الوسطي لعاشور جـ١ صـ ٢١٨-٢٤٧ ، تاريخ افتتاح الاندلس للقرطبي ص ٨-٨٦

في ١٨ مارس ٨٤٣م/ جمادي الآخر ٢٢٨هـ تحت قيادة تيوكتيستوس

ويذكر أرشيبالدلويس ان هذه الحملة لم تصل الي كريت حيث قال : (ويبدو ان مؤامرات اهل كريت كانت ناجحةلدرجة أنها عاقت هذا الأسطول حتي من الابحار من موانيه [١])

ولكن الثابت ان تيوكتيستوس قد تقدم بقواته نحو كريت ونزل علي أرض الجزيرة بالفعل ، وقاتل بشجاعة ، وأحرز الانتصار علي المسلمين الذين لم يكونوا علي علم سابق بهذه الحملة ، كما كان اسطولهم غائبا عن الجزيرة يقوم بالاغارة علي جزر بحر إيجه، فلما رأي المسلمون في اقريطش ضعف القوة الإسلامية الموجودة، وعجزها عن مقاومتها لجأوا إلي ما يعرف بالحرب النفسية علها تؤتي ثمارها فعمدوا إلي رشوة أحد الضباط في الجيش البيزنطي ، وأوعزوا اليه أن يشيع في معسكره إن الامبراطورة ثيودورا - والدة الامبراطور - عزلت تيوكتيستوس عن مجلس الوصاية الذي كان أحد اعضائه فقام الضابط بذلك وانتشرت الإشاعة في المعسكر البيزنطي،ووصلت إلي القائد نفسه ، فخاف علي منصبه ، وترك الجيش عائدا الي القسطنطينية لاستطلاع الخبر ، مما أدي الي احداث الفوضي والاضطراب في صفوف الجيش الذي أصبح بدون قائد فتشتت شمله وتبعثرت قواه ، وعندئذ أوسعه المسلمون تقتيلا وأسراً ، كما دمروا الاسطول البيزنطي تدميراً تاماً [٢] حتي اعاقوهم عن مغادرة المواني

(١) القوي البحرية صـ ٢٢٣
(٢) راجع الحدود البيزنطية لفتحي عثمان ج ٢ ص ١٨٧ ، والدولة البيزنطية للعريني صـ ٢٩٧ ، العرب والروم لفازيليف ص ١٧٢ أسمت غنيم مرجع سبق ذكره .

وقد أثبت المسلمون بذلك تفوقا عظيما ، واثبتوا درايتهم التامة بالأحوال الداخلية في الدولة البيزنطية .

ويتحمل تيوكتيستوس مسئولية فشل هذه الحملة ، إذ أنه كقائد لها ، كان يتحتم عليه واجبه المنوط به الاستمرار مع الحملة والاستمرار في محاصرة جزيرة اقريطش ، خاصة وأن الموقف كان في صالحه وكان من المحتمل أن تحقق الحملة هدفها .

وعادت الأساطيل الإسلامية في اقريطش تهدد من جديد سواحل القسطنطينية نفسها .

هجوم البيزنطيين علي دمياط

ولما لم يستطع البيزنطيون تقليم اظافر المسلمين في إقريطش وفشلت حملاتهم العديدة ، قرر تيوكتيستوس وتيودورا الوصية علي ابنها ميخائيل الثالث الإنتقام لما أنزله المسلمون في إقريطش بهم ولكن انتقامهم هذه المرة لم يكن موجها ضد سكان هذه الجزيرة وإنما الي مصر ، وخاصة دمياط .

ويرجع السبيفي ذلك الي الرابطة التي كانت موجودة بين أهلي اقريطش ومصر ، فقد كانت هذه الجزيرة من الناحية الادارية تتبع إقليم مصر ، كما ارتبط مسلموها بمسلمي مصر وولاتها بروابط الصداقة والمودة ، فكانوا يرسلون بخيراتها ومنتجاتها إلي مصر وقد عبر عن ذلك المورخ النعمان في كتابه المجالس والمسايرات .

حيث قال : (ومراكبهم بخيرات بلدهم واطعمتهم تمير أهل مصر وهداياهم تصل الي عمالها) [١] .

وقال النويري كذلك في كتابه الإلمام بما جرت به الأحكام أنه كان يحمل من كريت العسل والنحل والجبن الكثير لمصر، أما مصر فكانت تمد كريت بكل ما تحتاجه من أسلحة) [٢] وصارت دارا لصناعة لقراصنة كريت علي حد تعبير فازيليف [٣] .

فقد نما إلي علم المسئولين في بيزنطة أن هناك شحنة من الأسلحة موجودة بمدينة دمياط في طريقها الي اقريطش [٤] فارادوا الحيولة دون وصول هذه الأسلحة اليها ، لذلك أبحرت الحملة بعد تمام استعدادها في ٢٣٨هـ/ ٨٥٣ م [٥] وكانت تتكون من ثلاثمائة سفينة حربية [٦] وهي المعروفة باسم شلندية (وهي مركب مسقف تقاتل الغزاة علي ظهره علي حد تعبير ابن مماتي في قوانين الدووابين ص ٣٤) علي كل مائة سفينة منها قائد لها .

وصلت هذه الحملة علي مشارف دمياط حيث تولي الهجوم عليها مائة سفينة فقط تحت قيادة رجل يعرف باسم ابن قطونا، أما بقية السفن فقد قامت بحماية ظهر السفن المهاجمة لدمياط خوفا من

(١) جـ٢ ورقة ٤١٦ (٢) ورقة ١٢٣

(٣) العرب والروم ص ١٨٧ (٤) تاريخ الطبري جـ١١ ص ٤٨

(٥) راجع أخبار هذه الحملة في الولاة والقضاة للكندي ص ٢٢٧ ، الكامل في التاريخ جـ ٧ صـ ٢٦ ، العبر لابن خلدون جـ٣ صـ ٢٧٧ ...

(٦) السيوطي : حسن المحاضرة ح ٢ ص ٢٧٥ ، الكامل ح ٧ ص ٢٧

مفاجأتهم باسطول إقريطش أو الشام .

وقد وقع الهجوم علي مدينة دمياط في يوم العاشر من ذي الحجة ٢٣٨ هـ / ٨٢٣ م ، وكانت المدينة خالية من حمايتها التي استدعاها والي مصر عنبة بن اسحاق الضبي الي الفسطاط ليتجمل بهم في العيد أو للقيام باستعراض عسكري يوم عيد الأضحي .

نزل البيزنطيون الذين يزيد عددهم علي خمسة آلاف رجل المدينة ، ففزع الأهالي ، وفرّ فريق منهم في المراكب الي الفسطاط ونزل فريق منهم إلي بحيرة تفصل بين دمياط عن الشاطئ المقابل لها وهو المعروف باسم البر الشرقي ، فغرق عدد كبير منهم ، وقتل البيزنطيون اعدادا كبيرة من الأهالي ، كما أسروا أعدادا أخري ويقال ان عدد السبايا بلغ ستمائة امرأة (١٢٥ من المسلمات والباقيات من نساء القبط واليهود) (١) ونهب الجند المدينة ، وأخذوا ما وجدوه من أسلحة كانت موجهة الي أبي حفص في اقريطش ، وعدتها الف قناة وآلاتها ونهبوا خزانة القلوع وهي شراع السفن (٢) واشعلوا النيران في أماكن متعددة ، ولم يفرقوا بين المساجد والكنائس والمعابد ، فقد تعرضت كلها للإحراق والتخريب (٣) .

ورغم مفاجأة هذه الغارة لأهل دمياط فقد أبدي فريق منهم ضروبا نادرا من البطولة حيث خرجوا لقتال البيزنطيين وقتلوا جماعة منهم (٤) .

---

(١) الكندي : ولاة مصر صـ ٢٢٧ ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٧ صـ ٢٦ (٣) تاريخ الطبري جـ١١ صـ ٤٨
(٢) راجع تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٨، البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص ٣١٧ ، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٧٧
(٤) ابن تقري بردي : النجوم الزهراء جـ٢ صـ ٢٩٤

وقد انسحب البيزنطيون بعد أن ملأوا سفنهم بالأموال والمتاع والسبايا ، واتجهوا نحو اشتوم تنيس فخربوه ، وانتزعوا بابيه المصنوعين من الحديد ، وحملوهما معهم ، ثم رحلوا الي بلادهم بما غنموا (١) .

ولما علم عنبة بهذه الغزوة أقبل بجند مصر الي دميارا ولكنه وصل متأخرا ، إذ كان البيزنطيون قد تركوا المدينة الي اشتون تنيس فأقاموا بها فترة ، وقد تقاعس عنبة عن متابعتهم أو اللحاق بهم هناك إما خوفا منهم ، أو يكون قد تأكد لديه أنهم لا يقيمون طويلا ، ففضل عدم متابعتهم ، لذلك كان لهذا الموقف المتخاذل من الوالي أثره العام ، فقد عدّ ذلك عجزا أو تهاونا وتقاعسا عن أداء المهمة والقيام بالواجب المنوط به ، لذلك نري الشاعر يحيي بن الفضل ينشد قصيدة يخاطب بها المتوكل معرضا بهذا الموقف ، وكان ما قاله

أترضي بأن يوطأ حريمك عنوة ... وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتي دمياط والروم وثب ... بتنيس رأي العين منه وأقرب

يقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما ... أصابوه من دمياط والحرب ترتب

فما رام من دمياط شبرا اولادري ... من العجز ما يأتي وما يتجنب

فلا تنسنا إنا بدار مضيفة ... بمصر وان الدين قد كان يذهب (٢)

ومما يدل علي أن تلك الحملة كان يقصد بها اهدافا أوسع من السلب الذي جرت عليه الغارات التقليدية اذ ذاك ، فأنها

(١) تاريخ الطبري جـ١١ ص ٤٨، خطط المقريزي جـ١ ص ٣٤٦ .
(٢) خطط المقريزي جـ١ صـ ٣٤٦ ، الولاة والقضاة ص ٢٠١ .

كانت جزء من سياسة الروم ازاء اسطول اقريطش ، ان الجند استولوا علي المؤن والذخيرة التي كانت معدة للشحن وارسالها الي اقريطش ، ثم احرقوا أشرعة السفن المكدسة في المخازن البحرية بدمياط (١).

ومن جانب آخر كان لهذه الحملة أثر كبير في الاهتمام بدمياط باعتبارها هدفا للبيزنطيين .

وقد علق المقريزي علي ذلك بقوله :

(فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وصار من أهم ما يعمل بمصر، وانشئت الشواني برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر ، كما لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون لمحاربة العدو وكان لا يترك في رجال الاسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب هذا ، وللناس اذ ذاك رغبة في جهاد اعداء الله واقامة دينه لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ولكل أحد من الناس رغبة في أن يعد من جملتهم فيسعي بالوسائل حتي يستقر فيه) (٢)

كما أمر الخليفة المتوكل ببناء حصون علي ساحل البحر الأبيض المتوسط لصد غارات الروم ، حيث ابتدىء في بنائه يوم الأثنين

---

(١) د. سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٩٠-٩١
(٢) خطط المقريزي جـ ١ صـ ٢٣٦ ومابعدها .

لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٢٣٩هـ / فبراير ٨٥٤م [١] كما شيد حصنين آخرين أحدهما في الفرماء والآخر في مدينة تنيس [٢] .

ولذلك علمت المصريين هذه الاغمار ، الاهتمام الدائم واليقظة التامة ، والحرص البالغ وشحن السفن بالمقاتلة [٢] ، انتظارا لما يستجد من غارات .

وهكذا ارتبط مسلموا اقريطش بمسلمي مصر من أجل هدف واحد وغاية واحدة هي نشر الاسلام والمحافظة علي القوة الاسلامية الفتية في مواجهة العدو اللدود المتمثل في الامبراطورية البيزنطية كما وضح أن درأ الخطر يتطلب استعدادات خاصة ، قد تصل الي مدي بعيد .

دكتور

عبدالرازق الدلنطاوي القرموط

استاذ مساعد ورئيس قسم التاريخ والحضارة

(١) المرجع السابق .
(٢) د/ سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٩١
(٣) فتحي عثمان : الحدود البيزنطية ج ٢ ص ٢٢٠

شيوخ الأزهر فى عهد محمد على

د . مالك محمد أحمد رضوان

كان الجامع الأزهر من غرس الدولة الفاطمية أينع ثمرة وتجددت نضرته علي كر العصور ومازال بعد نيف وألف عام أعظم الآثار الباقية التي خلفتها الدولة الإسلامية بمصر .

وتاريخ الأزهر وشيوخه هو جزء من تاريخ مصر فلايستطيع من يتصدي لدراسة تاريخ مصر في أي عصر من العصور أن يلقي الضوء كاملاً علي هذا التاريخ دون التعرض بالدراسة لذلك الجزء الهام من المجتمع المصري والذي شهدت علاقته بالادارة مداً وجزراً علي كر العصور .

وسوف يقتصر حديثنا في هذا البحث علي شيوخ الأزهر ـ ذلك المنصب الهام لدي الحكام والعامة ـ في فترة حكم محمد علي باشا والتي شهدت قيام مصر العربية الحديثة .

وقد شهدت فترة حكم محمد علي باشا (١٢٢٠ : ١٢٥٧ هـ ـ ١٨٠٥ : ١٨٤٠م) تولي سبعة شيوخ للجامع الأزهر هم :ـ

١ ـ الشيخ عبد الله الشرقاوي الشافعي من ١٢٠٨ : ١٢٢٧ هـ ـ ١٧٩٣ : ١٨١٢ م .

٢ ـ الشيخ محمد الشنواني الشافعي من ١٢٢٧ : ١٢٣٣ هـ ـ ١٨١٢ : ١٨١٨ م.

٣ - الشيخ محمد أحمد العروسي الشافعي من ١٢٣٣ : ١٢٤٥ هـ
١٨١٨ : ١٨٢٩م .

٤ - الشيخ أحمد بن علي الدمهوجي الشافعي من ١٢٤٥ : ١٢٤٦ هـ
١٨٢٩ : ١٨٣٠ م .

٥ - الشيخ حسن بن محمد العطار من ١٢٤٦ : ١٢٥٠ هـ
١٨٣٠ : ١٨٣٤ م.

٦ - الشيخ حسن القويسني الشافعي من ١٢٥٠ : ١٢٥٤ هـ
١٨٣٤ : ١٨٣٨ م .

٧ - الشيخ أحمد عبد الجواد الشافعي من ١٢٥٤ : ١٢٦٣ هـ
١٨٣٨ : ١٨٤٧ م.

ولقد لعب كل شيخ من هؤلاء الشيوخ دوراً محدداً وواضحاً في السياسة المصرية حسبما اقتضت ظروف الباشا وادارته التي سيطرت علي أزمة الأمور في مصر في تلك الفترة .

(١) الشيخ عبد الله الشرقاوي

١٢٠٨ : ١٢٢٧ هـ - ١٧٩٣ : ١٨١٢ م

تولي محمد علي باشا حكم مصر في صفر ١٢٢٠ ه / مايو ١٨٠٥ م وقد امتدت الظروف التي ساعدت محمد علي علي تولي حكم مصر إلي ما قبل تلك الفترة ... فلم يكن مصري المولد ولا شرقي النشأة وإنما أتي محمد علي إلي مصر مع الجيش العثماني الذي خف لنجدة مصر ضد هجوم نابليون بونابارت ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م .

وسنسير مع الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر الذي كان معاصرا لتلك الأحداث حتي نقف علي مدي مشاركة الأزهر وشيوخه في صنع القرار المصري في تلك الفترة ٠

مولده ونشأته وأساتذته

لم تشر المصادر التاريخية المعاصرة إلي تاريخ ميلاد الشيخ الشرقاوي وانما ذكر الجبرتي (١) تاريخا تقريبيا لذلك المولد فقال (٠٠٠٠ ولد ببلدة تسمي الطويلة بشرقية بلبيس بالقرب من القرين (٢) في حدود الخمسين بعد المائه (٣) وتربي بالقرين ،فلما ترعرع وحفظ القرآن وقدم إلي الجامع الأزهر وسمع الكثير من الشهاب بن الملوي ، والجوهري ، والحفني ، وأخيه يوسف والدمنهوري (٤) والبليدي وعطية الأجهوري ومحمد الفارسي وعلي المنسفيسي الشهير بالصعيدي ، وعمر الطحلاوي ، وسمع الموطأ فقط علي علي بن العربي الشهير بالسقاط وبآخره تلقن السلوك والطريقة علي شيخنا (والكلام للجبرتي) الشيخ محمود الكردي ، ولازمه وحضر معنا في أذكاره

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ ٣ صـ ٣٧٥ ـ دار الفارس للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان لم تذكر سنة الطبع ٠

(٢) القرين من أعمال محافظة الشرقية بالقرب من حدودها الشرقية مع محافظة الاسماعيلية ٠

(٣) حوالي ١٧٣٢ ميلادي ٠

(٤) الذي شغل منصب شيخ الأزهر في الفترة ١١٨٢ : ١١٩٠ هـ ١٧٦٧ : ١٧٧٦ م ٠

وجمعياته ودرس الدروس بالجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية وبرواق الجبرت والطيبرسية وأفتي في مذهبه وتميز في الإلقاء والتحرير) .

وللشرقاوي مؤلفات دالة علي سعة علمه وفضله ، من ذلك حاشيته علي التحرير وشرح نظم يحيي العمريطي وشرح العقائد المشرقية والمتن له أيضا ، وقد ألف شرحاً مختصراً في العقائد والفقه والتصوف وقام بشرح رسالة عبد الفتاح العادلي في العقائد ومختصر الشمائل وشرح رسالة في لا إله إلا الله ورسالة في مسألة أصولية من جمع الجوامع وشرح الحكم والوصايا الكردية في التصوف وشرح مختصر المغني في النحو (١) .... وغير ذلك .

ولما أراد الشرقاوي السلوك في الطريقة الخلوتية ولقنه الشيخ الحفني الأسم الأول حصل له وَلَهٌ .. ثم عاد ولازم القراءة والإفادة وتلقن من الشيخ محمود الكردي ... وواظب علي مجالسته وكان في قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة ، ولما عرفه الناس واشتهر ذكره واصله بعض تجار الشوام وغيرهم فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه ...

وقد تولي الشيخ الشرقاوي مشيخه الأزهر بعد وفاة الشيخ أحمد بن موسي بن داود أبو الصلاح العروسي الشافعي الأزهري في سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م (٢)

---

(١) انظر - عبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره جـ ٣ صـ ٣٧٥ وما بعدها .
(٢) توفي في الحادي والعشرين شعبان سنة ١٢٠٨ هـ -

الأزهر والحملة الفرنسية

لبث الأزهر في ظل الحكم العثماني سائرا في طريقة قائما بمهمته العلمية بالرغم مما كان يحيط به من الصعاب ويعتريه من اسباب الضعف المادية والأدبية وظلت الحيوية كامنة بين جدرانه وبين شيوخه وطلابه تنتظر الهزة التي توقظها ،والشرارة التي تضرمها .

وقد شاء الله أن تداهم القوات الفرنسية قاهرة المعز وحصنها الأزهر في أول يوليه ١٧٩٨م (١٧ محرم ١٢١٣ هـ) ونزلت القوات الفرنسية أولا بالاسكندرية ومنها إلي دمنهور فالقاهرة ..

وقد حرص نابليون علي عدم اثارة المشاعر الدينية لمسلمي مصر بل قل إنه أراد أن يكسب ولاء الأزهر ومشايخه كأكبر القوي النشطة في المجتمع المصري آنذاك - ولذا فإنه وجه منشوراً إلي الشعب المصري بدأه بقوله (بسم اللهالرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد ولا شريك له في ملكه ..) ويشير ذلك المنشور إلي أن نابليون قد أتي ليضع زمام الأمور في أيدي علماء مصر ، وعقلائها ويقول : (أيها المشايخ والقضاة ... قولوا لأمتكم إن الفرنسوية هم أيضا مسلمون ومخلصون ..) وجاء في المادة الخامسة من مواد هذا المنشور [(١)] قوله : (... الواجب علي المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلي كل أحد من أهالي البلدان أن يبقي في مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع علي العادة ....) [(٢)]

(١) انظر النص الكامل لهذا المنشور - في - عبد الرحمن الجبرتي المرجع السابق جـ ٢ صـ ١٨٢ - ١٨٥ .

(٢) عبدالرحمن الجبرتي - المرجع السابق - جـ ٢ صـ ١٨٤.

وهنا يبدو الأزهـر في ثوبـه الأسلامي الأصيل غداة كل محنة،ثوب القيادة الشعبية والزعامة الوطنية ففي صباح أول صفـر ١٢١٣ هـ / يوليه ١٧٩٨ م اجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتباحثوا في الأمـر واتفقوا علي إرسال رسالة إلي نابليون يستوضحون مقاصده ، وقد أسفرت المحادثات عن اصدار خطاب أمان لأهل مصر ثم طلـب نابليون حضور المشايخ والزعماء ليؤلف منهم ديواناً لتدبير الأمـور فأطمأن الناس وعاد معظم الفارين ..... وفي يوم ١٣ صفر ١٢١٣ هـ (٢٥ يوليه ١٧٩٨م) استدعي نابليون المشايخ لمقابلة وعلي رأسهـم الشيخ الشرقاوي (شيخ الجامع الأزهر) وأسفر اجتماعهم عن تأليـف ديوان يشرف علي حكم القاهـرة وتدبير شئونها (١) فوقع الاتفـاق علي أن يتكون المجلس علي النحو التالي :-

١ - الشيخ عبد الله الشرقاوي (رئيسا) .

٢ - الشيخ خليل البكري .

٣ - الشيخ مصطفي الصـاوي .

٤ - الشيخ سليمان الفيومي .

٥ - الشيخ محمـد المهـدي .

٦ - الشيخ موسي السـرسي .

٧ - الشيخ مصطفي الدمنهوري .

٨ - الشيخ يوسف الشبرخيتي .

٩ - الشيخ أجمد العريشي .

(١) محمد عبد الله عنان - تاريخ الجامع الأزهر - ط ثانية - الخانجي ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م ص ١٥٤ ، ١٥٥

١٠ ـ الشيخ محمد الدواخلي (١)

وقد ضمت اجتماعات الديوان بعض الشخصيات التي تطلب الأمر حضورها كالقاضي ووالي الشرطة ، وأمين الاحتساب وكان اشتراك هؤلاء بإشارة أرباب الديوان (المشايخ الذين سبق ذكرهم) ٠

وكان اجتماع ذلك الديوان في منزل رئيسه شيخ الأزهر الشيخ الشرقاوي وإذا كان أول ديوان لحكم مصر تحت الاحتلال الفرنسي قد شهد عضوية معظم كبار العلماء وتوج شيخ الأزهر رئيسا له فإن هذا لا يعني انفراد هؤلاء بسياسة أمور البلاد ، وإنما كانت سلطتهم محدودوخاضعة لتوجيه المحتلين ولكن تأليفه علي هذا النحو يحمل تلميحاً واضحا علي أهمية الجامع الأزهر ومكانة العلماء واعترافا ضمنيا بزعامتهم الشعبية ٠

---

(١) يذكر محمد عبد الله عنان ـ تاريخ الجامع الأزهر ـ أن المرسوم الفرنسي الصادر بهذا الشأن تضمن أسماء ثلاثة غير الثلاثة الذين وردت اسماؤهم أخيراً فحذفت منه أسماء الدمنهوري والشبرخيني والدواخلي وحلت محلهم أسماء الشيخ السادات ، والشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الأمير ٠٠٠٠٠ وربما اكتفي الجبرتي الذي عاصر الأحداث بذكر من حضروا الاجتماع حيث كان نقيب الاشراف والشيخان الآخران غائبين عن اجتماع نابليون ٠ انظر الجبرتي ـ المرجع السابق جـ ٢ صـ ١٩٤ ، ومحمد عبد الله عنان ـ المرجع السابق صـ ١٥٤ ، صـ ١٥٥ ٠٠٠

ونظراً لأن الشعب في القاهرة قد اعتاد علي إعلان غضبته أمام العلماء والمشايخ وعلي أعتاب الأزهر فلم يفت في عضدهم السلاح الفرنسي المشهر أمامهم ولم يقلل من عزمهم مسلك نابليون في تكريمه للمشايخ .. وعلي أثر ازدياد الاضطهاد الفرنسي ثار الناس ولجأوا إلي الجامع الأزهر وسرعان ما تكونت نواة الثورة ضد الاحتلال الفرنسي وأخذ المحتشدون في فناء الأزهر يهتفون بالثورة والقتال يوءمهم في ذلك الكثير من المشايخ - من خارج الديوان - .

وقد أراد ديبوي - حاكم القاهرة - عبثا تهدأة الثوار فلم يجد إلي ذلك سبيلا وترامت الأخبار إلي نابليون الذي سرعان ماأدرك أن بوءرة الشعور لدي الشعب المصري تكمن في الأزهر فأمر بنصب المدافع علي المقطم لضرب الأزهر ...

وقد أراد أعضاء الديوان التوسط لدي نابليون الذي أصدر أوامره بضرب المناطق المجاورة للأزهر فاستمع الي نصحهم فلما عادوا إلي الجموع الغفيرة المتشبثة بالأزهر لم تجد افتراحاتهم لديها إجابة .. بل أن المتجمهرين منعوا المشايخ من دخول الأزهر .. وحينئذ وضع نابليون خطة لاقتحام الأزهر (١) .

وفي يوم الثلاثاء ١٣ جمادي الأولي ١٢١٣ هـ / ٢٣ اكتوبر ١٧٩٨ م اقتحم الجند الفرنسيون بخيولهم وعتادهم الأزهر وقاموا بضرب المتجمعين دون مراعاة لحرمته الدينية والعلمية ... وقد قام الفرنسيون بمنع العلماء والطلاب من دخول الأزهر وانتشرت الجنود في الأحياء

(١) محمد عبد الله عنان - مرجع سبق ذكره - صـ ١٥٩ .

المجاورة تنهب البيوت بحجة البحث عن السلاح وتمنع الناس من قضاء مصالحهم وتعبث بالممتلكات وتقبض علي الابرياء واضطر كثير من الناس إلي الهروب فراراً بأنفسهم ٠٠٠٠٠

ويصف الشيخ الشرقاوي تلك الأحداث بقوله (١) (إن الفرنسيس قتلوا من علماء مصر نحوثلاثة عشر عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة التالية وقتلوا فيه بعض العلماء ونهبوا منه أموالاً كثيرة و ٠٠٠ نهبوا اكثر البيوت التي حول الجامع ونشروا الكتب التي في الخزائن يعتقدون أن بها أموالاً وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً ومصاحف نفيسة) ٠

وشهد شهر جمادي الأولي ١٢١٣ هـ / اكتوبر ١٧٩٨م صدور عدد من المنشورات علي لسان مشايخ الديوان بإيحاء من الإدارة الفرنسية يدعون الناس فيها إلي الخلود للسكينة وعدم تحريك الفتن وعدم طاعة المفسدين ولم تخل المنشورات من المدح والإطراء علي نابليون بونابارت (٢) ٠

وإذا كانت المنشورات قد صدرت بإيحاء من قادة الحملة الفرنسية ـ كما أسلفنا ـ فإنها تحمل في مضمونها الأهمية البالغة التي علقها الفرنسيون علي مشايخ وعلماء الأزهر وتوضح أن الفرنسيين قد أدركوا مدي تأثير هؤلاء المشايخ علي القوي الشعبية المؤثرة في المجتمع المصري ٠٠٠

---

(١) الشيخ عبدالله الشرقاوي ـ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ٠ ص ٧٦

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ٢ صـ ٢١٥ ومابعدها

وقد أدي تذمر الأهالي وما تبعه من إجتياح بربري للأزهر إلـــي تعطيل الديوان بعد أن قامت السلطات الفرنسية باعدام خمســة أو ستة من كبار مشايخ [١] الأزهر بعيداً عن أعضاء الديوان - دون استجابة للنداءات الإنسانية .

وقد اقترن ذلك التذمر بتعطيل الديوان وسرعان ما ألف نابليون ديواناً غيره رفع عدد أعضائه إلي ستين عضواً وقد تضمن هـــذا الديوان عشرة شيوخ علي رأسهم الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر ومثلت فيه كل الطوائف وأصبحت دورات انعقاده حسب الاقتضاء فقـط ، ومن بين أعضاء الديوان الكبير - العام - أختير أربعة عشر عضــواً تألف منهم ، الديوان الخصوصي والخاص - وهو الديوان النشـــط الذي ينعقد يومياً للنظـر في مصالح الناس وتوفير أسباب السعـادة والرفاهية لهم وقد تضمن الديوان الخاص خمسة س الشيوخ العلمـــاء هم الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ مصطفـي الصاوي ، والشيخ سليمان الفيومي ، والشيخ خليل البكري وأسنــدت رئاسة هذا الديوان إلي الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الأزهر [٢]

وظل الحال علي ما هو عليه حيث اتجه نابليون بحملته الفاشلة نحو الشام وعلي أثـر عودته وصلته أنباء مقلقة من أوربا فاعتـــزم مغادرة مصـر فغادرها في شهر ربيع الأول سنة ١٢١٤ هـ / أغسطـــس ١٧٩٩ م [٣] بعد أن ولي أمر القيادة إلي كليبر [٤] ،

---

(١) محمد عبدالله عنان - مرجع سبق ذكره - صـ ١٦٤
(٢) عبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره جـ ٢ صـ ٢٣٧، ٢٣٨
(٣) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ٢ صـ ٣٠١ ، ٣٠٢
(٤) هو جان باست كليبر أحد مشاهير قواد الحملة الفرنسية ولـــد في استراسبورج في ١٧٥٣م وخدم بعد الثـــــورة الفرنسيـة

وقد ظل الأزهر منذ اقتحام الفرنسيين له في حالة اضطراب شديد وتفرق الكثير من شيوخه وطلابه وركدت حلقات دروسه وقام الفرنسيون بفرض رقابة شديدة علي ما يحدث فيه ومن حوله من تحركات ..

وبينما كان الفرنسيون يثبتون دعائم ادارتهم بمصر كان الاسطول الانجليزي يحاصرهم بعد أن فرض رقابة علي الموانى المصرية كما كانت القوات العثمانية تواصل زحفها عن طريق سيناء لطرد الفرنسيين من مصر مما جعل كليبر يوافق علي شروط اتفاقية العريش ، ولكن الانجليز آنذاك صمموا علي اعتبار الفرنسيين أسري حرب وخروجهم من مصر علي تلك الصورة ، وفي تلك الأثناء شهدت مصر حادثة اجتذبت الأضواء وسيطر أمرها علي حديث الناس تلك هي مصرع كليبر ..

الأزهر ومصرع كليبر

تولي كليبر إدارة مصر عقب رحيل نابليون وقد اتخذ من قصر الألفي مقراً لسكناه واتخذه مركزاً للقيادة ، ولكنه أثر البقاء في الجيزة في بداية حكمه حتي يطمئن علي المركز العام لأركان حرب الجيش الفرنسي - وفي يوم السبت ٢١ محرم ١٢١٥ هـ / ١٤ يونيه ١٨٠٠م كان كليبر يتفقد قصر الألفي ومعه المسيو بروتان كبير المهندسين إذ وثب عليه شاب فطعنه عدة طعنات أردته قتيلا ....

--- في جيش الجمهورية وقدم مع بونابارت إلي مصر قائداً لإحدي الفرق وصحبه إلي سوريا وأبلي بلاء حسنا في موقعة غزة ثم عين قائداً لحامية دمياط ....

وحاول بروتان عبثا الدفاع عنه فطعنه الشاب عدة طعنات (١)

وتواثب الحراس من كل ناحية واشتد الضجيج والاضطرابات وبعد بحث ونحر عثر الحراس علي شاب بدت عليه الريبة واعتقدوا أنه القاتل .

وقد ظهر من الأستجواب الأول أن الشاب المقبوض عليه يسمي سليمان الحلبي وأنه ولد في حلب بالشام وعمره أربعة وعشرون سنة وقد قدم إلي القاهرة ونزل بالجامع الأزهر ودلّ التحقيق علي ان سليمان هو أحد أبناء الأزهر القدامي كما أن علاقته كانت وثيقة بالكثير من مشايخ الأزهر وعلمائه وكأن ما قام به سليمان يعتبر ثأراً للأزهر عما حل به علي يد جند الحملة الفرنسية .

وقد أصدرت المحكمة المكلفة بنظر قضية مصرع كليبر حكمها بإعدام سليمان الحلبي وعد من شيوخ وعلماء الأزهر الذين تصورت المحكمة أنهم علي صلة بتلك القضية .

ولم تستطع الادارة الفرنسية بالقاهرة الفصل بين مقتل كليبر ودور الأزهر وشيوخه في ذلك فبالرغم من اعدام أربعة من الشيوخ إلا أن ذلك كان غير كاف مما جعل مينو (خليفة كليبر) يتخذ عدداً من الإجراءات الخاصة بالأزهروالتي يمكن أن نوجزها في قولنا : هي محاولة لتضييق الخناق وتحديد الحركة لكل عالم ودارس بالأزهر مع مراقبة كاملة لحركات وسكنات هؤلاء تحسبا لتكرار ماحدث.

(١) محمد عبدالله عنان - مرجع سبق ذكره - صـ ١٧٤ ، صـ ١٧٥

وفي مواجهة تلك الأجـراءات لم يلبث أن استقر رأي المشايـخ برئاسة الشيخ الشرقاوي علي إغلاق الجامع الأزهر وفي شهر محـرم سنة ١٢١٥ ه / يونيه ١٨٠٠م طلب الشيخ الشرقاوي والشيخ المهـدي والشيخ الصاوي إقفال أبواب الأزهر منعاً للريبة والشكوك وقد وافـق مينو علي ذلك (١) .. وفي صباح اليوم التالي أخرج سائر المجاورين وأغلقت أبواب الأزهر .. وهذه أول مرة في تاريخه يغلق فيها بعد أن لبث منذ انشائه ثمانية قرون ونصف مفتوح الأبواب (٢) .

وبعد أن عمد مينـو إلي فرض الاتاوات والقسوة في معاملة الأهالي عاد وأعلن اسلامه وبدأ العديد من الخطوات التي أراد ان يدلل بهـا علي نواياه الحسنة نحو المصريين . ومن أهم تلك الخطوات إعـادة تشكيل الديوان - الموقوف - من تسعة شيوخ من الأزهر وعلي رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيسا (٣) واستمر انعقاد دورات ذلـك المجلس لنظر دعاوي المقدمة من الأهالي (٤) .

---

(١) أمين سامي باشا - تقويم النيل - الجزء الثاني (محمد علـي باشا) ط أولي صـ ١٤٩ مطبعة دار الكتب المصريـة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨م .

(٢) محمد عبدالله عنان - مرجع سبق ذكره - ص ١٨٣

(٣) عبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٢ صـ ٣٩٦ ، ٣٩٧

(٤) تقاضي كل شيخ من شيوخ الديوان التسعة أربعة عشر الف فضـة كراتـب شهري أي حوالي ٣٥٠ قرشـا .

دور الأزهر في تولية محمد علي حكم مصر

ظل الأزهر يواصل قيادته وريادته للشعب المصري وفي بداية عام ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م بدأت الاستعدادات لفتح الجامع الأزهر ثم كان افتتاحه بأداء صلاة الجمعة فيه (١)

وحينما كان الشعب المصري يعاني من قرار أتخذ أو ضريبة فرضت فإنه كان يجد في الأزهر الملجأ والمستقر الذي يعرض فيه شكواه فيقوم المشايخ بتبليغ ذلك إلي الإدارة وكثيرا ما نجحوا في وقف الكثير من الاجراءات التي مثلت معاناة للشعب المصري.

ولقد كان للأزهر وشيوخه الدور البارز في صنع القرار والتأثير في مجريات الأحداث في مصر فقد شهدت تلك القلعة اجتماع العلماء والمشايخ في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٣ مايو ١٨٠٥م) واتجه العلماء والمشايخ إلي بيت القاضي وبعد تشاور اتجهوا جميعاً إلي محمد علي وقالوا له إننا لا نويد هذا الباشا (٢) حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية فقال ومن تريدون أن يكون واليا قالوا له لا نرضي إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولاً ثم رضي وأحضروا له كركا وعليه قفطان وقام السيد عمر والشيخ الشرقاوي وألبساه له وذلك في وقت العصر ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة وأرسلوا إلي إحمد باشا الوالي الخبر بذلك فقال إني مولي من قبل السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين (٣)

---

(١) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٢ ص ٤٧٦

(٢) يقصد ون احمد خسروباشا الوالي علي مصر من قبل الباب العالي.

(٣) أمين سامي باشا- تقويم النيل - جـ٢ ص ١٩٢،ص ١٩٣ وعبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره جـ٣ ص ٦٣، ص ٦٤، ص ٦٥

ولم تمر خطوات محمد علي نحو انتزاع السلطة من الوالي بطريق القوة بعيداً عن المشورة والمشاركة من شيوخ الأزهر فقد كانت القرارات موحدة وشارك الشيوخ والعلماء في كل الأعمال الإيجابية والتحركات العسكرية التي صحبت عملية تولي محمد علي حكم مصر .

وحينما أقر الباب العالي ما حدث في مصر من تولية محمد علي حاكما عليها كأمر واقع اعترف به نص صراحة علي أن هذا - التصرف قام به الباب العالي نظراً لرضي العلماء والرعية به ، ففي الثالث عشر من ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ هـ (١٠ يوليه ١٨٠٥م) حضر قابجي من طرف الدولة (العثمانية) ونزل بمنزل محمد علي بالأزبكية وحضر المشايخ والأعيان وقرءوا المرسوم الذي معه ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا والي جده سابقاً ووالي مصر حالاً .. حيث رضي بذلك العلماء والرعية (١)

ولم يقتصر دور الأزهر وشيوخه (وشيخه الشرقاوي بصفة خاصة) علي المشاركة في صنع قرار بتنصيب حاكم أو التأهب لقيام ثورة ضد محتل وإنما كان جزءاً من دأبهم محاولة تهدأة الوضع الداخلي لنشر الاستقرار في ربوع الدولة .

وقد شهدت الساحة المصرية صراعاً عنيفاً منذ تولي محمد علي باشا حكم مصر بينه وبين أفراد المماليك الذين لم يلبثوا أن استعانوا بحملة بريطانية أتت لتعيد إليهم حكم مصر وحينما عرض بعض الافراد المصرلية (المماليك) أن يقدم لهم الشيخ الشرقاوي والس

(١) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ٣ ص ٧٣ ، ٧٤
وأمين سامي - مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ١٩٥ .

عمر مكرم (نقيب الأشراف) مساعدة ضد محمد علي باشا [1] أبوا تقديم تلك المساعدة وقاموا بتحذيرهم من عواقب موقفهم الذي يفتت وحدة الشعب المصري ...

وقد أدرك محمد علي باشا خطورة رأي شيخ الأزهر علماؤه ونقيب الأشراف لدي الباب العالي فقد احترم السلطان وجهة نظرهم وأقر محمد علي باشا واليا علي مصر لأنهم قد اختاروه ، كما أدرك المشايخ واعتقدوا أن محمد علي باشا هو أنسب الرجال وأكثرهم صلاحية لولاية مصر ـ وبخاصة في أيام حكمه الأولي التي لم يكشف فيها عن خططه الاستبدادية ـ وذلك نظراً لأنه قد وافق علي تولي حكم مصر مشروطاً بمشورة والأخذ برأي المشايخ والعلماء ونقيب الأشراف ، فاستغل محمد علي باشا ذلك الوزن الهائل للشيوخ لدي الباب العالي حينما أرسل السلطان فرمانا بعزله من ولاية مصر ونقله إلي ولاية سالونيك ففي ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٢٢١ هـ / يوليه ١٨٠٦ م وصل إلي مصر شاكر أغا سلاح دار مندوبا من قبل الباب العالي يبلغ محمد علي باشا عزله عن ولاية مصر وتعيينه واليا علي سالونيك وتعيين موسي باشا واليا علي مصر وقد توجه الباب العالي بخطابات تفيد ذلك إلي المشايخ ونقيب الأشراف ـ تقديراً لوضعهم في صنع القرار ـ فاتفق الباشا مع المشايخ علي ان يرسلوا رداً مضمونه .. أن أهل مصر قوم ضعاف وربما عصت العساكر عن الخروج فيحصل ضرر للأهالي وحمل شيخ الأزهر والمشايخ ونقيب الأشراف في ٢٨ ربيع الثاني ١٢٢١ هـ / يوليه ١٨٠٦ م حملوا شاكرا

---

(١) أمين سامي ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٢ صـ ١٩٦

أغا (مندوب الباب العالي) رداً وملتمساً بابقاء محمد علي باشا واليا علي مصر (١) .

وقد دأب محمد علي باشا علي تقليص نفوذ الشخصيات المؤثرة في المجتمع المصري ويأتي شيخ الأزهر - الشرقاوي آنذاك - ونقيب الأشراف في مقدمة تلك الشخصيات التي ود محمد علي باشا تقليص نفوذها أو التخلص الكامل منها إذا وجد إلي ذلك سبيلا ٠٠ وقد أراد محمد علي باشا استغلال بعض النزاعات الشخصية في تقليص نفوذ شيخ الأزهر ، ففي ٤ رجب سنة ١٢٢١ هـ / اكتوبر سنة ١٨٠٦م أرسل إلي الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الأزهر يأمره بلزوم داره وأنه لا يخرج منها ولا إلي صلاة الجمعة وذلك بسبب ضغائن ومنافسات بينه وبين أخوانه كالسيد محمد الدواخلي والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ويعلق الجبرتي علي ذلك بقوله : وأهمل أمر الشيخ الشرقاوي ولم يجد ناصراً (٢) .

ولا يعني ذلك الأمر أن الشيخ قد جمدت حركته وأصبح غير مشارك في صنع الاحداث ، بل إن المصادر المعاصرة تطالعنا باشتراكه في الكثير من الشئون الداخلية والخارجية ٠

فمن الشون الداخلية ننقل حواراً دار بين الشيخ الشرقاوي ومحمد علي باشا علي أثر مناقشة حالة الشعب المصري بعد انخفاض منسوب النيل وتأثر المحاصيل الزراعية بذلك (واجتمع في يوم السبت ١٧

---

(١) الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٣ ص ١٢٥ - ١٣٠ وكذلك تقويم النيل لابن سامي - جـ ٢ صـ ٢٠١ : ٢٠٣ ٠

(٢) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٣ ص ١٣٤ ، و سامي - مرجع سبق ذكره جـ٢ ص ٢٠٣ ٠٠٠

جمادي الثانية ١٢٢٣ هـ / سبتمبر ١٨٠٨م المشايخ عند الباشا فقال لهم اعملوا استسقاء .... وادعوا الله فقال له الشيخ الشرقاوي: ينبغي أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم ، فقال : أنا لست بظالم وحدي وأنتم أظلم مني ، فإني رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم اكراما لكم وأنتم تأخذونها من الفلاحين .... وكل من سأجده يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحيه أرفع الحصة عنه فقالوا له : لك ذلك . ثم اتفقوا علي الخروج والسقيا في صباح اليوم التالي من جامع عمرو بن العاص (١)

ومن الشئون الخارجية اجتماع الباشا بالمشايخ في أول المحرم سنة ١٢٢٣ هـ / مارس ١٨٠٨م ليعلمهم باستيلاء الوهابيين علي الحرم ويطلعهم علي طلب الباب العالي تجريد القوات المصرية لمحاربة آل سعود في شبه الجزيرة العربية ...

نفي السيد عمر مكرم

علي أثر فرض ضرائب جديدة ضج الناس والتجئوا إلي المشايخ والسيد عمر مكرم فوعدهم بالتحدث في هذا الشأن بعد التثبت واتفق المشايخ والسيد عمر مكرم علي عدم مقابلة الباشا لأنه تمادي في احداث الفروضات الكثيرة التي أزهقت الرعية فأرسل محمد علي باشا يطلب مقابلة المشايخ والسيد عمر مكرم فلبي الدعوة الشيخ الدواخلي والمهدي أما الدواخلي فكان نائبا عن الشيخ عبدالله

(١) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٣ ص ٢٣٩ ، أمين سامي - مرجع سبق ذكره - جـ ٢ ص ٢١٣

الشرقاوي ، وقد أظهر الباشا أنه يميل إلي اتباع نصائح المشايخ وأنه متكدر من تخلف الشيخ عمر مكرم وعدم حضوره بعد تكرار طلبه ووقوفه دائما ضده في كل ما يفرضه علي الرعية ، ولما شدد الطلب في الاجتماع مع السيد عمر مكرم رد الشيخ بقوله إنني أقابل الباشا ولكن في بيت السادات لا في القلعة (١)

وحينئذ استقر قرار الباشا علي التخلص التام من عمر مكرم ممثل الزعامة الشعبية الحقيقية آنذاك ..

وفي ٢٧ جمادي الثانية سنة ١٢٢٤ هـ / أغسطس ١٨٠٩ نزل الباشا لمنزل ولده إبراهيم بك الدفتردار وطلب القاضي والمشايخ وطلب السيد عمر مكرم فاعتذر بأنه مريض وكان قد أحضر شيخ السادات الوفائية والشيخ الشرقاوي وأحضر الباشا خلعة وألبسها للشيخ السادات علي نقابة الاشراف وأمر بكتابة فرمان بخروج السيد عمر مكرم ونفيه من مصر في اليوم نفسه فتشفع المشايخ في إمهاله ثلاثة أيام حتي يقضي أشغاله وتقرر نفيه إلي دمياط (٢)

ويعلق أمين سامي باشا علي ذلك فيقول : أما السيد عمر فأرتاح لتخليه عما كان يتحمله من مهام المسئولية التي كانت تلقي علي عاتقه .... وكم كانت خسارة الرأي العام في مصر فادحة ليس في نفي عمر مكرم كشخص ولكن في سكوت صوت الشعب منذ ذلك التاريخ ... لقد أفسحت خطوة نفي عمر مكرم وما تلاها من مواقف

---

(١) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ٢ ص ٢٦٨
(٢) أمين سامي - مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ٢١٨

سلبية وتخطيط منظم درج عليه محمد علي باشا الطريق للاستئثار بالسلطة في مصر والاستبداد وعاش المصري غريبا في بلاده منذ أن سكت صوت الزعامة الشعبية ممثلة في شيوخه وعلمائه ورجال أزهره المعمور .

وكانت خطة نفي عمر مكرم أولي معاول هدم الزعامة الشعبية الحقيقية في مصر والتي حمل عبئها المشايخ والعلماء .

ولقد راق لمحمد علي أن يسمي المصري بعد أن أستبد برأيه في الحكم ، راق له أن يطلق علي المصري (الفلاح) وعمت المجتمع المصري طبقية رهيبة رفعت حاشية الباشا وجعلت عامة الشعب (فلاحي مصر) الذين أعدوا ليكونوا جنوداً يساق بهم نحو حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل .... وقد ذكرت تقارير القناصل الأمريكيين في إشارتها إلي معاملة محمد علي باشا للمصريين بقولها (.. ولم يكن محمد علي يحسب حسابا للمصريين ـ فلاحي مصر

The Egyption Fallah P ـ الذي أبدي احتقاره الدائم لهم) (١) .

ولسنا في مجال عرض ما كان ينبغي أن يقوم به المشايخ من دور علي أثر نفي الشيخ عمر مكرم ، ولكنا نكتفي بإيضاح الدور الهام الذي لعبه مشايخ الأزهر في السياسة المصرية في عهد محمد علي باشا.

(١) الوثائق الأمريكية ـ تقارير القناصل الأمريكيين في الأسكندرية من نيويورك إلي الاسكندرية في ٣٠ سبتمبر ١٨٣٥م الوثيقة رقم ٧ الصفحة ٥ ..

Despctches From U.s Conslues in Alexandria
Roll Nc 1 T 45 From Nyoçovk toalexandria
Septambar 1835 N 7 P 5

ولقد كان نفي عمر مكرم هو آخر الأحداث التاريخية التي كانت تنتظر دوراً هاماً يمكن للمشايخ أن يقوموا به في المعترك السياسي المصري .

ولم تظل فترة شياخة الشيخ الشرقاوي بعد أن نفي عمر مكرم حيث وافته المنية ليعتلي مشيخة الأزهر شيخ جديد .

وفاة الشيخ الشرقاوي

في يوم الخميس الثاني من شوال سنة ١٢٢٧ هـ / نوفمبر ١٨١٢ توفي الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهري الشهير بالشرقاوي شيخ الجامع الأزهر (١) بعد أن مكث حوالي تسعة عشر عاماً في مشيخة الأزهر ، وقد أقيمت صلاة الجنازة عليه بالجامع الأزهر وصلي عليه جمع كثير ودفن بمدفنة الذي بناه لنفسه ، ووضعوا علي تابوته عمامة كبيرة ..

ويذكر الجبرتي كثيرا من الأشياء التي صحبت وتلت وفاته والتي لا يتسع المجال لذكرها لعدم أهميتها من ناحية ولبعدها عن الطقوس الاسلامية التي تصحب حالات الوفاة (٢) من ناحية أخري .

وعقب وفاة الشيخ أحيط محمد علي باشا علما بذلك فترك للمشايخ أمر أختيار شيخ من بينهم ليتولي مشيخة الأزهر وبعد عدة مفاوضات استقر الأمر علي اختيار الشيخ الشنواني .

---

(١) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٣ ص ٣٨٢

(٢) لمزيد من التفاصيل - انظر - عبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٣ ص ٣٧٩ وما يليها ...

وفي يوم الجمعه ١٦ شوال سنة ١٢٢٧ هـ / نوفمبر ١٨١٢م حضر الشيخ الجديد إلي الأزهر وصلي الجمعه وحضر باقي المشايخ وعملوا الختم للشيخ الشرقاوي .... وبعد الفراغ من الختم أنشد المنشد قصيدة رثاء من نظم الشيخ عبد الله العدوي المعروف بالقاضي وتوج الشيخ الشنواني شيخا للأزهر .

دكتور
مالك محمد أحمد رشوان
مدرس التاريخ في كلية اللغة العربية
بأسيوط

صفات مشرقه للطب في مصر الاسلامية

د/ محمود شرف الدين

مدرس التاريخ والحضارة

لقد ازدهر الطب الإسلامي في مصر الإسلامية عبر عصورها المختلفة حيث سطعت في سمائها أسماء العديد من المبرزين الماهرين في هذا المجال الفوائد وقد اضطلعق بدورهم الانساني الكبير في معالجة المرضي وتركيب الأدوية والتشريح وما اليه عمليا في البيمارستانات المتعددة بالفسطاط والقطائع والقاهرة في مقدمتهم أحمد بن محمد البلوي وعلي بن رضوان وعلي بن عيسي وعلي بن سليمان واسحق بن نسطاس وابن مقشر وغيرهم ممن تولوا تدريس الطب وممارسته باللغة العربيه علي طلابهم في دور العلاج والمعاهد العلمية علي الرغم من إجادتهم السريانية والفارسيه والقبطيه حتي تيسر للطالب متابعة هذا العلم والالمام بمسائلة وحقائقه وهي مهنه شريفة ولاشك تسبغ علي المطلع بها وقارا ومهابه وتقديرا وحري بمن داخل في مصانعها ان يؤكد صدق نظره الناس في هذا التقدير من خلال معاملاته الطيبه وتصرفاته النبيله متحليا بالسجايا الحسنه التي من أهمها الحلم والتواضع وسلامة الاعتقاد والخضوع لله الواحد الأحد راض النفس صافي السريره منشرح الصدر مبتسم الوجه واحداً ربه في كل خطواته غير مستهين بما صغر ولا متكبر علي ما حقر يعامل المريض العادي

معاملة الأمراء والخلفاء دون ما اختلاف أو تفرقه . فمعنى النظر في الداء قبل تصنيف الدواء ومطلوبا فيه أن يكون ملاحظا مجريا مجددا في معلوماته دؤوبا في جمعها . وغيرها من الفضائل التي تجعل منه طبيبا ماهرا وحكيما محنطا وجراحا موفقا يطير اسمه في كل مجال منتشرا ينقصه الجناح محلقا في ثوب الملائكة ملبيا نداء كل مريض في غير تقاعس أو تاخير وامامه النبراس القرآني الهادي بان الله لايضيع أجر من أحسن عملا .

وقد ساعد علي ازدهار الطب في مصر الاسلامية عوامل متعددة متضافرة أهمها :

أ - وجود عدد كبير من البيمارستانات بالقاهرة والفسطاط فوق عملها الانساني في معالجة المرضي كانت تتخذ محلا لتدريس الطب النظري والعملي في قاعات أعدت لذلك

ب - الكتب القيمة التي صدرت كمراجع مهمة يستعين بها الأطباء في دراساتهم وأبحاثهم فقد كانت بخزانة دور العلاج والقصور النفائس النادرة في هذا العلم (فقد كان في البيمارستان العتيق بقطائع مصر خزانه كتب تضم مايزيد علي ألف مجلد ومصنف في العلوم الطبيه من كتب للاغريق والفرس والهنود مترجمة عن أصلها كما كانت بخزانه القصر الف مجلد آخر بالعربية وغيرها الفها اطباء عرب مثل ابو عبد الله محمد ابن أبي يعقوب التميمي صاحب كتاب مادة البقاء

باصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الاوباء) وكتاب مخلص النفوس وكتاب الفحص والاخبار وقد اتصل خبر التميمي الذي نشأ ببيت المقدس بالحسن بن عبدالله بن طفج الاخشيد والي الرمله في عهد الأخشيديين ثم صحب يعقوب بن كلس ثم اتصل بالاطباء الذين وفدوا علي مصر مع المعز لدين الله الفاطمي وقد قال عن كتاب مخلص النفوس (هذا ترياق الفته بالقدس واحكمت تركيبه بمختصر نافع السمر من الافاعي والثعابين وأنواع الحيسات المهلكه السم وهو مجرب ليس له مثيل . (١)

جـ - اعتمد هذا العلم في رقيه علي علماء عاشوا في مصر ابان العصر المتعاقبة اظهرهم ابو الحسن ابن سهلان بن عثمان الذي طان عالما وطبيبا حازقا قد علا جاهله في زمانه وقد كانت له تصانيف مثبته في الطب منها كتاب (الاقرباذين وكتاب مختصر الطب الذي كان قد صنفه ليحفظ خزانه الملوك بمصر وله مصنف اسمه مختصر في الادويه المركبة المستعمله في أكثر الأمراض) (٢)

ومن الذين عملوا في هذا الحقل العلمي ابو يعقوب بن اسحاق بن نسطاس المتوفي سنة ٢٨٨ هـ والذي كان يكتب الرقاع في خزانة الشراب وأيضا ابو الفتح منصور بن مقشر الطبيب الماهر والذي كان لتفوقه في البحث والتشخيص اثر في تقريب الحكام له

(١) عبد الصاحب الدجلي / علام العرب ص ٢٠٧

(٢) ابن القفطي تاريخ الحكماء ص ٧٢

وجعله من جله خواصهم وقد كان لهذا الطيب دراية وخبرة بصناعه الطب وهو من الأطباء المسهورين والعلماء المذكورين مكينا في الدولة حظيا في الحكام وبلغ في خدمتهم أعلي المنازل واسماها وله علم واسع في تشخيص العله وله كتاب اسمه الدستور جمعه بما اتضح نفعه بالاستعمال . (١)

ومن علماء مصر الاسلامية نابغة طب العيون ابو القاسم عمار بن علي الموصلي وهو عراقي الأصل ولم يظهر تفوقه مسهرته فيها وصنف كتبه في مجال طب العيون بين مجتمعها وكان من أعظم أطباء العيون في العالم الاسلامي قاطبه (وبين أشهر مصنفاته المنتخب في علاج العيون ووصف الدواء الذي يبرئ امراضها وكانت كثرة امراض العيون في مصر سببا في نبوغ ابن عمار والتفرد في مسائل الكحاله وسيبوع اخبار الرمد بالقطر المصري وله ابتكارات في جراحة العين سجلت باسمه اسرفت في الحقل العلمي واخذها العلماء والممارسون بعد نجاحها في الفسطاط والقاهرة وذلك بعد اختزع أبو القاسم انبوبة معدنية مجوفة لامتصاص الماء اللينة داخل حدقة العين وقد اجري ست عمليات بواسطة هذه الانبوبة . (٢) وقد اهتمت اوربا بمجهودات هذا الطبيب النابغة ودرست اثاره ومبتكراته وزادت علي معلوماته ما يحقق

---

(١) ابن ابي اصيبعه عيون الاطباء ص ٥٥

(٢) عمر كحاله . العلوم البحته ص ١٠٨

المزيد من النفع لمرض العيون والذي مهر في علاجهم طبيبنا ابـــن عمار

وهكذا نري ان اطباء مصر لم يعملوا في مجالهم الرحيب وفـق الاستقراء والتخمين وانما ادوا مهمتهم السامية بحنكة عاليـــة ومهارة فائقة بعد ان شخصوا الأمراض وتابعوا التجارب المعملية بما يناسب واقع الحالات المعروضة عليهم في دور العلاج المصريـة المختلفة . وقد نقلت الينا كتب الاسفار المتخصصـــة أدوار التجريب والاختبار بدايه باستخدام القاروره المعروفه باســـم النفـــرة والتي تفوق مقام معامل التحليل في عصرنا الحالـــي حيث لم تغفل الطبيب (النظر في ابوال المرضي لكي يخرجـــون النفـــرة فما كان يعالج مريضا دون النظر الي قارورته ولـــه مع اقرانه الاطباء والمستغلين بضاعه الطب في نظرها آراء وعلامات يتصرفون منها في حالة البول من صحة وسقم ثم بعد ذلك يتفقـــد أحوال المرضي ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفين ـ المشرفين ـ والعوام ـ الخدم ـ فكان جميع مايكتبه لكل مريض من المداواه لايؤخذ عنه ولايتواني في ذلك وبعد فراغه من ذلك يصل الـــي ديوان البيمارستان ليحضر كتب الاستغال ويطالع ويبحث فيمـــا عرض عليه من أحوال [١].

---

(١) عيون الانباء ص ١١٦

وكان تشخيص المرضي يجري علي نظام يشبه مايحدث في مستشفياتنا الحديثة وقد استخدمت الآلات التي اتيحت لهم حتي يستطيع الطبيب من خلالها التعرف علي الداء بعد الانصات التام الي سماع شكوي مريضة ثم يبدأ الطبيب التعرف علي بيئة المريض وحياته واحواله معيشته ومدي سلامته ويتعرف الي اسرته واحتمال اصابتها بالامراض فاذا تيسر له ذلك قام بفحص بوله وجس نبضه الذي يعرف عن طريقه التغير اليسير الحادث في النبض والذي ينبئ عن اشياء خفيه · ان القلب والعروق والضوارب تتحرك كلها حركة واحدة علي مثال واحد في زمان واحد ومن أجل هذا أمكن التعرف علي حركة القلب من حركة الشريان · (١)

وكان الطبيب لايمارس مهنته إلا بعد اجتياز امتحان دقيق في التخصص الذي برع فيه دراسة متانيه وبحث دقيق علي يد أساتذه مهره في زمانهم ومتابعة مؤلفاتهم وبعد أن يتم الطالب مرحلة الدراسة بتقديم إلي رئيس الأطباء في القطر المصري ووظيفته اكبر وظائف الاطباء علي الاخلاف ويطلب أجازته لمعاناه صنعه التطبيب · وكان الطالب يتقدم اليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول علي الأجازة في معاناقه وهذهالرسالة أشبه بما يسمي اليوم اطروحه وتكون هذه الرسالة له أو لاحد

---

(١) توفيق الطويل · العرب والعلم ص ٤٦

مشاهير الاطباء المتقدمين أو المعاصرين يكون قد اجاد دراستها ويمتحنه فيها ويسأله علي كل مايتعلق بما فيها من الفن مــاذا أحسن اجازه الممتحن بما يطلق له التصرف فيه من الصناعه (١)

وقبل أن يزاول الطبيب هذه المهنه المقدسه بعد أن صقلت تجربيته وتجلت مذاهبه العلميه يتعهد أمام كبير الاطباء الذي أجاز له ممارسه الطب دون تعقيدات روتينيه أو قيود حكوميه بأن يكون (كتوما لاسرار المرضي لايبوح بشئ من أمراضهم وان يكون سليم القلب عفيف صادق اللهجة لايخطر بباله شئ من أمور النساء والأحوال التي شاهدها في المنازل وأن يكون مؤمنا ثقه في الأرواح والأموال لايصف دواء مثالا ولايعلمه ولادواء يسقط الاجنه يعالج عدوه بنيه صادقه كما يعالج حبيبه وأن يكون حريصا علي التعلم المبالغ في منافع الناس وان يكون حسن الخلق طيب الرائحة نظيف البدن والثوب تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الذكاء جيد الروايه عاقلا ذكورا (٢)

وقد عملت الحكومات المتعاقبه تحت ظلال مصر الاسلاميه الوافر علي اصلاح شئون الاطباء ماديا وأدبيا حتي ترتعش مطانتهم في المجتمع الاسلامي الذي ينشده الاسلام لبنيه بالعمل علي تهدئه خواطرهم من خلال امدادهم بالاموال التي تعينهم علي العيش الكريم

---

(١) د/ احمد عيسي البيمارستان في الاسلام ص ٤٣

(٢) ابن ابي اصبيعه مرجع سابق ص ١٠٧ .

فضلا عن الحوافز المتعددة علي هيئه هبات أو خلع أو ضياع أو أراضي تكون تحت تصرف المنعم عليه في أوقات النبوغ واظهار البراعة الطبيه لابناء مصر فلا عجب أن تسمو مرتبه الأطباء في مجتمع ينزل العلماء اقدارهم المرتقبه . فاذا سكنت أحوال الاطباء وطابت أمزجتهم ظهر ذلك جليا علي صحه من يقومون بتطبيبهم . وقد شهر بين الناس التاثير النفسي في العلاقة بين الطبيب ومريضه ، يقول صاحب تراث الاسلام : (إذا نزلت مصيبه بطبيب فلا تفتحن فمك بلومه فلكن امرء ساعته وادخل الطمأنيه الي قلب المريض المتألم ومنه بالشفاء وان لم تكن صناعتك به وأثقه من شفائه لاتلك تساعد قواه الروحيه علي المقاومة ويلحم بك عقلك وجدك ولا تبحث عن الشهرة بطريق انتقاص الآخرين ولاتتردد في عودة فقير أو معالجته فلا يوجد عمل أشرف من هذا ولا تطلب أجرك عندما يكون المريض في أخطر مراحله لأن المريض ينسي مافعلت لأجله متي أيس من مرضه (١)

وقد كانت هناك عده عوامل ساعدت علي انكباب الطلبه علي هذا الفرع الجليل من فروع المعرفة أهمها الخطوة الكبيرة والطفرة الهائلة في الأهتمام الحكومي والشعبي بالصحة ومقاومة الأمراض

(١) ماكس مايرهوف تراث الاسلام ص ١٨٦

ان وجدت بشتي الوسائل الممكنه في زمانهم . هذا فضلا عن القواعد الدينيه المقرره في النظافه وحسن الهيئه ودرء الخطر وعمل كل مامن شأنه اصلاح الأجساد وتحريم الأشياء التي تلحق المضرات بالخلايا الجسمانيه والعقليه وقد توافقت الآيات القرآنيه والأحاديث النبويه علي هيئه وصايا تنزل بردا وسلاما علي المسلمين في كل وقت وحين باذن الله . (قل من حرم زينه الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لايحب المسرفين)

(حرمت عليكم الميته والدم ولحم الخنزير وماأهل لغير الله به والمتخنقه والموقوذه والنطيحه وما أكل السبع الا ماذكيتم وما ذبح علي النصب) (نحن قوم لانأكل حتي نجوع واذا كلنا لانشبع) بحسب ابن آدم لتقيمات يقمي صلبه وان كان ولا شك فاعل فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) (كل واشرب والبس من غير سرف ولا مخيله) وغيرها من النورانيات المضيئه والمشرفه علي أركان حياتنا الاسلامية والتي في مدلولها ادراك لأهمية الصحه البدنيه يقول المستشرق جاك ريسلر (ان المسلمين عرفوا قواعد الصحه العامه وانفقوا بواسطتها خطر الأمراض الوافدة وجعلوا لأجسامهم المناعه الكافيه ولقد نظفوا أجسادهم ولباسهم ومساكنهم من الأوساخ لأن النظافه من الإيمان فتوفقوا واستحموا وغسلوا أيديهم قبل الطعام وبعده وامتنعوا عن مسح اليدين بمنديل

غير نظيف وعن التنفس في الطعام والشراب بغيه تبريده حتـــي انهم كانوا يبعدون القدح عن فيهم اذا تنفسوا ولا يبتلعون بقايـــا الطعام المستخرج من بين الأسنان واستعملوا لتنظيفها السواك وعند استيقاظهم من النوم كانوا لايدخلون أيديهم في إناء قبل الغســل وقلموا الأظافر وغسلوا الفاكهة وغطوا أواني الشراب والطعام ولـــم يدخلوا الطعام علي الطعام وقد بلغ أحدهم بمــن الهندام ونظافة البدن حد الافراط وقد كانوا علي بينه من انتقال العدوي فابتلعوا عن المجذوم وحجروا عليه في المستشفيات واحجموا عن الدخـــــول في بلد قد وقع فيه طاعون ومنعوا الخروج منه حتي يزول المـــرض - بما يشبه الحجر الصحي في أيامنا - واهتموا بتنظيف مدنهـم وتزويتها وترتيبها بموجب القواعد الصحيحة ومنعوا كل مايسبـــب تلوث الطرقات ولما طوا الأذي عن الطريق وحذروا من التغـــوط في المسالك لو تحت ظلال الاشجار وفي المياه . وقتلوا الطـــلاب الفــاله تخلصا من محاذيرها واخذوا السابله علي [illegible] ولبســـوا الملابس النسيجه وجعلوا [illegible] الأبيض علي [illegible]ه وأكثروا فـــ بيوتهم من النوافذ وكانوا علي بينه من تأثير المناخ علي صحـــة ولذلك احروا بتغيير الهواء لبعض الحاجات كفقر الدم وهـــزال الجسم وينقلون المرضي الي الجبال وشواطئ البحار والبـــلاد الحارة حسب فصول السنة (١) علي أن يكون في موقع ممتـــاز

(١) للحضارة العربية ص ١٩٧

وجو صحي مناسب وتعمدا أن يكون بعيدا عن ضوضاء الأسواق والتجمعات السكانيه وكانت لهم طريقه نظيفه للتخفف من جوده الهواء وصلاح الموقع لبناء المستشفيات تغني عن كل الأساليب المبتكره التي تتبع في العصور المتأخره للوقوف علي كشف الجراثيم والإحاطة الكامله بوسائل التحليل فكانوا يعلقون قطع اللحوم في مواقع مختلفة من المدن في وقت واحد فأنها أسرع في العفن اجتنبوا بناء المستشفي عنده واختاروا المطان الآخر الذي تتأخر فيه عوارض الفساد واذا كانوا يتخيرون أحسن البقاع عند تشييد هذه المؤسسات العلاجيه فانهم لم يهملوا تزدد تلك الأبنية بالحدائق الغناء موردوها الناضرة واشجارها الظليله بينما تنتقل الطور بين أغصانها مغردة أعذب الألمان الطبيعية التي حباها الخالق علي بني الأنسان وقد وجدت المسهلات والفساقي التي تسيك فيها المياه لتدفت الانتقاش والارتياح . وكان البيمارستان (عبارة عن مستشفي مجهز بجميع ما يلزم للمرضي من أدوات وأدوية وأطعمه وأشربه وملابس وأطباء وصيادله وكل ما يعين علي ترفيه الحال علي المرضي والعجزة والمزمنين والمسجونين وكانت منقسمة الي قسمين منفصلين عن بعضهما قسم الذكور وقسم للاناث وقسم مجهز بما يحتاجه من اله وعده ووخدم وفرانين من الرجال والنساء وقوام ومشرفين وفي كل قسم من هذه الأقسام عدة قاعات لمختلف الافراض فقاعه لافراض الباطنه وقاعه

للجراحات وقاعه للتجبير وكانت قاعه الأمراض الباطنه منقسمه الي أقسام أخري . (١)

ويوحد داخل البيمارستانات اقساما متعدده تعرض علي كل منها المرضي الذين يشكون من أمراض معينه حيث يتحدد القسم طبيب معالج ممارس للطب في هذا الفرع الذي مهر فيه ولمان يرأس الجمع ناظر ينظر أو يشرف علي ادارته المختلفه . ومن الوظائف الهامه بهذه المؤسسة الحكومية رئيس الأطباء وهو الذي يحكم علي طائفة الأطباء من الناحية الفنية وهو الذي يأذن لهم بممارسه المهنه - كما قلنا من قبل - (ثم رئيس الكحالين - العيون - وحكمه في الكلام علي طائفه الكحاله حكم رئيس الأطباء في طائفة الأطباء ورئيس الجراحيه وحكمه في الكلام علي طائفه الجراحيه والمجبرين وكانت أعظم الوظائف الصناعية في الدوله بمصر وظائف الأطباء فكانت العاب أرباب الصناعات الرئيسية كرياسه الطب من الدرجة الأولي ويعمل باوامره وموضوعها التحدث الي الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ولايكون إلا واحداً من المرتبة الأولي مرتبة المجلس الأعلي (٢)

وقد زودت تلك المستشفيات بكل الخدملت التي يستفيد منها المرضي تحت سماء الدوله الاسلاميه مجانا حيث وقفت لتلك

(١) العلوم العمليه في العصور الوسطي . عمر رضا كحاله ص ١٠٦

(٢) القلقشندي صبح الاعشي جـ ٥ ص ٤٦٧

الخدمات أوقافا سنيه لتظل مفتوحه تؤدي واجبها الانساني العظيم دون كلل وكانت معظم تلك البيمارسنانات معده اعدادا كاملا وكان الطبيب يدور علي المرضي ويتفقد أحوالهم ويبين يديه المساعدين وكان جميع ما يكتبه من أدويه وأدوات وقف أعرض لا يؤخر (وكان يزور المرضي كل يوم وكان المرضي يرقدون علي أسره مزوده بأغطيه وكان الممرضون هم الذين يمنحونهم الأودية عدة مرات كل يوم كما يقدمون لهم الوجبات الغذائيه للفقراء والأغنياء علس السواء . ولم تكن معيشة المرضي تختلف كثيراً عن معيشة مرضي اليوم وقد وجدت في تلك الأيام المنشئات خدمات خاصه هذا غير الصيدليات والمحال والمطابخ وغرفا للقراءة وقد عين أول مدير للبيمارسنانات في القرن العاشر الميلادي وكان يلحق بكل بيمارسنان اطباء وطلبه جراحون وأطباء عيون ومجبرون (١)

وكان يلحق بكل مستشفي مكتبة زاخرة بكتب الطب وغيرها بما يحتاجه الأطباء وتلاميذهم وكان لبعض الأطباء أنواع من العلاج هي من منكرات قرائحهم (وقد كان لهم من حسن الخلق والاناه والتسامح مع المرضي داخل البيماسنان الشئ الكثير والتدبير الحسن والغايه التامه براحه المرضي وكان طلبه الطلب يتلقون

---

(١) جاك ريسلر مرجع سابق ص ١٩٧ .

علومهم علي اساتذتهم اذ كانت تهيأ لهم الايوانات الخاصة المعدة المجهزة بالالات والكتب احسن تجهيز داخل البيمارستانات فيقعدون بين يدي معلمهم بعد أن تفقدوا المرضي وينتهوا علاجهم وان بعضا من مشايخ الطب وكبار رؤسائهم كان يعتقد لهم مجلسا عاما للتدريس بضاعه الطب للمشتغلين عليه في منزله أو في المدارس الخاصة . (١)

وكانت هذه المستشفيات اذا جيئ اليها بمريض يشكو علته يفحص أولا بالقاعه الخارجيه فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج ويصرف من خزانة السراب - الصيدليه - الملحقة بالبيمارستان . ومن كانت حالته المرضيه تستدعي علاجا طويلا كان يفيد اسمه في أول اجراء لدخوله القسم الذي يريد العلاج فيه ثم يدخل الي الحمام بعد أن تحفظ ثيابه وماله وتحفظ عند أمين البيمارستان ثم يلبس ملابس خاصة وتفرش له الأسرة باثاث جيد ثم يعطي الدواء الذي يصفه الطبيب المعالج ثم يكتب له الغذاء الموافق لصحته والمقدار المفوض له . وكان غذاء المرضي يحتوي علي لحوم الاغنام والأبقار والطيور والدجاج وكانت علامه الشفاء أن تأكل المريض رغيفا كاملا ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة فاذا أصبح في دور النقاهه ادخل القاعه المخصصه لامثاله

---

(١) عمر كحاله العلوم العلميه في العصور الوسطي ص ١١٠

من الناقهين حتي اذا تم شفاؤه اعطي بدله من الثياب جديدة ومبلغا من المال يكفيه الي أن يصبح قادرا علي العمل . وكانت غرف المستشفي نظيفه تجري فيها المياه وقاعاته مفروشه باحسن الاثاث وكان لكل بيمارستان مفتشون علي النظافه ومراقبون للقيود الماليه وكثيرا ما كان الامراء والخلفاء في مصر يتفقدون بانفسهم أحوال المرضي ويشرفون علي حسن معاملاتهم [١] ثم تعطي له امانته التي حفظها الامين في خزانه البيمارستان ومن حق المريض ان يتردد علي الطبيب المعالج الي أن يصبح سليما معافي . واذا احتاج المريض الي علاج خارجي مكن له الطبيب في التزود من الأدوية الموافقه لمرضه ويكتب في الرقاع تطورات العله وتلمس الحاله ان وجد تحسنا اعلمه وان لم يجد ذلك التحسن طلب منه دخول البيمارستان مرة أخري ولا يخرج منه إلا اذا برئ ومن المدهش حقا أن تتولي الدوله الاسلاميه في مصر عبر الأعصر المتتابعه بتكفين وتجهيز من وفاه الأصل وهو تحت العلاج بالبيمارستان فيصرف له الناظر ماتدعو الحاجه اليه برسم غاملته وثمن تكفينته رجلا أو أمراه وأجره حنوطه وعاقر قبره ومواراته علي السنة النبويه والحاله المرضيه ومن مات بين أهله وكان يعالج خارج البيمارستان صرف اليه الناظر أيضا في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله الي دفنه ومواراته في قبره

---

(١) مصطفي السباعي من روائع حضارتنا ص ٢٦

ما يليق به بين أهله . (١)

وقد أنشأت بعض البيمارسنانات التي تعالج المرضي المصابين بعلل عقليه وكان الأطباء داخلها يعالجون المجانين والمختلين بمحبة ورفق علي يد الأطباء اخصائيين في الأمراض العقلية يقول المرحوم العقاد (وكانوا يعالجون الجنون علاج الأمراض الطبيعيه وقد كان يسمي عند الأفرنج بالمرض الالهي أو المرض الشيطاني لانهم كانوا يحسبونه من اصابات الأرواح أو الشياطين(٢)

وكان المحتسب يأخذ علي الأطباء عهد القراط الذي اخذه علي جميع الأطباء ويحلفهم ان لايعطوا احد دواء مراولا بر كفاله سما ولا يصنعوا السمائم عند أحد العامة ولا يذكروا للرجال للدواء الذي يقطع النسل وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم علي المرضي وينبغي علي الطبيب ان يكون عنده جميع آلات الطب علي الكمال مما يحتاج اليه في صناعه الطب غير آله الكحالين والجراحين وللمحتسب ان يمتحن الأطباء بما ذكره حنين لمن اسحق في كتابه المعروف بمحنه الاطباء اما الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين في العشر مقالات في العين ممن وجده عارفا بتشريح العين وعدد طبقاتها السبع وعدد رطوبتها الثلاث وعدد أمراضها الثلاثة وامزجه العقاقير اذن له المحتسلب بالتصدي

(١) نفس المرجع ص ١٥٤

(٢) اثر العرب في الحضارة الاوربيه ص ٣٨

عداواه اعين الناس اما الجراحون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس في الجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح واعضاء الانسان ومافيه من المنصل والووف والشرايبين والاعصاب فيتجنب ذلك وقت فتح المراد وقطع المواسير ويكون معه دست المنافع فيه مبافع مدورات الرإس وماس الجبهه ومنشار القطع ومجرفة الأذن ومرهميدان المرهم ودواء الكندر القاطع للدم (١)

وكانت أهم البيمارسنانات المصريه في الفسطاط والفطائع والقاهرة تلك المدن العامرة التي عايشت أزمنه الخلفاء الراعدين والامويين والعباسيين والامراء الطولونيين والاخشيديين والخلفاء الفاطمين علي اختلاف ازمنتهم - ويأتي في المقدمه بيمارستان رقاق القناديل في احدازقه حديثه الفسطاط قبل أنه كان في الدولة الأمويه . وبيمارستان المعافر كان في خطه المعافر التي موضعها مابين العامر من مدينة الفسطاط وبين مصلي خولان التي بالفرافه وبيمارستان القشاشين الذي كان بالجراحين علي القرب من الجامع الأزهر وبيمارستان القصر الشرفي للخليفة الفاطمي وخواصه (٢)

وفيها البيمارسنان العتيق المشيد أيام الطولونيين وهو المعروف بالبيمارستان الأعلي وكان به حمامين للرجال والنساء منفصلين

---

(١) الشيرزي نهايه الرتبه ص ٩٧

(٢) ابن القطبي تاريخ الحكماء ص ٢١٢

ويوجد به حمام للمارسنان - لعلاج الأمراض العقليه - وقـــد شرط هذا المستشفي علي كل علل يدخل فيه (ان تنزع ثيابــه وتحفظ عند اببن المارسنان ثم يلبس ثيابا وتفرش له ويغـــذي وتعطي له الأدويه ثم يؤمر بالانصراف عندما يبرا وذلك اذا أكـــل رغيفا وفروجا ثم يعطي ماله وثيابه وقد ذكر ان مبالغ ما أنفقـــه احمد بن طولون عليه وعلي مستغله ستون ألف دينار ولم يكن قبـــل ذلك في مصر مارسنان قبله ولم يعالجوا فيه جنديا ولامملوكا وكـان مووســعه في أرض العسكر وهي الكيمان والصحراء التي تقع بيـن جامع ابن طولون وكون الجارح وفيما بين قنطرة السد التي علـــي الخليج ظاهر مدينة مصر وبين السور الذي يفصل بين القرامـــة وبين مصر ثم المارسنان الاسفل ولمان فيه من الازيار والصينـــي والبرافي والقدور والنحاس والهوادن والطـــوت وغير ذلك ونقـــل اليه من المارسنان الاعلي أضعاف ذلك وقد بني بالفسطاط سنـــة ٣٤٦ هـ وقد بناه الخازن الذي عمر المقياس بالاهراء في عهـــد طافور الأخشيدي وقد عمر معه ميقاتين المرسومه احداهما بسبيـــل السدني والسقايه والحمامين المعروفين بحمامي بوران . وقد وقفـت عليه اموالا ضخمه من جمله مايبني من قياريه ودور وحوانيـــت تصرف عليه البيمارسنان الأسفل . (١)

ولانتطن ان الاهتمام الطبي كان متركزا في المدن المصريـــه

(١) البيمارستان في الاسلام ص ٧٤

الزاهرة وانما خص الامراء والخلفاء اهل الأطراف والقـــــري بالقوافل الطبيـه في البلاد المتعدده علي طول الوادي اعلاه وأدنـاه وأصبح البيمارستان المتنقل مجهزا بجميع مايحتاجه المرضـــي من علاج وأطعمه وأشربه وملابس وأطباء وصيادله وكان يتنقل مـن قريه الي قريه في الأماكن التي لم يكن بها بيمارستانان ثابتـه . وكان أفرادها يرحلون علي الأبل والخيل لمداواه المرضي وقـد يصلون الي أماكن الجيش الرابض وتقوم بالمعالجه أطباء مخصوصين وتطبيب قوافل الحجاج والمسافرين ، وكان الأمراء يرسلون الادويـة الي الأماكن التي ليس فيها بيمارستان فتوزع علـــي المحتاجين اليها من الناس وهناك البيمارستان المتنقل الـــذي يعالج المساجين في الحبس حيث يطوف عليهم أطباء في كل يـوم فيعالجون مرضاهم بالادويه اللازمه هذا فضلا عن محطات الاسعـاف التي كانت تقام بالقرب من المساجد الجامعه والأماكن العامـــه التي تزدحم بها العامه في المدن والمحتشدات .

الأدويه المستعمله في تلك الآونـه :

وقد كان من دواعي الفخر أن يلحق بكل مؤسسة علاجيـــه تنشأ بمصر (خزانه شراب) صيدليه يقوم بادارتها رجل حكيـم جربته الصناعه وحنكته التراكيب للعديد من الأمراض والعلـل المنتشرة في زمانهم وقد حفظ لنا التاريخ العلمي في فجر الفسطـاط

والقاهرة أسماء العلماء النباتات والكيمياء الذين قدمـــــوا خدماتهم الجليله لأبناء الوطن للقضاء علي العلل المتفشيـــــه وابراء المرضي علي وجه التخفيف . وقد كانت تلك الأدويـــه التي كانت تحضر داخل خزانه الشراب تقدم للعامه مجانـــا وكانت الحكومات الاسلامية في مصر تنفق جزاء هذا العمل الخيـــر مئات الألوف من الدنانير . وقد شملوا تلك الأماكن بالرعايـــة الدائمة فوضعوها تحت المراقبه الدوريه والتي كان يقوم بهـــا المحتسب ذلك الموظف الصادم الذي لايـورع في انزال العقـــاب الفوري لكل متجاوز من أرباب مهنة الصيدله وتحضير العقاقيـــر النباتيه . وقد اتخذوا القوانين الخاصه لتركيب الأدويه حتـــي تظل المستحضرات الطبيه وافقه تحت المراقبه المشدده وقصـــدوا من ذلك أن ينفقوا الساحه العلميه من ادعياء العلم والجهلـــه الذين يسيئون الي مهنتهم عند اهتزاز الثقه بهم وباعمالهم . وقـد كان المحتسب خبيرا بمعرفة خواص النباتات ولذلك كانـــت مراقباته الدوريه لخزانات الشراب تمنع من داخل الغش علـــي الأدويه المركبه من مزيج معلوم لديه وكان فحصه يشمل أنـــواع الشراب والدهونات والمراهم والعطور والزقاق والمياه المقطـــره والمواد الكيماويه كالراوند والجوز المقيئ والكافور تقول كتب النظم ان المحتسب كان يوالي تفتيشه علي الصيادله (لأن تدليس هـــذا الباب كثير لايمكن حصر معرفته علي التمام فرحم الله من نظر فيه

وعرف استخراج غشوشه فكتبها في حواشيه تقربا الي الله تعالـــي فهي أضر علي الخلق من غيرها لأن العقاقير والأشربه مختلفـــه والطبائع والأمزجه والتداوي علي قدر امزجتها فمنها مايصلـــح لمرضي ومزاج فاذا اضيف اليها غيرها أخرجتها عن مزاجها فاضرت بالمريض لايحاله . فالواجب أن يرقبوا الله عز وجل في ذلـك وينبغي علي المحتسب ان يخوفهم وينذرهم بالعقوبه والتغرير بعـد فحص عقاقيرهم كل اسبوع (١) .

وقد كانت الطريقه المتبعه ان الطبيب يكتب الدواء المناسب علي رقاع ترسل الي خزانه الشراب ليقوم الموظفون العاملون داخل الصيدليه بتحضير العقاقير المطلوبه وفق العله المكتوبه في الرقعــه الطبيه والمتتبع لاسماء تلك العقاقير يجد أن أطباء مصر قــد عالجوا جميع الأمراض التي تصيب الأنسان . وانهم لم ينحلــوا بمجهوداتهم في نتائج الملاحظات العلميه للحالات المرضيه التـــي كانت تعرض عليهم في مؤسسات العلاج الحكوميه وقد افرغوا محصله تلك التجارب المعمليه والملاحظات المنقبه عن العلل نغيه البـــرء المتوقع في عده مؤلفات قيمه زخرت بها مكتبات البيمارستانـــات والصيدالنيات المتعددة فاصبحت تلك المراجع الضوء اللامع الـذي اثار السبل للمشتغلين بالمهنه واتساع البهجه في قلب من به مــرض وقد حوت تلك المؤلفات الطبيه علي كثير النـــادر من النباتـات

(١) ابن الشيرازي نهايه الرقبه في الطب الحسنه الباب السابع ص ٨٧

المستخلصه والاعشاب الموافقه لعلاج امراض محدده . وكانت لتقديم علم الكيمياء اثر بالغ في تقدم الصيدله بمصر فاصبحت التركيبات الكيميائيه المستعمله والمكونه من مقادير دقيقه للراوند والجوز المقيئ والسليخه والسنامكي والتمر الهندي والقرمز والكحول والمياه المقطره والسم في حالات خاصه والطاقور وغيرها تحظى بالاهتمام الطبي والدراسة المعمليه المتأنيه . ولا يمكن أن تغفل جهود العلامه المصري النابغه (ماسويه الماريديني) المتوفي سنة ١٠١٥م والذي كان من مشاهير المؤلفين في هذا الفرع العلمي الخصيب وبين خيره الصيادله في العصور الوسطي علي الأطلاق قد درس في (دار الحكمه) علم النبات فاستفاد من خبرته الواسعه طلبه العلم وأطباء العصر علي الأطلاق حيث أمكن له استصاء العقاقير اللازمة لعلاج الأمراض المتفشيه والتي كان له فيه مجهودات مشكوره لنتائجها النافعه . وكانت ملاحظاته الباهره في توصيف الأدويه وترتيب مخلطاتها من خلاصة الاعشاب النباتيه ونتاج للمزروع كالمشروب والمدهون والمقطر واللاحق ـ قد شدت انتباه المدارس الأوربيه فيما بعد وقد شهدت له المراجع الأجنبيه بالتفرد والنبوغ وبينت أن مؤلفاته العلميه قد طبعت حوالي خمسين طبعه ففي أزمان متقاربه . وقد عرفته جامعات بيرن وليدن ولازال البعض من تلك المؤلفات تدرس الي قرن سلف . كما تزخر مكتبات لندن والاسكوريال والقسطنطينيه بالجليل المفيد من تلك المؤلفات

التي كتبه العلامه المصري الي يومنا هذا ٠

ولا يمكن أن ننسي فضل وجهود العالم الـ..عي أبي عبدالله بن يعقوب التميمي صاحب كتاب (مادة البقاء د/ صلاح فساد الهواء والتحرر من ضرر الاوباء) وكتاب مخلص النفوس) في النباتات الذي عاش في آواخر العصر الأخشيدي وقد شهد فترة وصول الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي اعجب بمصنفاته وقربه وانزله مكانه عليا في بلاطه ٠ وقد أوردت ابحاثه الملمه فيض المعلومات النباتيه ذات التراكيب الطبيه وقد اعتبره علماء الحضارة (حجه لمن اشتغل في ميدان المستحضرات الطبيه ٠) ومما يذكر في صفحة علمنا التميمي تحضيره للعقاقير المعدنيه والحيوانية وقد اتقن تركيب الأدويه عن طريقهما وقد انكر العديد من الأدوات التي تذيب ما استحسن من الأجسام المستخلصه منهما وقد اشتملت مؤلفاته علي الملاحظات المؤكده القائمه علي التجربة والمستنبطه من واقع الاختبار والمنبثق من المعرفه الحسيه الظاهره فقد طوع ماء الفضة والبوتاسيوم وحامض النتريك وحامض الكبيرتك وروح النشادر لخدمة الانحراض الطبيه وقد قال في كتابه الشهير (مخلص النفوس) هذا تريان الفته في القدس واحكمت تركيبه مختصر نافع الفعل دافع لضرر المسمومات القاتله المشروبه والمصبوبه في الابدان بلغ ذوات السم كالافاعي أو لدغ الرتيلات والعظايات حجرب ليس له مثيل ٠

والجدير بالذكر ان مصنفات الطب المصريه كانت تـدرس ويجري التجارب علي حقائقها في المحافل العلميه العربيه في بغداد وانطاكيه والرها وقرطبه وحلب وغيرها من الحواضر المزدهره والتي كانت تنيه بالحكمه والعرفان . وأصبح الاعتماد علي خلاصة ماانتجه قرائح علماء مصر المشهورين وأطبائها المبرزين . بعد أن عرفت تلك المنارات العلميه ان رمضات تلك الجهود لم تقم علي محض التخمين أو مجرد طلاسم اصطلاحيه جامده . وانما تابع علماؤنا تجاربهم الصحيحه بالمزيد من الممارسة الحقه لتلك المهنه الجليله التي تتطلب التروي والحلم والجلد والفهم الواعي والادراك الصحيح لأمر العلاج المناسب للامراض والذي صادف النجاح في حقول التجارب المعمليه فمن ذلك انهم قد توصلوا الي أدويه ودهونات ناجعه في هذا السبيل (واستعملوا السكر ونقلوه علي العسل فأدي ذلك الي الكثير من المستحضرات الصحيه المقبوله وبالسكر ركوبا الاشربه والجلاب ومربات الأعشاب والفواكه واللعوق [(١)] وقد برع الأطباء في مصر الأسلامية في علاج الشعر وأحواله والأمراض الجلديه بمراهم ودهونات غايه في التأثير والفعاليه حتي قضوا علي أسباب تساقط الشعر وعملوا علي تقويته كما توصلوا الي أدويه مهمه لادواء الشقاف والسعفه الرطبه والحزاز

(١) حيدر بابات . مجالي الاسلام ص ١٤٣(.

والثعلبه وابتداء الصلع وعلاج تعجيل انباته وكذا (الأمـــــــراض الحادثه في سطح جلده الوجه المكلف والقوابي والنمش والقـــــروح والتآليل والعدسيات فيه وسائر ماينقي البشمه ويبسط جلده مــــن الغسولات والقمر . وفي أنواع الصداع العارض من البرد والحـــر والرطوبه واليبس والامتلاء والخواء وأنواع الشقيقه ومايمنع التجـــار الذي يحدث عنه هذا التصاعد الي الرأس ومايقويه حتي لايقـــــل مايرتفع اليه ومايتبقي الدباغ من الادويه ومايزكي الذهن وما يخص نفعهـا للدماغ من الأغذيه وما يضره من ذلك . وعلاج أمـــــراض السكنه والفالج والتشتج واللقوه والخدر والرعشه والخوانيف ومــــن يتخلص من خناق السد والغريق اذا تخلص وأمراض العين والأذن والفم وعلاج البخر والهاه وأمراض الكبد والطحال وأنواع البرقـــان وأوجاع المفاصل والنقرس وعلاج أمراض النساء والاستسقاء والحرارة وادرار العرق وحبسه . والنزلات والسعال وسائر أوجاع الصـــدر والقلب وأمراض المعدة وأنواع القولنج (١)

وقد نجح الأطباء المصريين في إظهار براعتهم من خلال الأبحاث الدقيقه والتشخيص الموفق في معالجه (حمي التيفود باستعمال المـاء البارد وامتصاص النبات لبعض الأدويه ومعالجه غشاوة العين بمقـــص العدسه وانحرافها وصب الماء البارد لقطع النزيف واستخدمــــوا

(١) ابن القفطي اخبار الحكماء ص ٥٧

المرقد - البنج - الذي ظن أنه من مبتكرات العصر الحديث وذلك باستعمال الشيلم لتنويم المريض قبل العمليات المؤلمه حتي يفقد وعيه وحواسه . (١)

وقد عالجوا الأمراض العقليه علاجهم الأمراض الطبيعيه وقد استقطب كثيرا من اهتماماتهم وقد أنشئوا المصحات الخاصة لعلاج مرضي الجنون بمدينة الفسطاط اواسط القرن الثاني من الهجرة وسدوا سائر العلاجات الموصلة للشفاء وتفوقوا في ذلك (وقد مارسوا التلقيح ضد الجدري وكانت طريقتهم الفنيه تختلف عن طريقه العينين وكان التلقيح يتم عن طريق فتح جرح في الجزء البض من اليديين الابهام والسبابه وكان الجرح يدلك مفتوحا بمساعده جمره أو جمرتيين بدرتيين . (٢)

أما الجروح الناشئه في سائر الجسم فقد جسموا المتقيح منه وطهروا المتعفن الظاهر اهماله وعالجوه بأوراق معروفه وذلك بان (تحمل في أول الأمر علي النار وتوضع ساخنه بحيث يكون من الممكن تحملها وذلك في حالات الرضوض واضطرابات الجروح والالتهابات والاوذيما من كل نوع وكان يستخدم العلاج نفسه في تيسير سيل القيح من الدمامل والقروح والخراريج ويحضر للشفاء التام لخرافات اساسها مسحوق الحناء وهو علاج له قيمته بخاصة في

(١) جوستاف ليبون حضارة العرب ص ٥٩٥
(٢) ريسلر . مرجع سابق ص ١٩٤

حاله الالام العصبيه والجروح المتدليه سواء أكانت ذات تكوين متقيح أو كانت بدونه [١].

وقد سبقوا عصرهم في معالجة الماء الأزرق بواسطة تنزيل عدسة العينين واقفوا نزيف الشرايين الشعرية بالماء البارد كما استخدموا نسيج العنكبوت في جسم النزيف الدم السطحي كما توقعوا لكلي المناطق العليله بالنار باهره خاصة في الأمراض المستعصيه كما عالجوا أمراض الأسنان وتسوسها وتخلصوا من الخراريج الكامنه في اللثه ولإمراض الروماتيزم ،والالتهابات المفصليه بالكلي بمسامير رفيعه ملتهبه بالنار وكانت (بعض الحميات تعالج بعشب يطلق عليه تمورارض أو بمستخرجات من أعشاب تسمي اجلوبولوريا . وكان مرضي الحصوة يعالج عن طريق حقن مستخرجه من جذور مخففة ومسحوق من نبات الرنس وكان الأسهال يعالج بمسحوق البذور والجدري للقضاء عليه كان المريض يتناول من ست الي ثماني حبات من القرمز مخلوط بشئ من العسل واذا حدث مرض الطاعون الفاتك فانهم بعد الابتهال الي العناية الالهيه يطلبون من المريض والصحيح أن يتناولا كل صباح حبة أو حبتين أثناء وجود العدوي من التركيب الآتي : قطعتان من المر قطعة واحدة من الزعفران وقطعتان من الصبر وشراب من حبوب المر . كما انتفعوا من البنسليوم - عفن الخبز -

(١) المرجع نفسه ص ١٩٦

ومن العشب الفطري وكانوا يستعملونه على شكل دهونات لعلاج الجروح المتعفنه [١]

الالات المستخدمه داخل قاعات البيمارسنانات :

لم يزل العدل العلمي لاينكر لأطبائنا مبتكراتهم في فروع الطب المختلفه خاصه مايدخل منها في صميم العمليات الجراحية وذلك من خلال استخدامهم الأدوات الطبيه مصنوعه لاجراء تلك العمليات علي الوجه الأكمل حتي كان لكل عضو بالجسم العليل جراحه وآله مبضعيه أو جبريه أو موسعه أو مساعده أو مبردة أو كاسره أو مشبكه تلاحظها شامله من قمه الرأس نزولا ال الصدر والاحشاء والأطراف ثم الأجزاء الدقيقه والاعضاء الغافله في الجسم . واعتقد ان اعظم ماساعد في انجاز تلك العمليات بالصورة المثاليه المنقوله الينا هو استصناع المادة المخدرة التي كانت فعاليتها وتأثيرها رحيما بمن يعالج من أمراض تستوجب عملا جراحيا . وكان المرقد مختلف تكل الأختلاف في تلك المشروبات المسكرة التي كان الهنود والرومان يجبرون مرضاهم علي تناولها كلما أرادوا تخفيف آلامهم القاسيه . وكانت الطريقة المتبعة للتخدير تتلخص في (وضع أسفنجه مخدرة في عصير من الافيون والبنج والزوان ثم تخفف في الشمس وتحفظ وتبلل الاسفنجه قبيل استعمالها للتخدير ثم توضع فوق الأنف أو الفم

(١) حيدر باءات مرجع سابق ص ١٤٤ .

فتمتص أنسجه المريض المخاطيه المواد المخدرة فيركن المريض الي نوم عميق بقية الوقت التي تجري فيه العمليه الجراحيه دون أدني شعور بالألم ٠ (١)

وتساعد الأدوات الطبيه المهمه الساميه التي يقوم بها الجراح في استئصال أو إجراء العملية التي يقوم بها في قاعه البيمارستان العامل ٠ في خفه ومرونه ٠ والتي نخرج بعدها وقد أزيل أسباب الألم وبعد اساغ برود البرء عليه نهائيا ٠ وقد كانت التخصصات تتزاحم داخل القاعات الطبيه ٠ (وقد تشعبت فروع التخصصات في كل منها فريق من الأطباء ٠ فالطبيب هو الذي يختص باسم الطبائعي وبمروده وهو الكحال وبمنضعه وهو الجرائحي أي الجراح وبمدسه وهو الخاتن وبرشته وهو الفاسد وبمخاجمه وهو الحجام وبقربته وهو الحاقن ٠ وبخلعه ووسيله ورباطه وهو المجبر وبمكواته وهو الكواء ٠ بل زاد التخصص ليشمل طب الأسنان والتوليد والنساء والأطفال والعيون الي أن تخصصوا في طب الأمراض النفسية والفعليه (٢)

ان الالات الطبيه قد وجدت من عنايه الابتكار العلمي العلمي ماقدمت خدمه للانسانية مع توالي التطورات التي تكشف عن جديد جليل الانسان المكرم من قبل الله العزيز الحكيم

---

(١) احمد عيسي البيمارستان ص ٥٤

(٢) توفيق الطويل العرب والعلم ص ٤٥

ان تلك الالات تشهد للكفاءة الطبيه بمصر ماكان لهـــا من شأن عظيم وعقليه فاقت أقرانها في الأمم الأخري الغربيـــة في ذلك المجال ويكفي شهادة الاثار الباقيه من تلك المعـــدات فعلا عن المخطوطات القيمه والمزوده برسوم توضيحيه لذلك الآلات الجراحيه مما تبرر دليلا علي هذا التفوق العلمي والتي كانـــت الاساس التي بنت عليه المدارس الطبيه معلوماتها والمرجع الاميـل عند ممارسه تلك المهنه في الشرق والغرب علي حد سواء .

ولعلك واحدا لكل عضو بالجسم الآله الجراحيه المناسبـــه لعلاجه الحاسم في هذا الثبت (١) الشافي المقدم

١) (مبقع) يستعمل لأغراض الورم ومتجمعات الدم والصديد الـذي يستأصل أو يفرغ مافيه وهو حاد من ثقيه .

٢) مبضع آخر لقطع اللوز المتضخمه وهو معطوف الطرف حـاد مـــن الطرف العامل غير حاد من الطرف المقابل .

٣) (أنبوبة) لاخراج المتولد في الأذن وهي ضيقه من أسفـــل موسعه من أعلي ويدخل الطرف الرقيق منها في الأذن بقـــدر ما يطيقه المريض ثم يسغط مابداخل الأذن يفعل ذلك مـــراراً حتي يخرج جميع الدود الكائن بالأذن .

٤) (بـ يد) وهراله كالمسبار ومهمتها التخلص من تجمعـــات الاورام والخراجات والفواصير مصنوعه من نحاس اصفر أو مـــن

(١) بتصرف من كتاب العلوم العمليه في العصور الوسطي لعمر كحاله

فضة وتصلـــح لسير المواسير التي يكون في غورها تقرح ·

٥) (مرود الكلي) طرفه كالملعقه يملأ بالدواء الكاوي لعـــــلاج اللثه بالكلي ·

٦) (اله اليزل) وهي عبارة عن انبوبة من فضه مصقوله لها فـــــي أسفلها ثقب صغير وفي جوانبها ثلاث ثقوب وغرضها بزل الماء الزائد من الجسم ·

٧) (مدس) وهي آله لجس واستقصاء الاورام تؤخذ هذه الآلـــــه فتغيب في أرطب مكان ثم تدار بواسطة الاصابع قليلا قليـــلا ثم يرجع المدس ثم ينظف ماعلق به من أنواع الميكروبات ·

٨) (آله الالتقاط وهي الاستنباط مايعلق بالفم من شوائب وأشـــواك أو أجسام غريبه مضايقه للمضغ أو البلع وهي طويله رفيعه فـــــي نهايتها تقوس تساعد الطبيب في تنقية الفم مما فيه من الشوائب المقلقة لمريضـه ·

٩) (تمتله الاسنان) وهي نعرض التخلص من بقايا ضرس قـــــد نكسر ولها شقين قويين للضغط منها علي الضرس أو تحريكـــــه أو التخلص منه اذا بقي من جذور الضرس جزء متبقي ·

١٠) (مقص طبي) ومهمته قطع مايزيد من الجلد أويستعمل فـــــي عمليات الجفن والشفه ·

١١) (طير الــــــد) وهي آله توضع علي العرق النافر بالجبهـــــه لقصـد الدم الزائد بها ·

١٢) (جبيره) وهي جهاز يبعد لشد العضو المكسور ليلتئم وتكـــون الجبائر من خشب الغرابيل أو جرائد النخيل . والجبائـــر التي توضع علس الكسر عادة ما تكون اغلظ واعرض من سائـــر الجبائر وطولها يكون حسب العضو من كبر وصغر .

١٣) آلات عمليات العين) وهي مايستعمله طبيب الكحاله لازالـــة أمراض الرمد مثل المقص ومقرص بشفرته طولها مقدرا مايقطع من الجفن ومقراض للفظ الســبل من الاكليـل وضنانير لعلــك السـبل ورده لقطع نتوته الجفن والسلعه وهي لقطع قوته الملتحمــه والاسه لكشط مايراد ازالته من طرف الجفن .

طبيب الخـــواص :

وهو من مبتكرات الدوله الفاطميه في مصر . حيث كان طبيبــا ماهرا في مهنته يجلس علي باب دار الخلافه كل يوم علي الدكــك التي بالقاعه المعروفه (بقاعه الذهب) وقد كان يختار ممـــن جمع بين فضيله الداب العلمي لدراسه الطب وبين ممارسته لهـــذه الوظيفه الساميه وحقق فيها شهره وذيوعا وقد سجل في صفحـــات الطب تاريخا يشهد له بان يخلد اسمه ويحقق له بمقتضي ذلـــك أن [illegible] من صفوف عامه الاطباء الي مصاف الخواص الاعـــلام الذين يتشرفون بالجلوس في مقام التكريم لطبيب لقصر الخلافـــة وهي أعلي رتبه يمكن أن ننالها عالم بالطب في تلك الأونـــه . فعندما يسند الخليفه الفاطمي هذا المنصب الي أحد الأطبـــاء

المبرزين كان يعتبر مرجعهم الثبت في هذا الفن . وقد كان الخليفه يكلفه بعقد امتحانات دوريه عمليه لاطباء البيمارستانات في أحوال خاصة . وكان يلحق بمناحه الخاص الذي عمل له في عهد الظاهر لاعزاز دين الله الخليفه الفاطمي الرابع خزانه الشراب فيها كل ما يحتاجه من أدويه يمكن أن يستعملها لغرض العلاج فضلا عن ادوات الطب المختلفه التي زودت بها حجرته التي كان يمكث بها علي كامل الاستعداد لاي طارئ يحدث للخليفه اثناء انعقاد مجلسه في أوقات النهار أو أجزاء من ليله . وكانت المهمه للخليفه ولذويه جميعا وللجواري والامراء فيعالجون داخل القصر . وكان لثقل المهام المسنده الي الطبيب الخاص لكثرة رجال القصر والحاشيه والاعداد الغفيره الحاكمه فقد احتاج الي معاونه جهات كامل من الاساتذه المهره من زملائه الاطباء الذين يختارهم للعمل معه تحت اشرافه ووفق مشورته (اذ كان دونه أربعة أطباء أو ثلاثة فيسرع الاستاذون الخدم والطواشيه فيستدعون منهم من يجدونه للدخول علي المرضي بالقصر لجهات الأقارب والخواص فيكتب لهم رقاعا علي خزانه الشراب فيأخذون ما فيها وفق الرقاع عند مباشريها . (١)

وهناك رأي في أن الطبيب الخاص كان يقوم بمعالجة الخليفة ف

---

(١) المقريزي الخطط جـ ١ ص ٨٢

فقط أما اجراء العلاج وتضميد الجراحات ووصف الاشربه للأقارب والحاشيه الموجودين بالقصر كان يقوم بها ويتولاها الاعوان -- الثلاثه أو الاربعة - من الاطباء - نيابة عن الطبيب الخاص الذي كان يتقاضي رانيا جاريا علي الرسم خمسين دينارا كل شهر . (١)

وقد يحتاج الخليفه الي هذه الفئه من الأعوان عند عجز الطبيب الأول فقد يكون من بين هؤلاء من يقدر علي تعيين المرضي وتشخيصه ووصف العلاج الناجح في رقته . وإذا المتألم الخليفه نفسه قام الطبيب الأول علي الفور ليؤدي مهمته كامله وقد يطلب أحد المساعدين من الأطباء الموجودين وان كان الشاكي غير الخليفه بعث من يطلب طبيبا من أحد أعوانه الأربعه وقد تقوم بالمهمه هو عند عجز طبيبه المناوب وقد توزعت الأطباء في القصر لشئون الطب حتي لاينشغل الطبيب الخاص بأمر الغير دون الخليفه . وقد يقف هذا الجهاز مع تكامل عدده عاجزا أمام مرض مستفحل للخليفه وقد تعييه الحيله امام مرض داهم فعندئذ لامضر من طلب طبيب آخر من خارج القصر للاستناره برأيه فيما عجز فيه الأطباء الخليفه من علاج المرض وحصر الداء لعدم معرفتهم لخواصه واستسلامهم امام استفحاله ولعدم معرفتهم باستخلاص الذي يتوصل من خلاله ابراء المرض الذي يعاني منه الخليفه من

---

(١) ابن القفطي اخبار الحكماء ص ٨٧

ذلك عندما اصيبت قدم الخليفه الفاطمي الثالث الحاكم بامر الله بعقر مزمن ولم يبرا منه مده مع ان الطبيب الخاص متصوريين مقشر وغيره من الأطباء الخصوصيين كانوا يبذلون الجهد لعلاجه والسهر عليه ثم مالبث ان فكر المحيطين بالخليفه ان يحضروا له طبيبا يهوديا مصريا مغمورا يرتزق من مداواه الجرحي وموالاه جراحاتهم نظير اجز زهيد (١) وقد نبغ في ذلك ودخل هذا الطبيب الي القصر الفاطمي وطبيب الخليفه وزجع علي الجرح دواء يابسا فشفي الخليفه بعد ثلاثة أسابيع فانعم عليه الحاكم بجائزة ماليه قدرها ألف دينار ولقبه بلقب - الحقير النافع - وكان الطبيب يتشرف به ويجعله من مفاخره بين أطباء عصره بعد أن كان جراحا خاملا . (٢)

وقد نال الطبيب النصراني اسحق بن نسطاس مكانه لم ينلها أحد قبله حيث كان فاضلا في ساحه الطب وكان دائما في خدمة الخليفة العزيز بالله وابنه من بعده وكان عاملا في طب الحواص معتمدا عليه في أمر الطب فكان حجه في مدارسته وعقد الامتحان للاعوان الطبيين وقد نال ابن نسطاس الخطوة والمكانة العليا علي الرغم انه كان من اهل الذمه في دوله تقدر العلماء وتنزلهم المكان اللائق بالمبرزين الافذاذ وقد نال درجة ساميه .

(١) ابن أبي اصيبعه مرجع سابق ص ٤٤

(٢) ابن القفطي تاريخ الحكماء ص ٢٧

قد أصابها هذا الطبيب حيا وبعد مماته بسبب مواقفه وملاحظاته الطبيه للخلفاء وأسرهم مما كان لها أكبر الاثر في هذا التقدير اذ لما توفي هذا الطبيب النصراني شيعت جنازته يوم الأحد بعد الظهر وبين يديه خمسين شمعه موقده وعلي تابوته ثوب متقل وخلف جنازته كبار المسيحيين كالطبيب ابن مفشر والمطران ابن أبي السيد وسائر النصاري . وقد صلي عليه في كنيسة الروم بقصر الشمع طول الليل ثم دفن بدير القصير (١)

رئيس الاطباء :

وهي وظيفه رفيعه المنزله عاليه المكانه بين الخواص والعدام حيث كان متوليها يحكم طائفه الأطباء جميعا ويأذن لهم في مهنه الطب ويعقد لهم الامتحانات الدوريه . ويتولي امدادهم بالمصنفات المهمه والمراجع الحكميه المتعدده الفائده والتي تكون في العادة من وضعه أو من تأليف غيره من أعلام عصيره أو ممن سبقه من نوابغ هذا الفن يقول عنه القلقشندي (ان درجة رئاسة الطب في الدرجة الأولي وهي تعادل درجة المجلس - الوزارة - وموضوعها التحدث الي الاطباء والكحالين ومن شاكلهم ولا يكون الا واحدا وفي المرتبه الاولي رتبه المجلس العالي وهي من الوظائف الصناعيه العظيمه (٢)

(١) عبد الرحمن زكي تراث القاهرة العلمي والفني ص ٢٠
(٢) صبح الاعشي جـ ١١ ص ٤٧

وقد كانت له مهمة الاشراف علي البيمارستانات العامه التي عدت ككليات الطب في عصرنا يختلف اليها الطلاب للتزود من المعارف التي كانت تدرس في البدايه في احدي قاعات تلك المؤسسات الطبيه ثم عمليا مع العديد من الحالات المرضيه داخل البيمارستانات في فروع الباطنيات والجراحات والعيون وقد كان رئيس الأطباء يطلب من الاطباء لكي يكونوا حكماء من نوابغ ان يلموا بحقائق الفلسفه الحكميه واللغه السريانيه والفارسيه واليونانيه والسنسكرتيه . الي جانب ادراكهم للمعلومات الطبيه نظريا وعمليا . فقد كان الرئيس يحرص علي ان يكون أطباء البيمارستانات أوعيه خير لجميع التخصصات الطبيه ويوزعهم علي الانشطه المتعدده لكي يصبح الواحد ثبتا متمكنا في طب الجراحه والعيون والحجابه والتوليد والاسنان والأطفال والعظام ويجري العمليات التي تتطلبها الحالات المرضيه داخل قاعات البيمارستانات العامه كما كان الرئيس يتولي نفسه مراقبه الأطباء في تشخيص الأمراض وكتابة الأدويه علي الرقاع فان وجد نبوغا في فرع من تلك التخصصات لدي هذا الطبيب أو ذاك عقد له الامتحان الشامل في التخصص الذي يبقي العمل فيه . ومما يجدر ذكره ان رئيس الاطباء كان يؤكد عند المعلمين والدعاه في المساجد معاني الوقايه من المرض قبل وقوعه وذلك (بالارشادات الصحيه الصحيحة وذلك بالملاحظة التي تستهدف الصحه من الاصحاء وهو جانب وقائي

والذي يعرف اليوم باسم (علم الصحه) لان الوقايه من الأمـراض اهم من مداواه المرضي وأكثر نفعا . (١)

ومن أشهر من تولي رئاسة الطب المصري الطبيب النابغـة علي بن رضوان وهو من علماء الطب والعاملين في مقله ولـه مؤلفات غايه في الدقه والتطبيق العملي وهو مصري المولد من الجيزة وقد نشأ فقيرا معدما وأصبح بفضل مابذله في هذا الميدان مـن جهد وافر واجتهـا وظاهر رئيس الاطباء لثلاثة من الخلفـاء الفاطميين الحاكم والظاهر والمستنصر . ولد سنة ٣٦٤هـ وتدل تلك الكتب والمراجع النفيسه التي تركها في صناعه الطب علي سعـه المامه بهذا الفرع الجليل ويبرهن علي طول اناته وسعة فكـره واصطلاعاته التي لاشكر له ومن الجدير بالذكر أنه لم يعتمد فـي مؤلفاته ومصنفاته إلا علـي التجريب والملاحظه المعمليه التي مـارس الجانب الاكبر فيها في بيمارستانات مصـر فلم يعتمد علي نقـل أوشرح من سبعة من أطباء الحواضـر الاسلامية . بل كان متحـررا من قيد الفكره المسبقه . اعتمادا علي أعمال الملاحظه المدققـه . فكانت مؤلفاته خلاصه فكر وابتكار مشفوع بالجهد الدائب قال عـن نفسه (واجعل ثيابي قرينه بشعار الاطباء والنظافه وطيب الرائحة والزم الصمت وكن اللسان عن معايب الناس واجتهد الا اتكلـم الا

---

(١) حيدر بابات مجالي الاسلام ص ٨٧

بما ينبغي واتوقي الايمان واساليب الاراء واحذر العجب وحب الغايه واطرح الهم والاغتمام لاحلف ولااتسلف الا ان اضطر الي ذلك واقتصر علي خمسة كتب من كتب الأدب وعشرة كتب من الشرع وكتب القراط وجالينوس في صناعة الطب ومثل كتاب الحشائش لديستوتونس وكتب روتس واربياسدس وبولس وكتب الحاوي للرازق وكتب ارسطو طاليس وافلاطون والاسكندر ومحمد الفارابي ومن كتب الصيدله والفلاحه اربعة كتب ومن كتب التعليم المجسطي ومداخله وما انتفع به فيه والمربعه لبطليموس (١) وقد لازم العلماء وناظر في العلم وتعلم واحترف صناعة الكلم والتصنيف ليقتات ويشتغل بالاعمال التي تحقق له الكسب المناسب وحاوله الذكر الحسن والسمعه الطيبه حتي سمع به الامراء المقدمين والخلفاء الفاطميين فاستقدموه وقربوه بعدما استحسنوا اعماله وجعلوه رئيسا للاطباء عن جداره فائقه حيث وهبه الله عقليه ملتقطه مبتكره وواعيه مستنطه قد تتلذ عليه العديد من طلاب العصر واخذ عن مصنفاته الكثيرين من المهتمين بالعلم ونشاطه .
وقد كان خط ابن رضوان متوسط يشبه خط الحكماء واصحاب العبقريات يبين الحروف فقط وكان يشغله تشكيلا حسنا صحيحا يدل على صخرة من فنون اللغه وكان يكتب لنفسه مؤلفاته ولايمليها علي أحد وفوق جهوده في الطب له كتب في أحكام النجوم وقد شرح

(١) ابن ابي اصيبعه عيون الانباء بطبقات الاطباء ص ٩٩

فيها الاربعه لبطليموس هذا عدا قراءاته من الاقاويل النجوميه والالفاظ المنطقيه المترتبه والمنتظمه باحكامه . (وقد كان لرئيس الاطباء المصري مع الطبيب النصراني البغدادي ابن بطلان مجالس ومحاورات وطرح اسئله ومحاجه فلم يكد احدهما يخط مؤلفا أو مصنفا الا يكون الآجر مفيد مضمونا رادا عليها برايه وفكره واجتهاده وقد طلب ابن رضوان من صديقه الوفي ان ينزل ضيفا علي مصر فجاء الي منزله بالفسطاط ولكن ابن بطلان خرج منها غاضبا حافقا علي الطبيب المصري ولم يعد الي بغداه بل وصل الي انطاكيه يتجرع غصص المراره والاسي حتي توفي باحداديره المدينه . (١)

اما مطانته العلميه التي تبوأها عن جداره فقد مكنته من ان يحتفظ بروح العالم التي تسمو الي مرتبه الانتقياء والزهاد الذين لاتفرقهم معميات الماده التي لو طلبها لدامت له . ولو صار عبد لها ما احتفظ مما هو فيه من سعة الفضل وبذل الجهد وكثرة التصانيف التي اخرجها لتشرف المكتبه الطبيه التي تعتبره من اوائل الاطباء المصريين في العصور الاسلامية فكان فيها من المحددين الذين لهم فضل السبق في العمل والشرح والتجريب والتصنيف وقد توفي ابن رضوان سنة ٤٦٠ هـ عن خمس وتسعين عاما معناها في تحصيل الطب

---

(١) انظر كحاله . العلوم البحته ص ٨١

يقول حسن ابراهيم (كان ابن رضوان رئيس الاطباء في عصر تفوقت فيه الظاهره علي غيرها من الحواضر كبغداد وقرطبه . ويري ابن رضوان ذلك الفيليسوف المشبور والطبيب الماهر ان طالعه يدل علي ايه خلق ليكون طبيبا فدفقبه تلك القصده الي تحصل الطب فبدون مشاهداته وبغير مادلت التجربه علي فساده ويظهر ما يظهر له مسلاحه ولم يكن ذلك الطبيب جشعا كل همه الكسب في ضاعته بل كان طبيبا انسانا يعرف اهتماميه لاسعاف الملهوف ومساعده الفقير والمحتاج ولايفكر فيما وراء ذلك من طلب المال وهذا اقصي ماتتجه اليه همه الطبيب الكامل (١)

وقد كتب ابن رضوان مايقرب من التسعين مؤلفا لدفع الأمراض والاضرار عن الجسم وقد اعتمد في معظمها علي الوسائل الطبيعيه في الاعمال والابعاد كدراسه الطقس واهميه مقول السنه مع ذكر سته اسباب للامراض المصريه في تلك الفصول ومنع الاسقام والامراض المتغشيه في مصر ووصف العلاج الصحيح لتلك الامراض وقد كانت أهم مؤلفاته (الرد علي كتاب الاسقاطات لجالينوس وكتاب (الي اطباء مصر والقاهرة) وفي خبر الطبيب ابن بطلان وكتاب الاحوال في الطب وكتاب الاوديه المفرده علي حروف المعجم وكتاب النافع في كيفيه صناعه الطب وكتاب (فيما ينبغي ان

---

(١) الدولة الفاطميه ص ٥٠٢

يكون في حانوت الطب وكتاب في دفع مضار الايدان بارن في مصر وهو بنفسه الي خمسه عشر فصلا ومقدمه النقد فيه الطبيب اراء التونس احمد بن ابراهيم المعروف بابن الجزار لاعتماده علي ماسمعه فيما كتبه ولم يخفف فيها كتبه بنفسه (١)

وقد زامل علمنا النابه ابن رضوان نابغة الطب المصري الحكم علي بن سليمان ذلك الطبيب المعالج الذي عمل في بيمارسنانات الفسطاط والقاهرة واشتغل بامور المحاضرات العلميه في دار الحكمة التي انشئت سنة ٣٩٥ هـ وقد استفاد طلاب العالم الاسلامي بما قام به من مناظرات طبيه مع صديقه ابن رضوان وقد ظهرت اثار تلك المحاجات العلميه التي كان للتجريب والفحص والملاحظات الفضل في ابرازها علي مائدة البحث ومادون في التصانيف القيمة لكلا العلميين الخبيرين بالامراض المتفشيه في المجتمع المصري في تلك الحقبه الزمنيه وقد تميز ابن سليمان بكتبه المتداوله في علم الطب من أهمها الامثله والتجارب . وكتاب الخواص الطبيه المنبثقه من كتب انقراط وجالينوس . وكتاب التعاليق يقول عنه صاحب موسوعه (عيون الانباء) بانه (كان طبيبا فاضلا متقنا للحكمه متقدما في صناعه الطب ولعل ابن سليمان من الكتب اختصار كتاب الحاوي في الطب وكتاب الامثله والاخبار والنكت الطبيه المنتزعه من كتب الاقدمين . وقد وجدت خطه أربع

(١) ابي اصيبعه مرجع سابق ص ١٠٢

مجلدات . وقد ذكر انه ابتدا تاليف المختصر في سنة تسعين وثلثمائه بالقاهرة . (١)

كما كان المبشرين فاتك الحكيم المصنف اكثر اطباء مصر ملازمه للعلم الاشهر ابن رضوان قد أخذ عنه القواعد الدقيقه والمسائل السديده في هذا الفرع العلمي السامي . وقد اعترف ابن فاتك بتلك القواعد التي عاد خيرها علي مؤلفاته من تلمذته علي يد صديقه ابن رضوان والشيخ ابي الحسين المدني المعروف بالآمدي وقد اخذ عنهما كثيرا من العلوم الحكميه . والمشر هو الامير محمود الدوله ابو الوفاء ابن فاتك . قد كان من أعيان مصر وامرائها ثم تفرغ للعلم وقضي معظم حياته في الانكباب علي الحقائق النادرة والمعلومات الهامه في علمي الطب والرياضه حتي اصبح من افاضل الباحثين الذين خدموا الساحه العلميه المصريه بغاية النبيله التي قصدها وعاش من أجلها (غزاره البحث والتنقيب العلمي في فرائد العلوم الحكميه وقد مارس الطب واشتغل به مده طويله وكان لملازمته لابن رضوان فوق تفرده بالجهود الموفقه في البحث والتصنيف الفضل العظيم في شهرته العريضه في العالم الاسلامي وحوافزه الزاهره . وقد مهر في التصور للمجال العلميه والتاليف في تلك العلوم التي استحوذت علي اهتماماته ي جل اوقاته . ونعال ان العالم الفحل الحسن بن الهيثم قد كان

(١) ابن ابي اصيبعه ص ٥٥٠

ممن اجتمع به واخذ عنه كثيرا من العلوم الحكميه وراجع عليه المعلومات الرياضيه . والمبشرين فاتك له تصانيف جليله القدر كثيرة الكم في فروع العلم المختلفه في المنطق والفلسفه والفلك والرياضه فضلا عما تفرد فيه من صناعه الطب وكلها مشهورة فيما بين الحكماء وكان كثير الكتابه عزيز الانتاج وقد وجدت بخطه مؤلفات عده من خلاصه جهده أو من تصانيف من سبقه حيث كان محبا للفضائل دائم الاشتغال بالعلم محبا لاهله فما وجده من وقت للاسترواح قضاه في الاجتماع باهل الفضل والادب والعلم في عصره وقد قلب معهم وجه الحقائق وتدارس معهم جليل المسائل التي كان كثيرا ماينفع ومنتفع من تلك المناظرات والمناقشات التي سجلتها ذاكرته وافرغها بطون كتبه التي كان من أهمها كتاب البدايه وكتاب ـــــ ار الحكم) وكتاب محكم الاقوال) (وكتاب الوصايا) والامثال . والموجز الشامل في محكم الاقوال . ومن تلامذته البرزه الشيخ سلامه بن المبارك وابن حمدن . وكانت للمبشر مكتبه ضخمه تزخر بالكتب الفائقه من تأليفه ومن تصنيف غيره من الاعلام . وقد وجد في العديد منها وقد تغير لونها لنعرف اصابها بفعل متعمد من زوجته الحافقه عليه لأنه كان يداوم النظر في العلوم والتطلع الي التصنيف فما يكاد يصل الي بيته الا ويعرف فكره في الكتب ولايفارقها غير عبائي بهذه الزوجة

(١) تاريخ الحكماء ص ٨٩

يقول ابن القفطي (حدثني الشيخ سديد الدين المنطقي بمصـــر
قال كان الامير ابن فاتك محبا لتمسك العلوم وكانت لــــه
خزائن كتب في اكثر اوقاته اذا نزل من الركوب لايفارقهـــا
وليس له دأب الا المطالعه والكتابه ويري ان ذلك اهم ماعنـــده
وكانت له زوجه كبيره القدر من ارباب الدوله فلما توفي رحمـــه
الله في نهاية القرن الخامس نهضت هي وجواربها الي خزائن كتبه
وفي قلبها من الكتب مافيه وانه كان يشتغل بها عنها . فجعلـــت
تندبه وأثناء ذلك ترمي الكتب في بركه ماء كبيره في وســـط
الدار . وتفعل جوابها فعلتها . ثم انفذت الكتب بعد ذلـــك
من الماء وقد غرق العديد من صفحاتها . فهذا السبب في ان كتب
ابن فاتك يوجد كثير منها وقد تغير لونها .

وبعـــد : فهذه أسطر أردت بها أن تكون صفحات ورود نديه علي طريق الحياه العلميه الزاهره لمصرنا الاسلاميه . أو طاقات آمال في اشراقات شمس الوجود الانساني الواعد علـــي أرض هذا البلد الطيب الذي يمتزج علي ثراه العريق معانـــي الاصاله والنضارة والمدنيه والحضاره . وعبق جهد محبب معطـــاء لكن فكره ناضجه وصوره متألقه جميله مسجله علي جدار الزمـــن لاتقتني بالتقادم تهديها مصر باسلامها الفاضل الي الانسانيـــة الشامله .

اعـــداد

د/ محمود عبد الفتاح شرف الـــدين

مدرس التاريخ والحضـــارة

أدب الضحي
وأثره في دعم الوحدة العربية

د/ عبد الحميد هلال عبد العزيز
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربيـــة
بأسيــــــوط

تمهيـــد :

الوحدة حلم العرب وأمنيتهم ولا غرو ، فيها قوتهم ، وعليها يقوم كيانهم . إن العرب أمة كبيرة ، لها تاريخ مجيـــــد ، ودور في الحاضر منتظر ، وإفادتهم من تاريخهم ، وفعاليتهم في حاضرهم تتوقفان علي مبلغ تماسكهم ، وهم يتماسكـــون بقدر اعتصامهم بوحدتهم . كل عربي الآن ينظر الي ما يحيــط به فلا يجد إلا مطامع غير محدودة من أعدائه ، ويبحث عـــن الخلاص والحماية فلا يجد ذلك إلا في الاعتصام بأسباب الوحـــدة ومن حسن حظ العرب أن توفرت لهم تلك الأسباب ، وقويـــت عندهم دعائم التوحد والتماسك ، فآمن بالوحدة جميعهم حتـــي أولئك الناشزون من الصف لايجرءون علي إنكار فعاليتهـــا وثباتها في وجه المطامع العدوانية التي بدأت تغزو عالمهم العربي ، وتنتقص من أطرافه .

مقومات الوحدة العربية :

أ ــ أول مقومات الوحدة العربية عندنا هي العروبة والجنس الواحـــد ووحدة الجنس عندنا تدعمها وحدة العادات والتقاليد وكثيـــر

من الصفات والسمات التي طبعت العرب في تاريخهم القديم بطابعها الخاص ، وما زالت تعمل عملها فيهم الي اليوم ، قد يكون - عند غير العرب - الجنس واحدا ولكن ظروف الحياة فرقت بين أبناء هذا الجنس الواحد ، فتعيش كل جماعة من أبناء هذا الجنس تحت ظروف حياة خاصة بها . فتمتاز بصفات مختلفة وعادات وتقاليد متباينة ، ومن هنا تفقد وحدة الجنس قوتها وفعاليتها في تجميع هؤلاء القوم المختلفين مزاجا وصفات وأخلاقا وعادات وتقاليد . لكن الحال عند العرب مختلف تمام الاختلاف .

إن العربي منذ القدم تميز بالشجاعة والوفاء وإباء الذل وبالكرم ، وهي صفات مازالت موجودة ، ويضيق المقام عن سوق الشواهد والأدلة علي ثبوتها عند العربي قديما وحديثا ، وعلي كل حال فهي من الوضوح بحيث لاتحتاج إلي إثبات .

٢ - ومن المقومات أيضا التاريخ الواحد . والحضارة الواحدة التي جمعت بين أبناء العروبة في كل زمان ، فأمة العرب ذات تاريخ واحد ، عاشوا في جزيرتهم أحقابا طويلة ، قد تدعوهم ظروف الحياة إلي النزاع والمشاقه ويصل الأمر بهم إلي حروب تطول أو تقصر ، ولكنها تنتهي في نهاية الأمر وتعود المياه الي مجاريها كما تعود بين أفراد الأسرة الواحدة . وقد تدعو ضرورات الحياة إلي هجرة بعض منهم ، فينساحون فيما جاورهم من الأرض يعيشون

في وطنهم الجديد غير مقطوعي الصلة والعلاقة بأصولهم في شبه الجزيرة ، حتي إذا تهيأت لهم فرصة التجمع في ظل الإسلام وجدناهم قد تجمعوا في سرعة عجيبة أذهلت العالم ، وسرعان ماترابطت أجزاء الأمة العربية بعضها ببعض في وادي النيل والشام والعراق وبلاد المغرب وكل بلد فيه أصل عربي ..

وأما حضارتهم فقد قامت متميزة علي مبادئ الدين الإسلامي وإذ كان الإسلام قد عمهم ، وقام أساسا لحضارتهم فإن وحدة الحضارة قد توفرت لهم . وعلي مدي تاريخهم الطويل خاضت الأمة العربية متحدة معارك ضد الطامعين فيها من فرس وروما ن وتتار وصليبين .. إلي الاستعمار في عصرنا الحديث ، وأخيرا الصهيونية التي تقابل أطماعها وخططها الخبيثة بصخرة شديدة من الأمة العربية ستتحطم عليها آمالها وأحلامها إن شاء الله تعالي .

٣ - ومن المقومات للوحدة العربية الوطن الواحد ذو الحدود الطبيعية الواحدة ، ومعلوم للجميع أن الوطن العربي في مشرقه ومغربه متصلة أطرافه لاتفصلها فواصل طبيعية من بحار أو جبال ، ومن هنا كان حرص الاستعمار علي زرع جسم غريب في قلب الأمة العربية يقوم فاصلا بين شرقيها وغربيها ، واختار أداته لذلك شراذم اليهود والصهيونية ، ولكن الخطة تجد المقاومة نفسها التي تقابل جراثيم مرض خبيث يغزو جسم إنسان فتوقظ فيه

عناصر المقاومة ، وينتهي الصراع بالقضاء علي الجراثيم المهاجمة وتعود للجسم قوته وصحته .

٤ ـ وأقوي هذه المقومات ، وأكثرها فعالية اللغة والثقافة وللعرب لغتهم الجميلة التي جمعت بينهم منذ القدم ، والتي أكرمها الله برسالة خالدة هي خاتم الرسالات ، وأنزل بها القرآن الكريم ، وحفظها بحفظه ، ونشرها بانتشاره : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (١) وقد كانت اللغة أهم مقومات الوحدة بين العرب منذ القدم ، وهي الآن أقوي تلك المقومات وأقدرها علي الصمود أمام المؤامرات التي حرص الاستعمار وجهد في تدبيرها ، فكم من دولة انتهزت فرصة ضعف في الأمة العربية ، وهجمت عليها في عنف وقسوة هادفة إلي القضاء علي أسباب التماسك بينها ، وأهمها اللغة ، ولكنها كانت محاولات ضائعة تفتت علي صخرة اللغة الصلدة المتينة ، حاول الأتراك نشر لغتهم بين أبناء العرب في شتي أقاليم الأمة العربية التي خضعت لهم ، ولكنهم كانوا يحاولون عبثا ، وجاء من بعدهم الاستعمار الحديث وجهد في نشر لغته وإضعاف العربية ، ولكن مصير محاولاته لم يكن أفضل من مصير محاولات الأتراك ، حتي هذه البقاع المتطرفة والتي ادعي المستعمر أنها جزء لايتجزأ

---

(١) سورة الحجر الآية ٩

من أراضية ، وأن سكانها ليسوا عربا ، بل فرنسيين -
قهرت الاستعمار ، وهزمت مخططاته ، وعادت بكل قوتها
إلي العربية تقويها ، وتعتز بها ، وكان كل عدو حاول النيل
من اللغة العربية :

كناطح صخرة يوما ليوهنها .. فلم يضرها وأوهي قرنه الوعل

الأدب من بين هذه المقومات :

وإذا كانت اللغة العربية أساسا متينا من أسس الوحدة العربية ، فإن هذا الأساس يقوم أول ما يقوم علي الأدب . صحيح أن اللغة تعمل عملها في الربط بين الناطقين بها من حيث إنها وسيلة التفاهم بين القوم ، ووسيلة تدوين العلوم والمعارف المتوارثة والمستحدثة ، ولكن أدب اللغة يعمل عمل السحر في جمع القوم علي مبادئ وقيم متحدة ، وذلك أساس متين للوحدة ، إن الأدب لغة الجميع المحببة التي تحمل معها أسباب تعلق القلوب به ، وذلك بما توفر له من عناصر تجعل الناس شغوفين به ، مقبلين عليه الأمر الذي لايتوفر للعلوم وأنواع الثقافات الأخرى . ومن هنا كان الأدب لغة العامة والخاصة ، من حيث فهمه وتقبله والاستمتاع به ، لذا كان له من التأثير القدر الكبير . إن الأدباء وإن كانوا طبقة خاصة إلا أن نتاجهم الأدبي يشيع بين أفراد الشعب جميعهم ، خاصتهم وعامتهم ، بخلاف العلوم التي يشتغل بها العلماء فقط ، ولا يتقبلها إلا أمثالهم ، أو طبقة المتعلمين

الذين يتخصصون في فروعها ·

الفصحي والعامية في الأدب :

العامية والفصحي مشكلة نشأت علي إثر اتساع الوطن العربي ، وانتشار لغة العرب في مناطق غير تلك المأهولة بالعرب ، مما أدي إلي امتزاج لغة العرب الصحيحة باللغات القديمة للأقاليم العربية الجديدة ، وكان الخطر القائم متمثلا في الخوف من فساد الألسنة في الحديث والتخاطب ، ولكن لغة الكتابة في البلاد العربية التي أحكم عليها العرب قبضتهم ، وبسطوا عليها نفوذهم - ظلت العربية الفصحي ، ومضت الأيام والصراع بين الفصحي والعامية يحتدم ، ولكن في الحديث والتخاطب فقط ، ثم وجدت العامية بعد ذلك منفذا لها في مجال التدوين والكتابة مع تفكك الأمة العربية وضعفها الذي انعكس ضعفا علي كل ماهو عربي حتي اللغة · ولكن الكتابة بالعامية كانت مرذولة ، حتي أهل علينا العصر الحديث بنهضته العلمية والأدبية في الوطن العربي ، وعاد للغة الفصيحة شبابها وقوتها علي يد روّاد النهضة الحديثة من أمثال البارودي ومن هم في طبقته الأدبية ، وأخذ ظل الاستعمار يتقلص بعض الشئ عن البلاد العربية ، وبخاصة في مصر والشام ، وهما معقل العربية ، وعاد للغة لفصيحة شئ من الازدهار والقوة لولا ماتأثر به الأدب العربي ن آداب وافدة ، من أهمها القصة والمسرحية ، ونحن وإن كنا

نري كثيرا من القصص وبعض المسرحيات التي كتبت في العربيـــة حديثا باللغة الفصحي سواء أكان مترجما أو مؤلفا إلا أننـــــا لحظنا ميـــلا من بعض الأدباء إلي استخدام العامية في القصـــــة قليلا ، ولكن في المسرحية وجدنا خطر العامية يشتد ، حتـــي تكاد العامية تستأثر بها .

ومن الطبيعي وقد احتدم الصراع بين العامية والفصحي في مجـال المسرحية أن يحاول كل فريق الدفاع عن رأيه ، وقف المخلصون للعروبة لغة ووحـــــدة يتصدون للذين يكيدون لها ، وفي مقدمتهم الاستعمار . وكان رأي المناهضين للعربية الفصيحة أن العاميـــة أقدر علي النفاذ إلي أفهام النـــاس لأنها لغتهم التي يتحدثون بهـــا ، ويتعاملون بها في شئونهم اليومية ، وإذا كانت الفصيحـــــة لغة العلوم فلا بأس ، لأن الذين يتصدون للعلوم يتقنون العربيـــة فهما وحديثا ، وهم أيضا في حاجة لها ، لأن علوم العربيـــــة قائمة علي تراث عربي موروث مسجل بالفصيحة ، أمـــا الأدب ، وبالأخص ما كان متصلا منه بالتمثيل فلكونه يتجه إلي عامـــــــة الشعب وخاصتهم علي السواء فلا بد أن يكون في مقدور أفهـــــام العامة قبل الخاصة ، حتي يثمر الأدب ثمرته كاملة في تثقيـــــف الشعب .

وقد غنم الاستعمار فرصة الصراع بين العامية والفصحي فـــــي لغة الحوار ، فلم يضيعها ، وانضم علي الفور إلي صف المناهضين

للفصحي قاصدا من ذلك إلي إضعاف لغة العرب التي تجمعهم علّهم يتفرقون فيضعفوا ، فيجد فرصة للسيطرة عليهم والتحكم فيهم .

وهب المخلصون من أبناء العروبة ، أدباء ومفكرين يتصدون لهذه الدعوة الخطيرة ، كاشفين ما بها من زيف ، وماترمي إليه من تآمر شديد علي العرب ومقوماتهم ، وفي مقدمتها لغتهم . إن العرب يحرصون علي وحدتهم حرصهم علي الحياة نفسها، وليس في ذلك مايستغرب ، فالأمم في عصرنا الحديث تندفع اندفاعا الي التكتل ، وتجميع القوي ، حتي تستطيع الصمود أمام القوي العظمي التي ظهرت مع ازدهار العلوم وتطبيقاتها في عصرنا الحديث . فإذا كانت الأمم التي لا تجمعها جامعة سوي هذا الشعور بالخطر حريصة علي التكتل والتجمع ، فأحري بالأمة العربية التي هي أمة واحدة أن تتماسك ، وأن تحافظ علي تماسكها . فالأدب بما يخاطب الضمائر والمشاعر أقدر علي توفير وسائل التماسك . ولايمكن للأدب العربي أن يخاطب كل العرب ، ليؤثر في مشاعرهم ، ويوحد بين عواطفهم إلا إذا كان مفهوما لديهم جميعا ، ولا سبيل إلي أن يصل الأدب العربي إلي أفهام كل العرب إلا إذا كانت الفصحي وسيلته إلي ذلك ، لأنها هي الوحيدة المفهومة من كل عربي علي تباعد الأقطار العربية جغرافيا وسياسيا ومرحليا .

ومطلب الوحدة العربية مطلب مقدس لأهميته في بناء كيان

العرب وتحقيق ذاتيتهم وتوفير قوتهم ، وتسخير الأدب لخدمته ليس إهدارا لطاقته في غير ضرورة . وإذا كان للأدب رسالة في تثقيف الشعوب وتنويرها ، وبث المبادئ والقيم المرغوب فيها بين أفرادها ، فإن له رسالة أخري لاتقل أهمية عن هذه وهي تجميع الشعوب وتوحيدها والربط بينها بما يحفظ لها قوتها وأسباب عزتها ووجودها . والتوفيق بين هذين المطلبين ضرورة لاغني عنها ، وهذا التوفيق ممكن وفي المقدور .

إن أدب العامية وإن كان قادرا علي تحقيق الرسالة الأولي . فإنه عاجز تماما عن النهوض بالرسالة الثانية ، بل هو بطبيعته الإقليمية مناهض لها ، عامل علي هدمها ، لكن أدب الفصحي قدير علي النهوض بالرسالتين معا ، فلغة العرب الفصيحة مفهومة من كل العرب مادامت بعيدة عن التعقيد والألفاظ الغريبة التي أهملت ، وفي غيرها من الألفاظ السهلة المتداولة مايغني .

إن كل العرب يفهمون العربية الفصيحة فهي لغة التعليم في مختلف المدارس ولغة التأليف في شتي العلوم والفنون ، ولغة الصحافة والإذاعة ، والكل يفهمها ، ولم يشك أحد منها إلا اذا كان العيب في الكاتب . أما العامية فلا يفهمها إلا أهل الإقليم الضيق ، وأهل العصر الحاضر ، وسيموت كل أدب يكتب بها في الحال إذا خرج من الإقليم الذي كتب فيه ، وفي المستقبل بكل تأكيد في جميع الأقاليم ، لأن العامية مقضي عليها بالزوال

نتيجة التطوير في اللغة ، وهو أمر محتوم بحكم الطبيعة ، وهو وهذا التطوير إنما يتجه نحو الاقتراب من اللغة الفصحي نتيجة انتشار التعليم ووسائل الإعلام وأهمها الصحافة والإذاعة ، وهي تصطنع الفصحي في كل ماهو هام وجاد ·

وليست أهمية الفصحي في الأدب قاصرة علي أنها عامل توحيد وتكتل فحسب ، بل إن الفصحي أقدر علي التعبير عن كل الأفكار من العامية ، فالفصحي بما لها من أصالة وقدم وتراث اكتسبت ثروة واسعة في المفردات ، وفي التعبيرات ، وفي وسائل النحت والتوليد مما لا يتوفر للعامية التي لا أسس لها ، ولاضوابط ولا قواعد ، وكل ماهو كذلك مصيره إلي زوال ·

إن المستقبل للفصحي ، وهذا من حسن حظنا أمةً يهمها أن تتماسك وأن تتوحد · وكل دعوة إلي العامية إنما هي دعوة إقليمية ضيقة أقل مايقال فيها إنها قليلة الفائدة للأمة وللأدب نفسه ، ويمكن أن يقال عنها إنها مؤامرة عدوانية خائنة تستهدف مقوما من أهم مقومات الوحدة العربية ، التي نحن في حاجة إليها حاجتنا إلي الحياة نفسها ·

أدب الفصحي ينهض بدوره في دعم الوحدة العربية:

ونهوض أدب الفصحي بدوره الهام في دعم الوحدة العربية لايستند إلي نظرية فقط قد أوضحناها ، وأثبتناها بقدر ما سمحت به ظروف هذا البحث الموجز ، بل يستند إلي الواقع في عالم

العرب قديما وحديثا ، ولايعوزنا التدليل على ذلك ، فكتب الأدب ، ودواوين الشعر الفصيح معروفة ومشهورة ، وهي تحمل عملها في النهوض برسالة الأدب بشقيها التربوي والوحدوي .

وحّد الأدب بين قبائل العرب ، وكانت متخاصمة متنافرة في الجاهلية ، وأحاديث أسواقه مشهورة ، وبخاصة سوق عكاظ ، وقد كان ما ينشد فيه من أشعار عاملا من عوامل التوحيد ، وتجميع العرب علي لهجة واحدة من لهجات قبائلهم المختلفة وهي لهجة قريش ، مما كان توطئة للوحدة العربية الشاملة التي جاء بها الإسلام ، مرتكزا أيضا علي قمة الأدب والبيان الفصيحين في القرآن الكريم . يقول الدكتور (طه حسين) رحمه الله :

(أما الذي استطاع أن يؤلف شيئا مابين هذه القبائل المتفرقة فهو الشعر الذي لم يكد ينشأ حتي فرض لهجة بعينها علي الأمة العربية كلها في جميع أطرافها وأقطارها من الجزيرة العربية ، فكان الشاعر العربي إذا أنشأ قصيدة ، وأنشدها في نادٍ من الأندية فهمها عنه الناس مهما تكن قبائلهم ، ومهما تكن لغاتهم الخاصة - ثم لم يكتفوا بفهمها ، إنما كان الرواة يتناقلونها عن الشاعر ، وكانت القصيدة لاتكاد تنشد حتي تشيع في الجزيرة العربية ، فأول توحيد للعقل العربي إنما جاء من هذه الناحية ، فالمكون الأول لإيجاد وحدة ؛ بين هذه القبائل العربية إنما هو الأدب ، والشعر

بنوع خاص .) (١)

أما في الحديث فقد كان الأدب الفصيح من أهم عوامل الارتباط والوحدة بين أبناء أمة العرب ؛ ليس بين أقطارهم في الوطن العربي فحسب ، بل بينهم في الوطن والمهاجرين منهم في شتى أقطار الأرض ؛ إن أدب المهاجر شعرا ونثرا معروف ، وبقدر ما يمثل طورا راقيا من أطوار الأدب العربي يمثل أيضا رابطة قويه بين منشئيه في مواقع هجرتهم البعيدة وإخوتهم العرب في الوطن ، بل هو يسهم في تثبيت الروابط الموجودة بين بلد وآخر من بلدان هذا الوطن بما اشتهر وانتشر في جميع أقاليم البلاد العربية ، وهل كانت تتوفر له هذه الرسالة السامية لو لم يكن باللغة الفصحي ؟ إن معظم الذين هاجروا من الشاميين ، فلو أنهم تقوقعوا في إقليميه ضيقة ، وقصروا نتاجهم الأدبي على لهجة بلاد الشام التي فيها نشئوا وترعرعوا ، ومنها هاجروا إلى مهاجرهم .. لو أنهم أنتجوا أدبهم بلهجة الشاميين ، هل كنا نجد له هذا الشيوع ، وتلك المكانه اللذين نراهما له الآن ؟

انظر إلي الشاعر المهاجري : (إلياس فرحات) وهو يري في اللغة العربية رباطا وحدويا متينا ؛ فينشد قصيدة طويلة بعنوان : (نحن عرب وأبناؤنا إفرنج) يأسي فيها لظاهرة تفرنج الجيل الثاني من أبناء المهاجرين ، ويذكر ما للغة من

---

(١)

فضل في ضم شمل العرب قديما ، وعزهم بعزها ، هادفا إلى تذكير قومه العرب بالمحافظة علي أعظم وأرسخ دعامة وحدوية . يقول في آخر القصيدة (١)

رفعوا الضاد فلما ارتفعت .. رفعتهم وكذا يقضي الوفاء
فبها التف عليهم قومهم .. مثلما التف علي العود اللحاء
وبها عزوا ولو كنا لها .. مثلهم كنا لدي العز سواء

ويثق الشاعر (إلياس قنصل) ، وهو مهاجري أيضا ، في رباط اللغة المتين ويطمئن اليها في جمع شمل العرب وتوحيدهم ، متحديا باللغة من يحاول أن يفرق بينهم ، مؤكدا أن تلك المحاولات ستبوء بالفشل ماتمسك العرب بلغة الضاد :

يامن يحاول أن يفرق بيننا .. ويبث سم الحقد والشحناء
إن العروبة قد تفتح جفنها .. في مصر ، في لبنان ،في صنعاء
والضاد تجمعنا فجهدك ضائع .. ولأنت تأثم دون سفك دماء

وقد اكتسبت اللغة منزلة سامية في دعم الوحدة العربية منذ القدم حتي جعلها الرسول عليه السلام هي الأصل في اكتساب الانتساب الي العروبة ، وهل اللغة إلا ماينتج فيها من أدب له حظ البقاء . إن الأدب أقوي عناصر اللغات . ورد في تاريخ ابن عساكر أن رجلا أنكر علي سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي

---

(١) ديوان إلياس فرحات ص ١٩٧

وبلال الحبشي أن يكونوا عربا يحسب لهم في نصرة الإســـلام ، فوقف النبي عليه السلام في المسجد وقال : (يأيهـا النـــاس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ، ليست العربية بأحدكم مـــن اب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي٠)

ومن هذا المنطق نظر مفكرو العرب إلي اللغة الفصيحة علـــي أنها أم العرب ، وأقوي رابط بينهم ٠ يقول (حافظ إبراهيم):(١)

لمصر أم لربوع الشام تنتســب ٠٠ هنا العلا وهناك المجد والحسب

أم اللغات غداة الفخر أمهمـــا ٠٠ وإن سألت عن الآباء فالعـرب

ويقول جورج عساف :(٢)

أبناء يعرب إن الضاد أمكــم ٠٠ لها عليكم حقوق الثدي واللبن

وكان الأدب الفصيح هو الوعاء الذي صب فيه الأدباء مشاعـــر الأخوة العربية ، وأسمي المعاني الوحدوية التي لها أكبر الأثـــر في تجميع العرب ، وصيانة وحدتهم ، اسمع معي قول أميـــر الشعراء شوقي :

كان شعري الغناء في فرح الشر ٠٠ ق ، وكان الرثاء في أحزانه

قد قضي الله أن يؤلفنا الجـرح ٠٠ وأن نلتقي علي أشجانـــــه

كلما أن بالعراق جريـــــح ٠٠ لمس الشرق جنبه في عمانـــه

نحن في الفكر بالديار سـواء ٠٠ كلنا مشفق علي أوطانـــــه

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم جـ ١ ص ٢٦٨

(٢) العناقيد ص ٨٧

هذه المعاني الوحدوية ، هل كانت تعمل في الحفاظ على الربط بين العرب ، وهل كنا نجد لها صدي عند كثير من أدباء العربية على اختلاف أقاليمهم لو لم تُصَغ في عبارة فصحي ؟

يقول (زكي قنصل) وهو شاعر مهاجر : (١)

فإذا صاح في فلسطين ليث .. رددت صوته ليوث الشام

وإذا جادت العراق سحاب .. نبت العشب في حمي الأهرام

ولقد مررت بتجربة شخصية تظهر دور الفصحي في دعم الوحدة العربية عندما كنت مندوبا للعمل بمدارس البعثة التعليمية المصرية بالسودان ؛ ولا نجد سبيلا إلي فهم مايريدون إلا بعد أن حفظنا كثيرا من مفردات لهجتهم الخاصة بهم ، وعرفنا مدلولاتها ، وإلا إذا كان محدثنا متمهلا في حديثه لايسرع ، ولكن الحال يختلف تماما في المدارس أو المساجد ؛ يقف التلميذ في حجرة الدراسة يصوغ سؤالا بالعربية السليمة ، فلا نجد صعوبة في فهمه ، وألقي إليه بسؤالي عربيا صحيحا فلا يتعثر في فهمه ، ويسرع في الإجابة عنه باللغة الصحيحة فلا نخطيء مراده نحن ولا زملاؤه التلاميذ . أما في المسجد ، فكل ما يقوله الخطيب بالعربية الفصيحة فهو مفهوم لنا نحن المصريين والسودانيين علي السواء . وقل مثل ذلك في أي إقليم من أقاليم العالم

---

(١) شظايا ص ٣٧

العربي . وكثيرا ما كانت تدور بخاطري مؤمرات الاستعمار ، وإجهاده نفسه من أجل التفريق بيننا ، فأقول لنفسي : محاولات محتوم فشلها تلك التي يجهد الاستعمار بها نفسه من أجل تفرقة الأمة العربية مادامت اللغة تجمعنا ، ومادام كل منا قادرا علي نقل مشاعره وعواطفه إلي إخوته بهذه اللغة الشريفة ، لغة القرآن الكريم التي نكن لها جميعا كل تقدير وحب .

خاتمـــــة :

وبعد ، فهل يكون هناك مجال للتشكيك في أثر الفصحـــــي وآدابها في دعم الوحدة العربية ، أو للتقليل من شأن هذا الأثر ؟ وهل يوجد بعد ظهور هذه الحقائق مجال للحديث عن أدب العامية ؟ وهل يجرؤ أحد علي الدعوة إليه إلا إذا كان القصد علاج مشكلـــة محلية وقتية ليس لها صفة العموم ولا الدوام وإلا إذا كان القصـــد تعليل العامة في بلاد العرب حتي يتسنّي للفصحي أن تتم انتشارها بينهم بانتشار التعليم ؟ وحتي ونحن ننظر إلي هذا المبرر يجـــب أن نعتبره مرضا يجب البحث عن أسباب القضاء عليه ، والشفاء منه بأسرع ما نستطيع ، ولا يكون ذلك إلا بالتمسك باللغـــة الفصيحة ، بعرضها علي أسماع الشعوب العربية - وهي ليســت غريبة علي هذه الأسماع - في كل مناسبة ، فتألفها تلـــك الأسماع ، وتتجاوب معها الأفهام والمدارك والعقول ، وبذلــك توجد بين الأمة العربية الوحدة ، وتدعم بدعامة قوية ، وتتوثـــق برباط متين ، فتصمد لكل حدث ، وتتصدي لكل مؤامرة .

والله ولي التوفيق

د/ عبد الحميد هلال عبد العزيـــــز
أستاذ الأدب والنقد المساعد في كليـــة
اللغة العربية بأســـيوط

محتويات العـــــدد